موسوعة

الإسلام كما يتجلى في كتاب الله

الكتاب الأول



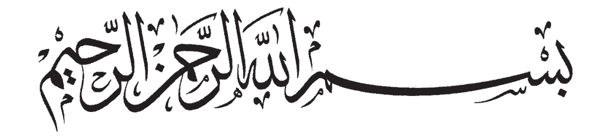
تأليف
علي باپير

دار الحكمة
لندن

Black plate (1,1)




ameer.maktab@yahoo.com
/AliBapir
/AliBapir
/MediaAmeerOffice
www.alibapir.net



موسوعة: الإسلام كما يتجلى في كتاب الله

الكتاب الأول

الإسلام: معرفة صحيحة بالخالق ﷻ والخلق

تأليف
علي باپير

ameer.maktab@yahoo.com


/AliBapir

/AliBapir

/MediaAmeerOffice

www.alibapir.net



الطبعة الثانية

١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م

ameer.maktab@yahoo.com

/AliBapir /AliBapir /MediaAmeerOffice

www.alibapir.net



محطات من السيرة الذاتية للمؤلف

* الشيخ علي باپير من مواليد: ١٩٦١م في محافظة السليمانية، وبعد إكماله الإبتدائية دخل المعهد الإسلامي عام: ١٩٧٤، وتخرج من ثانوية المعهد الإسلامي عام: ١٩٨٠، وأتمَّ حفظ القرآن العظيم في العام نفسه، ودخل كلية العلوم والشريعة الإسلامية، وفي المرحلة الثانية من الكلية اضطر لترك الدراسة والهجرة عام: ١٩٨١ بسبب صدور الأمر بالقبض عليه من قبل النظام البعثي البائد.

* وفي سنة: ١٩٨٣ أدّى امتحان الإمامة والخطابة في مديرية أوقاف أربيل وبعد نجاحه المتفوِّق تعيَّن بصفة إمام في مسجد النورسي في مدينة رانية.

* وألّف أول مؤلفاته باللغة الكوردية سنة: ١٩٨٣ بعنوان: (خلاصة عن الإسلام) ثم تتابعت مؤلفاته والتي سنشير إلى بعضها لاحقاً.

* وفي سنة: ١٩٨٧ دفاعاً عن مظلومية الشعب الكوردي من قبل النظام البعثي البائد، انخرط في العمل الجهادي المسلّح في صفوف (الحركة الإسلامية) السابقة، والتي كان الشيخ من أبرز قادتها وعضو المكتب السياسي فيها إلى سنة: ٢٠٠١م والتي أعلن فيها عن (الجماعة الإسلامية) وانتخب الشيخ أميراً لها.

* وفي: ٢٠٠٣/٧/١٠ اعتقل الشيخ من قبل القوات الأمريكية وبقى في سجن كروبر قرب مطار بغداد (٢٢) شهراً في زنزانة انفرادية، وألف أثناء تلك المدة كتاب: **(الإسلام كما يتجلى في كتاب الله)**، وأطلق سراحه في: ٢٨/٤/٢٠٠٥، واستقبل بحفاوة من قبل الآلاف من مختلف شرائح المجتمع.

* شارك في انتخابات مجلس النواب العراقي كمرشح للجماعة الإسلامية على دائرة محافظة أربيل فكان الفائز الأول على القوائم كلها.

من مؤلفات الشيخ:

أ ـ **باللغة العربية:**

* ـ موسوعة: الإسلام كما يتجلى في كتاب الله، وهي تشتمل علىٰ الكتب الإثني عشر الآتية:

١ ـ الإسلام: معرفة صحيحة بالخالق والخلق.

٢ ـ مفهوم الإيمان والكفر.

٣ ـ الإيمان بالله تعالى.

٤ ـ الإيمان بالملائكة وبالجن.

٥ ـ الإيمان بكتب الله تعالى.

٦ ـ الإيمان برسل الله وأنبيائه.

٧ ـ خاتم النبيين محمد ﷺ.

٨ ـ الإيمان باليوم الآخر.

٩ ـ الاهتداء بهدي الله أو التزام الفرد بالشريعة.

١٠ ـ إظهار الدين الحق أو التزام المجتمع بالشريعة.

١١ ـ تطبيق المجتمع للشريعة في جميع جوانب الحياة.

١٢ ـ الإسلام: نظرة سديدة تجاه الناس، وتعامل صحيح معهم.

١٣ ـ **مسائل عصرية رائجة.**

١٤ ـ **علماء الإسلام من هم وما هي صفاتهم؟**

١٥ ـ **طريق الصلاح والسير إلى الله: تزكية النفس في ضوء القرآن والسنة.**

١٦ ـ **قواعد مهمة للتعامل الشرعي الحكيم مع المسائل الخلافية الفرعية.**

١٧ ـ **أمير وراء القضبان، وهو مقابلة صحفية تتحدث عن ظروف وكيفية اعتقال المؤلف وما جرى له في السجن الأمريكي.**

١٨ ـ **الأصول الشرعية والخطوط العامة للجماعة الإسلامية.**

١٩ ـ **نقض فكرة التطرّف.**

ب ـ **باللغة الكوردية:**

٢٠ ـ خلاصة عن الإسلام، تفسيرسورة الفاتحة.

٢١ ـ الإسلام والسبل (الأيدولوجيات).

٢٢ ـ المعرفة والدين والإيمان: حقائق الإسلام تتبلور وأباطيل السّبل تتدهور.
٢٣ ـ ذكر الله تعالى، أهميته في حياة الإنسان.
٢٤ ـ حلّ القضية الكوردية بين الإيمان والبرلمان.
٢٥ ـ الإيمان والعقيدة الإسلامية في ضوء القرآن والسنة، ٦ مجلدات.
٢٦ ـ العبادة الإسلامية في ضوء القرآن والسنة، ٤ مجلدات.
٢٧ ـ خلاصة سيرة رسول الله ودروسها.
٢٨ ـ الإسلام والدولة والحكم، ٤ مجلدات.
٢٩ ـ المرأة والأسرة في ظل الإسلام.
٣٠ ـ التيار الإسلامي والتيار العلماني: نقاط الوفاق والخلاف.
٣١ ـ موضوعات فنية في ضَوْءِ القرآن والسنة: الغناء والموسيقى والتصوير والتمثيل واللعب والرياضة والمزاح.
٣٢ ـ شرح العقيدة الطحاوية.
٣٣ ـ الإسلام والعمل الإسلامي في ضَوْءِ القرآن والسنة.
٣٤ ـ التوبة إلى الله تعالى.
٣٥ ـ مشروع: المنهج الفكري للعمل الإسلامي.
٣٦ ـ موضوعات سياسية معاصرة في ضوء العقل والوحي.
٣٧ ـ واقع إقليم كوردستان: المشكل والحل ـ رؤية اسلامية.
٣٨ ـ كيف نستفيد من القرآن بصورة أفضل؟
٣٩ ـ مسؤوليتنا تجاه القرآن.
٤٠ ـ شرح الأصول الشرعية والخطوط العامة للجماعة الإسلامية.
٤١ ـ الأعياد والمناسبات، تقييم على أساس العقل والنقل.
٤٢ ـ العاطفة القومية والفكر الناسيونالي في منظار الإسلام.
٤٣ ـ تفسير القرآن العلي الكريم، والذي طبع منه لحد الآن المجلد الأول: الحاوي على سورة الفاتحة والبقرة، والثاني: الحاوي على سورة آل عمران، والثالث: الحاوي على سورة النساء، والرابع الحاوي على سورة المائدة، والخامس الحاوي على سورة الأَنعام، والمجلّدات:

السادس والسابع والثامن تحت الطبع، وتحتوي على سور: الأعراف، والأنفال، والتوبة.

٤٤ ـ روح الحياة أو التزكية والإحسان.

٤٥ ـ إتِّباع السنة النبوية بين الإفراط والتفريط.

٤٦ ـ الخلق الإِسلامي في ضوء القرآن والسنة.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى
ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ
مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف].

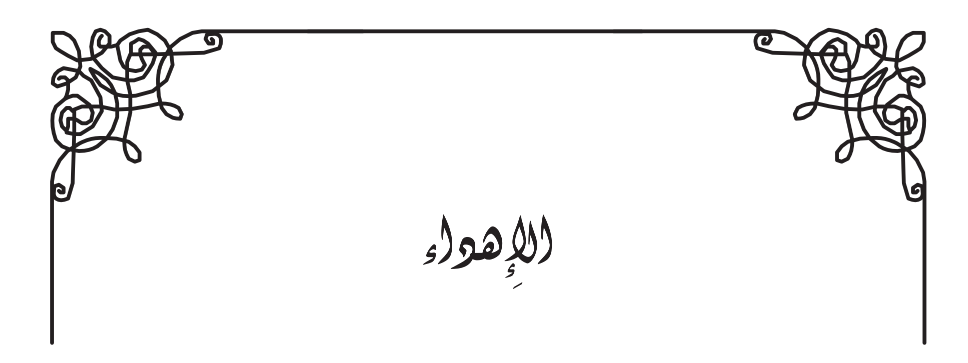
ameer.maktab@yahoo.com







www.alibapir.net



إلى الذين يَبْتَغون فقه الإسلام بعمقٍ وشمولٍ، كما هو عليه في كتاب الله العظيم وسنة رسوله الكريم ﷺ لِيُجسّدوه في حياتهم الشخصية والأُسرية والعامة، ابتغاء رضوان الله سبحانه وتعالى.





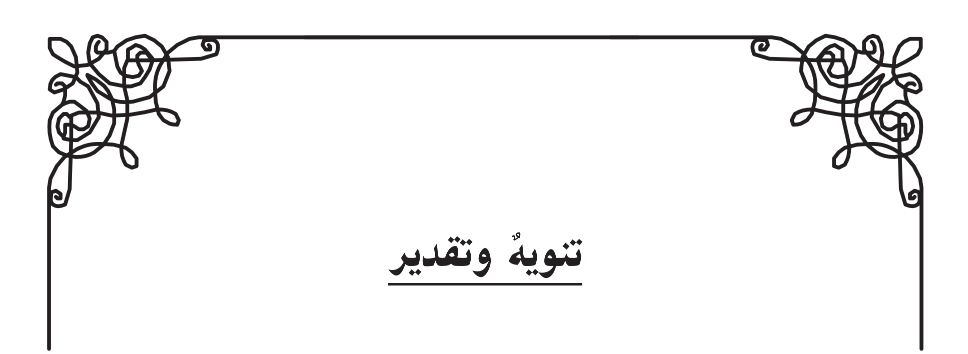
ameer.maktab@yahoo.com







www.alibapir.net



تنويهٌ وتقدير

عـمـلاً بـقـول الله تـعـالـى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾﴾ [الرحمٰن]، وقول النبي محمد ﷺ: «**لاَ يَشْكُرُ اللَّهَ مَنْ لاَ يَشْكُرُ النَّاسَ**» (رَوَاهُ أَحْمَد برقم: (٧٩٢٦)، وَأَبُو دَاوُد برقم: (٤٨١٣)، وَابْنُ حِبَّانَ برقم: (٣٤٠٧)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، وَصَحَّحَهُ الألباني في (السلسلة الصحيحة) رقم: (٤١٦))، أراهُ لزاماً عليَّ أن أُقدّم شكري وامتناني لكل الإخوة الكرام الذين ساهموا في مراجعة هذه الموسوعة، لا سيما من الناحية اللغوية، سواء منهم من راجع كتاباً واحداً من الكتب الإثني عشر أو أكثر، وأخصُّ بالذكر منهم الأخ الكريم: ياسين حسن محمد، والذي استمر معي في مراجعة الكتاب بِدِقّة من الكتاب الأول إلى الكتاب الأخير، وكذلك شكري موصولٌ وأرجو أن يكون دعائي مقبولاً لكل من ساهم بشكلٍ ما في إخراج هذا الكتاب بصورته الحالية، فجزاهم الله خيراً، وأنالهم من إحسانه وإفضاله في الدنيا والآخرة.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑



مبَشِّرةٌ حول هذه الموسوعة

كنت متردّداً في نشْر هذه المبشِّرة، ولكنّي قرَّرْتُ أخيراً نشرها، لحديث النبيِّ الخاتم ﷺ:

«**إِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ رُؤْيَا يُحِبُّهَا فَإِنَّمَا هِيَ مِنْ اللَّهِ تَعَالى فَلْيَحْمَدْ اللَّهَ عَلَيْهَا وَلْيُحَدِّثْ بِهَا**» (مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ: رَوَاهُ البُخَارِيُّ برقم: (٦٥٨٤)، وَمُسْلِمٌ برقم: (٩٥٨)، وَالتِّرمِذِيُّ برقم: (٣٤٥٣)، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، ولم يروه مسلم عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ).

بعد خروجي من السجن الأمريكي الظالم وعودتي بأيام، في بداية الشهر الخامس سنة (٢٠٠٥) الميلادية، زارني أحد الإخوة من أهل العلم، فيمن زارني بمناسبة إطلاق سراحي وحدَّثني بالرؤيا الآتية:

(رأيت في المنام (ليلة ٥ ـ ٢٠٠٥/٥/٦) أنني زرتك بمناسبة عودتك من السجن، واذا أنا برسول الله محمدٍ ﷺ وقد زارك بنفس المناسبة، فتوجّه اليك وقال «من ضمن كلامٍ تكلّم به معك»:

«سُرِرْنا جداً بكتاباتك».

وكان يحمل بيده اليُمْنى كرتوناً فقال:

«هذا هو الكتاب الذي كتبته في السجن»).

وما كنت ذكرت بعدُ أنني أَلَّفْتُ كتاباً في السِّجن، ولمّا سألت الأخ صاحب الرؤيا عن شكل ولون الكرتون الذي كان رسول الله ﷺ يحْمِلهُ

بِيُمْناه، وصف لي الكرتون بما كان متطابقاً مع الوصف الذي عليه الكرتون الذي جئت به من السجن، والذي أودعته الأوراق التي كتبت عليها الكتاب، ثم ذهبت وجئت بالكرتون وأريته إيّاه، وسألْته: أهكذا كان الكرتون المذكور؟! فأجاب: نعم، هكذا كان بعينه.

ومَبْعَثُ سروري بهذه الرؤيا: أن رسول الله محمداً ﷺ ذكر فيها سروره بِمُؤَلَّفاتي عامة وبهذا الكتاب خصوصاً، ومعلوم أن النبي الخاتم ﷺ لايقول يقظةً ومناماً إلا الحق، اذْ لا يتمثَّل الشيطان به في المنام، كما قال: **«مَنْ رَآنِي فِي الْمَنَام فَسَيَرَانِي فِي الْيَقَظَةِ «أَوْ كَأَنَّمَا رَآنِي فِي اليَقْظَةِ» وَلاَ يَتَمَثَّلُ الشَّيْطَانُ بِي»** (رَوَاهُ أَحْمَد برقم: (٢٢٦٥٩)، وَالبُخَارِيُّ برقم: (٦٥٩٢)، وَمُسْلِمٌ برقم: (٢٢٦٦)، وَأَبُو دَاوُد برقم: (٥٠٢٣) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ).

وهذه الرؤيا وإنْ لم أرها بنفسي، ولكن رآها من أثِقُ به وقال نبيُّ الله ﷺ في هذا المجال:

«يَا أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنْ مُبَشِّرَاتِ النُّبُوَّةِ إِلاَّ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ، يَرَاهَا الْمُسْلِمُ، أَوْ تُرَى لَهُ» (رواه أَحْمَد برقم: (١٩٠٠)، وَمُسْلِمٌ برقم: (٤٧٩)، وَأَبُو دَاوُدَ برقم: (٨٧٦)، وَالنَّسَائِيُّ برقم: (١٠٤٥)، وَابْنُ مَاجَه برقم: (٣٨٩٩)).

وأعتقد أنَّ حَمْلَ رسول الله للكتاب وإشارته اليه، يقصد به تذكيري: أنَّ الله تعالى هو الذي خلَّص الكتاب من قبضة الأمريكان، إذ ما كانوا يسمحون بإخراج أية ورقة مكتوبة من السجن فكيف بكتاب كبير!

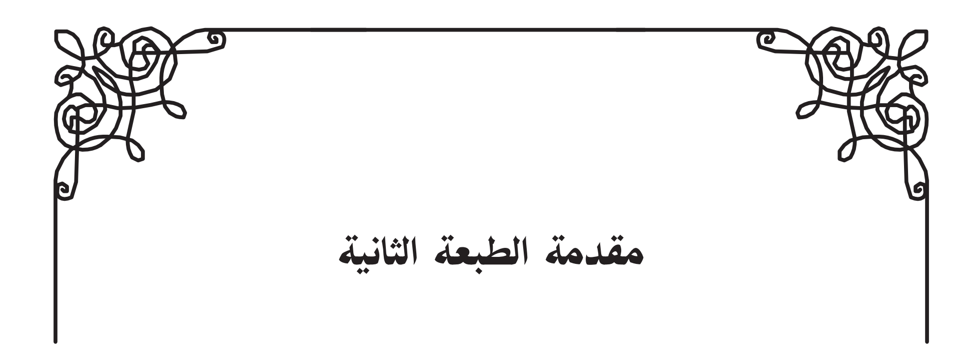
وكان رفقائي في السجن كثيراً ما يشيرون عليَّ بإعطاء الكتاب لمسؤولي السجن للنظر فيه، ثم السَّماح بإخراجه من السجن، وكنت أقول لهم:

لا أُطلعهم على الكتاب، واذا أذِنَ الله الحكيم القدير بإخراجه سَيُخْرِجُهُ، وعندما أُطلِق سَراحي، تَأَبَّطتُ الكرتون المذكور، ولما استفسروا عما فيه؟ أَجَبْتُهم أن فيه ملابسي وبعض حوائجي، وتصوَّرتُ بأنهم سَيُفَتّشون الكرتون، ولكن لم ينظروا فيه أصلاً!

وجديرٌ بالذكر أنني لم أفهم من سرور رسول الله ﷺ بمؤلفاتي، أنَّها خالية من الخطأ والقصور، إذ لم تُضْمَنْ لنا العِصْمة إلَّا في كتاب الله تعالى وسنة رسول الله ﷺ.

والحمد لله رب العالمين ولي المؤمنين، وصلى الله تعالى وسلم وبارك على جميع الأنبياء والمرسلين، لا سيما امامهم (محمد) خاتم الأنبياء وسيد المرسلين وآله أجمعين، من الصحب والازواج والقرابة والاتباع إلى يوم الدين.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑



مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله العلي القدير، والصلاة والسلام على النبيِّ البشير النذير، محمد وآله الكرام «صحباً وأزواجاً وقرابةً» الذين هم جديرون بكل تكريم وتقدير.

وبعد، فقد ارتأينا إعادة طبع هذه الموسوعة: (الإسلام كما يتجلى في كتاب الله)، بعد طبعتها الأولى، **(في صورة كتاب في ثمانية مجلدات** «**موزَّع على أربعة أبواب وسبعة عشر فصلاً**») في سلسلة كتب مجموعها: اثنا عشر كتاباً، كل كتاب يحتوي على موضوع رئيسي.

والنتيجة:

أصبح توزيع مواضيع الكتاب على الكتب الإثني عشر، في هذه الموسوعة، على الشكل الثاني:

الباب الأول بفصوله الأربعة، والمعنون: **(الإسلام: معرفة صحيحة بالخالق والخلق)** بقي كما هو، وصار:

الكتاب الأول، في هذه الموسوعة.

الباب الثاني بفصوله الستة، والمعنون: **(الإسلام: إيمانٌ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر)** تحول في هذه الموسوعة الى سبعة كتب، كل كتاب مُخصَّصٌ لبحث موضوع أساس من مواضيع الإيمان، وذلك بعد أن جعلنا الفصل الخامس: **(الإيمان برسل الله وأنبيائه)** فصلين، ففي الأول

منهما: بحثنا موضوع الإيمان بالرسل والأنبياء «عليهم السلام» عموماً، وفي الثاني منهما، تحدَّثنا عن خاتم النبيين «ﷺ» خصوصاً، فصار الباب الثاني في هذه الموسوعة بهذه الصورة:

الكتاب الثاني: مفهوم الإيمان والكفر...

الكتاب الثالث: الإيمان بالله سبحانه وتعالى...

الكتاب الرابع: الإيمان بالملائكة وبالجن.

الكتاب الخامس: الإيمان بكتب الله سبحانه وتعالى.

الكتاب السادس: الإيمان برسل الله وأنبيائه «عليهم الصلاة والسلام».

الكتاب السابع: خاتم النبيين محمد «ﷺ».

الكتاب الثامن: الإيمان باليوم الآخر.

الباب الثالث بفصوله الثلاثة، والمعنون: **(الإسلام: إلتزام جادّ بالشريعة على الصعيدين الفردي والجماعي)** تحول في هذه الموسوعة الى ثلاثة كتب، بالصورة التالية:

الكتاب التاسع: الإهتداء بهدى الله تعالى..

الكتاب العاشر: إلتزامُ المجتمع بدين الله تعالى...

الكتاب الحادي عشر: تطبيق المجتمع للشريعة...

الباب الرابع بفصوله الأربعة، والمعنون: **(الإسلام: نظرة سديدة تجاه الناس، وتعاملٌ صحيح معهم)** بقي على حالِهِ، وصار الكتاب الثاني عشر والأخير، في هذه الموسوعة بالشكل التالي:

الكتاب الثاني عشر: الإسلام: نظرة سديدة تجاه الناس، وتعامل صحيح معهم.

وقد راعينا في ترتيب هذه الكتب الإثني عشر «في ثلاثة وستين (٦٣) فصلاً» التسلسل المنطقي المتدرج: إذ الإنسان يحتاج قبل كل شيءٍ، المعرفة

بهذا الوجود، ومحلِّهِ هو في إعرابهِ، فجاء الكتاب الأول: بعنوان: (الإسلام: معرفةٌ صحيحة بالخالق والخلق) تلبيةً لهذا المطلبِ الفطريِّ الأول.

ثم تُنْتِجُ المعرفةُ الصحيحة بالوجود ـ طالما التزم صاحِبُها بمقضياتها المنطقية ـ الإيمان بالله الخالق الرب المالك، وببقية أركان الإيمان الخمسة، فجاءت الكتب: الثاني والثالث والرابع والخامس والسادس والسابع والثامن، تحت عنوان: (الإسلام: إيمانٌ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر) تحقيقاً لهذا المقصد العظيم، وبياناً لتلك الحقائق الكبرى، التي وضعَ فيها كتاب الله الحكيم النقاط على الحروف، ولم يُحْوِجْنا في إدراكها الى غيره.

ثم ان الإيمان الصحيح بالله تبارك وتعالى، وببقيَّةِ أركان الإيمان الأساسية، يدفعنا الى الإلتزام بدين الله القيِّم، وشريعته الحكيمة، فجاءت الكتب: التاسع والعاشر والحادي عشر، تحت العنوان العام: (الإسلام: إلتزامٌ جادٌّ بالشريعة على صعيدي: الفرد والمجتمع) لتوضيح كيفية التزام الفرد والمجتمع والدولة بالشريعة السّمحاء، بهذه العناوين الثلاثة، للكتب الثلاثة:

١ ـ الإهتداء بهدى الله، أو الإلتزام الفردي بشريعة الله تعالى.

٢ ـ إظهار الدين الحق، أو التزام المجتمع بدين الله تعالى: فكراً وشعائرُ وآداباً.

٣ ـ تطبيق المجتمع للشريعة في جميع جوانب الحياة.

ثم أخيراً: بعد المعرفة الصحيحة، والإيمان الراسخ، والإلتزام الجاد بالشريعة، بإمكان المسلمين: أفراداً ومجتمعاً ودولةً، أن يتعاملوا مع الناس: المسلمين وغير المسلمين، على أساس النظرة السَّديدة إليهم، بصورة شرعية صحيحة، بعيدة عن الإفراط والتفريط، وبيان هذا الموضوع تكفّل به الكتاب الأخير، الثاني عشر، والذي جاء بعنوان: (الإسلام نظرة سديدة تجاه الناس، وتعاملٌ صحيح معهم).

وفي المُحَصِّلة: بيّنا من خلال هذه الموسوعة ـ بِكُتُبِها الإثني عشر ـ تجلية كتاب الله الحكيم المبارك للإسلام:

١ ـ معرفةً صحيحة بالوجود (الخالق والخلق).

٢ ـ وإيماناً بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

٣ ـ والتزاماً بالشريعة على المستويات الثلاثة: فرداً ومجتمعاً ودولةً.

٤ ـ وتعاملاً صحيحاً مع الناس، على أساس نظرة سديدة تجاههم.

والهدف الأساس من هذا العمل «طبع هذه الموسوعة بهذه الصورة» هو تسهيل وصولها الى القراء، وتيسير حصولهم على أي موضوع يرغبون فيه منها.

وجديرٌ بالذكر أننا أبقينا «في هذه الطبعة» على أكثرية الإحالات الى الأبواب والفصول والمباحث والمطالب، على حالها الذي كانت عليها في الطبعة الأولى.

وكذلك أبقينا على كل من هذه العناوين الثلاثة:

١ ـ (مُبَشِّرة حول هذا الكتاب) بعد أن غيَّرناهُ الى: (مُبَشِّرةٌ حول هذه الموسوعة).

٢ ـ (قصة تأليف هذا الكتاب) بعد أن غيَّرناهُ الى: **(قصّة تأليف هذه الموسوعة)** والتي شرحنا فيها: كيفية الشروع بهذا العمل في السجن الأمريكي، وكيفية انبثاق خطة الكتاب في خطوطها العريضة، من آيات سورة الفاتحة السبع المباركات، وسبب تقسيمه الى أربعة أبواب في سبعة عشر فصلاً.

٣ ـ (المقدمة) والتي غيَّرناها الى: (مقدمة هذه الموسوعة).

وسَنُدْرِجُها في بداية الكتاب الأول من هذه الموسوعة، لارتباطها بكل الكتب الأخرى المضمَّنة لها، ونكتفي بهذا عن تكرار إدراجها في بداية الكتب الأخرى.

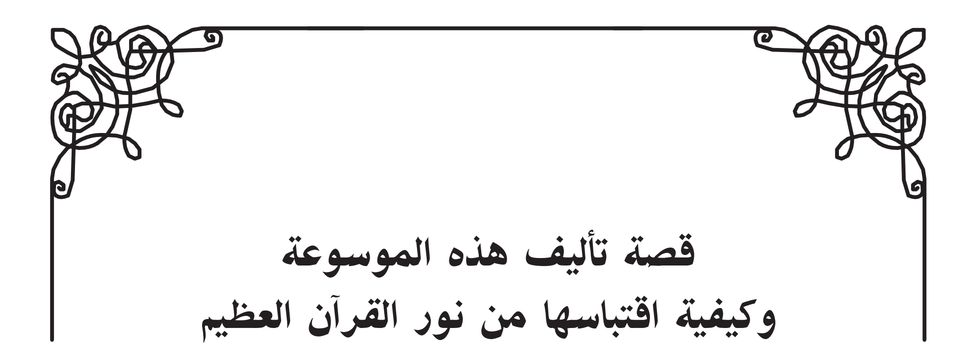
وأسأل الله الكريم رب العرش العظيم أن يَسُدَّ بهذا الجهد، ثغراتٍ كثيرة، في فهم كثير من المسلمين لدينهم القيِّم، وأرجو أن تَحْظى هذه الموسوعة، بأن تكون لبنة في بناء صرح المشروع الإسلامي المنشود.

وآمل ألّا يَبْخَل عليَّ القرّاء الكرام، بملاحظاتهم وتنبيهاتهم، وأشكرهم جزيل الشكر مسبقاً.

سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

١/ رجب ١٤٣٦ هـ
٢٠ نيسان ٢٠١٥م
أربيل /كوردستان ــ العراق





قصة تأليف هذه الموسوعة
وكيفية اقتباسها من نور القرآن العظيم

لقد أتاح لي بقائي في (سجن أمريكا) قرابة اثنين وعشرين شهراً[١]، فرصةً جيدة للتأمل والتدبر في كتاب الله الكريم تبارك وتعالى، والذي كان وفقني لحفظه منذ بداية الثمانينيّات، وقد ختمته بتوفيق من الله تعالى في غضون المدة التي قضيتها في السجن مرات عديدة في صلواتي المفروضة والمسنونة[٢]، وكنت والحمد لله الحميد المجيد أَحُسُّ ببركة عجيبة من ناحية تعمّق فهمي لكتاب الله الحكيم، وتكشفت لي منه أسرار ما كنت أجِدُها في السابق إلا نادراً، وذلك عند تلاوتي للسور المباركة عموماً، ولسورة الفاتحة بوجه خاص.

وما كنت أفكر أصلاً في الكتابة، وذلك لسبب بسيط، وهو كون الأوراق والأقلام ممنوعة عليَّ، ولكن في أحد الأيام انقدحت في ذهني فكرة تسجيل تلك الأفكار والخواطر، التي كانت تتوارد على قلبي أثناء تلاوتي وتدبري لكتاب الله، وكما قيل بحق: (اذا أراد الله شيئاً هَيَّأَ له أسبابه)، إذ في تلك الأثناء بالذات دعوني للتحقيق وقد غيروا محققي السابق، وبعد التحقيق سألني المحقق: هل تحتاج شيئاً؟ فقلت نعم، أنا بِأَمَسِّ حاجة إلى قلم وأوراق لكتابة بعض أفكاري وخواطري عن القرآن، فأعطاني قلمين ودفتراً،

(١) ولكيفية اعتقالي من قبل أمريكا وما اكتنفته من ملابسات وما جرىٰ لي أثناء السجن، انظر كتاب: (أمير وراء القضبان) باللغات الكوردية والعربية والفارسية. . .
(٢) أكثر من مائة وأربعين (١٤٠) مرة.

وأصبحت منذ ذلك اليوم مسموحاً لي أن أحتفظ بأوراقٍ وقلم، وقد اعتبرت ذلك فرجاً عظيماً لي من الله الكريم مُفَرِّج الكُرَب جل شأنه، وأول يوم بدأت فيه بالكتابة كان يوم (٢٠٠٤/١/٢٧)، أي اليوم (٢٠٢) من أيام سجني، ولكن اختمار فكرة الكتاب في خطوطه العريضة وعناوينه الرئيسة وعنوان الكتاب الرئيس، سبق ذلك التأريخ بأيام وربّما بأسابيع، وأما توارد الأفكار والخَواطر، فبدأ منذ الأيام الأولى لِسِجْني، وكان انقداح فكرة الكتاب كلِّه بأبوابه الأربعة، في ضوء نور سورة الفاتحة المباركة مَتْناً وإجمالاً، ثم في ضوء أنوار سائر السور المباركة شرحاً وتفسيراً.

وهذا توضيح مختصر لكيفية انبثاق فكرة الكتاب الكلية المجملة من (الفاتحة) أولاً، ثم أَذكر وأُبيِّن خطتي لكيفية كتابة تفاصيله في ضوء أنوار بقية السور الكريمة:

أما الباب الأول: (الإسلام: معرفة صحيحة بالخالق جل شأنه وبالخلق) فجاءت به الآيات الأربع الأول: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [الفاتحة]، وذلك في أربعة فصول، كل فصل أُقْتُبِسَ من نور آية مباركة، هكذا:

الفصل الأول: (الله سبحانه وتعالى: فاطر السمٰوات والأرض، مالك الملك، رب العالمين) أُقْتُبِسَ من نور الآية الأولى: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١﴾ وذلك لأن البدء بـ(اسم الله) دليل على أن الإعتقاد بوجود الله في عقل الإنسان وقلبه ـ ما داما سالمين ـ يسبق كلَّ شيء آخر، وانما أُخْتيرَتْ صفة (الرحمة) بكلتا صيغتي (فعلان وفعيل) الدالتين على التجدد والثبوت، من بين كل صفات الكمال التي يتصف بها الخالق تبارك وتعالى، لأن الرحمة التي هي مصدر للإحسان والفضل والكرم والجود الإلهي، هي الصفة الأكثر تجلياً في حياة الإنسان، في دنياه وأخراه.

الفصل الثاني: (الخلق خلَقَهُ الله تعالى في مجموعه بحق، وكل شيء فيه بحكمةٍ وإتقان)، وهذا الفصل أُقْتُبِسَ من نور الآية الثانية: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ وذلك لأن البدء بحمد الله ووصفه بربوبيَّتهِ للعالمين، يدل على أن أمر هذا الخلق حَقٌّ وجِدٌّ، وأن الخلق كله يسبح بحمد مالكه،

ولا يحيد شيءٌ عن النظام الذي رسمه لَهُ ربه.

الفصل الثالث: (الإنسان خليفة الله تعالى في الأرض) وهذا الفصل أُخِذَ من نور الآية الثالثة: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣٠﴾، وذلك لأن الله تعالى تجلَّت صِفَةُ رحمانيَّتِهِ في حياة الإنسان الدنيوية، وصفة رَحيميَّتِهِ في حياته الأخروية، كما قال تعالى بالنسبة لمجالات تجليّ اسمه الرحمٰن في الدنيا: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤﴾ [الرحمٰن]، اذن: فَرَحمته التي يتجلي بها اسمه الرحمٰن في الدنيا، عامة وشاملة لكل الناس، إذْ كل من (تعليم القرآن ـ وخلق الإنسان ـ وتعليمه البيان) وسائر النعم المذكورة في سورة (الرحمٰن) المباركة، نعمة مشتركة بين الناس، ولكن بالنسبة لمجالات تجلي رحمته في الآخرة، والتي يدل عليها اسمه (الرحيم) قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا ۝٤٣ تَحِيَّتُهُمۡ يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ سَلَٰمٞۚ وَأَعَدَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَرِيمٗا ۝٤٤﴾ [الأحزاب]، وكذلك قال بالنسبة لتخصيصه أهل الايمان والتقوى برحمته في الآخرة، مع أنه شمل بها كل شيء في الدنيا: ﴿وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ۝١٥٦﴾ [الأعراف].

ثم إنَّ كون الإنسان خليفة الله في الأرض، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ ٱلۡأَرۡضِ وَرَفَعَ بَعۡضَكُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمُۢ ۝١٦٥﴾ [الأنعام]، أجل إنَّ كون الإنسان خليفة الله في الأرض، هو أكثر المجالات تجَلّياً لرحمة الله وكرمه وفضله تجاه الإنسان، إذْ لولا خلافته له، لم يكن لِيَسْتَأهِلَ أن يكون مُخاطَباً من الله تعالى وأنَ يُنزِّل عليه كتابه، ويُوَجّه اليه كلامه المبارك، الذي هو أجلُّ وأعظم نِعَم الله تعالى على عباده، ولهذا جعله في سورة الرحمٰن التي عَدَّد فيها نِعَمَهُ، أوَّلها ذكراً.

الفصل الرابع: (حياة الدنيا ابتلاء وحياة الآخرة بقاء) وفُهِمَ هذا الفصل

من الآية الرابعة: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [الفاتحة]، وذلك لأنه من الواضح ان الله تعالى هو وحده مالك كل شيء في الدنيا والآخرة، ولكن خُصِّصَتْ مالكيَّتُهُ للآخرة بالذكر، لما للآخرة التي هي يوم الجزاء، من شأنٍ عظيم، إذِ الدنيا ليست سوى قنطرة العبور ووسيلة الوصول اليها، ومحل ابتلاء خلفاء الله فيها، ثم في يوم الدين الذي يُظْهِرُ الله مالكيَّتهُ ومَلَكِيتَّه بأجلى صورة، بعد أن أخْفاهما في الحياة الدُنيا ابتلاءً منه لعباده، أجل في يوم الدين، تظهر النتائج وتبلى السرائر، وبناءً على تلك النتائج والسرائر، تبدأ حياة الآخرة التي هي بيت القصيد، ومستقر المخلوقات، ونهاية مطاف سفرها.

وأما الباب الثاني: (الإسلام: ايمانٌ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر) فَكُتِبَ كله في ضوء نور الآية الخامسة: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة]، وذلك لأن النتيجة المنطقية الوحيدة للمعرفة الصحيحة بالخالق جل وعلا، وخلقه، تَتَمثَّل في العبادة لله تعالى خالصة، والإستعانة به وحده، وأساس العبادة لله ولُبُّها، هو الايمان به وبكلِّ ما أَمَر أن يُؤْمَنَ به، والايمان هو موقف عملي بالقلب (اذعاناً وقبولاً وحباً) وموقف تعبيري باللسان (اقراراً وذكراً) وموقف تنفيذي بالبدن والجوارح (عملاً والتزاماً)، وأما المعرفة العقلية الصحيحة (التصديق) وان كانت شرطاً لا بد منه لتكوين الايمان، لأن الايمان لا يُبْنى على الجهل أو المعرفة الخاطئة، ولكن ما لم تنضمَّ اليها المكونات الثلاثة الأولى، فلا يُعَدّ لوحدها شيئاً في مجال الايمان، إذ كثيراً ما يشترك الكفار فيها، من دون أنْ تُغْنِيَ عنهم شيئاً، كما قال تعالى عن آل فرعون الّذين كانوا مُسْتَيْقنين من صدق موسى عليه السلام وصِحَّة معجزاته، ولكنَّهم أعْرَضوا عنه جحوداً وكبراً: ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَٰتُنَا مُبۡصِرَةٗ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ۝١٣ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ۝١٤﴾ [النمل].

هَذا وقد فصّلنا الباب الثاني في ستة فصول: خُصِّصَ الفصل الأول للتعريف بالايمان عموماً، والفصول الخمسة الأخرى كل فصل خُصِّصَ لبحث ركن من أركان الايمان الخمسة، أعني: الايمان بالله وملائكته وكتبه

ورسله واليوم الآخر، وأما الايمان بالقدر، والذي ألحقه رسولُ الله ﷺ في الحديث المشهور بحديث جبريل والذي رواه مسلم عن عمر بن الخطاب ؓ بالأركان الخمسة للايمان، فلم نُفْرِدْ له فصلاً مستقلاً، ولكن أشرنا إلى أُسُسِه في نهاية الباب الثاني، كما وأشرنا إلى بعض مسائله المتعلقة به في أكثر من موضع.

وأما الباب الثالث: (الإسلام: التزامٌ جاد بالشريعة على الصعيدين الفردي والجماعي) فأضاء دروبه الكثيرة المُتَشَعِّبة، نور الآية السادسة: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة]، وذلك لأن من أراد أن يعبد الله وحده ويستعين به دون سواه، فلا بد من أنْ يَسْلُكَ الطريق الذي رَسَمَهُ له ربه، لأن الله تعالى هو وحده الذي يعلم كيف ينبغي له أن يُعْبَد وَيُوَحَّد، وكذلك من آمن بالله حقاً فإنَّه يتحرك تلقائياً ليعمل صالحاً وفقاً لمرضاة الله، وهذا لا يتأتى إلا بسلوك صراط الله المستقيم، وهو دينه الحق ومنهجه القويم، ثم بما أن الإنسان لا يكون سالكاً صراط الله المستقيم، حتى يهتدي بهدى الله في خاصَّة نفسه أولاً، ثم يلتزم بشريعته في كافة جوانب حياته، ومن خلال مجتمعه ثانياً، لِذا جعلنا هذا الباب الثالث ـ والذي هو أهم أبواب الكتاب وأعظمها حجماً بعد الباب الثاني ـ في ثلاثة فصول:

الفصل الأول: الإهتداء بهدى الله، أو الإلتزام الفردي بشريعة الله.

الفصل الثاني: إظهار الدين الحق، من خلال التصورات والقيم والموازين والشعائر والآداب.

الفصل الثالث: تنظيم المجتمع بالشريعة وإدارته بها.

وأما الباب الرابع: (الإسلام: نظرة سديدة تجاه الناس وتعامل صحيح معهم) فاقْتُبِسَ من نور الآية السابعة: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [الفاتحة]، وذلك لأن من أراد الإلتزام بشريعة الله في خاصة نفسه وفي إطار مجتمعه، لا بدّ له من أن يُوَطّن نَفْسَهُ على موالاة أهل الايمان ومؤاخاتهم، وعَلى معاداة أهل الكفر ومجافاتهم، سواء كانوا ممن عرفوا الحق فرفضوه عناداً واستكباراً وحسداً، فاستحقوا

غضب الله ومقته، أو كانوا من المعرضين عن الحق والمنغمسين السادرين في الجهل والضلالة.

وقد جعلنا هذا الباب الرابع في أربعة فصول:ـ

الفصل الأول: تعريف الناس عموماً في ميزان كتاب الله الحكيم ونظرة الشرع إليهم.

الفصل الثاني: تعريف المؤمنين وأوصافهم وواجباتهم في مجال التعامل بينهم أفراداً ومجتمعاً.

الفصل الثالث: تعريف الكفار وأوصافهم وأصنافهم.

الفصل الرابع: التعامل الشرعي الصحيح مع الكفار عامة، ومع كل صنفٍ منهم على حدة.

هذا بالنسبة لكيفية انبثاق الفكرة الأساسية من نور سورة الفاتحة المباركة، واما بالنسبة لطريقتي وخطتي التي اتبعتها في تفصيل وشرح متن وعناوين هذا الكتاب، في ضوء أنوار سائر السور المباركة الأُخرى، فَأُجْمِلُها في النقاط الآتية:ـ

١ ـ إدراج مجموعة من الآيات المتعلقة بالموضوع المراد بحثه، تُمَثِّلُ تلك المجموعة بَعْضَ الآيات الواردة في الموضوع، أو جُلَّها وربّما كُلَّها، ثم الإستماع لها والتدبر فيها والتتلمذ عليها، ثم سَرْدُ ما تدل عليه، وما تجود به عليَّ من حقائق مرتبطة بالموضوع، في نقاط متسلسلة ومتدرجة، حسب ترتيب الآيات المدرجة، أو حسب ترتيب آخر يقتضيه المقام.

أي أن عملي في هذا الكتاب ـ كما تراه ـ ليس سوى الإستماع والإنصات لكتاب الله تعالى، كما أمرَنا الله به: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾ [الأعراف] ـ ثم التدبر والتفكر فيه، كما قال تعالى: ﴿...وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [النحل].

ومن الواضح انه ليس للمسلم أمام كلام الله المبارك، سوى الإستماع والإنصات بأدب وهدوء، ثم التفكر والتدبر، وأعوذ بالله وأستغفره، ثم أعوذ بالله وأستغفره، أن أبُيح لنفسي بتبييت فكرة في ذهني، ثم التماس ما يؤيدها من كتاب الله العظيم! إذ هذا ذنب عظيم، وانحراف جسيم عن الصراط المستقيم،كيف! وقد قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ۝١﴾ [الحجرات]، وسواء أخذنا بقراءة (تُقَدِّموا) فيكون حينئذ مفعول (تُقَدِّموا) محذوفاً يشمل كل شيء يُقَدَّمُ على اذن الشرع، أو أخذنا بقراءة (تَقَدَّموا)[1]، أي (تتقدموا) وتعطي حينذاك كلمة (تَقَدَّموا) معنىً يُصَوِّر المُفْتَئِتَ على دين الله والمُبيِّت للأفكار والمفاهيم في ذهنه، ثم التماس السند لها في كتاب الله، في صورة بشِعة جِدّاً، وهي صورة من يتقدم على الله العظيم ورسوله الكريم ويجعلهما خلفه!! وكيف يجوز تبييت الأفكار المسبقة في الذهن، ثم لَيُّ أعناق آيات الله نحوها، وقد قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ۝٢﴾ [الحجرات]، ولا شك أن سوء الأدب المُتَمثِّل في الإفتئات على الوحي الذي جاء به رسولُ الله ﷺ والترفُّع عليه وجعله تابعاً؛ أفظع وأشنع من سوء أدَب رفع الصوت على شخصه الكريم ـ وهذا هو المقصود في هذه الآية ـ ولهذا قُدِّم النهي عن ذاك على النهي عن هذا، ومن نافلة القول أن كل القضايا التي بيّنها الوحي، لا تحتاج إلى شيء سوى حسن الفهم مِنّا، وكيف لا! وقد قال رب العزة العليم الحكيم تبارك وتعالى: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝١١٥﴾ [الأنعام].

ومن البديهي أن المخلوق لا يَتَسنَّى له مجال إضافة شيء إلى الصدق التام لأخبار الله، والعدل التام لأحكامه، إذْ لا يوجد أصلاً بعد صدق الله وعدله، صِدْقُ وَعدْلٌ.

٢ ـ بسبب عدم توفر مصادر السنة النبوية لدي في السجن، اقتصرت على

(١) أنظر: زاد المسير في علم التفسير، لابن الجوزي، ص١٣٢٩.

كتاب الله الكريم في كل ما كتبته في كتابي هذا، واستعنت في بعض الأحيان ببعض الأحاديث التي أسعفتني بها الذاكرة، وخاصة مما رواه الامامان (البخاري ومسلم) في صحيحيهما، زيادة في إيضاح بعض المواضيع[1].

٣ ـ توخَّيت جهدي في الكتابة: الأسلوب السَّهل الواضح الذي لا يصعب فهمه على عامة القراء، واجتنبت ما استطعت استعمال المصطلحات العلمية والفنية التي لا يعرفها إلَّا أهل الإختصاص، واذا اضطررت في بعض الأحيان إلى استعمال بعضها وضَّحت مفاهيمها.

٤ ـ بما أَنَّني أردت بكتابي هذا أن أبيِّن صورة الإسلام (دين الله الحق) كما رسمها وقدمها كتاب الله الحكيم، لذا تجنبتُ الخوض في تفاصيل المواضيع التي اختلف فيها العلماء، واقتصرت فيها على إيراد الفهم الذي أراه صحيحاً أو أصَحَّ، وقد أُشير وقت الحاجة إلى الآراء الأُخرى أيضاً.

٥ ـ تماشياً مع خطة كتاب الله الحكيم وأسلوبه، في التركيز على المواضيع التي لها أهمية أكثر من غيرها، والتأكيد عليها في أكثر من مناسبة، قد أذكر موضوعاً في أكثر من مَوْضعٍ، وأُعنى به عناية خاصة، تكراراً وتوضيحاً وتأكيداً.

٦ ـ من الواضح أنَّ ما أَوْرَدْتُهُ في كتابي هذا من فُهوم لآيات كتاب الله الكريم، قد يكون بعضها أو جُلُّها موجوداً في التفاسير التي كتبها علماؤنا المفسرون رحمهم الله تعالى قديماً وحديثاً، والتي قد مَنَّ الله عليَّ أن أصرف شطراً من عمري، ومنذ رَيَعان شبابي في قراءتها والإنكباب عليها، ولكني لا أرى داعياً بعد أن أكملت هذا الكتاب بالإعتماد على التأمل في كتاب الله وحده، أن أعود ثانيةً إلى المقارنة أو عزو الآراء التي وافقت أو خالفت فهمي إلى مصادرها، وذلك لأنِّي لم أوُرِدْ رأياً أو فهماً ما، بسبب إيراد التفسير الفلاني له، بل أوردته لاقتناعي به ورؤيتي له أنه صواب، حسبما تَبدَّى لي من خلال تأملي وتدبري لكتاب الله المبارك.

---

(١) وبعد خروجي من السّجن قُمتُ بتخريج تلك الأحاديث في مَظانِّها، وقد ساعدني بعضُ الإخوة في ذلك، فجزاهم الله خيراً.

ولكن هذا لا يعني أنني لم أَستَفِدْ من تلك التفاسير بصورة مباشرة أو غير مباشرة، إذ كانت مخزونةً في ذاكرتي قليلاً أو كثيراً، فجزى الله علماءنا أحسن الجزاء، لقد سهَّلوا لنا طريق فهم كتاب الله المبين، بشروحهم وتفاسيرهم أيَّما تسهيل[1].

---

(١) ولكي تكون صورة مخزوني الفكري من التفاسير واضحة، فهذه أسماء التفاسير التي طالَعْتُ، غالبيتَها من ألفها إلى يائها، وبَعْضَها بَعْضَها، ومنها ما قرأتها أكثر من مرة، كالطّبري وابن كثير وفي ظلال القرآن:
١ ـ تفسير (جامع البيان) للطبري.
٢ ـ تفسير القرآن العظيم، لابن كثير.
٣ ـ تفسير (الكشاف)، للزمَخشري.
٤ ـ تفسير (مفاتيح الغيب) للرازي، المشهور بـ(التفسير الكبير).
٥ ـ تفسير (النَّسَفي) لعمر النسفي.
٦ ـ تفسير (البيضاوي) للقاضي بيضاوي.
٧ ـ تفسير (الصاوي) مع حاشية (شيخ زادة).
٨ ـ تفسير الحُسَيْني (بالفارسية) للعلامة الحسيني.
٩ ـ تفسير (روح البيان) لإسماعيل البرسوي.
١٠ ـ تفسير (فتح القدير) للشوكاني.
١١ ـ تفسير الجلالين لجلال الدين السيوطي، وجلال الدين المحلِّي.
١٢ ـ تفسير (روح المعاني) للآلوسي.
١٣ ـ تفسير شيخ محمد عبده.
١٤ ـ تفسير (المنار) لرشيد رضا.
١٥ ـ تفسير القاسمي لجمال الدين القاسمي.
١٦ ـ تفسير (الجواهر) للطنطاوي.
١٧ ـ تفسير (في ظلال القرآن) لسيِّد قطب.
١٨ ـ المصحف المفسّر، لمحمَّد فريد وجدي.
١٩ ـ تفسير (الميزان) للطباطبائي.
٢٠ ـ تفسير (الكاشف) لمحمد جواد مُغنية.
٢١ ـ صفوة التفاسير لمحمد علي الصابوني.
٢٢ ـ التفسير الواضح لمحمد علي حجازي.
٢٣ ـ تفسير (پرتوي أز قرآن) لمحمود الطالقاني (بالفارسية).
٢٤ ـ تفسير (تفهيم القرآن) لأبي الأعلى المودودي (المجلد الأخير).
٢٥ ـ (الأساس في التفسير) لسعيد حوَّى. =

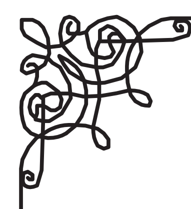
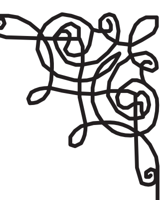
٧ ـ وفي الختام أقولُ: بناءً على قوله تبارك وتعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾﴾ [النساء]، ما وُجِدَ في هذا الكتاب من فهم سليم لكتاب الله، واستنباط صحيح منه، ورأي سديد عنه، فهو توفيق وفضل من الله اللطيف الكريم، وما وجِدَ فيه من خَلْطٍ وخَطَأٍ فهو بضاعة العبد الضعيف، وكلام الله المبارك الحكيم بريء منه، كيف! وكتاب الله كما وصفه مُنَزِّلُهُ جل شأنه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت].

«ربنا لا تُزِغْ قلوبنا بعد إذ هديتنا
وهَبْ لَنا من لدنك رحمة إنّك أنت الوهّاب»

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

= ٢٦ ـ (تفسير نمونه)، (بالفارسية) لمجموعة علماء بإشراف ناصر مكارم شيرازي.

٢٧ ـ بالإضافة إلى التفاسير المؤلَّفة باللغة الكردية مثل تفسير ملا محمد جلي زادة المشهور بـ(المُلَّا الكبير)، و(شيخ محمد الخال) وتفسير (نامي) لـ(ملّا عبد الكريم المدّرس) وغيرهم، رحِمَ الله تعالى علماءنا جميعاً وجزاهم عنّا أحسن الجزاء.

مقدمة هذه الموسوعة

إن الحمد لله نحمده ونستغفره ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إلٰه الا الله وحده لا شريك له، وأشهدُ أَنَّ محمداً عَبدُهُ ورسولُهُ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب].

أما بعد، فإنَّ أَصدَقَ الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها، إن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

(١) إنَّ الإعتقاد بكون القرآن تبياناً لكل شيء، وتفصيلاً لكل شيء، وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين، كما وصفه الله العليم الحكيم، حيث قال:

﴿...وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [النحل].

﴿...لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ [يوسف].

أجل ان هذا الإعتقاد يقتضي الإعتقاد بكونه قد رَسَم دينَ الله الحق (الإسلام) الذي ارتضاه الله منهاجاً وحيداً للبشرية، في معالمه الأساسية وأصوله الكلية عموماً، وبعض جزئياته وتفاصيله خصوصاً، تلك الأُصول الكلية والتفاصيل الجزئية التي لا يَتَسنَّى للعقل البشري إدراكُها، إلا من خلال وحي الله المبارك، وذلك لأن اطِّلاع الإنسان على الصراط المستقيم الذي يجعله سلوكه اياه، يعيش حياة مستقيمة طيبة مرضية لله تعالى، هو أهم وأعظم شيء في حياته الدنيوية، وعليه: فلا بدَّ مِنْ أنْ يكون كتاب الله المبين لكل شيء ـ مما يحتاجه البشر ـ حاوياً لأهم وأعظم ما يحتاجه في حياته الإبتلائية الأرضية.

وهذا الإعتقاد ـ الذي هو واجب على كل مسلم ـ هو ما دفعني إلى التأمل والتدبر في كتاب الله الكريم، لعلي أفهم وآخذ منه دين الله الحق (الإسلام) بتمامه، إجمالاً فيما يكفي فيه الإجمال، كالجوانب التي يستطيع العقل البشري أن يتحرك فيها، وأوتي إمكانية التعامل معها، بعد أن تُحدَّد له معالمها الأساسية، وتفصيلاً فيما يَلْزَمَ فيه التفصيل، وذلك كالجوانب التي لم يؤت العقل إمكانية الإجتهاد فيها.

وقد جادَ عليَّ كتابُ الله الكريم، بالرغم من قلة بضاعتي في فهم أسراره، ونيل أنواره، بكرم وجودٍ لا يوجد له مثيل، والذي تجسَّد في هذا الكتاب الذي تحدثت فيه عن (الإسلام) في كافة جوانبه: معرفة، وإيماناً، وتصورات، وقيماً، وموازين، وتقوى وتزكية وخلقاً، وشعائر عبادةٍ، وآداباً إجتماعية، وسياسية وحكماً، واقتصاداً، ودعوة، وإعلاماً، وأسرة، وقضاء،

وجهاداً ودفاعاً، وتعاملاً مع الناس، المسلمين وغير المسلمين، ومسالمين أو محاربين.

وبالنتيجة: فقد وجدت ما اعْتقدته في كتاب الله، وتوقَّعته منه، كما اعتقدته وتوقَّعته، بل وفوق ذلك بكثير، والله الذي لا إله إلا هو!

(٢) وكذلك فإن الإعتقاد بكون كل ما جاء في كتاب الله الحكيم، وفي كل المجالات، هو الحق المطلق الذي لا تحوم حَوْلَهُ شائبةُ الباطل أبداً، هو الثمرة الطبيعية للإيمان بالله العليم الحكيم وأسمائه الحسنى وصفاته العُلى، والتي منها كلامه المبارك، الذي وصفه الله تعالى بقوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾ [الأنعام]، ولكنَّ التَأَمُّل في كتاب الله المبارك أدَّى بي إلى بَرْدِ عين اليقين التفصيلي، بعد علم اليقين الإجمالي بذلك الصدد، وأعتقد أن هذا واضح لمن يطالع هذا الكتاب، وانْ كنت لا أدَّعي بأنَّي كنت في المستوى المطلوب، عقلياً وقلبياً وعلمياً لارتشاف رحيق الهداية الشاملة الكاملة من معين كتاب الله الهادي، ولكن لا شك أن القليل الذي يُنالَ مِنْ كَثيرِ كتابِ الله العظيم، كثيرٌ وجليلٌ.

(٣) وإنَّ تلاوتي المتأنيِّة المتكررة لكتاب الله المبين، وتدبُّري فيه، وخاصة في صلواتي ليلاً ونهاراً، بالإضافة إلى ما جادا به عليَّ مما أشرت اليه، والذي يتضمنه هذا الكتاب، جادا عليَّ كذلك بما لا يمكنني التعبير عنه، من حالات روحية جليلة وعذبة وعجيبة، أَنسْتَنْي وحْشَة السجن الإنفرادي الظالم، وهَوانَهُ وظَلامَهُ وحَرَّهُ وَبرْدَه وقَسْوَتَه، وجعلتني بحيث كنت أشعر في كثير من الأحيان، بأنَّني في بحبوحة من الجنة، وليس في زنزانة انفرادية ضيِّقة.

تلك الحالات التي يمكن أن تكون كلمات مثل: (الطمأنينة) و(السكينة) و(الفرح بفضل الله ورحمته) مُعَبِّرة عنها أو عن جوانب منها، وهل يتوقع من كتاب الله الموصوف بـ(الكريم والمبارك والشفاء والبشرى والرحمة والذكرى والهدى) غير هذا؟!

(٤) وقد تبيَّن لي وثبت عندي بما لا يدع مجالاً للشك، بأنَّ ما

يَتَجلّى لنا من حقائق عند النظرة الأولى في كتاب الله، لَيْسَ سوى جزءٍ مما يحتويه كتاب الله من حقائق وأسرار، والتي نتمكن من مشاهدتها بقدر ما تَتَصَفَّى أرواحُنا من الكدورات وتُشْرِقُ قلوبنا بالإيمان، وذلك مثل البحر الذي لا يرى فيه الرائي لِأَوَّلِ وهلةٍ سوى الماء الأزرق، فإذا اقترب منه وتأمَّله عن قرب، بَدَتْ له أسماكه وسائر حيواناته السابحة فيه، ولكن إذا غاص فيه ووصل إلى أعماقه، وجد فيه ما لا يحصيها الا الله من المخلوقات والعجائب، والتي منها اللّآليء واليواقيت! وهذا هو السر في تأكيدات كتاب الله المستمرة على التدبر والتأمل في آيات الله البينات، كما قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص]، وقال: ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ﴿١٧﴾﴾ [القمر]، وقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمد].

(٥) ولكن هل أكون قد أنصفت كتاب الله الحكيم، والقرآن العظيم، وأعطيته ما يستحق من حق الثناء، إذا وصفته فقط بأنه يجود على تاليه ومتدبِّره، بكل ما يلتمس منه من حقائق الهداية، مما تحتاجه حياة البشر فرداً ومجتمعاً بكل كرم وسخاء؟! كلا والله الذي لا رب غيره، وذلك لأن كلام الله المبارك الكريم أعظم وأجل من أن يكون مجرد كتاب حاوٍ على كل الحقائق، والهدى التام الذي تستلزمه حياةُ الإنسان، كيف! وقد وصف الله الحكيم جلّ وعلاّ كتابه بكونه:ـ

١ ـ روحاً: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ﴾ [الشورى: ٥٢].

٢ ـ ونوراً: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ﴿١٥﴾﴾ [المائدة].

٣ ـ ورحمة: ﴿. . . يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [يونس].

٤ ـ وذكراً: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ﴿٢٨﴾﴾ [التكوير].

٥ ـ وبشرى: ﴿... وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [النحل].

٦ ـ وبشيراً ونذيراً: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾﴾ [فصلت].

٧ ـ وموعظة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [يونس].

٨ ـ وشفاء: ﴿... وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾﴾ [فصلت].

٩ ـ ومباركاً: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الأنبياء].

١٠ ـ ومجيداً: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾﴾ [البروج].

١١ ـ وعلياً: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [الزخرف].

١٢ ـ وحكيماً: ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾﴾ [يونس].

١٣ ـ وعزيزاً: ﴿... إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾﴾ [فصلت].

١٤ ـ وعظيماً: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾ [الحجر].

١٥ ـ وكريماً: ﴿۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾ [الواقعة].

ومن الواضح أنَّ هذه الأوصاف أوسع مدىً، وأشمل معنىً، وأعلى مقاماً، من وصف كتاب الله الكريم الوهاب جَلَّ شأنه، بمجرد الهداية ودلالة البشر إلى الحق والصواب في كل مجالات الحياة، وإنْ كان هذا في حَدِّ ذاته شيئاً عظيماً وجليلاً للغاية، ولكن هل يقف كتاب الله في هِباتِهِ على غاية؟ أم هل يعرف في كرمه وفضله حداً ونهاية؟!

أجل والله العلي العظيم إن كتاب الله الكريم، هو فوق كونه هدى مطلقاً:

روح: تَسْري فيمن يتمسك به، فَتُحييه الحياة الحقيقية التي يرضاها الله سبحانه وتعالى ويباركها.

ونور: ينُيرُ باطِنَ الإنسان وظاهِرَه وَقلْبَه وعَقْلَه ويمينَهُ ويسارَهُ وأمامَهُ وخَلْفَه وفوقَهُ وتَحْتَه.

وهو رحمة الله المتجلّية: للبشر بأوضح صورها وأتمّها وأجلّها.

وهو ذكر: يذكِّر الإنسانَ ويشرِّفُهُ.

وهو بشارة الله: التي تجعل القَلْبَ يطير فرحاً وسروراً، وتُسْعِدُ الروح سعادة وحُبُوراً.

ونذير: يُنْذِرُ الإنسانَ ويُنبِّهه ويُوْقِظُهُ.

وهو موعظة رب العالمين: البليغة للإنسان والجن.

كما هو شفاء: يشفيهم من جميع الأسقام والأدواء التي تصيب القلب والعقل والنفس والجسد والفرد والأسرة والمجتمع.

وهو مبارك: يُبارك الإنسان ويَهَبُه الخيَر والبركَةَ.

وهو مجيد: يَهَبُ حامِلَه والمُتَمَسِّك به، المَجْدَ والسُّؤْدَدَ في الدنيا والآخرة.

وهو عليٌّ: يُعْلي الإنسان وَيَهَبُهُ الرِّفْعَةَ والعُلُوَّ، العلوّ في الروح وفي الفكر وفي الهمة وفي الأدب والخُلُق والذوق.

وعزيز: يَعِزُّ بِهِ صاحِبُهُ.

وحكيمٌ: يجعل حامِلَهُ حكيماً.

وعظيم: يُعَظِّمُ الذي يعامله بصدق عند الله العظيم وعند عباده.

وكريمٌ: يُكْرِمُ تالِيَه، ويُعْطيه ما لا يحتاج معه وبعده إلى غيره أبداً.

ثم بقدر ما يَصْدُقُ الإنسانُ مع كتاب الله الكريم، يُتْحِفُهُ بما ذكرناه، جعلنا الله بلطفه وكرمه من الصادقين في التعامل مع الله تعالى وكتابه الحكيم ونبيّه الكريم ﷺ.

(٦) وبناءً على ما مرَّ ذكره: يجب أن نفهم قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾﴾ [التكوير]، فهماً شمولياً لائقاً بكتاب الله، فكتاب الله ذكرٌ ومنهاج لمن أراد الإستقامة في حياته فرداً ومجتمعاً، الإستقامة في المعرفة والتصور، والإيمان والعقيدة، والعبادة والخُلُق، وفي مجالات الحياة كلها: آداباً ومعاملة وسياسة وقضاء واقتصاداً وجهاداً... إلخ.

لأن كتاب الله القيِّم يجعل المتمسك به، فرداً كان أو مجتمعاً، مستقيماً في شؤونه كلِّها، لا عوج فيه ولا انحراف، وهذا هو معنى طلبنا الهداية إلى الصراط المستقيم، من الله العظيم ليلاً ونهاراً في صلواتنا: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾﴾ [الفاتحة].

(٧) وعلى أساس كل ما تقدَّم ذكره: يجب أن نُعلِّلَ امتيازَ جيل الصحابة الكرام رضوان الله عليهم، على سائر أجيال الأمة المتعاقبة بعدهم، وكذلك سموَّ وامتياز بعض النماذج الفريدة من الشخصيات المباركة التي ازدانت بهم التاريخ الإسلامي والمجتمعات الإسلامية قديماً وحديثاً.

أجل:

من يستوعِبُ كتابَ الله «حسب طاقته» فهماً، ويَتَمثَّله عملاً، وَيُجَسِّدُه سلوكاً، ستنعكس عليه أوصاف كتاب الله التي سبق ذكرها، وَبما أنَّ الصحابة ﷺ كانوا أحسن الناس استيعاباً وتجسيداً لكتاب الله تبارك وتعالى، كانوا خير المجتمعات وأفضل أجيال الأمة من كل الجوانب، وهل يُثْمِرُ التمسك بكتاب الله، **إلَّا** كُلَّ ما هو خير وأفضل وأرقى ما يكونُ من الأحوال؟!!

وكذلك الآن إذا أردنا ـ نحن المسلمين المحسوبين على خاتم الأنبياء (عليه وعليهم الصلاة والسلام والبركات) ـ أن نكون بمستوى ديننا القيم،

ليس أمامنا سوى طريق واحد، وهو الإستمساك بكتاب الله، كما أمر الله تعالى به نبيه حيث قال: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾ [الزخرف]، والإستمساك بكتاب الله بمفهومه الصحيح الشامل، يجعل المسلمين دَوْماً وفي كل عصر ومصر في أَفضل حالَةٍ، بمعياريْ الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾﴾ [الإسراء].

نعم، والله إن كتاب ربنا الحكيم الكريم، يُحَقِّقُ لنا نحن المسلمين إذا ما تَمَسَّكْنا بِهِ بصدق، أفضلَ حياةٍ وأقومَها في الدنيا، كما ويُبَشِّرُنا في حياتنا الحقيقية الأخروية بالأجر الكبير والثواب الجزيل، المتمثِّل في جنَّة الله ورضوانه.

ومن الواضح أن الإستمساك بكتاب الله، وان كانت ثمراته وبركاته تظهر في الدنيا أولاً وقبل الآخرة، في حياة طيبة عزيزة سعيدة، ولكن بيت القصيد من اتّباع كلام الله، والإعتصام به، هو تحقيق العبودية لله تعالى، وبالتالي نيل رحمة الله وفضله ورضوانه، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾﴾ [النساء]، وهذه الحياة الأرضية المؤقتة، أقلُّ وأقصر من أن تَسَعَ أجْرَ الله الكبير وثوابَهُ الجزيل، الذي يَجزي به عِبادَهُ الصادقين، بل إنما تَسَعُ ذلك الأجْرَ الكبير والثوابَ الجزيل فقط، حياةُ الآخرة الأبدية، في جنّة عرضها السَّموات والأرض، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة]، وقال: ﴿سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾ [الحديد].

وغَنيٌّ عن البيان أن الإستمساك بكتاب الله، لا ولَنْ يَتَيسَّر للإنسان فرداً أو مجتمعاً، إلا من خلال اتبّاع النبّي الأُميِّ (محمد) صلوات الله وسلامه وبركاته عليه وعلى آله أجمعين، الذي بيَّن كتابَ الله الكريم ـ أي مُجْمَلَهُ

وكيفية تطبيقه على أرض الواقع ـ من خلال سنته قولاً وفعلاً وتقريراً، ولهذا جعل الله تعالى اتِّباعَنا لنبيِّه، بُرْهاناً لنا، نُثْبِتُ به حُبَّنا لله تعالى، وسبباً لِحُبِّ الله لنا ومغفرته لذنوبنا، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣١)﴾ [آل عمران].

وفي الختام:

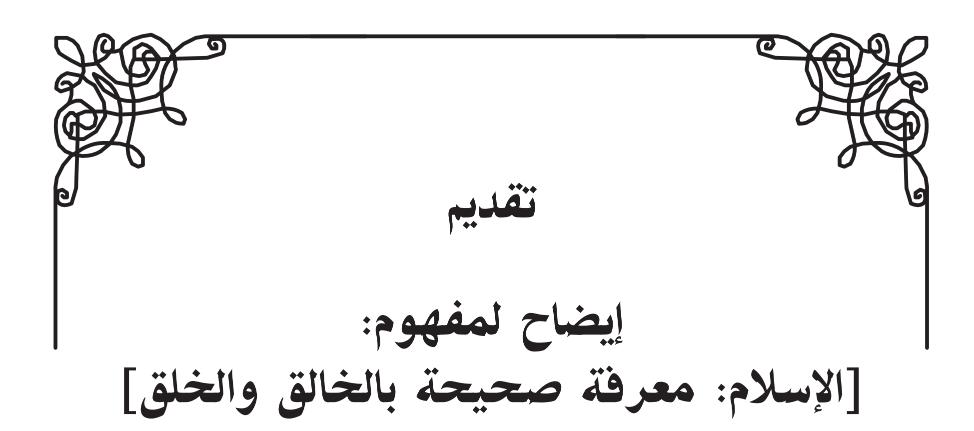
أسال الله العظيم رب العرش الكريم، أن يجعلنا من المتمسكين بكتابه الحكيم والمتبعين لنبيه الكريم، وأن يجعلنا في كافة أمورنا على صراطه المستقيم، إنه نعم المولى ونعم النصير.

ليلة الجمعة ٨ رمضان ١٤٢٥هـ

٢٢/١٠/٢٠٠٤م

بغداد / سجن كروپر الأمريكي / سجن المطار





تقديم

إيضاح لمفهوم:
[الإسلام: معرفة صحيحة بالخالق والخلق]

لقد أَتْحَفَ الإسلامُ البشريةَ بالمعرفة الصحيحة والسديدة الفريدة، عن الله الخالق تبارك وتعالى، وعن خلقه (السمٰوات والأرض) وجَليٌّ أَنَّ التصور الصحيح أساس الموقف السديد، والتصرف السليم، ولا يَقْدِرُ قَدْرَ تلك المعرفة الصحيحة التي حبا الله تعالى بها البشر، إلّا مَنْ عَرَف كَمْ عانى البَشَرُ ولا يزال في ذلك المجال، ـ أي مجال: علم الوجود: Ontholgy ـ من جرّاء ابتعاده عن هدى الله المستقيم ودينه القيِّم، وتراثُ الفلاسفة أفضل شاهد على ما نقول، حيث نراهم بعد أن اغترَّوا واستغنوا بالقدر الضئيل من العلم المتلبس بكثير من الظن والهوى، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [غافر]، نعم نراهم قد تاهوا وتحيَّروا، وبعد جهدٍ جهيد، رجعوا بِخُفَّيْ حُنَين، بل صِفْرَ اليدين، وما ازدادوا بعد تجوالهم الطويل المملّ بحثاً عن المعرفة، إلّا حِيرةً وضلالاً واختلالاً وخَبالاً، وبدل أن يكونوا هداة للبشرية، كما كانوا يزعمون ويدَّعون، صاروا عليها وبالاً، وضغثاً على إبَّالةٍ[1].

---

(١) الإبّالة: الحُزمة من الأعواد ونحوها، ومنه المَثَل: (ضِغث على إبالة) أيْ: عِبْءٌ على عِبْءٍ أتمَّ فَدْحَهُ. المعجم الوسيط، ص٣.

وكانت هذة النتيجة المُرَّة واضحةً ومتوقعةً منذ البداية، من بشر لا يمتلكون إلا قليلاً من العلم، بالنسبة لحقائق الوجود وأسراره، كما قال تعالى: ﴿. . . وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء]، ومعلوم أن المعرفة الصحيحة بالوجود (الخالق جلَّ وعلا والخلق)، متوقفة على إدراك أسرار الوجود كلها، ولكن من يعلم حقائق الوجود وأسرارَهُ، ويَطَّلع على مكنوناته وخفاياه، سوى الله الخالق المالك سبحانه وتعالى؟! ولهذا قال الله العليم عن كتابه الحكيم الذي يَهَبُ البَشَرَ المعرفة الصحيحة عن الوجود: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾﴾ [الفرقان].

نعم إن الله الخالق الرب المالك تبارك اسمه، هو وحده الذي يعلم حقيقة نفسه كما ينبغي له، كما قال: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾ [طه]، وكذلك هو وحده الذي يُدْرِكُ كلَّ خفايا خَلْقِهِ وأسراره، كما قال: ﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤﴾﴾ [التغابن]، وقال: ﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك]، لذا: لنستمعْ إلى كلام ربنا العظيم جلَّ شأنه، كي نتعرَّف على الله الخالق وأسمائه وصفاته وشؤونه، وكي نطَّلع على خَلْقِهِ من السمٰوات والأرض وما بينهما، وما فيهما، ومَنْ فيهما، وخاصة أنفسنا نحن البشر، وحياتنا الدنيوية والأخروية، والحكمة التي خلقنا الله الحكيم من أجلها، والمصير الذي ينتظرنا، وذلك بغية تَمَكُّنِنا ـ بعد المعرفة الصحيحة بالخالق وخلقه عموماً، وأنفسنا خصوصاً ـ من اتّخاذ الموقف السليم الرشيد الذي يليقُ بالله الخالق الرب المالك جَلَّتْ عَظَمَتُهُ، ويَجْدُرُ بنا نحن كمخلوق خلقه الله الحكيم في أحسن ما يكون الخلق: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [التين]، وتَحقيقاً لِحكمة وجودنا التي خلقنا الله تعالى لها: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات]، كي لا نرجع قهقرى بعد تكريم الله تعالى لنا: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ. . .﴾ [الإسراء]، إلى دَرَكِ الهبوط والتَّسَفُّل: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾﴾ [التين]، ومن ثم السقوط في الآخرة في بئر الخاسرين:

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾﴾ [المطففين]، ونيلاً لرتبة المؤمنين الصالحين المستثنين من الهبوط والتسفل: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾﴾ [التين]، والإستقرار في مقام علّيين: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾﴾ [المطففين]، محظوظين برضوان رب الله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ [التوبة].

وسنتحدث في هذا الكتاب الأول «من هذه الموسوعة: **(الإسلام كما يتجلّى في كتاب الله)**» عن المعرفة، في ضوء كتاب الله المنير، المعرفة الصحيحة الوحيدة بالخالق «عز وجل» وبالخلق.

وإنما جعلنا موضوع معرفة الوجود، أو علم الوجود، (Ontholgy) الكتاب الأول من هذه الموسوعة والحلْقة الأولى من سلسلتها، لأن المعرفة بالشيء هي أساس التعامل الصحيح معه، كما قيل بحق: (الحكم على الشيء فرع عن تصوّره)، وقد قال الشاعر:

وكلُّ من بغير علمٍ يَعْمَلُ　　　أعمالُهُ مردودة لا تُقْبَلُ

وأعتقد جازماً بأنّ السبب الرئيس لانحراف الغربيين نحو الإلحاد وحَيْدتهم عن الدين «أي الدين الرباني السماوي» هو التشوُّه الحاصل لديهم عن الله تعالى وبقيَّة أركان الإيمان، كالملائكة والكتب المنزلة والرسل الكرام، وذلك جرّاء التحريف الذي أصاب الوحي الرباني السابق المتجسِّد في كتبه وتعاليم رسله وأنبيائه الكرام «عليهم السلام» قبل النبيّ الخاتم والرسول الأعظم محمد «ﷺ» هذا وقد أولى كتاب الله الحكيم موضوع المعرفة (علم الوجود) عناية خاصة، وذلك لأنه إن كان الإيمان بأركانه الأساسية، هو أصل الإسلام والإلتزام به فرداً ومجتمعاً، فالمعرفة الصحيحة بدورها هي أساس الإيمان الذي يُبْنى عليه، إذ المعرفة الصحيحة بالوجود والتصور السليم عنه، يدفع بالإنسان نحو الإيمان بالله تعالى والإيمان ببقيّة القضايا المرتبطة به.

وسنفصل بإذن الله الكريم هذا **الموضوع المهم في فصول أربعة هذه عناوينها**:

الفصل الأول: ألله جلَّ جلاله فاطر السموات والأرض، مالك الملك، رب العـالميـن.

الفصل الثانـي: الخلق بمجموعه خلقه الله بحق، وكل شيءٍ فيه مخلوقٌ بحكمة وإتقـان.

الفصل الثالث: الإنسان خليفـة الله في الأرض.

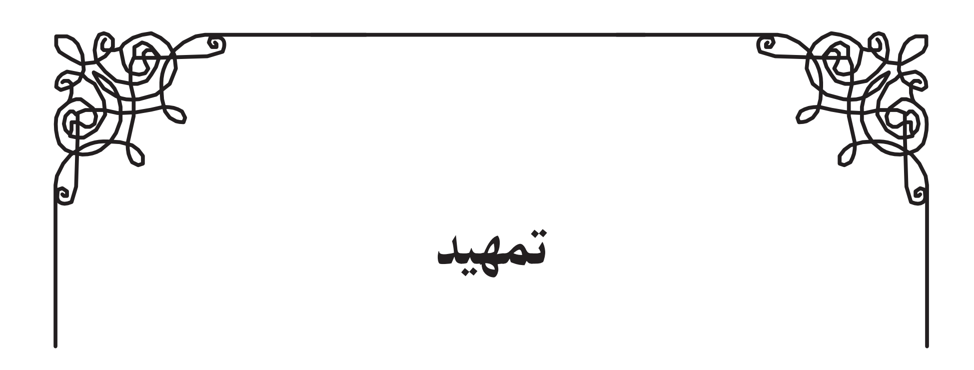
الفصل الرابع: حياة الدنيـا ابتلاء، وحياة الآخرة بقاء.





الفصل الأول

الله عَزَّوَجَلَّ فاطر السمٰوات والأرض، مالك الملك، رب العالمين



تمهيد

ويتكون هذا الفصل من المباحث الأحد عشر الآتية:

المبحث الأول: الإعتقاد بخالقية الله ومالكيته وربوبيَّتِهِ، أعْظَمُ الحقائق الفطرية وأوضح البدائه العقلية.

المبحث الثاني: الله تبارك وتعالى مُنَزَّهٌ عن كُلِّ نقصٍ، وله الكمال المطلق وكل المخلوقات قاطبة تُسَبِّح بحمده.

المبحث الثالث: الله جلَّ وعلا له كلُّ الأسماء الحسنى، وجميع الصفات العُلى.

المبحث الرابع: الله العليُّ العظيم جلَّ وعزَّ لا يُشْبِهُ شيئاً من خلقه.

المبحث الخامس: ليس لشيء ولا لأحدٍ أي نسبةٍ مع الله تعالى، إلَّا نِسْبَةُ المخلوقية والإنتساب اليه بالعبودية.

المبحث السادس: الله جلَّ شأنه مهيمن على الخلق كُلِّه، فهو على كل شيءٍ قدير، وفعّال لما يريد، وبكل شيءٍ عليم وخبير.

المبحث السابع: الله تعالى جدُّه حيٌّ قيوم، يدبِّر أمر مخلوقاته، ولا يَغْفُلُ عن شيءٍ منها ولو لحظةً، ولا يعرف التعب والإعياء اليه سبيلاً.

المبحث الثامن: كل المخلوقات خاضعة لمشيئة الله ومحكومة بسننه، ولا يحيد مخلوق عمّا رسم له قيد أنملة.

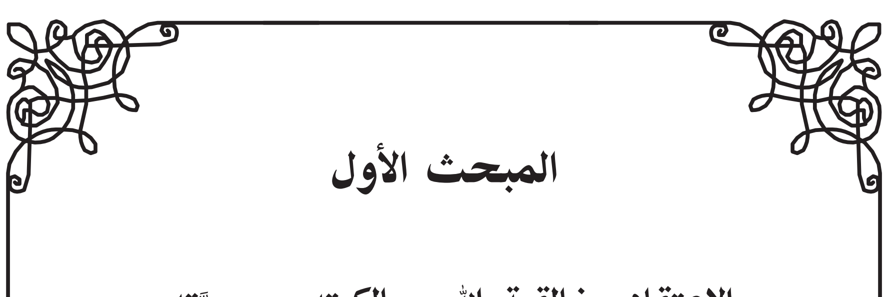
المبحث التاسع: إنَّ الله تعالى جعل لِخَلْقِهِ سنناً ونواميس صارمة

ومحددة ولكن مشيئته مطلقة، وهي تابِعةٌ لِحِكْمَتِهِ البالغة وعدله المطلق.

المبحث العاشر: الله تعالى فوق خلقه، مستوٍ على عرشه، على الوجه الذي يليق به سبحانه، إذ ليس كمثله شيء، لا في ذاته، ولا في أسمائه، ولا في صفاته، ولا في شؤونه.

المبحث الحادي العاشر: الله تبارك وتعالى هو الأول والآخر والظاهر والباطن.





المبحث الأول

الإعتقاد بخالقية الله ومالكيته وربوبيَّتِهِ، أعْظَمُ الحقائق الفطرية، وأوضح البدائه العقلية

سَنَسْرُد أولاً مجموعة من الآيات المباركة ذات الصلة بالموضوع، كي يكون مصدر البحث أمام أنظارنا، ثُم على ضوئها نُرَتِّب أجزاء الموضوع في عدة مطالب.

قال الله تبارك وتعالى:

١ ـ ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾﴾ [العلق].

٢ ـ ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الأعراف].

٣ ـ ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الروم].

٤ ـ ﴿۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾ [إبراهيم].

٥ - ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ (٢٨)﴾ [الرعد].

٦ - ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ (٣٦)﴾ [الطور].

٧ - ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٢٣) قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ (٢٤) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ (٢٥) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ (٢٦) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧) قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (٢٨) قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ (٢٩)﴾ [الشعراء].

٨ - ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا (٤٠)﴾ [فاطر].

٩ - ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (١٧)﴾ [النحل].

١٠ - ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ . . . (٣)﴾ [الفرقان].

١١ - ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (١٠) هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (١١)﴾ [لقمان].

١٢ - ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٩٥) فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ (٩٦) وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٩٧) وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ (٩٨) وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ

أَعۡنَابٖ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشۡتَبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٍۗ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓۚ
إِنَّ فِي ذَٰلِكُمۡ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ (٩٩) وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلۡجِنَّ وَخَلَقَهُمۡۖ وَخَرَقُواْ
لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتِۭ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ (١٠٠) بَدِيعُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ
بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ (١٠١) ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ
فَٱعۡبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ (١٠٢)﴾ [الأنعام].

١٣ ـ ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٞ تَنتَشِرُونَ (٢٠) وَمِنۡ
ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم
مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡعَٰلِمِينَ
(٢٢) وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبۡتِغَآؤُكُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّ فِي
ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ (٢٣) وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا
وَطَمَعٗا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَيُحۡيِۦ بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ فِي
ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ (٢٤) وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ
بِأَمۡرِهِۦۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمۡ دَعۡوَةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ إِذَآ أَنتُمۡ تَخۡرُجُونَ (٢٥) وَلَهُۥ مَن فِي
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ (٢٦) وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ
وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ
ٱلۡحَكِيمُ (٢٧)﴾ [الروم].

١٤ ـ ﴿نَحۡنُ خَلَقۡنَٰكُمۡ فَلَوۡلَا تُصَدِّقُونَ (٥٧) أَفَرَءَيۡتُم مَّا تُمۡنُونَ (٥٨) ءَأَنتُمۡ تَخۡلُقُونَهُۥٓ أَمۡ
نَحۡنُ ٱلۡخَٰلِقُونَ (٥٩) نَحۡنُ قَدَّرۡنَا بَيۡنَكُمُ ٱلۡمَوۡتَ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ (٦٠) عَلَىٰٓ أَن
نُّبَدِّلَ أَمۡثَٰلَكُمۡ وَنُنشِئَكُمۡ فِي مَا لَا تَعۡلَمُونَ (٦١) وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُولَىٰ فَلَوۡلَا
تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَحۡرُثُونَ (٦٣) ءَأَنتُمۡ تَزۡرَعُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلزَّٰرِعُونَ (٦٤) لَوۡ
نَشَآءُ لَجَعَلۡنَٰهُ حُطَٰمٗا فَظَلۡتُمۡ تَفَكَّهُونَ (٦٥) إِنَّا لَمُغۡرَمُونَ (٦٦) بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ
(٦٧) أَفَرَءَيۡتُمُ ٱلۡمَآءَ ٱلَّذِي تَشۡرَبُونَ (٦٨) ءَأَنتُمۡ أَنزَلۡتُمُوهُ مِنَ ٱلۡمُزۡنِ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡمُنزِلُونَ
(٦٩) لَوۡ نَشَآءُ جَعَلۡنَٰهُ أُجَاجٗا فَلَوۡلَا تَشۡكُرُونَ (٧٠) أَفَرَءَيۡتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ
(٧١) ءَأَنتُمۡ أَنشَأۡتُمۡ شَجَرَتَهَآ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡمُنشِـُٔونَ (٧٢) نَحۡنُ جَعَلۡنَٰهَا تَذۡكِرَةٗ وَمَتَٰعٗا
لِّلۡمُقۡوِينَ (٧٣) فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ (٧٤)﴾ [الواقعة].

١٥ ـ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾ [الأعلى].

١٦ ـ ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝٤﴾ [الملك].

١٧ ـ ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧﴾ [السجدة].

١٨ ـ ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ۝٨٨﴾ [النمل].

١٩ ـ ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ۝١٨٥﴾ [الأعراف].

٢٠ ـ ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ۝٢﴾ [الفرقان].

٢١ ـ ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ۝٤٩﴾ [القمر].

٢٢ ـ ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝٤٨ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ۝٤٩ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾ [طه].

❊ ❊ ❊

المطلب الأول
توضيح مفهوم (الحقائق الفطرية) و(البَديهيَّات العقلية)

١ ـ أما (الحقائق الفطرية) فنقصد بها تلك الأشواق والنَّزعات والغرائز التي ركَّزها الخالق الحكيم في نفوس جميع البشر، وفَطَرهُمْ عليها كُلَّهم بلا استثناء، وذلك مثل: حُبُّ العلم والإطِّلاع، وحُبُّ الجمال والحُسْنِ الظّاهري والباطني، وحُبُّ العدل، والإنجذاب إلى الأهل والأقارب، والتعلُّق بالقوم والوطن... إلخ.

ومن قرائن فطرية نزعة وغريزةٍ ما، هي كَوْنُها عامة ومشتركة بين جميع الناس، وكونها مستعصية على الإجتثاث والإقتلاع، وانْ أَمكن كَبْتها لِمُدَّةٍ.

وبناءً عليه:

فالمقصود بكون الإعتقاد بخالقية الله تبارك وتعالى وربوبيته، حقيقةً فطرية، هو انجذاب الناس على سجيتهم الفطرية، نحو الله تعالى حُبّاً وشَوْقاً وخوفاً وخشيةً ودعاءً وعبادةً وتوكلاً ورجاءً... إلخ، وهذا واقع مشهودٌ على مَرِّ التاريخ البشري، وفي كل المجتمعات بلا استثناء، بل حتى عبادة الناس (الكفرة) للأصنام بمختلف صورها وأنواعها، ليست إلَّا استجابةً لذلك النداء والإندفاع الفطري، ولكن بطريقة مغلوطة، إذ هناك داخل فطرة وكينونة كل انسان، داعٍ يدعوه ودافع يدفعه نحو الله الخالق جلَّ جلاله، فإذا أصاب الدّينَ الحَق الذي يأخذ بيده إلى الصراط المستقيم، لإشباع نزعته الفطرية (نزعة التعبد لله تعالى والتديّن له) فَبِها ونِعْمَتْ، ولكن إذا أخطأ الطريق الصحيح، فهو يعبد شيئاً آخر، ويستحيل أن يقعد فارغاً من التعبد لشيء ما، ولو كان حجراً أو بقراً أو بشراً أو قمراً أو هوىً، وذلك مثل الظامىء المُتلَهِّف إلى الماء، إذا لم يجد ماءً صافياً، فهو يشرب عَكِراً بإلحْاح مِن حاجة بدنه إلى الماء، ومن يدقق النظر في أحوال الناس ـ غير المسلمين ـ يجدهم حتى الملاحدة منهم، يعبدون شيئاً ما، ولا يخلو أحد

منهم من التعبد لشيء ما، ولهذا قال تعالى مخاطباً رسوله الكريم: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢﴾ [الكافرون]، وبما أن الخطاب موجَّه إلى كل الكافرين بدلالة (ألف ولام) الجنس، فهذا دليل على أن قلب الإنسان أياً كان، مسلماً أو كافراً، لا يخلو من التَعَلّق بمعبودٍ يتخذه إلهاً ويراه فوقه، سواء كان ذلك المعبود المألوه إلهاً ومعبوداً حقّاً، وهو الله تعالى وحده، أو إلهاً ومعبوداً باطلاً، وهو كل الآلهة المزيَّفة التي يتخذها الكفار معبوداتٍ لهم من دون الله، ولهذا كان شعار الإسلام المدوِّي والعظيم: (لا إلٰه الاّ الله)، وذلك لأن مشكلة البشر لم تكمن قط في قضية الإعتراف أو عدم الإعتراف بخالقية الله تعالى ومالكيته للخلق، إذ هذه القضية كانت ولا يزال موضع اتفاق بين البشر، إلَّا مَنْ شذَّ منهم من الملاحدة، ولكن القضية التي دار عليها رَحى الحرب، بين جبهة الإيمان بقيادة الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام) وجبهة الكفر بقيادة الطواغيت والأصنام وسَدَنتها، هي: (من الذي يجب أن يُعْبَد ويُطاع؟!)، ولهذا يقول تعالى عن أهل الكفر: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٨٧﴾ [الزخرف]، يعني: ما داموا يقرّون بخالقية الله تعالى لهم، اذن: لِمَ يُصْرَفُون وتُحَرَّفُ وجوهُهُم إلى عبادة غيره؟!

٢ ـ و(البديهيات العقلية) هي تلك القوانين العقلية التي فُطِرتْ عليها عقولُ البشر كافة، وتُدْرِكُها العقولُ السليمة بداهة بلا عَناءٍ، مثل: استحالة جمع النقيضين (ككون الشيء موجوداً ومعدوماً في آن واحد ومكان واحد)، وكون الكلِّ أكبر من جزئه، والقول بأن (٢+٢ = ٤)... إلخ.

والمقصود بكون الإعتقاد بخالقية الله وربوبيته ومالكيته بديهياً في عقول الناس، هو أن هناك قوانين بديهية (أي واضحة) عقلية، تُجْبِرُ العقل السليم على الإقرار بخالقية الله تعالى وربوبيته ومالكيته للخلق، وخصوصاً كلٌ من قانوني: (السببية، والنظام)، وقانون السببية خلاصته: أنه لا يحدث شيء من غير سبب، أي (لكل حادثٍ مُحدِثٌ)، كما أن خلاصة قانون النظام: أن النظام لا يوجد بدون مُنَظِّم، أي (لكل نظام منظِّم).

وكيفية تطبيق هذين القانونين اللَّذَيْنِ اتفقت عليهما عقولُ البشر كافة، هي ببساطة ووضوح، أن يقال: أن هذا الخلق الذي نشاهده ـ أو الصحيح بعضاً من ظاهره ـ حَدَثٌ حَدَثَ، وبما أنه لا يَحْدُث حَدَثٌ من دون مُحْدِثٍ، فلا بُدَّ مِنْ أنْ يكون لهذا الخلق خالقاً، أَوْجده وأنشأه، وهو الله تبارك وتعالى.

ثم أن هذا الخلق منظَّم ومتْقَنٌ غاية التنظيم والإتقان، وطالمَا أن وجود النظام والإتقان يقتضي وجود مُنَظِّم ومُتْقِنٍ، فلا بُدَّ من مُنَظِّمٍ عليم، ومُتْقِنٍ حكيم، لهذا الخلق وهو الله تبارك وتعالى.

والآن بعد أن وضحنا مفهوم كلّ من (فطرية الإعتقاد بخالقية الله) و(بَديهيَّة الإعتقاد بخالقية الله)، فَلْنَنْظُرْ إلى هذين الموضوعين في ضوء أَنوار آيات الله البيّنات، والتي أدرجناها من قبل، وذلك في المطالب الأَربعة الآتية:

❋ ❋ ❋

المطلب الثاني
فطرية الإعتقاد بخالقية الله وربوبيَّتِهِ ومالكيته

١ ـ في الآيتيْن (١ ـ ٢) من (العلق): ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢﴾، يأمر الله تعالى نبيَّه ﷺ بالقراءة باسم ربه الذي خلق، ومفعول (خلق) محذوف كي يذهب الذّهنُ كلَّ مذهب، ويتأمل كل مخلوق خلقه الله تعالى، ثم يخصُّ الإنسان الذي خلقه من (علق) بالذِّكر، من بين كل المخلوقات، لخطورة شأنه وجسامة خطبه.

ومن الواضح أن هاتين الآيتين وما بعدهما هي أول القرآن نزولاً، إذ نزلت هذه الآيات على النبي الخاتم ﷺ كما جاء في (صحيح البخاري) وغيره[1] في (غار حراء) «**أَوَّلُ مَا بُدِىءَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْوَحْيِ**» (رَوَاهُ البُخَارِيُّ برقم: (٣)، وَمُسْلِمٌ برقم: (٢٢٣))، إذن: قَدْ أمر الله تعالى رسوله بداية وقبل أي حديث آخر، أنْ يقرأ كتاب الله باسم ربه الخالق، وهذا يدل أوضح الدلالة على أَنَّ الإعتقاد بخالقية الله تعالى، مغروز في فطرة البشر، من دون تعليم أحدٍ، بل هكذا خلقهم الله عارفين بربهم ومُقِرِّين بخالقيته وربوبيته، وإلَّا لَما خاطب الله النبيَّ الخاتم ﷺ ومن خلاله البشرية كُلَّها، في أول آيات أنزلها، بهذه الصيغة، ولو كانوا جاهلين بربهم بفطرتهم، لعرَّف بهم الله الحكيم نَفْسَهُ أولاً، ثم انْتَقل معهم إلى المواضيع الأخرى، ولكن بما ان الله الحكيم وهو أعلم بعباده منهم بأنفسهم، يعلم أنهم يعرفونه خالقاً وربّاً ومالكِاً، تكلَّم معهم في بداية وحيه الخاتم بما يريده منهم، ولا شك أن غير هذا ـ أي غير أنْ يَفْطِرَ عبادَهُ على معرفته ـ لا يليق بحكمة الله وكرمه ورحمته ولطفه.

٢ ـ والآيتان (١٧٢ ـ ١٧٣) من سورة (الأعراف) كذلك تدلآن على فطرية معرفة الله تعالى في قلوب البشر، حيث يصوِّرُ الله الحكيم ـ حسبما

(١) صحيح البخاري: ٣، صحيح مسلم: ٢٢٣.

أفهم وأُرَجِّح ـ حالة البشر في معرفتهم بربهم، بفطرتهم التي فُطِرُوا عليها، في صورة من أُخِذَ منه العهد والميثاق المُبْرَم، على الاعتراف بربوبية الله تبارك وتعالى له، وقد فَسَّر بَعْضُ المفسِّرين هاتين الآيتيْن، مستندين إلى بعض المرويات[1]، بأنهما تَتَحَدَّثان عن حادِثَةٍ وقعت بالفعل «أي حادثة أخذ الله تعالى الميثاق من البشر، منذ أنْ كانوا ذرية في صُلْبِ أبيهم آدم عليه السلام»، ولبعض العلماء شكوكٌ في سند تلك المرويات، ولكن سواءٌ صحَّ سند تلك المرويات أم لا، فمآلُ الرأيين واحدٌ، وهو: أنَّ معرفة الإنسان بربه، وإقراره بخالقيته وربوبيته وألوهيته، شيءٌ مركوز في أعماق وجوده، ومُعْتَجِنٌ مع طينة فِطْرَته وخِلْقَته.

٣ ـ والآية (٣٠ من الروم): ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ٣٠﴾، كذلك تدلُّ بجلاء على فطرية معرفة الله، لأنَّ الله تعالى بعد أن يأمر الإنسان بالإلتزام الجادِّ الخالص بدينه الحق، يُفَسِّر دِيْنَهُ الحق بقوله: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ﴾ وهذا يعني أنَّ دين الله الآمِر بالتوحيد والعبودية لله تعالى، مُطابِقٌ ومُتَوافِقٌ مع الخِلْقة والسَّجيَّة التي فَطَرَ الناس عليها، أي أنَّهما (الدين والفطرة) وجهان لحقيقة واحدة، وهي العبودية والدينونة لله، ثم أخبر جلَّ وعلا أن تلك الفطرة المتطابقة مع الدين الحق، لا تَقْبَل التبديل والتغيير: ﴿...لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ...﴾، ومن ثم عَدَّ مطابقة الفطرة للدين، هي التديُّن والتعبد الصحيح، ﴿...ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ...﴾، ثم بين أن أكثرية الناس لا يعرفون هذه الحقيقة: ﴿...وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ...﴾.

---

(١) ومن تلك المرويات هذا النص: (إن الله تعالى أخذ الميثاق من ظهر آدم بنعمان يوم عرفة فأخرج من صُلْبِهِ كل ذرية ذرها فنشرها بين يديه كالذر ثم كلَّمهم قُبُلاً: أَلَسْتُ بربكم؟ قالوا: بلى شهدنا) أخرجه أحمد: ٢٤٥٥، والنسائي في السنن الكبرى: ١١١٩١، والحاكم في المستدرك وابن سعد في الطبقات الكبرى، والطبري في تفسيره، وأورده الألباني في صحيح الجامع: ١٧٠١، وقال: صحيح.
انظر حاشية: روح المعاني، ج٥، ص١٣٤.

وكلمة (الفطرة) مشتقة من (فَطَرَ يَفْطُرُ فَطْراً وفِطْرَةً) وتفيد كلمة (فَطَرَ) معنى الشق، ومعنى صنع الشيء لأول مرة[١]، وحكي عن ابن عباس ﷺ أنه قال: ما كنت أَعلم معنى (فاطر) حتى سمعت أعرابيين يتنازعان في (بئر) فقال أحدُهما: أنا فطرتها، أي أنا حفرتها من البداية[٢].

وَقَالَ رَسُول الله ﷺ: «**كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ وَيُمَجِّسَانِهِ**» (مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ: البُخَارِيُّ برقم: (١٢٩٣)، وَمُسْلِمٌ برقم: (٢٦٨٥) عَن أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ).

٤ ـ والآية (١٠) من سورة ابراهيم: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ...﴾، كذلك تَدُلّ دلالة واضحة، على فطرية الإعتقاد بوجود الله تعالى وخالقيته، وذلك لأن الله تعالى قال على ألسنة كل الرسل الكرام (عليهم الصلاة والسلام) في خطابهم مع رؤساء أقوامهم وبأسلوب الإستفهام الإنكاري: هل هناك شك في الله الذي فطر السمٰوات والأرض؟! ومعنى هذه الجملة كما هو واضح في اللغة العربية: ليس هناك أدنى شك في خالقية الله تبارك وتعالى، وسؤال الرسل (عليهم الصلاة والسلام) هذا يَحْمِلُ في طيّاتِهِ دليل المطلب الذي يريدون اثباتَهُ، وذلك باستعمال كلمة (فاطر) ويصير معنى الجملة هكذا: طالما أن الإعتقاد بوجود الله الفاطر مركوز في الفطر، وما دام أنَّ هذا الخلق (مُحْدَثٌ) فالله هو الذي فَطَرَه وأَبْدَعه، ولا يمكن الشك فيه أصلاً.

٥ ـ والآية (٢٨) من سورة الرعد: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾، كذلك دالَّة على المطلب المذكور، وذلك لأن الله تعالى أَخْبَرَ وأَعْلَم، أنَّ القلوب تطمئن بذكر الله، والإطمئنان هو السكون والأُنْسُ، وواضح أن القلب لا يميل ولا يسكن إلَّا إلى مَنْ يَعْرِفُه، ولا يأنس إلَّا بمن يُحبُّهُ، وهذا مشهود ومُجَرَّبٌ لأهل

---

(١) المعجم الوسيط، ص٦٩٤.

(٢) المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير، ص١١٢٣.

الإيمان، بل ومذاق ومعاين وليس معروفاً فَحَسْبُ، وعليه: فاطمئنان القلوب بذكر الله تعالى، دليل على أن القلوب والفِطَرَ عارفة بربها ومُحِبَّةٌ له، ولعلَّ سائلاً هاهُنا يسأل فيقول: إذن ما معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَـٰتِنَا غَـٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾﴾ [يونس]، حيث نسب الله الإطمئنان إلى الكفار بسبب تعلُّقهم بالدنيا، أولا يَدُلّ هذا على أنَّ القلب كذلك يطمئن بغير ذكر الله؟!

والجواب:

أولاً: خَصَّ سبحانه وتعالى أهلَ الإيمان باطمئنانهم بذكر الله، وهذا واضح، وذلك لأنَّ مَنْ لم يؤمِنْ بالله ـ وانْ كان عارفاً به بعقله وبقلبه ـ لا يحبه ولا يُذْعِنُ له ولا يُعَظِّمه ولا يتوكل عليه... إلخ، كما أَمَر به الوحيُ، فكيف يطمئن قلبه بذكر خاوٍ من روح الحب والخشوع والإذعان والتوكل والتعظيم؟!

ثانياً: الإطمئنان النابع من الإيمان بالله تعالى بسبب الإرتباط بالله وذكره، هو اطمئنان بصيرٌ واعٍ وثابتٌ ومستقرٌ، وهذا هو الإطمئنان الحقيقي، أمّا الإطمئنان المنسوبُ إلى الكافرين، بسبب انغماسهم في الدنيا وشهواتهم والغفلة عن الله تعالى ولقائِهِ، فهو اطمئنان كاذب خادعٌ طاريء، ناشيء عن الغفلة والجهل والسَّفَهِ، مثله مثل تلك النَّشْوَة الكاذبة القصيرة التي يشعر بها السكران لحظاتٍ، ثم لا يَلْبَثُ أن يُفيقَ، ويتبَّين له جَهْلُهُ وغرورُه وسُكْرُه!

❊ ❊ ❊

المطلب الثالث
بَديهية الإعتقاد بخالقية الله وربوبيته ومالكيته

وسنوضِّح هذا الموضوع في فقرتين، بناءً على كُلٍّ من قانُونيْ: السببية والنظام:

الفقرة الأولى: بديهية الإعتقاد بخالقية الله، طبقاً لقانون السببية البديهي:

١ ـ وتدل على بديهيَّة الإعتقاد بخالقية الله وربوبيته ومالكيته، الآيتان (٣٥و٣٦) من (الطور): ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾﴾، إذْ يوجِّه الله تعالى سؤالاً بصيغة الإستفهام الإنكاري إلى الكفار ويقول: أَوَ أُوْجِدوا وأُحْدِثوا من غير خالقٍ، أم هم الذين خلقوا أنْفُسَهُم؟ وبطلان كلا الإحتمالين واضحٌ، لأنَّ الإيجاد لا يمكن بدون موجِدٍ، ولا يُخْلَقُ المخلوق من غير خالق، طبقاً للقانون العقلي القائل: لا بد لكل شيء من سبب، ثم كيف يتصوّر أن يَخْلُق نَفْسَهُ، مَنْ لا وجود له؟! ثم لم يكتف الخالق الحكيم بذلك التساؤل المُفْحِم، بل أضاف اليه تساؤلاً آخر، فقال: أم هل أوجد أولئك الكفارُ السمٰواتَ والأرض؟ ومن الواضح أن أجحد المكابرين لا يستطيع أن يدَّعي بأنَّ له يداً في إيجاد السمٰوات والأرض! وعليه: فلا يمكن لذي عقلٍ سليم ـ إذا احترم عقله وقوانينه ومقرراته ـ إلَّا أنْ يُسَلِّمَ بكونه مخلوقاً لله تعالى، وكذلك أَنْ يُقِرَّ بأنَّ كل من سواه وما سواه من المخلوقين والمخلوقات، صادرٌ من مصنع الله الخالق العليم جلَّ شأنه.

٢ ـ وكذلك تدل عليها الآيات (٢٣ ـ ٢٨) من (الشعراء): ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

حيث يجيب موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ على سؤال فرعون

الإستفزازي: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ بثلاثة أجوبةٍ، كُلُّها مُبْتَنيةٌ على القانون العقلي البديهي المذكور، فيقول:

أ ـ ﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

ب ـ ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

ج ـ ﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

أي: أن (ربَّ العالمين) الذي أرسلنا وندعوك اليه، هو: خالق ومدبِّر ومالك السمٰوات والأرض وما يقع بينهما، إذْ لا بُدَّ لهذا الخلق المترامي الأطراف، من موجدٍ ومُدَبِّرٍ ومالكٍ يتولَّى أَمره! وكذلك هو خالقكم ومالككم ومدبِّركم أنتم ومن سبقكم من آبائكم والأجيال المُوغِلَةِ في القدم، إذْ لا بُدَّ للناس المعاصرين والغابرين، من فاطر فَطَرَهُم ومُدَبِّر يُدَبِّرُ أمرهم، أتى بهم إلى هذه الحياة لمدة ثم يَذْهَبُ بهم، وكذلك (ربُّ العالمين) هو مصرِّف الليل والنَّهار، ومحرِّك الشمس والقمر، إذْ لا بد من أنْ يكون وراء هذا التدبير المحكم، من مدبِّرٍ حكيم.

والملاحظ أن موسى عليه السلام عقَّب على الدليل الأول بقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ ولكن لم يُعقِّبْ على الدليل الثاني بشيء، وعقَّب على الثالث بقوله: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ وأرى أنَّ حكمة ذلك، هي:

أَنَّ الوسيلة التي يُدْرِكُ الإنسانُ بها حقَّ الإدراك ـ بعد المعرفة الفطرية والبديهية العقلية ـ ربوبية الله للسموات والأرض، انما هي العلم الموصل لليقين، وذلك لأن الإنسان كلَّما ازداد علماً بأسرار السمٰوات والأرض، واطَّلع على قوانينهما المدهشة، ازداد اقتناعه الفطري والعقلي بربوبية الله تعالى لهما، ولم يُعَقِّبْ موسى عليه السلام على الدليل الثاني بشيء، لأن كون الإنسان مربوباً ومخلوقاً لربٍّ وخالقٍ عليم قدير، يكفي لإثباته مجرد الشعورُ الذاتيُّ المستكِنُّ في النفس، ولأن الموضوع مرتبط به ذاتياً، فلا يحتاج إلَّا إلى مجرد الشعور، وعقَّب على الدليل الثالث بقوله: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ لأنَّ إدْراك حركة الليل والنَّهار الناشئة من دوران الشمس والقمر وشروقهما وغروبهما، يكفيه مجرد امتلاك عقلٍ سليم، وان لم يملك شيئاً من العلم بقوانين وأسرار الخلق.

٣ ـ وكذلك يدل عليها قوله تعالى في الآية (٤٠) من سورة (فاطر): ﴿قُلْ

أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ. . .﴾، إذْ يُبْطِلُ الله تعالى في هذه الآية الكريمة، اعتقادَ المشركين الفاسد الذي يدفعهم إلى عبادة غير الله من الآلهة المزيَّفة، بالإستناد على أن غير الله تعالى لم يتأتَّ ولن يتأتى منه خَلْقُ شيء البتة، لا على سبيل الإستقلال والإنفراد، ولا على سبيل الإشتراك، ومَنْ أَلَحَّ في معاندة هذه الحقيقة الواضحة، فها هو الميدان ممهَّد، فَلْيُرِنا شيئاً مخلوقاً لغير الله تعالى! ولكن هيهات وأنَّى لمن هو محتاج في نفسه، أنْ يُغْنِيَ غيره، وكيف يُعطي الشيءَ مَنْ هو فاقِدُهُ!

٤ ـ وكذلك تدل على بديهية الإعتقاد بربوبية الله وخالقيته، الآية (١٧) من (النحل): ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾﴾، حيث يوجه الله تعالى سؤالاً إستفهامياً إنكارياً، إلى الكفار فيقول: هل الذي يخلق (الأشياء)ـ وهو الله الخالق الباريء ـ يستوي مع من لا يخلق شيئاً ـ وهو كل من عُبِدَ سواه ـ!؟ ويُعَقِّبُ على قوله هذا، بقوله: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: أفلا تتذكرون تلك الحقيقة الواضحة البينة، أنَّ الخالق والمخلوق لا يستويان، وانه لا خالق إلَّا الله الخالق الباريء المصوِّر؟!

ومن الواضح أن طرح هذا التساؤل بهذه الصيغة، دليل على أن الإعتقاد بخالقية الله، مما تدركه العقول بداهة، وخالق الناس جلَّ وعلا، يعلم ما تحتوي عليه عقول الناس وأذهانهم، من قوانين ومقررات.

٥ ـ وكذلك يدل عليها قوله تعالى في الآية (٣) من (الفرقان): ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ. . .﴾ حيث ينفي الله تعالى عن كل المعبودات التي يتخذها الكفار والمشركون آلهةً لهم، تَمَكُّنَهُمْ من إيجاد أي شيء، ويبين أنها هي أَيضاً مخلوقة في ذاتها، كغيرها من مخلوقات الله، ومن الواضح انه لولا أن الإعتقاد بخالقية الله تعالى وحصرها فيه مركوز في العقول، كمسلَّمة واضحة، لما تكلَّم الرب الحكيم عن هذه القضية بهذا الأسلوب الذي لا يَدَع أيَّ مجالٍ للنقاش والجدال! وهذا هو ما يؤيِّدُه الواقع أيضاً، إذْ لم يُسْمَعْ يوماً مِنْ أحدٍ، مهما كان مُوغِلاً في الكفر والجحود، ادِّعاءُ خلق شيء من الأشياء، ولا شك أن مجرد ادعاءٍ كهذا كافٍ لافتضاح مُدَّعيه، اللّهم إلَّا إذا كان شخصاً معتوهاً في وَسَط المجانين.

الفقرة الثانية: بديهية الإعتقاد بربوبية الله، طبقاً لقانون النظام البديهي:

وقد أَوْلى كتابُ الله الحكيم هذا الموضوع عناية عظيمة، واحتلَّ هذا الموضوع مساحة واسعة جداً في سور وآيات كتاب الله المبين، ومن الصعب جداً استقصاؤها، ولكن هذه أمثلة منها فقط:

أولاً ـ الآيتان (١٠ ـ ١١) من سورة (لقمان):

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ۝١٠ هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ۝١١﴾، واستدل كتاب الله الكريم في هاتين الآيتيْن، بخمس ظواهِرَ مُتْقَنَة ومنظَّمة، على تَفَرُّده سبحانه بالخلق، وبالربوبية والتدبير لخلقه، وهي:

١ ـ ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ﴾، وقال في الآية (٢) من (الرعد): ﴿رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ﴾، و(عَمَد) جمع (عمود)[1]، وتحتمل هذه الجملة معنيين:ـ

أولهما: أن يكون ضمير (ها) في كلمة (ترونها) متعلقاً بـ(عَمَد)، أي: خلق السمٰوات (ورَفَعها) بأعمدة غير مَرْئيةٍ لكم، وقد يكون المقصود بـ(عمد) في تلك الحالة (قوة الجاذبية العامة) التي اكتشفها (اسحاق نيوتن) بعد أن لفت نَظَرَهُ سقوطُ تفاحةٍ من شجرتها، ووقوعها في الماء.

ثانيهما: أن يكون الضمير مُتَعلِّقاً بـ(السمٰوات)، أي: إنَّكم ترون السمٰوات غير مسنودة بأعمدة، مع رفع الله تعالى إيّاها.

وكلا المعنيين صحيح، ولكن المعنى الأول أوجه، وعليه يكون في

(١) ويجمع بـ(عُمُد) و(أعمدة)، المعجم الوسيط، ص٦٢٦.

الآية الكريمة اعجاز علمي، لإشارتها إلى وجود قوَّة الجاذبية العامة في السمٰوات، قبل أن يكتشفها (إسحاق نيوتن) ثم أن يشرحها (آينشتاين) من خلال نظريَّتِهِ النسبية بقرون كثيرة.

٢ ـ ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ أَي: جعل الجبال في الأرض راسخةً وراسية وضاربةً بجذورها في أعماق الأرض، كي لا تضطرب الأرض تحتكم بل تستقر وتتوازن، وهذا أدقُّ تعبير علمي لتوضيح دور الجبال في حفظ توازن الأرض المحاطة ببحري الهواء والماء، والدائرة حول نفسها وحول الشمس، ومع الشمس ومجموعتها حول نجم يسمى (العقاب الواقف) ومع (العقاب الواقف) ومجموعته و(مجرَّة درب التبّان) في دوران آخر.

٣ ـ ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾، أي ونشر في الأرض ـ جواً وبراً وبحراً ـ كل أنواع الحيوانات التي لا يُحْصي عَدَدَ أنواعها وأصنافها ـ دعْ أعْدادَ أفْرادِها ـ سوى الله ربِّ العالمين، وفي كيفية حياة الحيوانات وتحصيلها لرزقها، وبنائها لأوكارها وجُحورها وبيوتها وأعشاشها، ومحافظتها على نَسْلها ودفاعها عن نفسها، ثم ألوانها وخصوصياتها. . . إلخ، أسرار وأسرار وأسرار، لا يحيط بها إلَّا ربّها الخبير بها والمدبِّر لأمورها، جلَّ وعلا، وقد ألَّفَ كثير من العلماء الذين صرفوا شطراً من أعمارهم في البحث والفحص عن حياة الحيوانات، كتباً مستقلَّة حاوية بعضَ ما انكشف لهم من أسرار تلك المخلوقات، وأخُصُّ بالذكر (مورس ميترلينك)، الذي ألَّف كتاباً عن حياة (النحل)، وآخر عن (الورود)، وبيَّن أن تلك المخلوقات تعمل وتُنْجزُ أعْمالها بنظام مُتْقَنٍ يُحيِّر الألْباب، وقال تعالى: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾﴾ [هود].

٤ ـ ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾، وكلمة الـ﴿مَآءً﴾ هنا تشْمُلُ كُلاً من (المطر والثلج والبرد) إذ كلّها نازلة من السماء بكيفيات مختلفة: سائلاً، ومُنْجَمداً مخلخلة الأجزاء، ومُنْجَمِداً صَلْباً، والمقصود بكلمة السماء هو

السُّحُبُ، أو الجو الحامل لها، والسماء في اللغة العربية تعني الجهة الفوقانية مطلقاً، ولهذا قيل: (كل ما هو فوقك فهو سماؤك) ومن المعلوم أن المطر والثلج والبَرَد، إنَّما تتكون من البخار الذي تثيره وتُبَخِّرُهُ أشعَّة الشمس من المحيطات والبحار، ثم تحمله الرياح وبعد تلقيحها ـ وإنَّما يَحْدُثُ الرعدُ والبرقُ من جَرَّائه ـ تتكون منها السحب الثقال المُمْطِرة، وقد عبَّر كتاب الله الحكيم في عدة مواضع عن عملية تكوُّن الغيوم، ونزول الماء من السماء، أدقَّ تعبير، فعلى سبيل المثال قال تعالى:

أ ـ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾﴾ [النور].

ب ـ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الروم].

ج ـ ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [الحجر].

وكذلك أشار الحق تبارك وتعالى في مواضع كثيرة من كتابه الكريم إلى عملية إنزال الماء العَذْب الزُّلال من السماء، لما في عملية نزول الماء من نظام عجيب، ولما للماء العَذْب من أهمية قصوى في حياة الإنسان، إذْ هو عَصَبُ الحياة الرئيسي، ومن الواضح أنَّ مياه المحيطات كلها مالحة أُجاج، وليست لا تُرْوي فقط، بل وشربها يُميت الإنسان، ولكن الرحمٰن جلَّ وعلا يكوّن لنا الماء الزُّلال (مطراً وثلجاً وبرداً) من تلك المياه المالحة المُرَّة، بعد أن يصفيّه لنا من الأملاح والكدورات، ويَسْقينا اياه عذْباً صافياً سائغاً، كما قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الواقعة].

٥ ـ ﴿فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ﴾ أي أنبتنا في الأرض بذلك الماء النازل كل أنواع النباتات المِعْطاءة المثمرة، وكلمة (زوج) يقصد بها (النبات) مطلقاً زرعاً أو شجراً أو غيرهما، وقد ثبت علمياً أن النباتات كلها تحكمها قاعدة الزوجية، وقد سمَّى الله الحكيم النبات زوجاً لهذا السبب، وأما وصفه اياه بالكريم، والكريم هو المِعْطاء السخيّ[١]، فَلأنَّ النبات بأصْنافِهِ المختلفة، وأشكاله وألوانه طُعومه الكثيرة المتعددة، التي لا يحصيها سوى خالقها ومُنْبِتها، يُتْحِفُ البَشَر بأنواع غزيرة من المنح والعطايا، ولكرمه لا يقطع عنهم العطاء بإذن ربِّه، بل يُجدِّده لهم بين حين وآخر، على تنوُّعه باختلاف الفصول واختلاف المناطق والأجواء.

إذن: في عالم النبات وأنواعه الكثيرة وخيراته الوفيرة، طعاماً وشراباً، وغذاءً ودواءً، وعِلْفاً ووقوداً، ومواد صناعاتٍ وبناءٍ... إلخ، ما يُدْهِشُ الألباب ويجعل كُلَّ عاقلٍ يَخِرُّ ساجداً لرب العالمين، أداءً لحقه، وشكراً له على نعمه، ولهذا يقول جلَّ وعلا في ختام ذكر هذه النعم الخمس: ﴿هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿١١﴾﴾ [لقمان]، ولا شك أنَّ الخَلْقَ هو فقط خَلْقُ الله الخالق، وأنَّى للمخلوق أن يتسنّى له الخَلْقُ، في حين هو لا يملك وجودَ نفسه، نشأةً واستمراراً وبقاءً! ولهذا يقول تعالى: ﴿هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿١١﴾﴾ والمقصود بالظالمين هنا، هم المشركون والكافرون، وأي ظلم أعظم وأفْدَحُ من الشرك والكفر، أي أن المشركين والكافرين الظالمين لأنفسهم في ضلال واضح، بعبادتهم غير الله الخالق الذي لا يملك سواه ذرة من الوجود في هذا الخلق العريض، الذي لا يعلم مداه وسعته سِوى خالِقِه جلَّ شأنه.

---

(١) المعجم الوسيط، ص٧٨٤, ٧٨٥.

ثانياً ـ الآيات (٩٥ ـ ٩٩) والآية (١٠٢) من سورة (الأنعام):

والتي يَسْتَدِلُّ فيها كتابُ الله الحكيم على ربوبية الله ومالكيته ومن ثم ألوهيته، بعدد من مظاهر خلقه العجيبة المدهشة، التي يتجلّى فيها النظام والإتقان بأجلى صورة، بحيث لا يملك أيُّ عقل سليم قِبالَهُ غير التسليم والإذعان بربوبية الله وألوهيته.

ونكتفي بإدراجنا الآيات في السابق، ونبدأ بِسَرْدِ تلك الآيات الشاهدات على ربوبية الله تبارك وتعالى، حسب ترتيب ورودها في الآيات:

١ و٢ ـ ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾﴾ [الأنعام]، فَلْقُهُ سبحانه وتعالى كلَّ حبة من حبوب الزروع، وكُلَّ نواة من نَوى الأشجار، ومن ثم إخراج نبتةِ كلِّ زرع وشجرة منها بتنظيم وترتيب، لا يطلع على كلِّ خفاياه وأسراره سوى الخالق.

٣ و٤ ـ إخراج الحي من الميت، وإخراج الميت من الحي: ﴿...يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ...﴾ [الأنعام]، وذلك مثل إخراجه سبحانه النبتة الحية من النواة والحبة الميتة، والفرخة من البيضة، وإخراجه الحبوب والثمار الفاقدة للحياة من الزرع والشجر الحيين، وتحويل الخلايا الحية في جسم الإنسان والحيوان إلى أجسام فاقدة للحياة، وغير ذلك.

ويُعَقِّبُ سبحانه على هذه الآيات والظواهر الأربع، بقوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾﴾ [الأنعام]، أي: انَّ الرب العليم القدير الذي يفعلُ هذه الأعاجيب، هو الله الذي أمركم بعبادته، فكيف يُذْهَبُ بكم عنه وعن عبادته هنا وهناك؟

٥ و٦ و٧ و٨ ـ فصله سبحانه وتعالى نور الصبح عن ظلمة الليل، وجعله الليل وقت سكون وراحة، وجعله الشمس والقمر وكل شؤونهما بحساب وميزان: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ﴾

. . . [الأنعام]. وقد ذكَّر سبحانه في آيات كثيرة بنعمة تعاقب الليل والنَّهار، وكون الليل وقت راحة ونوم وسكون، والنَّهار وقت عمل وكسب ومعاش، كما قال تعالى:

أ - ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾﴾ [النبأ].

ب - ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [يونس].

ج - ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الروم].

وقال تعالى تذكيراً بنعمة تعاقب الليل والنَّهار وأَنه لولا تعاقبهما بالصورة التي نراها ونظَّمها الرب الحكيم، لما كانت هناك حياة على الأرض: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [القصص].

وقوله تعالى: ﴿. . . وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ . . .﴾ [الأنعام]، مفهومه شامل لكل أوضاع الشمس والقمر، وأحوالهما وأنها كلَّها بحساب وميزان، فحجمهما، وكثافتُهُما، ومقدار بُعدهما عن الأرض، وسرعة دورانهما، ومقدار جاذبيتهما. . . إلخ كلها روعي فيها منتهى الدقة والإتقان، ولو أنَّ نِسْبةً من تلك النِّسَبِ اختلَّت، لاخْتلَّت تبعاً لها حياةُ الناس على الأرض.

ولذلك يُعَقِّب الله الحكيم على ذكره تلك الآيات، بقوله: ﴿. . . ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ . . .﴾ [الأنعام]، وذلك لأن تنظيم حركة الليل والنَّهار وترتيب أوضاع الشمس والقمر، بنظام محسوب ومقدَّر لا يتأتَّى إلا من الله الموصوف بالعزَّة والقوة المطلقة، والمنعوت بالعلم المحيط الشامل.

٩ ـ جعله النجوم سواء المتحركة منها أو الثابتة ـ بالنسبة لنا ورؤيتنا الظّاهرة لها ـ وسيلة اهتداء لنا للطرق والجهات في ظلمات الليل البهيم، وداخل أمواج البحر الضخيم، ومتاهات البيداء العظيم: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِۗ...﴾ [الأنعام]، ولا يعرف قَدْر الإهتداء بالنجوم في ظلمات الليل براً وبحراً، الّا مَنْ عانى من ضلال الطريق ليلاً أو نهاراً، وفَقْدِه تشخيص الإتجاه، وعقب على هذه الظّاهرة بقوله: ﴿...قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [الأنعام]، وذلك لأن العلماء هم وحدهم الذين يفهمون هذه المسألة على حقيقتها.

١٠ ـ خَلْقُهُ الناس من نفس واحدة ـ والمقصود بها نفس آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ مع زوجته حواء ـ ثم جعله الذرية المتناسلة منها، مستقرة في الأرحام، وقَبْلَها مستودَعةً في أصلاب الآباء وصدور الأمهات: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌۗ...﴾ [الأنعام]، وانما فسَّرنا كلمة (فمستقر) على أن المقصود بها استقرار الجنَين في رحم الأم، لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾﴾ [المرسلات]، فوصف الله سبحانه الرحم بـ(قرارٍ مكين) إذن: فالرحم هو مكان الإستقرار الذي يستقر فيه الجَنين، وكذلك فسَّرنا كلمة (مستودع) بأن المقصود هو إيداعُ النطفة في صلب الأب وصدر الأم، لأن الله تعالى قال: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾﴾ [الطارق]، والصُّلْب هو ظَهْرُ الرجل، كما أن الترائب اسم لعظام صدر المرأة، وفي هذه الآيات إعجاز علمي لأن علم الأجنة اكتشف أخيراً، انَّ مصنع منيّ الرجل في عظام ظهره، كما أن مصنع منِيَّ المرأة في عظام صدرها! وقد نسب الله العليم الماءَ الدافق الذي يخلق منه الإنسان، إلى كل من الصلب والترائب.

ولا شك أن في كيفية تناسل البشر كلهم من أبوين، واستيداعهما الأصلاب والصدور نطفاً، ثم استقرارهم في الأرحام أجنة، وخروجهم بعد اكتمال نموهم الجنيني أطفالاً، وخصوصاً الأطوار والمراحل التي يمرُّ بها الجنينُ في بطن أمه، والتي أشار اليها الله تعالى إجمالاً، بقوله: ﴿مَّا لَكُمْ لَا

نَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾ [نوح]، وبقوله: ﴿...خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ...﴾ [الزمر]، وأشار اليها تفصيلاً بقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون].

نعم، إنَّ في كل هذا ـ والذي لا مجال للخوض في تفاصيله وسنلقي عليه مزيداً من الضوء في الفصل الثالث عند البحث حول خلق الإنسان ـ لكثيراً مِنَ الحِكَم والنَّظْم والإتقان وبديع الصنع الربّاني، الذي يُدْهِشُ الألباب وقد أماط علم الأَجنة اللِّثام عن كثير من الأسرار العجيبة التي لم يكن البشر يعرفونها قبل صنع الميكروسكوب (المجهر)، وخاصة المجهر الألكتروني الذي يكبِّر الأشياء أكثر من نصف مليون (٥٠٠٠٠٠) مرَّة! وكل هذا مصداق لقول الله تبارك وتعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ فصلت.

وعَقَّبَ سبحانه على ظاهرة خلق الإنسان بقوله: ﴿...قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأنعام]، والفقه هو العلم الدقيق مع الفهم العميق، وواضح أنَّ الإنسان كلما ازداد فقهاً، أي كلَّما تعمَّق علمُه، ودقَّ فَهْمُه، كلما ازداد معرفة بأسرار النفس البشرية جسداً وروحاً.

١١ ـ انزال الماء من السماء (أي: السحاب المستقر في جوِّ السماء): ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً...﴾ [الأنعام].

١٢ ـ إخراج نبتة كل النباتات به: ﴿...فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ...﴾.

١٣ ـ إخراج المادة الخضرة من النبتة، والتي هي موضع تكون نَور الثمار ﴿. . . فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا. . .﴾.

١٤ ـ إخراج الحَبِّ المرتَّب المُنَسَّق من المادة الخضرة: ﴿. . . نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا. . .﴾ وذلك مثل سنابل الحنطة والشعير والرزِّ والذُّرَةِ وغيرها، والتي دقة ترتيبها ورصّها، تفوق الوصف والتعريف.

١٥ ـ إخراج القنوان الدانية من طلع النخل: ﴿. . . وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ. . .﴾، والطَّلْع هو الكيس الحاوي لِلْقنوان، حيث ينشأ الطلع أولاً، ثم يتفتَّق الطلع عن القنوان، والقنوان جمع (قِنوْ) والقِنْو في النخل بمثابة العنقود في العنب، والدانية أي القريبة، حيث تتدلى القنوان الحاوية على التمر، كي يسهل على الناس جَنْيُهُ.

١٦ و١٧ و١٨ ـ وإخراج جنات من العنب والزيتون والرمان المتشابهة بعض أنواع كل منها مع بعض، ومتغايرةٍ: ﴿. . . وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ. . .﴾، ويعقب الله تعالى على ما مرَّ ذِكْرُهُ من الآيات الباهرات، في عالم النبات والزروع والثمار، بقوله: ﴿. . . ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ. . .﴾، والتأمل في الثمار من حين بُدوِّها إلى حالة نضوجها، يُري الناظر المراحل التي تَمُرُّ بها الثمارُ، حيث تنقلها يد التدبير الربَّاني الحكيم من طَوْر إلى آخر، ومن مرحلة إلى أخرى، إلى أن تَيْنَع وَتَنْضُجَ، ويأتي حين قَطْفها وجَنْيها، وإنّما قال تعالى في ختام ذكره لآياته الباهرات في عالم النبات: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأنعام]، لأنَّ مجرد الإيمان كافٍ لدلالة الإنسان على تلك الآيات المتجليات الشاهدات على ربوبية الله في عالم النبات.

ويمكن أن يكون المقصود بالتعقيبات الثلاثة: ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، هو: أن منْ يمتلك العلم بتلك الظواهر والمخلوقات المتقنة الصنع، فسيتمكن من فقهها وشهود تدبير ربِّها ومالكها فيها، ومن ثم الإيمان بخالقها وربِّها ومالكها جلَّ شأنه.

ومن ثم في التعقيب الأخير وكالنتيجة المستخلصة من كل ما مرَّ ذِكْرُهُ، يقول تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ۝١٠٢﴾ [الأنعام]، أي بما أنَّه ليْس لكم ربٌّ سوى الله تعالى الذي هذه آثار ربوبيته، وبما أنه هو خالق كل شيء، فالله الخالق الرب هو وحده الإله المستحق للعبادة، لذا فاعبدوه هو ولا تُشْرِكوا شيئاً ولا أحداً في عبادته، وهو الذي يُدبّر ويَتولَّى شؤون كلِّ شيء، بلَ حتى الأشياء التي تعبدونها من دونه، هو خالقها وربّها ومتولِّي شؤونها!!

ثالثاً ـ الآيات من (٢٠ إلى ٢٧) من سورة (الروم):

وفي هذه الآيات المباركات، يعدِّد الله تعالى لنا عدداً من آيات ربوبيَّتِهِ مفتتحاً ذكر كلّ من تلك الآيات بقوله (ومن آياته)، ويعقِّب الله تعالى على ذكر كل من تلك الآيات بقوله: ﴿...إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ...﴾: ويدل هذا النوع من التعقيب على أن المقصود بقوله تعالى: (ومن آياته) ليس ذكر آية واحدة، بل مجموعة من الآيات المتداخلة التي تدل عليها كل من الظواهر التي يُسَمّيها سبحانه (آيات)، والآن نبدأ بسرد تلك الآيات، أو المظاهر الربَّانية التي كل منها يشتمل على آيات وآيات:

١ ـ خلق الإنسان من تراب، ثم تناسل البشر وانتشارهم في الأرض: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٞ تَنتَشِرُونَ ۝٢٠﴾ [الروم]، والمقصود بخلق الله تعالى إيّانا من تراب، إمّا هو أبونا آدم ونحن ذريته ومن صلبه، أو المقصود خلق أبداننا من النُّطَفِ التي تكونت من الغذاء والمتكون هو بدوره من الأرض (التراب).

وأياً كان، فبين البشر والتراب مسافة وأيَّةُ مسافة! وقصد الآية المباركة، على ما أرى، هو: أن نَتَذَكَّر تلك المسافة البعيدة والبَوْنَ الشاسع بين الإنسان الحي العاقل السميع البصير، وبين التراب الجامد، وهذه هي حكمة عدم ذكر الآية لِمراحِلِ خلق الإنسان، كما في الآيات الأخرى، حيث

طوت الآية مراحل تخلُّقِ الإنسان كلِّها واكتفت بذكر البداية والنهاية، أي أنها قفزت بعد ذكر التراب الهامد المتلاشي، مباشرة إلى ذكر البشر الحي العاقل السميع البصير الماشي!

٢ ـ خَلْقُ أزواجنا من جنس أنفسنا، لحصول السكون اليها وجعل المودة والرحمة بين الزوجين: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً. . .﴾ [الروم]، وعقَّب تعالى على ذكر ظاهرة الزوجية بين البشر، والتي هي مملؤة بالأسرار والحكم بقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد]، حقاً إنَّ في العلاقة الوثيقة الوطيدة بين الزوجين، والسكون العجيب الذي يشعر به كلٌّ بسبب القرب من الآخر، آياتٍ باهرة، وحكماً متجلية لله الرب الحكيم جلَّ شأنه، وكلَّما أوغل الإنسانُ في التفكير في هذه المسألة، كلما انكشفت له منها حكم وأسرار.

٣ ـ خلق السمٰوات والأرض واختلاف (تعدّد) ألسنة الناس (لغاتهم) وألوانهم: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ. . .﴾ [الروم]، وَعَقَّب الله تعالى على هذه الظواهر المملؤة بالعجائب المدهشة، بقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ وذلك لأنَّه إذا كانت مسألة رابطة الزوجية يكفي للإطِّلاع على حِكَمِها، مجرَّد التفكير والتأمل لتفاعل الإنسان معها ومعايشته وممارسته لها، فإن قضيَّة خلق السمٰوات والأرض الكبيرة والخطيرة، ومسألتي تعدّد اللغات الغزيرة، والألوان المتعدِّدة للشعوب والأجناس، وتنوّع الوجوه الكثيرة الكثيرة للأفراد، تستعصي على الفهم العميق والنظر الدقيق، إلَّا لِمَنْ يمتلك العلم، بل لمن تمكن في العلم ورسخ فيه، لأن صيغة (العالِمين) تدل على هذا النوع من العلم، وليس كل علم! وبفضل التقدم العلمي التجريبي المعاصر في جوانب شتّى، تمكَّنَ العلماءُ من فكِّ بعض رموز الخلق، ومعرفة بعض خفايا السمٰوات والأرض، وكيفية نشوء اللغات وسبب اختلافها، وكذلك أسباب اختلاف وتعدد ألوان الناس، إنْ على مستوى الأعراق والشعوب، أو على مستوى الأفراد، إذْ لا

يوجد تطابق في التشابه بين وجهي شخصين على وجه كلِّ الكُرَةِ الأرضية، سواء بين الموجودين الآن، أو بين الموجودين والماضين!

وبقدر تمكُّنِ البشر من معرفة الخلق وقوانينه وخفاياه، تتجلَّى لهم آثار ربوبية الله تبارك وتعالى، مصداقاً لقوله سبحانه وتعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فصلت].

٤ ـ منام الناس ليلاً وطلبهم للرزق نهاراً: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ. . .﴾ [الروم]، والنوم في حدِّ ذاته سرٌّ من الأسرار التي لم يعرف منها البشر حتى الآن سوى القليل، وذلك بسبب ارتباطه الوثيق بالروح (النفس)، كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الزمر].

وقد عقَّب الله تعالى على ذكره ظاهرتي النوم الليلي وطلب الرزق بالنَّهار، بقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [يونس: ٦٧]، وذلك لأن إدراك حكمة إظلام الله تعالى الليل، كي يكون وقت راحة ونوم وسكون، وإضاءَته النَّهار، كي يتمكن الناس في ضوء الشمس وجلاء النَّهار من طلب الرزق، من الوضوح بمكان، بحيث لا يَخْفى على أحد يسمع لصوت الحق الذي يصدع به الوحي والعقل والفطرة.

٥ ـ إراءة الله تعالى البرق للناس، وإنزاله الماء من السماء، وإحيائه به الأرض بعد موتها: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ. . .﴾ [الروم]، وعقَّب سبحانه وتعالى على هذه الظواهر الثلاث: (البرق، ونزول الماء، واخضرار الأرض) بقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤]، وذلك لأنَّ من كان عنده عقل سليم، وتأمل في هذه الأشياء، أدرك أنها من تدبير رب العالمين، وفي الآية الكريمة إشارة واضحة إلى أن بين البرق ونزول الماء من السحاب رابطة،

وهذه حقيقة علمية وقد أشار اليها سبحانه وتعالى في آية أخرى بصورة أوضح، فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾﴾ [الرعد]، والسحاب هي السحُب الحاملة للماء وحدوث الرعد والبرق من علامتها، لأنهما يَحْدُثان عند تلقيحها أو تأليفها، كما قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً...﴾ [الحجر]، وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾﴾ [النور].

٦ ـ قيام السمٰوات والأرض بأمر الله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ...﴾ [الروم]، يربط الله تعالى بين هذه الظّاهرة العظيمة التي تحتوي على كل الظواهر الأخرى، وبين بعثه الناس يوم القيامة، حيث قال: ﴿...وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الروم]، وأرى أن حكمة هذا الربط هي:

إن الله تعالى انما خلق هذا الخلق بسمواته وأرضه، وكل ما فيه من أجل ابتلاء الإنسان، ولهذا فسيبقى قائماً ما زال ابتلاء الإنسان باقياً ومستمراً، ولكن إذا انتهت فترة الإبتلاء، أنهى الله الحكيم وجود هذا الخلق وأزالَهُ عن صورته الحالية، ثم أعاد تشكيله مرة أخرى، حسبما يتناسب مع المرحلة الآتية، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ [الأنبياء]، وقال: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾ [إبراهيم].

وقد أشار الله العزيز الحكيم في موضعين آخرين في كتابه المبين، إلى ظاهرة قيام السمٰوات والأرض وإمساكه إيّاهما من الزوال، كما قال في الآية (٤١) من (فاطر): ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾، وقال في الآية (٦٥) من (الحج): ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾﴾.

ولا شكَّ أن قيام السمٰوات والأرض وعدم حدوث أي خلل فيهما يُودي بحياة البشر، كلَّ هذه السنين الطويلة التي مرَّت على حياة البشرية على هذه الأرض، والتي لا يعلم مقدارَها ـ أي مقدار تلك السنين الطويلة التي مرت على الحياة البشرية ـ إلَّا الله تعالى، لآية عظيمة جداً على ربوبية الله تبارك وتعالى، ويفهم من هذه الآية التي نتحدث عنها والآيتيْن اللتين استشهدنا بهما، أنَّ كل التكهُّنات والتخرصات التي يُطْلِقُها بعضُ العلماء الفلكيين المتشائمين، من أنَّ الكوكب أو المذَّنب الفلاني، ربما سيصطدم بأرضنا وتنتهي حياة البشر في الموعد الفلاني، مجرّد كَذِبٍ وتوهمات لا أساس لها من الصحة!

ثم يختم سبحانه وتعالى هذه الآيات، بقوله: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾ [الروم]، والمقصود بـ [مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأرض] إما هو كل المخلوقات المُدْرِكة من ملائكة وجن وأنس، ويكون معنى القنوت ـ وهو الخضوع ـ حينئذٍ خضوعهم لمشيئة الله وسُنَنِهِ الكلية التي وضعها في خلقه وهي نافذة فيهم في كل الأحوال، وإما المقصود به الملائكة وأهل الإيمان من الثقلين، خاصة، ويكون معنى القنوت حينئذٍ: الطاعة الواعية الإختيارية والإنقياد والعبودية لله تعالى.

والبدء بالخلق هو خلقه ابتداءً، واما إعادته فيحتمل انْ يكون المقصود بها إفناء الله تعالى للخلق أو إعادة خلقه مرةً أخرى بعد فنائه وزواله، وكلمة ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ﴾ تصلح للحالتين، وانما خاطب الله تعالى بهذا الأسلوب عقولنا البشرية، وإلَّا فالأمور كلُّها بالنسبة له سواء، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس].

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ...﴾ أي ان الله تعالى له الوصف الأرفع والأسمى في السمٰوات والأرض، فلا يوجد من له مثل أوصافه وصفاته وشؤونه، كما انه هو المتفرِّد بالأسماء الحسنى، كما قال تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾ [مريم].

رابعاً ـ الآيات من (٥٧ إلى ٧٤) من سورة (الواقعة):

وفي هذه الآيات يُذَكِّرنا العليم العظيم جلَّ وعلا بربوبيته وتدبيره، في أربع ظواهر هي أَلْصَقُ الأشياء بحياتنا وأَقْرَبُها الينا، وهي:

١) المنيّ: الذي ينشئنا الله الخالق منه.

٢) الزرع: الذي هو مصدر قوْتِنا.

٣) الماء: الذي نَشْرَبُهُ ونتَطَّهر به، ونَغْتَسِلُ ونَسْقي به زَرْعَنا.

٤) النّار: التي لولاها لكانت حياتنا ناقصة وصعبة جداً، أن لم تكن مُستحيلةً.

١ ـ المنيِّ:

يقول سبحانه وتعالى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الواقعة]، كما نرى: يقرر سبحانه في هذه الآيات انه هو الذي خلقنا، ثم يُحُضُّنا على التصديق بربوبيته وخالقيته لنا، لأن كلاً من العقل والفطرة والوحي والواقع، يقتضي ذلك، ثم يقول مُبَرْهِناً على انه هو الخالق لنا وحده: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾، أي: أولاً ترون ذلك المنيَّ الذي تقذفونه، فذلك المَنِيُّ أَهُوَ مِنْ صنعكم أم نحن الذي خلقناه؟ ولا شك انه لا يملك عاقل امام هذا السؤال الواضح الصريح سوى الإعتراف بعجزه عن خلق المني الذي يتكون منه (اي من ماء الرجل والمرأة) الجَنين الذي يخرج فيما بعد طفلاً وإنساناً سوياً! ولكن الله تعالى لا يكتفي بهذه الحجة البالغة، وهذا البرهان الدافع، بل يبرز حجة أخرى فيقول: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الواقعة]، أي: وبرهان آخر على انكم مخلوقون لنا، هو أنَّنا فَرَضْنا عليكم الموت الحتمي، مُقَدِّرين مدة عمر كل منكم وأَجَلَهُ، ثم انتم لا تَفوتونَنا على أن نذهب بكم، ونُخْلِيَ الأرض منكُمْ، ونأتي بجيل آخر، وأجيال أخرى

أمثالكم، ونُعيد إنشاءَكمْ أنتم في خلق آخر ونشأة أخرى ـ في عالم البرزخ وفي يوم القيامة ـ لا تعلمون شيئاً عنه! وعليه: فالذي قهركم بالموت الحتمي، والإنتقال الإجباريِّ من هذه الحياة الأرضية، هو خالقكم وربكم ومالككم! ثم يُذَكِّر الله تعالى البَشَر بِخِلْقَتهم ونشأتهم الأولى، كي يعرفوا بها خالقهم ومُبْدِعَهم، وكذلك مصيرهم وعاقبتهم، ويكونوا من المصدِّقين: ﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُولَىٰ فَلَوۡلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [الواقعة]، أي: طالما أنتم تعلمون يقيناً كيفية خلقكم الأول، وكونكم مخلوقين من المنيِّ الذي يُحَوِّله الخالق سبحانه وتعالى عَبْرَ مراحل متدرجة في رحم الأم إلى جنين وإنسان كامل، ثم يخرجه من الرحم، ليبدأ حياته الأرضية وفق سنن الله الحكيمة، فهلَّا تذكرتم بسبب علمكم بنشأتكم الأولى، ربَّكم ومصيركم الذي ينتظركم! ومن الواضح أن تَخَلُّقَ الإنسان من منيِّ أَبوَيْه الذي يستقر كنطفة في رحم أمه بعد انْصبابه من صلب الأب وصدر الأم، وانقذافه في الرحم، ذلك المكان والمستقر المكين، معجزة وأية معجزة تتكرر للناس باستمرار، وأيُّ شيءٍ أعْجَبُ من خروج إنسان كامل من إنسان آخر، من دون أن يكون له أدنى دور في تخلُّقه ونشأته، وترتيب أجهزته الداخلية العجيبة، وتنظيم أعضائه الظّاهرة السوية!؟ وخاصة في عصرنا الحالي، وبعد أن تطور علم الأجنة بفضل صنع المجهر الألكتروني كثيراً وقطع أشواطاً، تَكَشَّفَ لنا كثير من أسرار النطفة المدهشة والتي تتكون من حيوان منوي (حيمن) واحد وبويضة واحدة، من منيِّ الرجل الحاوي على ملايين الحيامن، ومَنيِّ المرأة الحاوي على بُوَيْضَةٍ أو أكثر، فالآن نفهم فهماً أعمق وأدق قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا تُمۡنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمۡ تَخۡلُقُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحۡنُ قَدَّرۡنَا بَيۡنَكُمُ ٱلۡمَوۡتَ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمۡثَٰلَكُمۡ وَنُنشِئَكُمۡ فِي مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الواقعة]، وجدير بالذكر أن كلمة (المني) تطلق على ماء الرجل والمرأة، بدليل ان الله تعالى قال: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ ﴿٦﴾ يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾﴾ [الطارق]، إذْ وَصَف الله مائَيْ الرجل والمراة بالـ﴿دَافِقٖ﴾ أي: المتدفق المقذوف فجأةً بقوة، وهذا هو عينه معنى كلمة ﴿تُمۡنُونَ﴾ أي: تقذفون، لأَنه يقال: (أَمْنى يُمْني إمناءً) أي: قذف بمنيِّه يقذف

قذفاً، وانّما وضَّحت هذا لأن بعض الناس يتصوّرون بأنَّ المَنِيَّ اسم لِماءِ الرجل فقط.

٢ ـ الزرع:

قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الواقعة]، أي: أفرأيتم ما تحرثون له الأرض (والمقصود به الزَّرع) هل أنتم تُنْبِتونَهُ أم نحن نُنْبِتُهُ؟ ولا يجرؤ احدٌ يملك ذرة من إنصاف ومُسْكَةً من عقل، على الإدعاء بأنه هو الذي يُنْبِتُ الزرع، نعم إن الإنسان يحرث الأرض ويبذر ويسقي الزرع، ولكن الزارع والمنبت للزرع هو الله تعالى وحده، وذلك من خلال سننه التي بثَّها في خلقه، ولهذا نسب الله الحكيم الحرث إلى أصحاب الزرع، ولكن نفى عنهم عملية الإنبات والزرع التي لا يعلمها ـ حتى مجرد العلم ـ على حقيقتها، سوى الله تبارك وتعالى، وإنْ كَشَفَ علمُ النبات أخيراً جملة من خفايا عالم النبات، التي كانت مجهولة لنا في السابق.

ثم يقول تعالى مذكِّراً بنعمه المتجلية في الزرع: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الواقعة]، أي: لو أردنا أن نَحْرِمَكُمْ من النعِم الغزيرة التي يُتْحِفُها بكم الزرع من أنواع الحبوب والفواكه والثمار، لأيْبَسْنا زروعَكم فصارت هشيماً متَحَطِّماً، وكنتم حينذاك لا يبقى لكم غير التَحسُّر والتأسُّف، والقول: بأنكم أصبحتم مديونين خاسرين، بل مَحرومين مُعْدِمِين.

٣ ـ الماء:

قال الله تعالى عن الماء العذب الذي نشربه ليل نهار: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الواقعة]، ولا يدَّعي عاقلٌ انه هو الذي ينزل الماء من المُزْن، والمزن هو السحاب، ثم يُعَقِّبُ سبحانه على هذا بقوله: ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾، والأُجاج هو المُرُّ المالح، وهو طعم مياه البحار والمحيطات التي يبخِّرها الله الكريم لنا، ويصَفِّيها وينقِّيها من الملوحة والمرارة والشوائب، ثم يَسْقينا إيّاه عَذْباً حُلْواً زُلالاً، ومعنى القول الكريم

هو: لو أردنا ألّا نسقيكم الماءَ العَذْبَ من خلال إنزال ماء السماء (المطر والثلج والبرد) لأبقينا مياه البحار كما هي مُرّةً مالحِةً!!

وجدير بالذكر أن حكمة ملوحة مياه البحار هي حفظها وحفظ ما فيها من أنواع المخلوقات الحيوانية والنباتية وغيرهما من الفساد والتعفُّن، ولو كانت عذبة لأَنْتَنَتْ ولَتَعَفَّنَتْ هي وما فيها، ولكن تلك الملوحة من جانب وخَضُّها يومياً بسبب جاذبية القمر التي تُحْدِثُ فيها المد والجزر، من جانب آخر، يحفظانها من ذلك.

٤ ـ النّار:

قال الله تعالى عن نعمة النار التي نتدفَّأ بها، وَنَحُمُّ[١] بها الماء للإغتسال والنظافة، ونَطْبَخُ بها الطعام، ونَشْوي بها اللحوم: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الواقعة]، وكذلك لا أحد يقدر على الإدِّعاء بأنَّ له يداً في انشاء الشجر (وقود النّار)، والشجر يمثل الوقود الرئيسي، سواء بحالته الحطبية والخشبية، أو حالته الفحمية (الفحم الشجري والفحم الحجري) أو حالته النفطية والغازية، وذلك لأنَّ علم طبقات الأرض (علم الجيولوجيا) بيَّن لنا أنَّ كلاً من الفحم الحجري والنفط والغاز، له أصل نَباتي تَكَوَّن منه بعد انصْهاره في باطن الأرض، من جرّاء الحرارة الشديدة والتقلُّبات المناخية التي حدثت للكرة الأرضية، قبل بَدْءِ الحياة فيها وإسكان الله الحكيم آدم وزوجته حواء عليهما السلام وذريتهما فيها.

وقوله تعالى: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الواقعة]، كلمة (المقوين) فسِّرت بالمسافرين وبالجائعين، وعليه: فمعنى الآية هو: نحن جعلنا النار تذكرة لكم أيها الناس فتذكركم نار جهنم في الآخرة، وكذلك جعلناها سبب تمتيع المسافرين والجائعين حيث يستدفِءُ المسافرون بالنار ويطبخون بها طعامهم وشرابهم، وكذلك الجائعون يُعِدُّونَ بالنار غِذاءَهم

(١) حَمَّ الماء يَحُمُّهُ حَمّاً: سَخَنَهُ. المعجم الوسيط، ١٩٩.

طبخاً أو شَوْياً أو قَلْياً، وكل الناس يحتاجون النار، ولكن المسافرين والجائعين اليها أحوج، فلهذا خَصَّهم الله تعالى بالذكر.

والملاحَظُ أنَّ الله الحكيم الكريم قد ادَّخر للإنسان كُلَّ ما يحتاجُهُ من ضروريات الحياة وحاجياتها في كرتنا الأرضية، وبقدر ما تتطور حَياةُ البشر على الأرض، وتتوسع ويزداد الإنسانُ امكانيةَ الإستفادة من تلك النعم المذخورة، وتشتد حاجته اليها، يُقْدِرُهُ الله الحكيم عليها، ويُمَكِّنُهُ مِنْ إخراجها والإستمتاع بها، فيوماً يكتفي الإنسان بالعشب والحطب كوقود لناره، ثم يستخدم الفحم الشجري، ثم الفحم الحجري، ثم النفط والغاز، ثم الكهرباء، ثم الطاقة الشمسية والطاقة الذرية. . . !

فسبحان الله العظيم ما أحكم تدبيره، وما أوسع رحمته، وما أغزر كرمه وجوده! ويعقب الله تعالى على تلك النعم الأربع، بقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ [الواقعة]، أي نزِّه اسم ربك العظيم وقدِّسه، الذي تدل كل هذه الظواهر العجيبة والآيات الباهرة على ربوبيته وتدبيره جلَّ شأنه.

خامساً ـ الآيات (١ ـ ٣) من سورة (الأعلى):

قال الله العلي العظيم: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾﴾ [الأعلى]، وفي هذه الآيات بعد أن يأمرنا الله من خلال نبيه ﷺ بتنزيه اسمه وتَقْديسه ووصف نفسه بالأعلى جلَّ وعلا، يعرِّف بربوبيَّتِهِ من خلال أربعة أشياء، هي:

١ ـ الخلق: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ والخلْق هو الإيجاد، وهو أول مراحل وجود الأشياء.

٢ ـ التسوية: ﴿فَسَوَّىٰ﴾ والتسوية هي التنظيم والترتيب للأشياء بعد إيجادها.

٣ ـ التقدير: ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ﴾ والتقدير هو تحديد مقادير الأشياء، من كل الجوانب، حجماً وكثافة ووزناً وحركةً ومسافةً.

٤ ـ الهداية: ﴿فَهَدَىٰ﴾ والهداية هي جعل الأشياء تسير في مسيرة

وجودها وفقاً لسنن الله الموضوعة لها، مُحَقِّقةً الأَهداف المرسومة لها، والحِكَمَ المخلوقة من أجلها.

هذا وقد أَلْفَتَ الله تعالى أنْظارَنا إلى التنظيم والإتقان المحكم في خلقه، بل في كل مخلوق من مخلوقاته في آيات كثيرة، وهذه بعض الآيات بهذا الصدد:

١) ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [الملك].

٢) ﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾﴾ [السجدة].

٣) ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النمل].

٤) ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾﴾ [الأعراف].

٥) ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ [طه].

٦) ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾﴾ [الفرقان].

٧) ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر].

فهذه الآيات المباركات كلها تؤكد ان الله تعالى خلق كل شيء من مخلوقاته التي لا يَعُدُّها ولا يُحْصيها سواه، على أتم ما يكون من نظام ودقةٍ وحكمةٍ واتقان:

أولاً: ففي آيتي سورة (الملك) يعلن المولى العليم الحكيم جلَّ شأنه أنَّه خلق سبع سموات متطابقة بعضها مع بعض، أو متوازية بعضها لبعض،

ثم يُخْبِرُ بأنَّه لا يوجَدُ أدنى خلل ونقص، في خلقه ويتحدّى المخلوقين أنْ يَعْثُروا على أيِّ خلل أو خطأ في شيء من خلقه، ويُغْريهم بالنظر والتدبّر والتحقيق المتَكَرِّر، سعياً وراء اكتشاف نقص ما، ولكن يخبرهم مسبقاً أنهم يرجعون في نهاية مطاف تجوالهم، للعثور على نقص في خلق الله، صِفرَ اليدين مهما أَتْعَبوا أَنْفُسَهُمْ!

ومن الواضح انه ليس وراء هذا التحدي تحدّ، ووالله الذي لا إلٰه إلا هو لا يجرؤ على قول مثل هذا الكلام غير خالق الخلق ومالك الملك، الذي يعلم ماذا خلق، وكيف خلقه ونظَّمه ورتَّبه، تنظيماً وترتيباً لا خلل ولا نقص فيه البتة.

ثانياً: وفي سورة السجدة (الآيتَيْن ٦ ـ ٧) يخبر سبحانه وتعالى انه خلق كل شيء بمنتهى الإجادة والإتقان، لأن قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ يعني انه خلق كل الأشياء، على أحسن ما يكون، وبأفضل ما يكون الخلق والإبداع.

ثالثاً: وفي الآية (٨٨) من سورة (النمل) وبعد الإشارة إلى حركة الجبال مع دوران الأرض حول نفسها وتشبيهها ـ أي تشبيه حركة الجبال ـ بحركة السحاب، يعلن الخالق الحكيم أنه أَتْقَنَ صنع كل شيء من مخلوقاته ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ...﴾ والإتقان هو الإحكام والدقة والإجادة، وقد ظنَّ بعض المفسرين أن هذه الآية تتحدث عن يوم القيامة، وأن المقصود بحركة الجبال هو حالة صيرورتها سراباً وهباءً منبثاً، كما قال تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾﴾ [النبأ]، وقال: ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾﴾ [الواقعة]، ولكن هذا ليس صحيحاً بدليل قوله تعالى: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ...﴾، ولا يقال هذا الكلام في سياق التخريب والدَّمار الحاصل للأرض والجبال يوم القيامة، إذْ كيف يُعْقَلُ أنْ يُدَمِّر أحدٌ شيئاً، ثم يقول للناس: أُنظروا إلى هذا الصنع البديع!! ثم بدليل قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ﴾ ويوم القيامة لا يوجد بشر كي ينظر إلى الجبال! ثم بدليل قوله تعالى: ﴿تَحْسَبُهَا جَامِدَةً﴾، وهذا الكلام انما يتناسب مع وضع الجبال الحالي، وبُدوِّها للنظر الظّاهري وكأنَّها ساكنة لا

حركة فيها، ولا يتناسب مع حالتها في يوم القيامة، كيف وتصير الجبال كالعهن المنفوش: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥﴾ [القارعة]، إذن: لو أمكن وجود بشر ناظر إلى الجبال يوم القيامة، لَرآها عين اليقين كالسَّراب والعهن المنفوش، ولم يحسبها جامدة ساكنة! وأخيراً يدل عليه قوله تعالى: ﴿...وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ۝٨٨﴾ [النمل]، إذْ هذا الكلام يتناسب مع وضع الناس في الدنيا التي يفعلون فيها ما يشاؤون، وليس مع الآخرة التي فيها جزاء الأفعال ونتائجها المترتبة عليها.

رابعاً: وفي الآية (١٨٥) من سورة (الأعراف) ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ۝١٨٥﴾، يأمر الله تبارك وتعالى البشر أن ينظروا إلى ملك السمٰوات والأرض العريض العظيم ويتأملوه، وأن ينظروا إلى أي شيء من مخلوقات الله! ولا شك انه لولا أن السمٰوات والأرض مملؤتان بكل ما يقنع العقول بربوبيته وعظمته وعلمه وحكمته، وكذلك لولا أن كل شيء من مخلوقات الله إذا ما تُؤُمِّلَ وتُدُبِّرَ واكْتُشِفَ بعضُ ما فيه من حكم وأسرار، يجعل الإنسان عارفاً بربِّه وشاهداً لآياته وبديع صنعه، لما قال الله تعالى ما قال!.

خامساً: وفي الآيتين (٤٩ ـ ٥٠) من (طه) بعد أن يسأل فرعون موسى وأخاه هارون عليهما السلام عن ربِّهما: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ۝٤٩﴾ [طه]، يجيبه موسى عليه السلام بقوله: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾ [طه]، أي إنَّ ربَّنا هو الذي وهب لكل شيء وجوده، فأخرجه من ظلمة العدم إلى نور الوجود، ثمَّ نظَّمه وقدَّره وسيَّره، وَوَجَّهه الوجهة التي حدَّدها لَهُ، وهَدَفه الذي ينبغي له تحقيقه، وهذا الجواب الحكيم من موسى عليه السلام جمع في طيّاته كلاً من (قانون السببية) بقوله: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ﴾، و(قانون النظام) بقوله: ﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾ والمقصود بكلمة الهداية هنا هو معناها العام الشامل لكل المخلوقات، وسنشرح مفهوم كلمة الهداية ومعانيها المتعددة، لاحقاً في الباب الثالث بإذن الله تعالى.

* * *

المطلب الرابع
تلخيص ما مرَّ ذكره ومزيدٌ من الإيضاح

والآن في نهاية بحثنا حول: (فطرية معرفة الله سبحانه في قلوب البشر، وبدهية الإعتقاد بخالقيته وربوبيته في عقولهم) في ضوء كتاب الله الكريم، نلَخِّص ما توصلنا اليه من نتائج مع شيء من الإيضاح، في الفقرات الثلاث الآتية:

الفقرة الأولى: معرفة الله الفطرية في قلوب الناس:

لا يشك أحدٌ في كون حُبِّ العلم والعَدْل والجَمال وسائر الفضائل، مركوزاً في قلبه وكيانه، وكذلك لا يتردد أحد في أن كلاً من الذَّكر والأُنثى ينجذب نحو الآخر، وكذلك لا يَخْفى على أحدٍ بأنَّ كل انسان له تعلُّق بماله ووطنه وبيئته، ويَسْتَأنسُ ببني قومه، فكُلٌّ من هذه الدوافع والغرائز والنَّزَعات، يُعَدُّ جزءاً من كيان كل انسان، ومكوناً من مكوّنات فطرته وشخصيته الإنسانية، والآن نتساءل:

أوليس حبُّ الإنسان لله تبارك وتعالى وانجذابه نحوه وتعلُّقُهُ به، خالقاً ورباً ومالكاً وإلهاً، أقوى وأوضح وأعمق وأرسخ من كل الدوافع السابقة التي أشرنا اليها، والتي تدفعه إلى التعلق بالعلم والجمال والعدل والفضائل الأخرى، والإنجذاب نحو الجِنْس والمال والوطن والقوم والعشيرة؟! بلى بلا ريب، والدليل على هذا هو أننَّا إذا ما قارنَّا بين ما قيل وكتب ويقال ويكتب، عن الله الخالق تبارك وتعالى، من قِبَلِ البشر عموماً وبكل اللغات، وبين ما قيل وكتب ويقال ويكتب، عن تلك الأشياء المشار اليها مجتمعة، لرأينا البوْن شاسعاً والفرق واضحاً، هذا إذا نظرنا إلى البشرية بصورة عامة، ولكن إذا تأملنا أهل الإيمان الصادقين خصوصاً، وفي كل الملل والأقوام وعلى مَرِّ التاريخ البشري، نرى بجلاء دونه النَّهار أنَّ:

١ ـ أهل الإيمان بالله والعابدين له والمتعلقين به، هم أرجح أهل زمانهم عَقْلاً وأزكاهم نفساً، وأفضلهم خُلُقاً، وأرقاهم سلوكاً، وأنفعهم للناس، والأنبياء (عليهم الصلاة والسلام) وورّاثهم العلماء العاملون المخلصون، هم في القمة فيهم.

٢ ـ وأهل الإيمان هم أشد الناس التزاماً بمبادئهم وأكثرهم تضحية في سبيلها واستهانة بالموت، واستبسالاً في خضمِّ المعاناة والمحن والشدائد.

٣ ـ وحب أهل الإيمان لربهم وتَعَلُّقِهم به وتوكّلهم عليه، وخشيتهم منه، وإجلالهم له، وإيثارهم له ولمرضاته على كل شيء: أنفسهم، وأموالهم، وكل متعلقاتهم، لا يساويه، بل لا يدانيه أي حب أو تعلق آخر، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِۗ...﴾ [البقرة]، ومن الواضح ان الله تعالى لا يقول إلَّا ما يؤيده الواقع، كيف وهو أصدق القائلين: ﴿...وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾﴾ [النساء]، ثم هو خالق كل شيء والعليم الخبير بكل شيء!

أجلْ والله إنَّ تَعلُّقَ القلوب بالله خالقها وفاطرها تبارك وتعالى، لهو أشد وأقوى وأعمق أنواع التعلقات، وانجذاب الإنسان نحو ربِّه الكريم العظيم الرحيم اللطيف جلَّ وعلا، لهو أرسخ وأقوى نوازعه وأشواقه ودوافعه الفطرية، ولكن مما لا شك فيه أن للْبيئة والمحيط الإجتماعي تأثيراً كبيراً على شخصية الإنسان سلباً أو ايجاباً، وبناءً عليه: فالنوازع والدوافع الفطرية والأشواق المعنوية بما فيها معرفة الله تعالى والتعلق به والتوجه اليه، تتأثر بالمؤثرات الخارجية سلباً أو ايجاباً، كما قال رسول الله ﷺ بهذا الصدد: «**مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلاَّ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ كَمَا تنْتَجُ الْبَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ؟!**» (مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ: البُخَارِيُّ برقم: (١٢٩٣)، وَمُسْلِمٌ برقم: (٢٦٨٥))، والبهيمة

الجمعاء أي: الحيوان السالم من العيوب، والجدعاء هي المشقوقة الأنف، وهذا مثال من رسول الله ﷺ لتوضيح الغرض الذي أراده بحديثه، أي: كما أنَّ الحيوانات تَلِدُ نتاجَها سالمة من العيوب، ولكن الناس بعد ذلك يُجدِّعون أنوفها أو يقطعون آذانها، كذلك البشر يخلقهم الله تعالى أسوياء الفطرة وعارفين بربهم، ولكنَّ الأبوين ـ أي المحيط الإجتماعي من بيت ومدرسة وشارع وعشيرة وأحزاب. . .ـ يُغَيِّرانهم ويحرِّفانهم، ويفسدان فطرتهم وسجيتهم.

الفقرة الثانية: بدهية الإعتقاد بخالقية الله وربوبيته في عقول الناس:

النقطة الأولى: دلالة قانون السببية البديهي على وجود الله ﷻ:

إن دلالة خلق السمٰوات والأرض وما بينهما، وإخراجهما من العَدَم بعد أنْ لم يكن لهما وجود، على خالقية الله تبارك وتعالى وربوبيته، من الجلاء والوضوح بحيث يصعب على الإنسان توضيحها، إذ توضيح الواضحات ليس سهلاً! ولكن لنضرب لذلك مثلاً، تقريباً للأذهان:

كل من يمشي في صحراء أو في أي مكان آخر يظهر عليه أثر المشي ومواقع الأقدام، عندما يشاهد آثار الأقدام في الطريق، لا يشك البتة بأن شخصاً ما قبله قد مرَّ بهذا الطريق، بل ويستيقن ذلك جازِماً، ويستوي في هذا الإستنتاج كل الناس، العلماء وغيرهم، ومن الواضح أن الذي يدفع الإنسان ـ أي انسان ـ لهذا الإعتقاد هو القانون البديهي العقلي الذي ركبَّه الله تعالى في عقولنا ووضعه فيها، والذي سماه العلماء والعقلاء بـ(قانون السببية)، إذْ يقول هذا القانون العقلي الواضح: انه يستحيل وجود شيء بدون موُجِدٍ، أو سبب، ولا يمكن أن يحصل أَثَرٌ إلَّا بسبب مُؤَثِّر، والمشي لا يمكن بدون ماشٍ، وعليه: فمواقع الأقدام وآثارها دليل قاطع لا يقبل الشك، على مرور شخصٍ ما ومشيه في ذلك المكان.

والآن لِنَتَأمل: هل دلالة وجود آثار أقدام وأحذية في طريق أو أرض

خالية، على وجود شخص مارّ ماشٍ، أوضح دلالة من وجود كل هذه المخلوقات، وكل هذه الظواهر الباهرة على وجود خالق مالك؟ وهل نستيقن بحاجة مواضع أقدام على بساطتها، إلى شخصٍ ما، لأن آثار الأقدام لا يمكن أن تحصل بنفسها، ولا نستيقن بضرورة وجود خالق مدبِّر لهذا الخلق على عظمته؟! أي: أَإذا كان حصول آثار الأقدام في فلاة أو طريق متوقفاً على وجود شخصٍ ماشٍ، ألا يكون وجود هذا الخلق وحدوثه متوقفاً بالطريق الأولى على وجود خالق ومالك ومدبِّرٍ؟! وهل إذا اضطرتنا آثار أقدامٍ إلى التصديق واليقين بوجود شخص ماش، لا يضطرنا هذا الخلق العظيم إلى التصديق واليقين بوجود خالقٍ مدبرٍ؟! بلى والله وبأضعاف لا يعلم عدَدَها إلَّا الله تبارك وتعالى! ولهذا قال الأعرابي الذي سئل عن دليله على وجود الخالق: (البعرة تدلّ على البعير، والخطوة تدل المسير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحر ذو أمواج، ألَّا تدلّ على العليم القدير؟!).

النقطة الثانية: دلالة قانون النظام البديهي على وجود الربِّ المدبِّر:

وكذلك دلالة تنظيم واتقان كل هذه المخلوقات المحكمة الصُّنْع، والتي هي على أتم ما يكون النظام والإتقان والإحكام، على وجود الرب المالك المدبر، أوضح من كل شيء، وذلك لأنَّه ـ كما قلنا في السابق ـ هناك قانون عقلي بديهي يقول: لا يمكن أن يحصل النظام والإتقان في شيء ما، من دون أنْ يكون وراءه منظِّم ومُتْقِنٌ حكيم، ووجود النظام والإتقان بأقصى الدرجات في كل شيء من مخلوقات الله تعالى، شيء مُسلَّمٌ وجليٌّ لا يجادل فيه اثنان، وخاصة في عصرنا الحالي الذي أذِنَ الله تعالى فيه للبشر باكتشاف عدد غير قليل من قوانين وأسرار بَعْضٍ مِنْ خلق الله القريب منا، ولنَسْتَمِعْ بهذا الصدد إلى شهادة شاهد من أهل العلم:

يقول (جفري برون) مؤلف كتاب (الحضارة الأوربية في القرن التاسع العشر) [..وعندما قام (ديمتري مندليف) بنشر قانونه الدوري للعناصر سنة (١٨٦٩) مُبَيِّناً بأنها إذا رُتِّبَتْ حسب وزنها الذري، تظهر دورية خاصة بحيث

يكشف كل عنصر ثامن عن خصائص متشابهة، استرعت لائحته هذه الأَنظار كدليل آخر على أنَّ الطبيعة (!!) يمكن أن يفهمها كل من يتقبل أحكامها، وأخذ اعتقاد قوي ينمو بأن جميع الظواهر المادية الملموسة في الكون إنَّما تسلك مسلكاً منطقياً معقولاً، وان ما جعل الإنسان يُسيء فَهْمَها هو عَقْلُهُ المشوَّشُ غير المنتظم ليس إلا[1]]، أجلْ: فكلما تطورت المعرفة البشرية وازداد علمها بقوانين الخلق واطلع على حقائقه وأسراره أكثر، كلّما ازداد يقينه بكون الخلق مُنَظَّماً ومرتَّباً ومتقناً، وهكذا فنهاية العلم الصحيح هي بداية الدين الصريح، إذ قد ذكرنا سابقاً عدداً من الآيات المباركات التي اعلن فيها الخالق الحكيم والرب العليم جلَّ وعلا، بأنَّ خَلْقَهُ منظَّم ومُتْقَنٌ وأنه لا خلل ولا نقص فيه البتة، وان البشر مهما أجهدوا أنفسهم في سبيل العثور على شيء من الخلل في شيء من خلق الله، وكرّروا المحاولات الواحدة تلو الأخرى، لم يرجعوا بطائل ولم ينالوا سوى التعب والإعياء! كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [الملك]، وقد أقر العلماء ـ كل في مجال اختصاصه ـ في عصرنا الراهن بتلك الحقيقة التي أعلنها رب العالمين في كتابه الحكيم، إذْ يقولون في مجمل إقرارهم: بأن هذا الكون ـ والكون يقصد به الجزء الذي اطلع عليه البشر في الخلق ـ منظَّم غاية التنظيم، ولا خلل فيه ولا نقص، بل الظن بوجود أي نقص في شيء من المخلوقات، راجع إلى الجهل والخطأ في معرفة البشر بخلق الله المنظم المرتب المتقن! فمثلاً: يقول الفلكيون: لو كانت الشمس أكبر حجماً مما هي عليه الآن، أو أصغر، وهي أكبر من الأرض بـ(مليون وثلثمائة ألف مرة، تقريباً)، أو كانت تبعد عن الأرض أكثر أو أقل من مسافتها الحالية، وهي (مائة وخمسون مليون

(١) انظر الكتاب المذكور ص١٤١، والذي ترجمته (عبلة حجاب) طبعة ١٩٦٣، والكُتّاب الغربيون يستعملون كلمة (الطبيعة) بدلاً من كلمة (الله)، والطبيعة فعيلة بمعنى مفعولة، فَلِمَ الفرارُ من ذكر اسم الخالق العظيم الذي طبع الطبيعة هذه الطبعة الرائعة الجميلة؟! ولكنه الفرار والهروب من كابوس الكنيسة، ولهذه القصة مكان آخر في الباب الثالث بإذن الله.

كيلومتر، تقريباً)، أو كانت أسرع حركة أو أبطأ من حركتها الحالية، أو كانت أشد جاذبية ـ بالنسبة لتأثير جاذبيتها على الأرض ـ أو أقل أو. . . أو. . . ففي كل تلك الحالات، لاستحالَت الحياة على الأرض! وكذلك الحال بالنسبة لحجم كرتنا الأرضية وكثافتها وحركتها وقربها وبعدها من الشمس والقمر، ونسب الماء والهواء المحيطين بالأرض وأشعة الشمس، بل ونسب العناصر المكوِّنة للهواء، حيث النيتروجين نسبته (٧٨٪) والأوكسجين (٢١٪) وثاني أوكسيد الكاربون (٠,٣٪)، فلو اخْتَلَّتْ هذه النسب كذلك، لاخْتَلَّ تبعاً له توازن الحياة، وبالتالي استحالت حياةُ البشرية الحالية!

وخلاصة ما يقوله العلماء الباحثون عن أسرار الخلق وقوانينه ونظمه التي فرضها عليه خالقه وربه الحكيم العليم، هي: أن هذا الخلق بمجموعه وكذلك كل مخلوق فيه على حدة، كان يجب ـ طالما أُرِيْدَ به أن يكون محلاّ لحياة الإنسان ـ، أن يكون كما هو عليه الآن، بلا أيٍّ زيادة أو نقصان، ولو تغير شيء عما هو عليه، لاخْتلَّ بسببه التوازن والميزان! إذن:

أوَلَيس هذا مِصداقاً لما أعلن عنه خالق الخلق ورب العالمين في كتابه المبين: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍۢ﴾ و﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ. . .﴾ و﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾!! والآن زيادة في الإيضاح والبيان لنتأمَّلْ هذه الأمثلة الثلاثة، والتي نريد بها تجلية كيفية دلالة الخلق المنظم المتقن، على خالقه وربه الحكيم العليم جلَّ شأنه:

المثال الأول: ـ هل يشك أحد عندما يرى عنقود عنب، أو تفاحة، أو برتقالة، أو غيرها مما يصنع من النايلون أو البلاستيك أو غيرهما من المواد، أنَّ صانعاً ما صنع ذلك العنقود، أو تلك التفاحة، أو تلك البرتقالة. . . إلخ؟! كلاّ بلا ريب، والآن نتسائل: أَوَلَيستْ رؤية عناقيد العنب المتدلية من العروش، أو المفروشة على الأرض، أو قنوان النخل الدانية، أو التفاح والرمان والبرتقال والموز والخوخ. . . إلخ، أَوْلى وأَحْرى بمئات وآلاف المرات، بأن يضطر الإنسان إلى الإعتقاد بأنَّها من صنع وإبداع صانع ومبدع حكيم؟! بلى وربِّ الخلق، كيف وبين ما خلق الله تعالى

وأبدعه، وما صنعه الإنسان مقلِّداً فيه صنعة ربه، فرق كبير وبَوْنٌ شاسع، لا يعلم مداه إلَّا الله الخالق جلَّ وعلا، اذْ صنيع العبد ليس سوى مظهر أجوف مزركش، خال من الحياة والطعم والرائحة والنواة . . . إلخ.

ولهذا يذكرنا سبحانه بنعمه السابغة علينا في هذا المجال، ويأمرنا بالتأمل في الطعام الذي نأكله، والذي يصنع من أنواع الحبوب والثمار والفواكه، حيث قال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾ [عبس].

إذن: فوالله ثم والله لعجيب جداً أمر مَنْ يُعْجَبُ بمهارة صانع الفواكه النايلونية والبلاستيكية الجوفاء العديمة للحياة والطعم والرائحة . . . . ويَتَعَجَّبُ من تلك المصنوعات، ثم لا يُعْجَبُ بعظمة وحكمة الخالق الحكيم الذي أبدع مئات أنواع من الفواكه الشهية الطيبة، ولكل منها لون خاص، وطعم ومذاق خاص، ورائحة خاصة، وفوائد مخصوصة، غذاءً ودواءً!! ولا يتعجب من خلق الله الذي كلما ازداد فيه تأملاً، وأوغل في معرفة أسراره، اطَّلع فيه على مزيد من الحكم والفوائد!

المثال الثاني: هل يشك أحَدٌ عندما يرى صورة انسان رَسَمها رسّامٌ ماهِرٌ على لوح أو ورق، أنها من نقش نقاش ورسم رسام؟ كلا بلا ريب، ولكن قل لي بربك كم الفاصل بين إنسان حيٍ عاقلٍ، سميعٍ، بصيرٍ، ناطقٍ، شائمٍ، حائسٍ، ذائقٍ، وبين الصورة التي ليستْ سوى حبرٍ على ورقٍ، جعل منه نقش على صورة بشر؟!

وهل القانون العقلي البديهي الذي يُجْبِرُ الإنسان على الإقرار بوجود رسّام ومصوِّر لصورة يراها، لا يُلْزِمُهُ الإقرار بضرورة وجود خالقٍ قدير ورب خبير، لخلق وتصوير مليارات من البشر ذوي الحياة والعقول والسمع والأَبصار والنطق والبيان، الذين لم يتشابه قط ولا يتشابه وجها اثنين منهم أبداً؟! وقد قال جلَّ وعلا موبِّخاً الإنسان الكافر الكفور: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا

غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾﴾ [الانفطار].

فيُنبّه الله سبحانه وتعالى الإنسان الكافر المغرور، إلى أنه قد مَرَّ بمراحل أربع إلى أن صار إنساناً سوياً، وهي:

أ ـ الخلق: وهو الإيجاد والإنشاء بعد العدم ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ﴾.

ب ـ التسوية: وهي جعله (أي البدن) ذا أعضاء وأجزاء ﴿فَسَوَّىٰكَ﴾.

ج ـ التعديل: وهو جعل أجزاء البدن وأعضاء متعادلة ومتساوية بعضها مع بعض ﴿فَعَدَلَكَ﴾.

د ـ التصوير: وهو إعطاؤه القوام والصورة الخاصة به (أي بكل انسان) ﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾﴾.

وهذه الآيات تتحدث عن الناحية الجسدية خاصة، وخصوصاً (التسوية والتعديل والتصوير).. لا يُقْصَدُ بِها غيْر البدن، وأمر البدن وان كان عجيباً ومُدْهِشاً، ولكن أمر الروح وباطن الإنسان أعجب وأعظم، إذْ ليس البدن سوى ثوبٍ مؤقت تَلْبسُه الروحُ، وتَتَلبَّسُ به في فترة الحياة الأرضية الإبتلائية! أما حقيقة الإنسان وجوهره، فتكمن في روحه التي هِي نفخة رَبانية! كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾﴾ [السجدة].

وقد أمرنا الله تبارك وتعالى: أن نتفكرَّ ونتأمَّلَ في أنفسنا، روحاً وجسماَ وباطناَ وظاهراً، حيث قال: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات].

ومعنى الآيتيْن: وفي الأرض ـ التي تعيشون عليها ـ علامات على ربوبية الله وصفاته العُلى، من رحمةٍ وحكمة وقدرة وعظمة... إلخ، لكل مَنْ يملكك العلم الموصل لليقين، وكذلك في أنفسكم آيات وعلامات على

ربوبية الله وصفاته العُلى، أفلا ترون بأبصاركم وببصائركم عجائب صنع الله فيكم؟!

والتأمّل في النفس يتم عبر أربع مراحل:

الأولى: التأمّل في ظاهر الجسد:

حيث الجلد السّابغ لكل البدن، وهو موطن الخلايا الحسّية للإحساس بالبرد والحرّ وغيرهما، وكذلك هو موطن المسامات الجلدية التي يُنَظِّمُ البدن من خلالها، حرارتَهُ ويجعلها ثابتة على (٣٧) درجة، وذلك بصورة أتوماتيكية حيث تنفتح عند الحر لإفراز العرق وتنسدّ عند البَرْد، والجلد مَوطِنُ الشَّعر المتنوِّع، فشعر الرأس غير شعر الحاجبين، وشعر الحاجبين غير شعر الأهداب... إلخ، ثم الأظافر التي لا يقدر الإنسان قَدْرَها إلَّا عندما تُخْلَعُ أو تنخلع كلها أو بعضها! ثم الهيكل العظمي الذي يُعْطي القِوامَ المرتفع المنتصب للبدن، وجعلت فيه مفاصل كثيرة لتسهيل حركة البدن، بَدْءاً بفقرات الظَّهْر إلى مفاصل أصابع اليدين والقدمين، ثم الحواس الخمس التي يتعامل الإنسان من خلالها مع المرئيات والمسموعات والمذوقات والملموسات والمشمومات، ومن فقد حِساً، فَقَد وسيلة الإتصال بأحد تلك العوالم والتعامل والتفاعل معها.

وأما الوجه عموماً، فهو الذي يُعَرِّف شخصية الإنسان الخارجية.

وأما الفم واللسان والشفتان، فهي وسيلة الكلام والبيان والإرتباط مع بني الإنسان!

الثانية: التأمل في باطن الجسد:

إذا كان التأمل والتفكر في ظاهر الجسم ميسوراً لكل الناس، فالتأمُّل في باطن الجسم وأجهزته المحيِّرة للألباب، من دماغ وقلب وأجهزة أعصاب وتَنَفُّسٍ وهَضْمٍ ودفاع وإيصال غِذاءٍ للخلايا والأنسجة، ودفع وإبعاد النفايات عن الجسد، عن طرق: التنفس والتَبوُّل والتبرّز والتَّعَرُّق والتمخُّط... إلخ، أَجَلْ: انَّ التأمل الحقيقي لباطن الجسم وما يحتوي عليه من نظام وإتقان،

إنَّما يتأتَّى لمن يملك المعرفة بباطن الجسم وأجهزته، وقد صدق من قال: (مَنْ عَرَف نَفْسه فقد عَرَفَ ربَّه)، ولا مجال هنا للخوض في تفاصيل أسرار البدن الباطنية، وانمّا قَصْدي إلْفاتُ النظر والتنبيهُ فقط، وإلَّا فكل عضو في ظاهر الجسم، وكل جهاز في باطنه، يحتاج البحث فيه وفي دقائق صنع الله تعالى فيه، إلى كتاب مستقل أو مجلَّدات! ولكن لا نترك موضوع التأمل في باطن الجسد قبل أن أُلْفِتَ الأنظار إلى مسألةٍ عجيبة قد يغفل عنها كثير من الناس، وقد ذكرها العلماء في مَعْرِض الحديث عن التأمل في عجائب الجسد، وهي:

لو أن شخصاً قال: إني رأيْتُ حَجَراً في حجم بطيخة تَسيلُ منه أربَعُ عيونِ ماءٍ، وماءُ كل عين من العيون الأربع له طعم مختلف ومغايِر لما للأُخَر، إذْ إحدى العيون الأربع طعم مائها حلوٌ، والثانية طعمها مالحٌ، والثالثة مُرّ، والرابعة حامِض! لاستغرب الناس قَوْلَهُ ذلك ورموه بالكذب أو الجنون واختلال العقل! وذلك لأن اجتماعَ أربعِ عيون ماءٍ، لكل منها طعم مغاير للأخرى، عجيبُ وغريبُ جداً، وخاصة إذا كانت في مساحة صغيرة بحجم بطيخة!!

ولكن هذا الأمر العجيب الغريب، أي اجتماع أربع عيون متغايرة الطَّعم هو واقع حال رأس كل واحدٍ مِنّا، إذ الرأس اجتمعت فيه تلك العيون الأربع!

وحكمة اختلاف وتنوّع طعوم تلك المياه هي بالشكل التالي:

أما ماءُ الفَم فلو لم يكن حلواً طيباً، كيف كان الإنسان يتمكَّن من صُنْعِ اللُّقمَةِ وابتلاعَها!

وأما ماءُ العينين فجعله الله الحكيم مالحاً حفظاً للعينين الشحميتين من التعفّن، وغَسْلاً لهما من الغبار وتعقيماً لهما باستمرار!

وأما ماء الأُذُنين فقد جعله لنا ربُّنا الكريم الحكيم مُرّاً كي يحفظ الأُذُنَيْن اللَّتيْنِ ليس لهما بابٌ أو حجاب، كي تتمكَّنا من التقاط الأصوات دوماً، فمرارة ماء الأُذنين طاردة للحشرات، وقاتلة لها، فهي تصون الأذن ـ

من دون أن تكون لنا يدُ في الأمر ـ باستمرار.

وامّا ماءُ الأنف فحموضته من أجل غَسْله للأنف المتعرِّض للغبار والدخان، والأجسام الغريبة الأخرى، المتلبّسة بالهواء الذي لا بُدَّ لنا من استنشاقِهِ كي نستمرَّ في الحياة، إذْ هو لحموضته يسيل بسرعة ثم يُنَظِّفُ الأنفَ، الذي يحرس الجسم من دخول المواد الغريبة فيه، عن طريق الهواء والتنفّس، ويمسك بتلابيب كلها أو جُلِّها بواسطة شُعَيْراته الدقيقة التي قلما نحسُّ بها، وبواسطة الماءُ اللَّزِج الحامِضِ الذي يتحوّل فيما بعد، ومن جَرّاء كثرة إمساكِهِ بتلابيب الأجسام الغريبة، إلى مُخاطٍ، ويتغيَّر لَوْنَه المائي الصافي إلى مختلف الألْوان، بحسب ألوان المواد الغريبة المحبوسة فيه!

الثالثة: التأمُّل في الروح من حيث ظاهرُها الذي يَشترك فيه الناس جميعاً:

نعم إنَّ المجال الثالث للتأمل والتفكر في النفس، هو التأمّلُ في الروح من حيث ظاهرُها المشترك بين البشر جميعاً مسلمين أو كافرين، وأقصد بظاهر الروح حالاتها وأوصافها التي تتجلّى فيها، من دون أن تتوقف على الإيمان والتقوى والتزكية، وذلك مثل:

الحب والبغض، والشجاعة والجبن، والسخاء والبخل، والعفَّة والخِسَّة، والكرامة واللؤم، والهدؤُ والطَّيْش... إلخ.

ومما لا جدال فيه أن لهذه الصفات والحالات الروحية الدور الأساسي في تكوين شخصيات الناس المختلفة، وبسب هذه الصفات والأحوال الروحية يتمايز الناس بعضهم عن بعض، مع تشابههم وتساويهم من حيث أجسامهم وأبدانهم وزْناً وحَجْماً، وطولاً وقصراً، وسِمَناً ونحافة، وجمالاً وقُبْحاً، ووسامةً ودمامةً... إلخ، وهذا التمايز والتباين العظيم بين الناس بسبب أوصافهم وحالاتهم الباطنية النفسية، مع تشابههم أو تساويهم من حيث أجسامهم، أعظم دليل على أن الإنسان إنّما يكمن جوهرُهُ ولبُّهُ، وتَسْتَتِرُ شَخْصِيَّتُهُ في روحه ونفسه التي بين جَنَبيه، تلك النفخة الربانية التي نفخها الله تعالى في جسده الترابي، بعد خَلْقه وتَسويته! ترى شخصين

متشابهين أو متماثلين من حيث المظهر والجسم، ولكن من حيث المخبَر والروح، هما كالثَّرى والثُرَيّا، إذْ ترى أحَدهما جَباناً رِعْديداً يرتجف من سواد ظِلّه، لكن الثاني جريء شجاعُ مقدام لا يعرف الخوف! أو ترى أحدهما بخيلاً قتوراً يبخلُ حتى على نفسه، لكن الثاني سخيٌّ جوادٌ يتلذَّذُ بالإنفاق والبَذل أيَّما تَلَذُّذٍ! ومن الواضح أنه لا علاقة لأي من الجُبْنِ والبخل من طرفٍ، والشجاعة والجود منْ طرفِ آخر، بالجسم الترابي البتّةَ، بل كلّها من أوصاف الروح، وحالات النفس لا غير.

الرابعة: التأمل في الروح من حيث باطِنُ أمرها، وهو ارتباطها بالله تعالى إيماناً وعبادةً وتقوىً:

والمجال الرابع لتفكر الإنسان في نفسه تنفيذاً لأمر الله تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾! هو تأمّله وتدَبّره في نَفْسه من حيث ارتباط الروح بالله تبارك وتعالى من خلال: معرفته، والإيمان به، والعبادة له، والتقوى منه.

وهذا الجانب خاصٌ بأهل الإيمان كما أن التأمُّل في باطن الجسم خاصٌ بأهل العلم، إذْ مَنْ لا إيمان له لا ارتباط له ـ أي الإرتباط الصحيح المُرْضيُّ لله ـ بالله تعالى، وبالتالي فهو محرومٌ من ذوق طعم الإرتباط بالله تبارك وتعالى.

وللروح الإنساني المؤمنة في مجال الإرتباط بربّها، عالَمٌ واسعُ الأرجاء من الحقائق لا يمكن التعبير إلَّا عن جزءٍ ضَئيل منها، إذ الألفاظ والتعابير البشرية أضيق نطاقاً وأدْنى آفاقاً منْ أن تَسَعَها.

وهذه بعض الآيات المباركات التي تشير إلى بعض من تلك الحقائق والأسرار التي يَسْتَشْعِرُها قلبُ الإنسان المؤمن، وتتذوَّقُها روحه بقدر امتلاكه للإيمان بالله، وبقدر رسوخ قدم العبودية في أرضية روحه:

١ ـ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد].

٢ - ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس].

٣ - ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾ [الأنفال].

٤ - ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران].

٥ - ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران].

٦ - ﴿... وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الحج].

٧ - ﴿... وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ [البقرة].

٨ - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾﴾ [الأحزاب].

٩ - ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ [البقرة].

١٠ - ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾ [الفجر].

ويمكننا القول:

إن تلك الحقائق التي تستشعرها الروح وتَتَذوَّقها بسبب الإيمان ـ وبين أهل الإيمان في هذا المجال درجات ـ تتلَخَّصُ في شيئين:

أولاً: شعور العبد اليقيني الذوقي بِعُبوديَّتِهِ لله تعالى، بكل ما تشتمل عليه كلمة العبودية من معانٍ من الفقر المطلق، والحاجة المطلقة إلى الله تعالى، والذُلِّ المطلق له، وأشدّ الحبِّ وأقصى التعظيم له، والتوكل عليه والثقة به، والخشية منه والإجلال له... إلخ.

ثانياً: وشعوره اليقيني الذوقي بربوبّية الله تبارك وتعالى وَوِلايَتَه له، بكل ما تعْنيه كلمتا الربوبية والولاية من العظمة والعلوِّ والكبرياءِ والغنى والرحمة والحكمة واللّطف والنصر والحب.. وغيرها من أسماء الله الحسنى وصفاته العُلى.

ومن يتأمَّل النفس البشرية عَبْرَ هذه المراحل الأربع ـ وأقصد هنا بالنَّفس البشرية: كيانَ الإنسان كلَّه روحاً وجسداً ـ ثم يقارن بين تلك الصورة الجامدة ـ لإنسانٍ ما، والتي تُجْبِرها على الإقرار بِمُصَوِّرها ونقّاشها، وبين الإنسان العجيب الّذي خلقه رَبُّهُ من حفناتِ منْ ترابٍ ونفخة روحية منه، يأخذه العجب من وجود أُناس شاكين في وجود خالق الإنسان وربّه! إذ كيف يرى أولئك أنفسهم مضطرين للإقرار بصانع صورة الإنسان، ولكن تَسمحُ لهم عقولُهم أن يُنْكِروا خالِقَ الإنسان! أَوَ صُورَةُ الإنسان وظِلُّهُ أعظمُ وأهَمُّ من الإنسان نفسه، كي يعتبروا أنفسهم مُجْبَرين على الإقرار بصانعها، من دون أن يفكرُّوا في خالقه ومُصوِّرِهِ ومُسَوِّيه هو نفسه؟!!

المثال الثالث: هل يَرتابُ أحَدٌ نزل فندقاً وقصراً، وجد فيه كُلَّ أسبابَ العيش من إنارة وطعام وشراب ودواءٍ وملابس ومختلف الوسائل التي يحتاجُها مُدة بقائه فيه، أنّ له صاحباً يُشْرِفُ عليه ومُدبِّراً يُدبِّرُ أموره وَيُنَظِّمها ويُرَتِّبها؟!! كلا بلا شك، ولكن هل يُقاسُ أمر ذلك الفندق أو القصر المجهَّز بالمستلزمات، بأمر حياتنا الأرضية هذه في هذا العالم؟ ومن أجل الحصول على جواب هذا السؤال، فَلنُجْرِ مقارنةً سريعة بين ذلك الفندق أو القصر، وبين هذا العالم الذي نعيش فيه ومحتوياتهما، وذلك في النقاط الآتية:

١ ـ الأرض التي بُني عَلَيْها الفندق لا يَد لصاحب الفندق فيها ـ أي في إيجادها وتهيئتها ـ ولكن العالم والمحيط الذي هيأ الله تعالى فيه حياتنا الأرضية، هو من خلقه وإبداعِهِ هو سبحانه.

٢ ـ المواد التي بني بها الفندق، كانت موجودة حاضرة من دون أن يكون لبانيه وصاحبه أي دور في إيجادها، ولكن خالق العالم هو الذي أوجد مادة العالم ومكوّناتِهِ.

٣ ـ إنارة الفندق تتم بواسطة مصابيح كهربائية، والطاقة الكهربائية المُمِدَّة للمصابيح بالتيار الكهربائي، تتولَّد إمّا من الشلاّلات المائية، أو المُوَلِّدات الكهربائية التي كثيراً ما تتعرَّضُ للخلل والعطب، فينقطع التيار الكهربائي وبالتالي يُخَيِّم ظلامُ دامِسٌ على الفندق، ولكن إنارة العالم الذي يعيش فيه الإنسان تتم بالنَّهار بواسطة الشمس المشرقة الوهّاجة، وبالليل بواسطة القمر والنجوم، ولَمْ يتعَّرض أيٌّ منها ولو مرَّة واحدة في تاريخهما الطويل الذي لا يعلمه الا الله، للخلل والعطب، بل هما مستمران في عملهما منذ أن أضاءهما الله الخالق بدون انقطاع، كما قال الباريء جلَّ وعلا: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾﴾ [إبراهيم]، وليس كسوف الشمس وخسوف القمر اللذين يَحْدُثانِ أحياناً من الخلل والعطب في شيء، بَلْ يحدثان طبقاً للسُّنَن والقوانين التي أَلْزَم الله بها خلقه، وهما ينبِّهانِ الناس ويذكِّرانهم بنعمة الله، إذ الإنسان كثيراً مّا ينسى النعم بسبب استمرارها، ولكن إذا فقدها ولو لفترة، عرف قَدْرَها، وقد قيل: (وفي الليلة الظلماءِ يُفْتقد البَدْر).

٤ ـ وهكذا إذا قارنا بين ماءِ الفندق المتمثل فيما تدّره بعض الحنفيات (الطَّنابير)، والذي لا يتجاوز مجموع ماءِ جميعها ما يجري في جَدْوَلِ ماءٍ، من ماء عالمنا المتمثِّل في البحار والمحيطات والثلوج والأمطار الغزيرة والعيون والآبار والأنهار الكثيرة.

٥ ـ وكذلك إذا قارنَّا بين ما يوجد من بعض أنواع الطعام، والغذاء في الفندق المذكور، وبين ما خَلَقَهُ الله الكريم من أنواع الأغذية والثمار والفواكه

المتجددة خلال السنة، والمتعدّدة عَبْر الفصول، وهكذا سائر محتويات ذلك الفندق وعالمنا الكبير الواسع، أجل بعد مقارنة سريعة كالتي قُمْنا بها، بين ذلك الفندق الذي يضطر كل صاحب عقلٍ أن يُقِرَّ إقراراً جازماً أن له صاحباً ومديراً ومدبِّراً، ولو لم يُظْهِرْ نَفْسَهُ للشخص الذي نزل ضَيْفاً على الفندق المذكور، وبين هذا العالم العجيب المهيب الواسع، يَصلُ كل من له مُسْكة من عقلٍ، إلى نتيجة مؤدّاها أنَّه إذا ألجأَنا العقلُ بقوانينه البديهية المركوزة فيه، إلى الإقرار والتصديق بوجود صاحبٍ ومدير لفندق، أو قصرٍ مجهَّزٍ بِمسْتَلْزمات حياة عدة ضيوف لعدّة أيامٍ، مرةً، فَسَيُلْجِئُنا مّرات ومرات ومرات إلى الإقرار والتصديق بوجود خالق وربّ ومدبِّر عالمنا الكبير الواسع المُنَّظم المجهَّز بِمُسْتَلْزمات ملايين بل مليارات من البشر، ولمدة آلاف أو ملايين أو ما لا يعلمه إلَّا الله، من السنين!! وقد بيّنا شيئاً من الفارق الكبير والبون الشاسع بين التجهيزين الإنساني والربّاني، ثم ذلك الإنسان نفسه وقصره ومحتوياته أيضاً لَيْسَتْ سوى جزءٍ من محتويات ما خلقه الله تعالى في هذا العالم!

الفقرة الثالثة: أدلَّة خالقية الله تعالى وربوبيَّته لا حَصر لها:

أجل انَّ الأدلة والبراهين الدالّة على خالقية الله تبارك وتعالى وربوبيّته، لا تُعَدُّ ولا تُحصى، ولكن انما اقتصرنا على ذكر برهاني: (السببيَّه) و(النظام) لثلاثة أسباب:

أولاً: لأنَّ هذين البرهانين يستندان إلى قانونين عقليين بديهيين: (لا وجود لشيءٍ بدون سبب) أو (لا يمكن أن يوجد شيء من غير سبب) و(لا نظام بدون منظِّم) أو (لا بُدَّ لكل نظام من منظِّم)

ثانياً: شمول هذين البرهانين لكل الظواهر، بل لكل مخلوق كبير أو صغير، حتى الذرات، بل وأصغر من الذرات أيضاً، وذلك، لأن كل مخلوقٍ طبقاً لهذين القانونين البديهيين، محتاج إلى الله الخالق الرب المُدبِّر جلَّ وعلا، مرتين: مرة لوجوده، ومرة أخرى لتنظيمه، ولهذا قال تعالى

واصفاً نفسه: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾ [الأعلى].

أو نَقُول: كل مخلوق من مخلوقات الله التي لا يُحْصيها إلّا هو سبحانه، بحاجة إلى الله الخالق الربِّ من جهتين، الأولى: جهة خلقه وإيجاده، والثانية: جهة سَيْره وهدايته، ولهذا قال سبحانه وتعالى على لسان موسى عليه السلام وفي جواب سؤال فرعون: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾؟! ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾.

ثالثاً: إكثار القرآن الحكيم، الإستناد إلى هذين القانونين العقليين الواضحين في الإستدلال على خالقيَّة الله تبارك وتعالى وربوبيَّته، أو الأصح أن نَقُول، في التذكير بخالقيّة الله وربوبيَّته، والآن لنوضح كيفية انطباق برهاني السَّببيَّة والنظام، على كل مخلوق وكل شيء كبيرٍ أو صغيرٍ في الخلق:

إنَّ الذرَّة (atom) والتي يعتبرها العلماءُ اللَّبِنَة الأولى في المادة وظواهرها، وكانوا قبل أن يتوصل العلم إلى فَلْق الذرة، يعتبرونها أصغر شيء، ويُسَمُّونها: (الجزءَ الذي لا يتَّجزء)، ولكن بعد انفلاقها تبيَّن لهم خطَؤُهم، ووجدوا أن كل ذرة تحتوي على ثلاثة أجزاء ومكوّنات رئيسة، وهي:

(١) بروتون (proton) موجب، (٢) ونيترون (neutron) محايد في الوسط، ويُشكِّلان ـ أي البروتون والنيترون ـ نواة الذرة، (٣) والكترون ((Electron) سالب، يدور في المدار، بل ثم وجدوا أنَّه توجَدُ داخل الذرة أكثر من مائة من الجُسَيْمات الدقيقة! نعم إن كلَّ ذرة من ذرات المادَّة تحتاج إلى الله الخالق الربّ جلَّ وعلا مرَّتَيْن: مرة كي يُعطيها الوجود ويُبْدعها، ومرة كي يُنَظِّمها ويُرتِّبَ أمرها، ويهديها إلى غايتها المرسومة لها.

نعم: انَّ ذرات السَّموات والأرض وما فيهما من مخلوقات مادية، كل منها يَنْطَبِقُ عليها كلا قانوني السَّببية والنِّظام، وبناءً عليه نقول:

إنَّ براهين: خالقيَّة الله وربوبيَّته للخلق، هي بعدد الذرّات التي يتكون منها الخلق مرَّتين، مرة لإيجادها ومرة لتنظيمها، بل وأكثر من ذلك أيضاً، وذلك لأنَّ من الذرّات كذلك تتكوَّن المخلوقات الأخرى، وكل المظاهر المادية البديعة في السمٰوات والأرض، بَدْءاً بالجُزيْئات (Molecules) والتي تعتبر اللَّبِنات الأولى لتكوين الأشياء، وكل جُزَيء يتكون من عدد من الذرات، ويختلفُ العددُ حسب نوعية العناصر وأوزانها، ومروراً بالخلايا التي تَتكوَّن منها الكائنات الحية من نبات وحيوان وانسان، بكل ما تحتوى عليه أجْسامها من أنواع الأنسجة والأعضاء والأجهزة ـ بالإضافة إلى الحياة السارية فيها ـ، ووصولاً إلى النُّجوم والكواكب والمجرات التي تتشكّل منها! وهذا فقط في عالم المادة المعروف لنا، والتي هي أكْثَفُ المخلوقات، في الأقل للنظر الظّاهري لنا، فكيف بالعوالم الأخرى من ملائكة وجن وأرواح.. والتي لا يعلم حقيقتها وشؤونها وأعدادها إلا خالقها تبارك وتعالى!! وإنما قلنا كل ذرة برهان مستقل على خالقية الله وربوبيَّتِهِ مَرتَين: مرةً أنْ لم تكن موجودة، فخلقها الله تعالى وأوجدها أو وهبها الوجود، ومرةً أن نظَّمها ورتَّبها وهداها إلى غايتها، وذلك لأنَّ كُلاً من إيجاد الذرات وتنظيمها وهدايتها، لا يتأتّى من غير الله الخالق العليم القدير سبحانه، أمّا الخلق والإيجاد فواضحٌ أنه من اختصاص الخالق وحده، إذْ مَنْ لا يَمْلِكُ وجودَ نفسه، فكيف يَهَبُهُ لغيره؟ وقد تحدَّى الله الخالق الباريء جلَّ شأنه أهل الكفر كُلَّهم، أن يُرُوه شيئاً مِمّا خَلَقَهُ غيره: فقال: ﴿...فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴿١١﴾﴾ [لقمان]، وأخبرهم بأنَّهم ليس هم فَحَسْبُ، بل حتى معبوداتهم التي اتخدوها آلهةً، عاجزةٌ عن خلق أدنى شيء، حتى ولو ذُبابة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥۖ... ﴿٧٣﴾﴾.

وأمّا التنظيم والإتقان والذي هو أَمرٌ جَعْليٌّ، وليس من الخلق والإيجاد في شيء، بَلْ هو مجرَّد تصرُّفٍ وفعل في الخلق، فقد جعل الله تعالى للبشر مجالاً فيه وأعطاهم إمكانية القيام به، في حدود ما يحتاجونه في حياتهم

الإبتلائية الأرضية، ولكن إمكانيتهم المتاحة تلك، أقل بكثير من أنْ تَصِلَ يَدُها إلى النظام والإتقان الذي أوْدَعه الخالق العليمُ في الذرات من يوم خَلَقَها! ثم بالإضافة إلى هذا فالنظام العجيب المُدْهِش المُوْدَعُ في الذرات، من الدقة والإتقان بحيث عَجَز البشَرُ حتى عن مجَّرد معرفته، والإطلاع الكافي عليه، بَلْهَ التدخل فيه! ويقول علماء الفيزياء الذريّة بهذا الصَّدد:

إن النظام والإتقان المودَعَ في كل ذرة من الذرات، هو بمثابة النظام الدقيق الذي يوجد في المجموعة الشمسية، من حيث بُعْدُ وقُرْبُ مسافة الأجرام بعضها من بعض، ومن حيث نِسَبُ أوزانها وقوة الجَذْبِ بينها، وغير ذلك! هذا ولا أرى كبيرَ حاجةٍ أن أُشْغِلَ نَفْسي بالردِّ على كُل من الرأي القائل بأزلية (الكون) والرأي القائل بأزلية (المادة)، لأنَّهما رأيان تافهان، ولا يَسْتَنِدان إلَّا إلى الإدِّعاء المجرَّد والظن والوهم، وهما من مُخلَّفات الآراء والأفكار الرائجة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وقد فَقَدا مِنْذُ أمَدٍ بعيد بَريقَهُما، وخاصة في عصرنا الحالي، وبعد تقدّم علم الفيزياء، واكتشاف بعض القوانين التي تحكم عالَمَ المادة، وبعض حقائق ذلك المقدار من الخلق المشهود لنا بالمناظير (التلسكوبات) والذي اصطُلِحَ عليه بـ(الكون)، وخصوصاً القانون المعروف بـ(القانون الثاني للديناميكا الحرارية) والذي يقول: تنتقل الحرارة باستمرار من الأجسام الحارّة، أو الأجسام ذات الحرارة العالية، إلى الأجسام الباردة، أو الأجسام ذات الحرارة الهابطة، إلى أن تستويا وتتكافئا فتتوقف، وبناءً عليه: لا يمكن القول بأزلية الخلق (الكون) وانتقال الحرارة لا يزال مستمرّاً، كما هو الحال بين الشمْسِ ومجموعتها، وخاصة أرضنا التي نعيش عليها، إذ لو كان أزلياً لتوقفت عملية انتقال الحرارة منذ أمدٍ بعيد! إذْ تَفْقِدُ الشمسُ يومياً من جرّاء الإنفجارات النووية التي تجري في داخلها ـ والتي هي سبب اشتعالها وَتَوَهُّجها ـ ملايين الأطنان من وزنها! هذا وقد توصَّلت الأبحاث الفيزيائية والفلكية في عصرنا الحالي حَدّاً، تمكَّن بها العُلماءُ من إجْراءِ قياسات وتحديدات تقريبية لِعُمر الشمس ـ والتي ليس سوى نجم من نجوم (مجّرة دَرْبِ التبّان) التي تُعَدُّ بالملايين ـ وَوزْنها والمقدار المصروف من طاقتها

الحراريَّة والمقدار المتبقّي منها! أجلْ فقد أصبح الآن موضوع كون الخلق (الكون) مخلوقاً وحادثاً شيئاً واضحاً ومحسوماً علمياً، وبالتالي فقد أصبح القول بأزليَّة الكون قولاً تافهاً وداحضاً، وجديرٌ بالذكر أنَّ أحْدَثَ النظريات العلمية عن نشوء الكون، هي النظرية المسمّاة بـ(نظرية الإنفجار الكبير) والتي خلاصتها: أن هذا الكون نشأ وحدث نتيجة انفجار كبير مهيب، حدث في المادة التي كانت موجودة في صورة كتلة غازية هائلة، ومن جرّاء ارتفاع دَرَجة الحرارة داخلها إلى غاية بعيدة! وليْست هذه النظرية حقيقة علمية، يمكن الإستناد اليها في ذلك الموضوع العظيم، ولكن يمكن الإستئناس بها في فهم بعض الآيات التي تشير إلى بداية الخلق وكيفية نشوئه، مثل قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنبياء]، وقوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾ [فصلت].

حيث تُبيِّن الآية في سورة (الأنبياء) أن السمٰوات والأرض قبل أنْ تأخذا شَكْلَهُما الحالي بإذن فاطرهما، كانتا مُلْتصِقَتَيْن بعضهما ببعض، أي كانتا كتلة واحدة، ثم فصَّل الله تعالى بعضهما عن بعض، وتُصرِّحُ الآية في سورة (فصلت) أن السّماء ـ أي الخلق المادي كله بما فيه الأرض ـ كانت قبل تكوّنها الحالي دخاناً (أي في حالة غازية).

وأما القول بأزلية المادة، فهو قول مجرّد من أي دليل، بل مجرَّد ادعاءٍ ليس إلَّا، إذ الكلام عن ذلك الماضي السحيق الذي سبق نشوء الكون، يُعتبر رَجْماً بالغيب، ولا يمت إلى العلم بصلة، لأنَّ العلم لا يتحدَّث عمّا لا يمتلك الوسائل التي تمكِّنه من الإطلاع عليه، كما قال تعالى بهذا الصَّدد: ﴿۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾﴾ [الكهف].

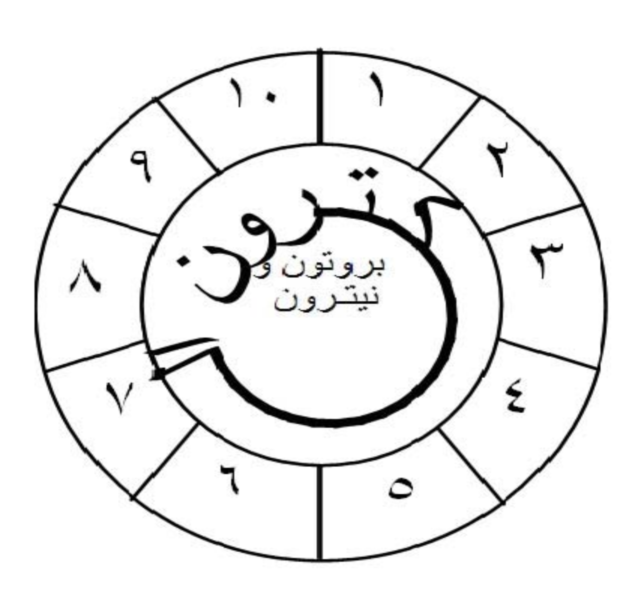
وبالإضافة إلى هذا، فالمادة والحركة شيئان متلازمان، ولا تَنْفَكُّ إحداهما عن الأخرى، ولا يمكن تصوّر حركة لَيْستْ لها بداية، كما يقولُ

بعض الفلاسفة، وعليه: فالمادة لا بُدَّ من أن تكون حادِثة بعد أن لم تكن! ونُوضِّحُ هذه المسألة فنقول:

بما أن الذرّات هي اللّبِنات الأساسية لبناءِ المادة ووجودها، بَلْ لَيْست المادة في حقيقتها الأولية سوى الذرات، والذرات تدور ألكتروناتها على نواها منذ أن خلقها الله تعالى، ولا يمكن أن تتوقف أبداً ولم تَتَوقَّفْ قط، ومعنى هذا أن وجود المادة بَدأ بِبَدْءِ حركتها، إذاً: فمتى ثبت أنَّ لحركة المادة بدايةً، فقد ثبت في الوقْتِ نَفْسِهِ أن لوُجود المادة بدايةً، وذلك لأن المادة والحركة لا توجد إحداهما بدون الأخرى.

والآن نقول: لو أخذنا على سبيل المثال ذرة من (الهيدروجين) الذي هو أبسط العناصر لأنَّ ذراته تحتوي ـ كل منها ـ على الكترون واحد في المدار وبروتون واحد ونيترون واحد في المركز، لمعرفة هل أن لحركتها بداية أم لا؟! نقول:

اذا ما قَسَّمْنا محيط المدار الذي يتحرك فيه الألكترون ويدور فيه إلى عشرة أقسام، كما في هذا الشكل:



فلا بدَّ لنا من أنْ نُقِرَّ بأن الألكترون بدأ حركته حول النواة، إما في القسم رقم (١) أو رقم (٢) أو (٣)... إلخ إلى القسم رقم (١٠)، وأيَّ قسم من الأقسام العشرة اخترْنا ـ ولا بدَّ من أن نختار أحَدَها ـ لتحديد بداية حركة الألكترون، فهذا يعْني أنَّه لَم تكُنْ له حركة في الأقسام الأخرى التي هي قبلَهُ، فلو اخترنا مثلاً أنَّ بداية حركتِهِ كانت في القسم رقم (١)، إذن: فقد سبق حركته سكونٌ، وبالتالي عدم وجودِهِ في الأقسام التسعة الأخرى، وهكذا سائر الأقسام على هذا المنْوال، والذي يضطرّنا إلى اختيار أحد الأقسام العشرة التي توزّع عليها محيط مدار حركة الألكترون، هو أن الحركة لا بدَّ لها من بداية، وذلك الألكترون إما أن نقول: أنه بدأ بالتحرك والدّوران في لحظة واحدة في كل الأقسام العشرة! وهذا مستحيل ولا يستسيغُه العَقْلُ، وإمّا أنْ نقول انه بدأتْ حركته في أحد الأقسام، وحينذاك تترتب عليه النتيجة التي قلناها، ثم بما أن المادة لا وجود لها بدون حركة، لذا: ففي الوقت الذي أثبتنا أن حركة ودوران الألكترونات سبقها سكونٌ، فقد أثْبَتنا أيضا أن المادة سبقها عَدَمٌ، وذلك لأنَّ: (حركة المادة = وجودها) و(سكون المادة = عَدَمُها).

ثم هناك مسألة أخرى لا بُدَّ من التنبيه عليها، وهي:

إنَّ القول بأزلية المادة والذي ثبتت تفاهَتُهُ، ووضح عدم كونه مُسْتَنِداً إلى دليل، حتى لو فرض كونه صحيحاً، فليس بإمكانه تفسير كيفية نشوء الخلق، هذا الخلق العظيم الواسع المتقن الصنع، والذي من ضِمْنِهِ ظاهرة الحياة عموماً وخاصة حياة الإنسان، تلك الحياة الإنسانية العجيبة، التي تجعل الإنسان حياً عامِلاً سميعاً بصيراً ناطقاً ذائقاً شائماً حائساً آكلاً شارباً...الخ، وكل تلك الأوصاف والحالات تفتقدها المادة! اذاً: فمن الذي فرض كل هذه الأوصاف على المادة، إنْ لم يكن خالق وربُّ الإنسان تبارك وتعالى؟! إذ طِبْقاً للقاعدة المنطقية البديهية: (فاقد الشيء لا يُعطيه)، ليس بوسع المادة العادمة للحياة والشعور والإرادة والسمع والبصر والنطق... إلخ، أنْ تَهَبَ بعضاً منها، تلك الأوصاف التي تفتقدها في نفسها!!

المطلب الخامس
برهان آخر من براهين خالقية الله تعالى وربوبيَّته

إتصالُ الله جلَّ شأنه بِخَلْقِهِ من خلال وحيه إلى أنْبيائه (عليهم الصلاة والسلام):

وكل ما ذكرناه في النقاط الثلاث السّالفة، إنما هو بِالنسبة لدلالة عالم الخلق والتكوين على خالقية الله تبارك وتعالى وربوبيَّته، وعندما نَنْتَقِلُ إلى عالم الأمر والوحي، لأن الله تعالى هو المالك لكل من الخلق والأمر، كما قال: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف]، نعم، عندما ننتقلُ إلى عالم الأمر والوحي، يَنْضافُ بُرْهان الوحي المُتجلّي في نُبوَّة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ورسالاتهم ومعجزاتهم، إلى براهين خالقية الله وربوبيَّته، وهذا يحتاج إلى شيء من التوضيح:

لقد أنزل الله تعالى الوحي طيلة حياة البشرية، على الأرض إلى صفوة مختارة من البشر، كان كلٌّ منهم خير أهل زمانه من كل وجه، وكانوا قدوة حسنة عملية للناس في كل مجال، يُنيرون عقولَ الناس بالعلم الربّاني الذي أوتوه، ويزكُّون أنفسهم بالهداية الربّانية، ويوَجّهون المجتمعات البشرية في كل مجالات حياتهم الخاصة والعامة، الوجهة التي أمر بها دينُ الله وشَرْعُه، والتي تحقق للبشر السعادة الدنيوية والفلاح الأخروي.

وكان كل من أولئك الصَّفوة المختارة، قد أعطاه الله تبارك وتعالى بيِّنة (مُعْجِزةً) أو أكثر، يَتَحَدّى بها الناسَ، ويُثبِتُ بها صِدْقَهُ في دعواه، فَصاروا آنذاك حُجَّةً لِربِّ العالمين جلَّ وعلا على البشرية في مراحل حياتها، بحيث لا يَبْقى لأحد من الناس عُذرٌ في التوجّه إلى غير خالقهِ وَربِّه، والحيدة والإنحراف عن صراطه المستقيم، وبالتالي عدم سَعْيه لتحقيق الحكمة التي خلقه الله تعالى من أجلها، وهي عبادة الله الأحد جلَّ وعلا، وهذه بَعْض

الآيات التي تُصَرِّحُ بهذه الحقائق التي أشرت اليها:

١ ـ ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾ [الحديد].

٢ ـ ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾ [النساء].

٣ ـ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء].

٤ ـ ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات].

٥ ـ ﴿... إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [فاطر].

٦ ـ ﴿... مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء].

وبما أنّ الأنبياء والرسل الكرام صلوات الله وسلامه وبركاته عليهم، كانوا:

١ ـ حاملين لدين الله الحق وهدايتِهِ التامة.

٢ ـ ومُؤَيَّدين من الله تعالى بالبيِّنات (المعجزات) القاطعة الواضحة الناصعة.

٣ ـ وأرجح الناس عقلاً وأكثرهم حكمةً وأقواهم برهاناً وحجة، لِذا فقد أَلْزمَ كلٌ منهم المجتمع الذي بُعِثَ فيهم وأُرْسِلَ إليهم، الحجّة ولَم يُبْقُوا لهم عذراً وذريعة، في الإبتعاد عن عن ربهم وخالقهم ونسيانه، والذهاب هنا وهناك وراءَ الشياطين والطواغيت.

وكانَ في كل ما ذكر، لنبيِّ الله الخاتم، ورسوله الأعظم، ونوره الأَتم: محمدٍ ﷺ، أعظمُ حظٍ وأكبر نصيب، لأنَّه حُمِّلَ رسالة الله الخاتمة

للبشرية، وبعث لكافَّة الجنّ والإنس، إلى أن يَرِثَ الله الأرض ومن عليها، واذا كانت معجزات الأنبياء السابقين (عليهم الصلاة والسلام) كانت بحيث ينتهي مفعولها العملي بوفاتهم، لأن كل نبي قبل محمد ﷺ كان يبعث لقوم خاص ولفترة مُحَدَّدة، وكان الوحي بعده يستمر ويتتابع، لذا لم تَدْعُ حاجة إلى أن يجعل الله تعالى لهم معجزات تستمر بعدهم، فإن معجزة محمد ﷺ الكبرى التي أعطاه الله إيَّاها، وهو كتاب الله الكريم وقرآنه العظيم، شَذَّت في هذا المجال من القاعدة، وجعلها الله الحكيم العَليم مُسْتَمِرَّة بعد وفاته، وقد تكفَّل سبحانه بحفظه بنفسه، بخلاف الكتب السابقة التي لم يتكفَّلْ بحفظه، لعدم الحاجة إلى ذلك، ولذلك لم يبق منها كتاب سالم من التحريف والتغيير والنسيان والكتمان، ولكن القرآن معجزة خاتم الأنبياء عليه الصلاة والسَلام، بقي كما هو، لَمْ يُغَيَّر منه حَرْف، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ [الحجر]، وحكمة حفظ الله تعالى للقرآن العظيم جَليَّة بيِّنة، إذْ لو لم يُحْفَظ:

١ ـ لما بقيت لإثبات نُبُوَّة خاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام معجزة حيّة وبيِّنة حاضرة، ولأصبحت معجزتُهُ مثل معجزات سائر الأنبياء الذين ذهبت معجزاتُهُم بوفاتهم.

٢ ـ لما كان في يد البشرية دين الله الصحيح وهداه التام، وبالتالي لم تَقُم لله حجة على الناس.

٣ ـ واذا كان القرآن العظيم قد صار مصِدِّقا للكتب السابقة، ومُهَيْمناً عليها ومُصَحِّحاً لأخْطائِها وانحرافاتها، فكيف كان تُصحَّحُ الأخطاءُ والإنحرافات التي تحدث في الإسلام وكتاب الله الخاتم، بعد انْقطاع الوحي والنبوة؟! وبناءً على ما مرَّ ذكره، نقولُ:

إنَّ وحي الله الحكيم إلى أنبيائِهِ ورسله (عليهم الصلاة والسلام) برهانٌ عظيم آخر ـ وهو يتضمَّنُ في نفسه براهين كثيرة جدّاً ـ على خالقية الله تبارك وتعالى وربوبيَّته، حيث خاطب البشرية ـ وكذلك الجنّ ـ من خلال وحيه المنزَّل، بأنه هو وحده خالقهم وربهم ورازقهم ومالكهم، لِذا يجب أن

يؤمنوا بِهِ ويشكروه ويعبدوه، إذا ما أرادوا أن يكونوا عبيداً أوفياء مستحقين لمغفرة الله ورحمته ورضوانه، التي تتجلَّى في الحياة الخالدة الأبدية في الجنّة، وإلَّا فَسَيَلْقَوْنَ جزاءَ كُفْرانِهِم وكُفْرهم وظلمهم وفسقهم!

وهذه بعض الآيات بهذا الصَّدد:

١ - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة].

٢ - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾﴾ [فاطر].

٣ - ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإنسان].

٤ - ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾﴾ [الحديد].

٥ - ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾ [النساء].

وخلاصة هذا المطلب الخامس:

أَنَّ الله الخالق الرب جلَّ شأنه قد خاطب البشر من خلال وحيه المُنَزَّل على الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وأخبرهم أنه هو وحده خالقهم وربهم ومالكهم، ثم أعطى الأنبياء الكرام عَلَيْهِمُ السَّلَامُ من البيِّنات والمعجزات الباهرة القاهرة ما يُثْبِتون به دعوى نبوَّتهم، ولم نسمع أن غير الله تعالى اتصل بالبشر وخاطبهم وأمرهم ونهاهم ووجَّهَهُم باسم خالق الخلق ورب العالمين جلَّ شأنه! إذن: فخالق هذا الخلق وربّ هذه العوالم، هو الله وحده تبارك اسمه وتعالى جِدّه ولا إله غيره.

وأود أن أختم هذا المطلب الخامس والأخير، من هذا المبحث الأول بالإشارة إلى مسألتين:

الأولى: ان الله تعالى انَّما اعتبر حُجَّتَهُ قائمة على الناس بعد مجيء الرّسل المبشرين والمنذرين، واعتبر الناس قبل إرسال الرسل إليهم معذورين، لأن المطلوب من الناس تجاه ربِّهم هو عبادتهم له بلا شريك، بالمفهوم الشامل الواسع لكلمة العبادة، والذي سنوضِّحُه في الفصل الثاني من الباب الثاني بإذن الله، وبما أن العبادة، حقيقتها وكيفيَّتها وأنواعها ومقاديرها وأوقاتها، لا تعرف إلَّا عن طريق الوحي، لهذا حَسَبَ الله تعالى الناس معذورين قبل مجيء الرسل (عليهم الصلاة والسلام) وتبليغهم دين الله إيّاهم، ولو أن المطلوب من البشر تجاه ربهم كان عبارة عن الإعتقاد بخالقيته وربوبيته فَحَسْبُ! لكانت حجَّته سبحانه وتعالى قائمة عليهم بدون إرسال الرُّسُل وإنزال الكتب، وذلك لأن الإعتقاد بخالقيته وربوبيته ومالكيته وألوهيته، مركوزة في قلوبهم وعقولهم وهم مفطورون عليه ومجبولون! ولكن المطلوب هو عبادتهم له، وهذه معرفته متوقفة على الوحي، ولهذا لم يُلْزِمْهُم الله بها قبل مجيء الوحي!

الثانية: كما أنَّ الله الخالق الحكيم تَحدَّى الناسَ في مجال خلقه المتقن المنظم، أن يجدوا فيه نقصاً أو خللاً، وأخبرهم مُسْبقاً أنهم مهما حاولوا وبحثوا ودققوا النظر بغية العثور على نقصٍ في خلق الله، فلن يكون نصيبهم سوى الرجوع صِفْرَ اليدين، كما قال: ﴿. . . ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾﴾ [الملك]، كذلك تحدَّاهم في مجال أمره ووحيه، وأمرهم أن يتدبَّروا ملياً في كتابه الكريم المبين، وقرآنه العظيم ويَتَعَمَّقُوا فيه، وأخبرهم مسبقاً أنهم لا يجدون فيه خَللاً أو خَطأً، بل يجدونه كامِلاً تاماً في أحكامه، وصادقاً نهاية الصدق في أخباره، ثم تحدّاهم أن يأتوا بمثله، ولما عجزوا، خَفَّفَ عليهم وطالبهم أن يأتوا بعشر سور مثله، ثم خفَّفَ عليهم مرةً أخرى، وتحدّاهم أن يأتوا بسورة واحدةٍ مثله فقط، وأخبرهم مُسْبَقاً بأنهم سيعجزون عنه، ولو استنجدوا بكل مَن يمكنهم الإستنجاد بِهِمْ، وكانت

النتيجة طبقاً لما أخبر به رب العالمين، إذْ لم يَنْبِسْ أحدٌ من أعداءِ كتاب الله المعارضين، والذين كانوا حريصين للغاية على أنْ يفعلوا أيَّ شيء للإجابة على تحدّيات القرآن، ببنت شفةٍ، ولم يَجْرؤ أحد على كتابة سطرٍ واحد، وخصوصاً المشركين المعاصرين لنزول القرآن، وذلك لأن أولئك كانوا فرسان ميدان الفصاحة والبلاغة والبيان، حيث كان الكلام (خطابة وشعراً ورجزاً) صناعتهم الوحيدة، التي اشتهروا بها بين الشعوب، لذا فكانوا يعرفون جيداً المستوى الرفيع السامق الذي فيه كلام الله الحكيم، وأنه لا يمكن مباراته ومجاراته أبداً، كما قال أحدهم بعد أن سمع شيئاً من كلام الله من فم الرسول ﷺ وهو (الوليد بن المغيرة المخزومي) واصفاً القرآن العظيم لأهل ناديه بأوصاف جليلة لا توجد في كلام البشر، كما هو واضحٌ في هذا الحوار الذي جرى بينه وبين (أبي جهل) وقد أورد ذلك الحوار كل من (النيسابوري) و(السيوطي) في كتابيهما عن أسباب النزول، وهذا لفظ (السيوطي):

أخرج الحاكم وصحّحه عن ابن عباس رضي الله عنهما أن (الوليد بن المغيرة) جاء إلى النبّي ﷺ فقرأ عليه القرآن، فكأنَّه رَقَّ له، فَبَلَغ ذلك أبا جهل فأتاه: فقال:

[يا عمّ! إن قومك يرون أن يجمعوا لك مالاً ليعطوكَهُ، فإنك أتيت مُحمَّداً لِتَتعرَّض لِما قِبَلَهُ: قال (أي الوليد): لقد علمتْ قريشٌ أني من أكثرها مالاً، قال: فقلْ فيه قَولاً يبلغ قومك أنك منكِرٌ له وأَنَّك كارِهٌ له، فقال: وماذا أقول؟ فوالله ما فيكم رجلٌ أعلم بالشعر منيّ، ولا بِرَجْزِهِ ولا بقصيده مِنّي، ولا بأشعار الجنّ، والله ما يُشْبِهُ الذي يقول شيئاً من هذا، ووالله إنَّ لقَولِهِ لحلاوة وانَّ عليه لطلاوة، وإنَّه لمنير أعْلاه، مُشْرِقٌ أسْفَلُهُ، وإنَّه لَيَعْلو وما يُعْلى، وانه ليُحَطِّمُ ما تحته! فقال (أي أبو جهل): لا يرضى عنك قومُك حتى تقول فيهِ، قال: فدَعْني حتى أُفَكِّر، فلَمّا فَكَرَ، قال: هذا سِحْرٌ يُؤْثَرُ، يَأثِرُهُ منْ غيره، فنزلت: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾﴾ [المدثر][1]].

(١) أُنظر: الإستيعاب في بيان الأسباب، ج٣ ص٤٧٥ ـ ٤٧٧. تأليف: سليم بن عيد الهلالي، محمد بن موسىٰ آل نصر.

ومن قام منهم بمحاولة معارضة القرآن، لم تَتَمخَّض محاولته إلّا عمّا عاد عليه بالخزي والعار، وأصبح كلامُهُ ـ الذي حاول به معارضة كلام الله ـ مثار هُزْءٍ وسخرية للناس، وذلك مثل هذا الكلام السخيف الذي أرادَ به (مُسَيْلمة الكذّاب) معارضة إحدى سور القرآن القصار: [الفيل. ما الفيل؟ وما أدراك الفيل؟ له أُذنان عريضان وخرطومٌ طويلٌ]!!

وهذه بعض الآيات المباركات التي يشير الله تعالى فيها إلى الحقائق التي ذكرناها آنفاً:

١ ـ ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء].

٢ ـ ﴿... إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت.]

٣ ـ ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾ [الأنعام].

هذا بالنّسبة لأمر الله تعالى الناس بالتدبّر في كتابه الكريم، وأنه لا يوجد فيه نَقْصٌ وخلل مطلقاً، وأنه لا يمكن أن يتطرَّق اليه الخطأ من أي جهة من جهاته، وفي أي شيء من محتوياته، وأنه كاملٌ تامٌ في أحكامِهِ غاية الكمال والتَّمام، وصادق في أخباره وأنبائه أقصى الصدق، وأما بالنِّسبة لتحدِّيه المتكرِّر المتدرِّج لهم، فقال تعالى:

١ ـ ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الطور].

٢ ـ ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء].

٣ ـ ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾ [هود].

٤ ـ ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [البقرة].

والملاحَظُ أن الله تعالى لَمْ يُخْبِر (الناس) بأنَّهم لا يستطيعون إجابة تَحدِّي القرآن، إلَّا بعد أن خَفَّف عليهم التحدِّي إلى أقصى غاية، وهو: الإتيان بسورة واحدة، كسورة (الكوثر) التي تتكوَّن من ثلاث آيات قصارٍ، مثلاً، والحكمة في ذلك ـ كما أرى ـ هي ألَّا تبقى أمام أعداء القرآن، أدنى ذريعة يَتَذرّعون بها، ثم في الحالة التي بلغ التحدِّي أوْجَهُ ومرحَلَتهُ الأخيرة من حيث التَساهُلِ والتخفيف، أخبرهم الحكيم العليمِ بصيغة النَّفي الأكيدة الجازمة، بأنَّهم سيعجزون عن القيام بمعارضة القرآن، ولو في أدْنى مستوياتها وصورها وهي: الإتيان بسورة فقط، مثل احدى سور القرآن: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا﴾!

ومن الجلاء الذي دونه الشمس، أنَّ غير الله ربِّ العالمين لا يجرؤ على هذا الكلام، وعلى إطلاق هذا التحدّي العظيم المهيب، إذ إخبار الناس ـ بل الإنس والجنّ كلهم ـ بأنه لا يمكنهم أبداً القيام بمعارضة القرآن ولو في أدنى صورها، ثم تحقّق ذلك الإخبار فعلاً، لَنْ يَتأتَّى إلَّا من الله العليم القدير الذي:

١) كلامُهُ المبارك الحكيم ـ ككلّ صفاته الأخرى ـ لا يُشْبِهُ كلام المخلوقين، وليس من جنس كلامهم، حتى يتمكنوا من معارضته ومجاراته.

٢) هو خالق الجنّ والإنس وعَليمٌ وخبير بهم، وبإمكانياتهم وقدراتهم التي وهبها لهم، والحدود التي لا يُمكنهم تَخطِّيها!

والآن ـ في نهاية هذا المبحث الأول من الفصل الأول من الباب الأول ـ نَخْلُصُ إلى النتائج التالية، والتي هي زبدة وخلاصة كل ما مرَّ معنا من بحوث ومواضيع ومسائل:

أولاً: الله جلَّ شأنه هو وحده الخالق والفاطر والمبدع لكل شيء، ولا يوجَدُ غيرُهُ سوى مخلوقاتِهِ، لِذا فكل شيء من خَلْقهِ شاهِدٌ ساطِعٌ على خالقيته تبارك وتعالى.

ثانياً: والله سبحانه وتعالى هو وحده الربُّ المدبِّرُ المالك الذي أتْقَن وأحكم ونَظَّم خَلْقه بمجموعه، وكلّ مخلوقٍ فيه على حِدة، على أتَمِّ ما يكون الإتقان والإحكام والنظام، بحيث لا يُرى فيه أي خَللٍ أو نقصٍ، لِذا فكل شيء من مخلوقاته والخلْق كلُّه بمجموعه، شاهِدٌ وبرهان باهِرٌ على ربوبيته وتدبيره ومالكيته.

ثالثاً: والله تبارك وتعالى أنزل كتابه الكريم وقرآنه العظيم على خاتم النَّبيين محمد ﷺ، ليكون برهاناً آخر على خالقيته وربوبيَّته وألوهيته، التي أودع الإعتقاد بها قلوبَ وعقولَ عباده، وكذلك ليكون معجزة لنَبيِّهِ الأُمّي ﷺ ومِنْهاجاً وشريعة له ولأُمته، وهو كتابٌ حكيمٌ كريمٌ عظيمٌ علِيٌّ عزيزٌ مجيدٌ، لا يتطرق اليه الخَلَلُ والخطأ بأيِّ وجهٍ من الوجوه، وقد تحدَّى به ربُّ العزّة الجنَّ والإنس أن يأتوا بمثله، أو بعشر سُوَرٍ منه، أو حتى بسورة واحدة، ولكنهم عجزوا كما أخبرهم أنهم سيعجزون!

والآن ننتقل إلى المبحث الثاني بإذن الله الكريم.





المبحث الثاني

الله تبارك وتعالى مُنَزَّهٌ عن كُلِّ نَقْص، وله الكمال المطلق، وكلّ المخلوقات قاطبة تُسبّح بِحَمْدهِ

إنَّ كونَ الله تبارك وتعالى سُبُّوحاً قُدُّوساً، وحميداً مجيداً، أي مُنَزَّهاً عن كلِّ نَقص وشَينْ، وموصوفاً بكل حُسْنٍ وزَين، مِمّا تقتضيه وتَسْتَلزِمُهُ كل من خالقِيَّتِهِ وربوبيَّتِهِ وألوهيتهِ، إذْ لا يليقُ بالخالق الرّب الإله الواحد الأحد الصَّمد إلَّا أن يكون بعيداً عن كل نقص، وموصوفاً بكل حسن، وهذه بعض الآيات المباركات، التي بيَّنَت هذه الحقيقة العظيمة:

١ ـ ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١﴾ [الحشر]، [الصف].

يُخْبرُ سُبحانه وتعالى وهو العليم الخبيرُ بخلقِهِ، أن كل ما في السمٰوات والأرض من مخلوقات، قد سبَّح الله تعالى ونزَّهه، ويصف نَفْسَهُ بالعِزَّة والحكمة.

٢ ـ ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۖ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١﴾ [التغابن].

٣ ـ ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١﴾ [الجمعة].

وفي هاتين الآيتيْن يُعْلِنُ الله تعالى أن كل المخلوقات الموجودة في

السمٰوات والأرض يُنَزِّه الله ويُقدِّسُهُ، ثم يصف نفسه في آية (التغابن) بأنه له الملك والحمد حَصْراً وأنه على كل شيء قدير، وفي آية (الجمعة) يصف نفسه بكونه المَلِكَ المُطْلَقَ والطّاهِرَ المُنَزَّه من كل نقص، والعزيز الحكيم، والعزيز هو القوي المهيمن الذي لا يُغْلَب، والحكيم هو الذي لا يقولُ إلَّا حقاً وصواباً، ولا يفعل إلَّا كل ما هو حق وصحيحٌ، إذْ عرَّف العلماء (الحكمة)، بـ(وضع الأشياء في مواضعها) و(الإصابة في القول والفعل)[١].

٤ ـ ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء].

يخبر سبحانه وتعالى في هذه الآية المباركة الوحيدة في بابها أن السَّموات السَّبع والأرض وكل المخلوقات التي فيهنّ، تُسَبّح الله تعالى وتُنَزِّهه وتُقَدِّسُهُ، وأنَّه لا يوجد شيء إلَّا وهو يسبِّح الله تعالى ويحمده، ثم يخاطبنا الله الحكيم قائلاً: ولكنكم لا تفقهون ذلك التسبيح والحمد! وعليه:

فلا يمكن القولُ بأنَّ المقصود بالتسبيح والحمد، هو خضوع المخلوقات لمشيئة الله وسُنَنِهِ في خَلْقِهِ، كما فعل بعض المُفَسِّرين، وذلك لأن الخضوع والإنقياد، غير التسبيح والتقديس والحمد، كما هو واضح في معاني هذه الألفاظ، ثم أن كون المخلوقات خاضعةً لِسُنَنِ الله ومُسْتَسْلمةً لِمَشيئتِهِ، مِما نَفْقَهُهُ بوضوح وندركه! لذا: يَنْبَغي أن يكون معنى ذلك التسبيح والحمد شيئاً آخر مجهولاً وغير مفهوم لنا، ويصف الله تعالى نَفْسه بالحِلْم والمغفرة، وأرى أن هذا تلميح إلى أنَّه لولا حِلْمُهُ وعفوهُ ومغفرته، لاستحقَّ أكثر الناس ـ إنْ لم يكن كلهم ـ عقوبة الله العظيم بسبب قصورهم وتقصيرهم في جَنْبِهِ.

٥ ـ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾﴾ [الأعلى].

٦ ـ ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ [الواقعة]، [الواقعة: ٩٦]، [الحاقة: ٥٢].

---

(١) (التعريفات) للجرجاني، ص٩٥، والمعجم الوسيط، ص٧٩٠، و(المنجد)، ص١٤٦.

وفي هذه الآيات يأمر الله تعالى نبيَّه وأمته من ورائهِ ﷺ، أن يُسبِّحوا ويُنَزِّهوا اسم ربِّهم الأعلى والعظيم جلَّ شأنه، وقد طَبَّق رسولُ الله ﷺ هذا الأمر الرّباني، إذْ لما أنزل الله: ﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ۝٧٤﴾، قال لأصحابه: «**إجعلوها في ركوعكم**» أي قولوا في ركوعكم: (سبحان ربّي العظيم)، ثم لما أنزل الله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ۝١﴾ [الأعلى]، قال: «**اجْعَلُوهَا فِى سُجُودِكُمْ**»، (رَوَاهُ أَبُو دَاوُد برقم: (٨٦٩)، وَابْنُ مَاجَه برقم: (٨٨٧)، وصحَّحه الحاكم، ضعَّفَهُ الألباني، ولكن قال الشيخ شعيب الأرناؤوط: إسناده محتمل للتحسين)، أي: قولوا في سجودكم: (سبحان ربِّي الأعلى).

ويَبْدو لي أنَّ التسبيح والحمد والتكبير، أي قول: (سُبحان الله، الحمد لله، الله أكبر) هي أفضل الأذكار، في مجال ثناء العبد على رَبِّه جلَّ وعلا، بدليل:

أولاً: تأكيد الله تعالى عليها في كتابه في أكثر من آية.

ثانياً: وصف الملائكة بها عموماً، وخصوصاً حَمَلة العرش والملتفُّون به، كما قال تعالى:

١) ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ... ۝٧﴾ [غافر].

٢) ﴿... وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ... ۝٥﴾ [الشورى].

٣) ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٞ مَّعۡلُومٞ ۝١٦٤ وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلصَّآفُّونَ ۝١٦٥ وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡمُسَبِّحُونَ ۝١٦٦﴾ [الصافات].

ومعلومٌ أن الملائكة هم أطْهَرُ المخلوقات وأعرفهُم بالله تعالى وأطوعهم له وأقربهم اليه، كما هو واضح في الآيات التي تتحدَّث عنهم.

ثالثاً: أمَر الله تبارك وتعالى رسوله ﷺ في أكثر من آية بتسبيح ربِّه وحمده، كما قال تعالى:

١) ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحجر].

٢) ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾﴾ [طه].

٣) ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾ [الطور].

٤) ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾﴾ [ق].

٥) ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴿٣﴾﴾ [النصر].

وقد طبَّق رسولُ الله ﷺ ما أمرَهُ به ربُّه في مختلف الحالات:

١ ـ فجعل التسبيح والحمد لله تعالى، في الركوع والسجود بمختلف الصِّيَغ، مثل:

«**سُبْحَانَ رَبِيَّ الْعَظِيم**» (رَوَاهُ أَبُو دَاوُد برقم: (٨٧١) عَنْ حُذَيْفَةَ، وَقَالَ الشيخ الألباني: حَديثٌ صَحِيح)، و«**سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيم وبِحَمْدِهِ**» (رَوَاهُ أَبُو دَاوُد برقم: (٧٧٥)، وَصَحَّحَهُ الألباني في صفة الصَلاة) في الركوع، و«**سُبْحَانَ رَبِّي الأَعْلَى**» (رَوَاهُ أَبُو دَاوُد برقم: (٨٧١)، وَقَالَ الشيخ الألباني: حَديثٌ صَحِيح). و«**سُبْحَانَ رَبِّيَ الأَعْلَى وَبِحَمْدِهِ**» (رَوَاهُ أَبُو دَاوُد برقم: (٧٧٥)، وَصَحَّحَهُ الألباني في صفة الصلاة) في السجود، و«**سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ رَبُّ الْمَلاَئِكَةِ وَالرُّوح**» و«**سبحانك اللّهم ربّنا وبحمدك أستغفرك وأتوب اليك**» (رَوَاهُ مُسْلِمٌ برقم: (١١١٩) رَوَاهُ أَبُو دَاوُد برقم: (٨٧٢)، وَصَحَّحَهُ الألباني) في كليهما ـ أي الركوع والسجود.

٢ ـ وجعلهما مع التكبير، أو مع التوحيد في دعاء الإستفتاح، مثل:

«**الله أَكْبَرُ كَبِيراً، وَالْحَمْدُ لله كَثِيراً، وَسُبْحانَ الله بُكْرَةً وَأَصِيلاً**» (رَوَاهُ مُسْلِمٌ برقم: (١٣٨٦))، و«**سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ وَتَبَارَكَ اسْمُكَ وَتَعَالَى**

جَدُّكَ وَلاَ إِلَهَ غَيْرُكَ» (رَوَاهُ أَبُو دَاوُد برقم: (٧٧٥)، وَقَالَ الشيخ الألباني: حَديثٌ صَحِيح).

٣ ـ وجعلهما مع التكبير بعد الصّلوات المفروضة:

(٣٣) مرة «**سُبْحَانَ الله**» و(٣٣) مرة «**الْحَمْدُ لله**» و(٣٣) مرة «**الله أَكْبَرُ**» وتمام المائة: «**لاَ إِلَهَ إِلَّا الله وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**» (رَوَاهُ أَحْمَد برقم: (٨٨٢٠)، وَمُسْلِمٌ برقم: (٥٩٧)، وَابْنُ حِبَّانَ برقم: (٢٠١٦) عَن أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁).

٤ ـ وجعلهما ذكراً في الصَّباح والمساء:

«**سبْحَانَ الله وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ الله الْعَظِيمِ**» مائة مرة (رَوَاهُ مُسْلِمٌ برقم: (٧٠١٨)).

٥ ـ وجعلهما ذكراً مطلقاً في مختلف الأوقات:

«**سُبْحَانَ الله وَبِحَمْدِهِ، عَدَدَ خَلْقِهِ، وَرِضَا نَفْسِهِ، وَزِنَةَ عَرْشِهِ، وَمِدَادَ كَلِمَاتِهِ**» (رَوَاهُ مُسْلِمٌ برقم: (٧٠٨٨)، وَأَبُو دَاوُد برقم: (١٥٠٣)، وَابْنُ مَاجَه برقم: (٣٨٠٨))[1].

ولعلَّ الحكمة ـ أو بعض الحكمة ـ في كل هذا الإهتمام بالأذكار الثلاثة (سبحان الله، والحمد لله، والله أكبر)، هي:

أن آخر ما يصل اليه العبد من معرفة ربِّه والقُرْبِ منه، هو حصول العلم واليقين له بقدسيَّة الله ونزاهتِهِ وبُعْدِه عن كُلِّ نَقْص وعَيْب، وكونه حميداً حَمْداً مطلقاً، ومستحقاً لكل ثناءٍ، وكَوْنِهِ كبيراً وعظيماً ومجيداً بلا نهاية، ولهذا جمع الله الحكيم هذه الأذكار في الصّلاة التي هي أفضل العبادات.

ولعلَّ سائلاً يسأل: إذن: أين محلّ (لا إلٰه إلَّا الله) كلمة التوحيد

(١) ملاحظة:
وقد خرَّجنا هذه الأحاديث بأرقامها في الفصل الأول من الباب الثالث، (أي الكتاب التاسع) أيضاً.

المباركة، وأيْنَ محلُّ (التوبة والإستغفار) وقد أَمَرَ بهما الأنبياءُ أقوامَهم بلا استثناء؟! والجواب:

أن (لا إلٰه الا الله) ذكرٌ عظيم جداً، ولكن التسبيح والحمد والتكبير، أعظم منه، لِسَبَبين:

أولاً: لأن (لا إلٰه إلَّا الله) يُشْعرُ أنَّه ما زال للقَلْب شعور بالأَغْيار، لِذا يحتاج إلى نفيهم ودفعهم، ولكن الأذكار الثلاثة، تفيد الإستغراق في العبودية والإنشغال بقدّوسية الله ومحموديته وكبريائه وعظمته، عن غيره.

ثانياً: الأذكار الثلاثة تشتمل على التوحيد، أيضاً لأن تنزيه الله عن النقص والشَّيْن، والثناء عليه بتقديم الحمد كله له والإقرار له بالكبرياء المطلق والعظمة المطلقة، هذه الأشياء تَسْتَلزمُ أول ما تَستَلزمُ توحيد الله ونفي الشريك عنه.

ودليل آخر على أفضلية هذه الأذكار الثلاثة، هو:

أن الله تعالى لم يصف الملائكة ولا مرةً واحدة، بأنّهم يوحِّدون الله تعالى في ألوهيته، ولكنَّهُ وصفهم في أكثر من آية، كما أشرنا اليه من قبل، بأنهم يُسبِّحون الله تعالى ويحمدونه، وهذا يدلُّ على أن مقام الأذكار الثلاثة، وخاصة التسبيح والحمد، أرفع من مقام سائر الأذكار.

وأما التوبة والإستغفار، سواء بصيغة (أستغفرك اللَّهم وأتوب اليك) أو بأي صيغة أخرى، فهو حظ العبد، وإلَّا فهي أيضاً مثل الأذكار الثلاثة، نهاية مطاف الأذكار بالنسبة لما يرتبط بالعبد، وذلك أن العبد كلما ازداد معرفة بربِّه وعبوديةً له وقُرْباً منه، كلما ازداد شعوراً بالذنب والقصور والتقصير تجاه ربّه العظيم، وبالتالي فيدفعه هذا الشعور إلى التوبة والإستغفار، كي ينال عفواً وستراً من ربّه، ولهذا كان نَبِيُّ الله الخاتم، وهُوَ من هُوَ في معرفته بربِّه وتعبّده له وشكره وإحسانه، صلوات الله وسلامه وبركاته عليه، يُكْثِرُ من التوبة والإستغفار، بل ربّما استغفر الله تعالى وأعلن توبته اليه في اليوم أو

في مجلس واحد، مائة مرة أو سبعين مرة، كما ورد في الأحاديث[1].

وقد أمره الله تعالى بالتوبة والإستغفار متزامناً مع التسبيح والحمد، أو التوحيد، في أكثر من آية، كما قال تعالى:

١) ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴿٣﴾﴾ [النصر].

٢) ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾﴾ [غافر].

٣) ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ... ﴿١٩﴾﴾ [محمد].

وتطبيقاً لأمْر الله تعالى هذا، فقد قَرَنَ رسول الله ﷺ بين كل من التسبيح والحمد والإستغفار والتوبة، في أذكار الركوع والسجود، فكان يقول فيهما: «**سبحانك اللّهم، رَبَّنا وبحمدك، أستغفرك وأتوب اليك**» رواه مسلم عن عائشة رضي الله عنها: ١١١٩ وأبو داود: ٨٧٢.

ومِمّا يَجْدرُ ذكره في هذا المقام هو أن الإنسان المسلم انما يَتَعَمَّقُ ويتوسَّعُ فَهْمُهُ لإدراك أبْعاد معاني التسبيح والحمد والتكبير ـ وكذلك سائر الأذكار ـ بمقدار ما يزيد إيمانُهُ ويترسَّخ، وهذه إشارة مختصرة إلى بعض تلك الأَبعاد:

١ ـ (سُبْحان الله) أي: أُنزِّه الله تعالى وأُقدِّسُهُ من حيث ذاته وأسماؤه وصفاتهُ وكلامُه وأحكامُهُ وأَقدارُهُ وأفعالُهُ وشؤونه ومخلوقاته.. أي: أنَّ كلَّ هذه الأشياء لا نقص ولا خلل فيها البتة.

ومن الواضح أن قول هذا الذكر (سُبحانَ الله) والتلفّظ به شيء، واعتقاده بالقَلبِ ورسُوخُهُ فيه ثم تصديقه بالمواقف العملية، شيء آخر!

---

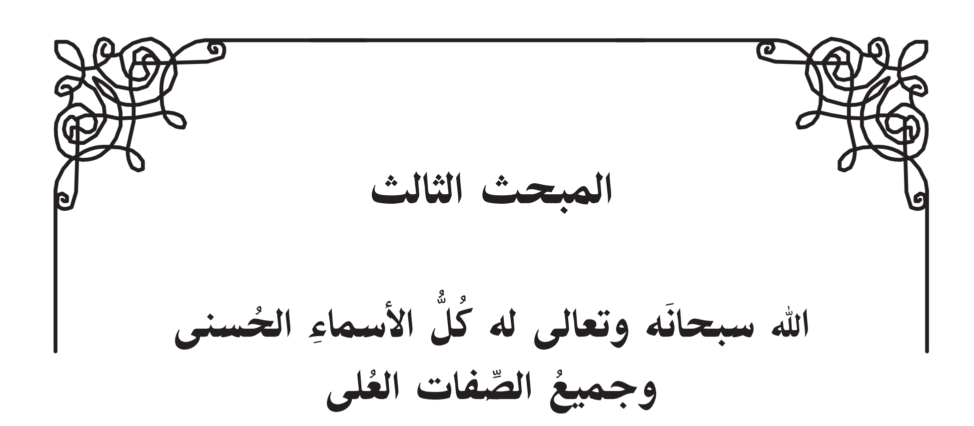
(١) عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «**وَالله إِنِّي لأَسْتَغْفِرُ الله وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً**» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ برقم: (٦٣٠٧).
وَعَنِ الأَغَرِّ بنِ يَسَارٍ المزنيِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ! تُوبُوا إِلى الله واسْتَغْفِرُوهُ، فإِنِّي أَتُوبُ في اليوم مئةَ مَرَّةٍ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ برقم: (٢٧٠٢).

٢ ـ (الحمد للهِ) أي: أُثني على الله تعالى وأحمده بجميع المحامد ـ لأنَّ الألف واللاَّم هنا للإستغراق ـ من حَيثُ ذاتهُ وأسماؤه وصفاتهُ وكلامه وأحكامُهُ وأقداره وأفعالهُ وشؤونه، ومخلوقاته ـ من جهة ارتباطها بالخالق جلّ شأنه وخلقه لها بالحق والحكمة ـ وهنا أيضاً أن تقول: (الحمد لله) باللسان المجرَّد شيء، وأن تعتقد ذلك وتذوقه وتصدِّقه وتجعله سلوكاً يومياً ومواقف عملية، شيء آخر!

٣ ـ (الله أكبر) أي: أُعْلِنُ أنّ الله تبارك وتعالى أكبر وأعْظَمُ وأجَلُّ من كل شيءٍ، ومن كل أحدٍ من كل جهات الكبرياء والعظمة والجلال، كيف ولا يوجدُ غير الله تعالى سوى مخلوقاته، ولا يمكننا التعبير عن الفرق بين الخالق ومخلوقاته، لأن الله الخالق جلّ شأنه هو المطلق اللَّانهائي في كل صفاته: وجودِهِ وحياتِهِ وعِلْمِهِ وقُدْرَتِه وحِكْمتِه وإرادتِه وَرَحْمَتِهِ وكَرَمِه وعزته وكبريائِهِ وغناه وجَلاله وعفوه وحِلْمِه... إلخ، والمخلوقات محتاجة إلى الله الخالق في كل شيء ومن كلِّ الجهات، فلا تُوجَدُ إلَّا إذا أوجَدَها هو، ولا تَبْقى إلَّا إذا أبقاها، ولا تهتدي إلَّا إذا هداها، ولا تُفلِحُ إلَّا إذا جعلها هو مُفلِحة... إلخ.

إذن: فالله تبارك وتعالى (أكبر) مطلقاً من دون أنْ يَستحقَّ شيء أنْ يقارن بكبرياء الله وعظمته وجلاله، وهل يقارن مخلوق بِخالِقِه!!

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑



المبحث الثالث

الله سبحانَه وتعالى له كُلُّ الأسماءِ الحُسنى وجميعُ الصِّفات العُلى

وصف الله العظيم نَفَسه بأنِّ له الأسماء الحُسْنى، في أربعة مواضع من كتابه الكريم، هي:

١ ـ ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الأعراف].

٢ ـ ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾﴾ [الإسراء].

٣ ـ ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾﴾ [طه].

٤ ـ ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [الحشر].

وقال رسول الله ﷺ: «**إنَّ للهِ تعالى تسعة وتسعين اسماً، مائة إلَّا واحداً مَنْ أحصاها دخل الجنّة**» متفق عليه.

وقال جلَّ شأنه بالنِّسبة لصفاته العُلى:

١) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾ [الروم].

٢) ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ [النحل].

والمقصود بكلمة (المَثَل) في الآيتيْن هو الوصف[1] والشأن، ومعنى الآيتيْن:

ان الله تعالى له أعلى الأوصاف وأعلى شأنٍ في السمٰوات والأرض، أي لا يوجد في الخلق من له وَصْفٌ أو شأن يُشْبهِ وَصْفَ الله تعالى وشأنَهُ، فهو منفرد بأوصافه العُلى وشؤونه المُثْلى، كما أنه منفرد بأسمائه الحُسْنى ولا يُشارِكُهُ أحدٌ في شيءٍ منها، كما قال تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾ [مريم].

وجديُر بالذكر أن أسماء الله الحُسْنى كلّها صِفاتٌ للهِ بلا استثناء، ما عدا اسمه العلَم (الله) جلَّ اسْمُهُ، ومَعْنَى هذا:

أنَّنا عندما نقول: إنَّ الله تعالى رحيم، عظيم، كريم، عليّ، حكيم، عزيزٌ، غَنِيٌ، قدير، لطيف، خبير... إلخ.

قد وصفنا الله تعالى بـ: الرحمة، والعظمة، والكرم، والعلوّ، والحكمة، والعِزَّة، والغِنى، والقدرة، واللُّطف، والخبرة... إلخ.

ولكن صفات الله تعالى أوسع مدىً وأشْملُ مفهوماً من أسمائه، أي لَيْست كل صفاته أسماءً له، فمثلاً وصف الله تعالى نفسه بـ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ﴾ وبـ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾ وبـ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ وبـ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾﴾.. ومعلومُ أنه لا يجوز تحويل هذه الصفات إلى أسماء وإطلاقها على الله تعالى، بل يجب أنْ نقتصر على الأسماء الحسنى التي أطلقها الله تعالى على نفسه، أو أطلقها نَبيُّهُ عليه فقط، لأنَّ الله تعالى قال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الأعراف].

---

(١) المنجد، ص٧٤٧.

ومِمّا ينبغي التَّنبُّه له:

أن التفاعل مع أسماء الله الحُسْنى، وصفاته العُلى والتأثُّر بها، والتعمُّق في فهم أبْعادها التي لا يَسعها على حقيقتها سِوى علم الله سبحانه وتعالى، إنَّما يُثمِرُها الإيمانُ والقربُ من الله تعالى، والإيمان يزدادُ وينمو بالعبادة والطاعة، والقرب إنما يحصل نتيجة التقوى والتزكية النابعين من الإيمان والعبادة والطاعة.

ولا شك أنَّ حفظ أسماءِ الله الحُسْنى وترديدها كأذكار وأوْراد شَيْء، وإدراك معانيها ذِهْناً، وتذوّقها قلباً، والتأثر بها وترجمة التأثر إلى مواقف عملية وتصرّفاتٍ سلوكية، شيء آخر، فعلى سبيل المثال أقول: إن الله تعالى سمَّى نَفسه (عزيزاً) فقال: ﴿...وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٤﴾﴾ [الروم].

وكذلك وصف نفسه بأنه له العِزَّة جميعاً: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًاۚ... ﴿١٠﴾﴾ [فاطر].

والمسلم يعرف ربَّه العزيز، ويؤمن به ويَستَيَقَنُ ذلك، ويعلم أنه لا عزّة حقيقية للعبد إلَّا منه سبحانه، لأنه لا توجد العِزة عند غيْره حتى يهبها له، مثل هذا المسلم يمنعه إيمانُهُ ويقينُهُ، أنْ يَلتَمِسَ ويطلب العِزّة عند غير ربِّه العزيز الحكيم الرّحمن الرّحيم! وهكذا سائر الأسماء الحسنى والصفات العُلى، فعندما يَتأثَّر بها المسلم حق التأثر، ويتفاعل معها، سَتَنْعَكِسُ آثارُها عليه ـ بما يُناسِبُ حال الإنسان وعلى قدر الإيمان ـ لا محالة، ولا شك أن مقصود رسول الله ﷺ من قوله: «**من أحصاها دخل الجنّة**»[1] هو هذا التأثُّر والتفاعل، وليس مجرّد الحفظ والترديد، وانما ضَمِنَ رسولُ الله ﷺ دخول الجنّة لِمُحصي أسماء الله الحُسنى، لأن المسلم لا

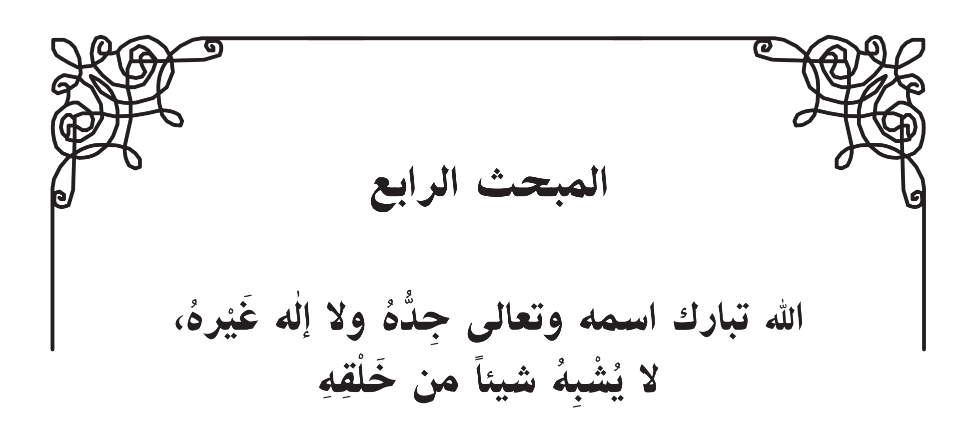
(١) عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنّة**» رواه البخاري: ٧٣٩٣، ومسلم: ٦٩٨٦.

يمكنه التأثر بأسماء الله الحُسنى التسعة والتسعين، والتفاعل معها، بحيث تظهر آثارها على شخصيته وتفكيره وأعماله وسلوكه، إلَّا إذا كان في مستوى رفيع من الإيمان والعبادة والتقوى، ومن كان هكذا، يستحق بفضل الله تعالى وحسب وَعْدِهِ دخول الجنّة.

هذا وسَنُفصِّل القول أكثر في أسماء الله الحُسنى وصفاته العُلى، بإذن الله في الفصل الثاني من الباب الثاني، وسَنُحدِّدُ ـ حسب اجتهادنا ـ تسعة وتسعين اسماً للهِ تبارك وتعالى بعد استقراء آيات الله البَّيِنات في هذا المجال، لأنه لم يثبت عن رسول الله ﷺ حديث يُطْمَئَنُّ إليه، لتحديد الأسماء التسعة والتسعين[1].



(١) وقد روىٰ الترمذي: ٣٥٠٧، والطبراني في الدعاء: ١١١، وابن حبان كما في الموارد: ٢٣٨٤، والحاكم (٦٢/١)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢٠٩/١)، والبغوي في شرح السنة (٣٢/٥)، حديثاً في هذا المجال فيه أَخْذٌ وردٌ بين علماء الحديث.
وأورد السيوطي ثلاث روايات للحديث بأرقام: ٢٣٦٧، ٢٣٦٨، ٢٣٦٩، أنظر: فيض القدير شرح الجامع الصَّغير، للمناوي ج٢. ص٦١٢ ـ ٦٢٧.



المبحث الرابع

الله تبارك اسمه وتعالى جِدُّهُ ولا إلٰه غَيْرهُ، لا يُشْبِهُ شيئاً من خَلْقِهِ

بيَّن الله تعالى هذه الحقيقة العظيمة في عدد من آيات كتابه الحكيم، كما قال تعالى:

١ ـ ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًاۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى].

٢ ـ ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾ [طه].

٣ ـ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص].

٤ ـ ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾ [مريم].

وفي ضوءِ أنوار هذه الآيات المباركات، نَسْتَخْلِصُ الحقائق الآتية:

الأولى: إن الله تعالى لا يُشْبِهُ شيئاً، ولا يُشْبِهُهُ شيءٌ:

وهذا ما صرّحت به الآية (١١) من سورة (الشورى) والتي يُبَيّنُ الله تعالى فيها أنه هو الذي فطر السمٰوات والأرض، وأنَّه جعل الإنسان والحيوان يتناسلون ويتكاثرون من خلال الزوجية التي جعلها الله تعالى قاعدة مخلوقاته، كما قال: ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾

[الذاريات]، ثم يقول تعالى: ﴿...فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًاۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى].

وانمّا لا يُشْبِهُ الله تعالى شيئاً ولا يُشْبِهُهُ شيء، لأنه ليس ثَمَّة شيء غيره سوى مخلوقاتِه، أي أن الوجود عموماً، قسمان:

١) الخالق جلّ شأنه.

٢) المخلوق.

ومن الواضح أنَّ الخالق سبحانه وتعالى والمخلوق متغايران من كلِّ وجهٍ، ولا شك أنّ قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ﴾ قد أغنانا مؤنة التفكير لمعرفة كيفية ذاته وصفاته، إذْ قوله هذا، تيئيسٌ لكل مَنْ يطمع أن يتخيَّل الله تعالى ويتصوّره بنحوٍ من الأنحاء، ولهذا قال العلماء: (وكل ما جرى بِبالك، فالله بِخلاف ذلك) اذْ من المعلوم أنه لا يجري ببال الإنسان، سوى تَخَيُّل وتصوّر المخلوقات، أو الأشياء الوهمية التي يصطنعها الذهن والخيال، ولا حقيقة لها في الواقع.

هذا وقد فَصَّل الله الحكيم لنا القول في التعريف بنفسه من خلال كتابه الذي يُبَيِّن لنا أسماء الله الحسْنى، وصفاته العلى، وشؤونه المُثْلى، وأرشدنا كتابُهُ الحكيم أن نتأمَّل مخلوقات الله التي كل منها آية بل آيات من آيات خالقيته وربوبيته، وتتجلىَّ في مِرْآتِها أسماء الله وصفاته كالشمس في الظهيرة، وهذه هي حكمة نهي رسول الله ﷺ عن التفكير في الله تعالى، حيث قال: «**تفكرَّوا في آلاءِ الله ولا تفكرّوا في الله ﷻ**» وفي رواية: «**فإنكم لن تقدروا قَدْرهَ**»[1]، والمقصود بالنَّهي هنا هو التّفَكُّر في كيفية الله تعالى

(١) رواه الطبراني، انظر: شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، ج٣ ص٥٨١، رقم الحديث: ٩٢٧.
لـ(أبو القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور الطبري).
وروى هذا الحديث أبو نعيم في (الحلية) بلفظ: (تفكّروا في خلق الله ولا تتفكّروا في الله فإنكم لَن تقدروا قدْرهُ) عن ابن عباس.

والسَّعي لإدراك حقيقته، وعُقولُنا الصغيرة أعْجَزُ من أنْ تسستطيع معرفة حقيقة الله، إذ هي أشبه بأكْواب صغيرة في جَنْب محيط، لا يُدْرَكُ له قَعْرٌ ولا تُعْرَفُ له حدود، بالنسبة لها ولمعرفة الله معرفة دقيقة واضحة، ولكن من خلال التدبّر في كتاب الله الحكيم، والتفكُّرِ في خلق الله البديع، واللّذانِ هما مُجَلّيا أسماء الله الحُسْنى وصفاته العُلى، يمكننا التعّرف على الله تعالى المعرفة اللاَّزمة الممكنة في هذه الحياة الأرضية، والمنسجمة مع قوانا الإدراكية وقدراتنا النفسية.

وانما قال رسول الله ﷺ: «**فإنكم لَنْ تقدروا قدره**» لأن الذي يُحاول أن يكيِّف الله تعالى بعقله، ويتخيَّله بِخَياله، فهو في كل الأحوال يَقْصُرُ عن أن يرتفع بتفكيره إلى المستوى اللائق برَبِّ العالمين، الذي ليس كمثله شيء، وبالتالي فهو سَيَتصوّر الله تعالى، ويتخيَّلُهُ بما لا يليق به سبحانه، لأنَّ تصوّره وتخيُّلُهُ لا يخلو من حالين: فهو إما لمخلوق موجود، أو لشيء موهوم!!

الثانية: إنَّ الله تعالى يعلم كل شيء عن مخلوقيه، ولكنَّهم لا يحيطون به عِلماً، أي لا يمكنهم درك كيفيَّته وحقيقته:

وهذا ما صرَّحَتْ به الآية (١١٠) من سورة (طه): ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾، إذ المقصود بقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي: إنَّ الله تعالى يعلم كل شيء عن عباده، ماضيهم ومستقبلهم، وكل ما هو مرتبط بهم.

والمقصود بقوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾ أي: إنَّ العباد لا يحيطُ عِلْمُهُم بالله تعالى، ومعلوم أن العلم بالشيء غير الإحاطة به، فالإحاطة بالشيء علماً هي أن تعْلَمَ حقيقَتَهُ وكُلَّ شيء عنه، ولهذا لم يَنْفِ الله تعالى عِلْمَ العباد بالله تعالى فلم يَقُلْ، لا يعلمونه، أو لا يعرفونه، بل قال: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾ أي: لا يُدْرِكون حقيقتَهُ، وأنّى للعلم القليل الذي أوتيه البشر، كما قال تعالى: ﴿... وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء]، أن يحيط بالله العلي العظيم الحيِّ القيوّم!!

والله سبحانه وتعالى خلق الجنّ والإنس ووضعهم على الأرض من أجل ابتلائه إيّاهم بعبادته، كما قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات]. ولهذا لَمْ يُجَهِّزهم بقوى إدراكية يطَّلعون بها على حقيقة الأشياء ـ فكيف بخالق الأشياء ـ، بَلْ زوَّدهم فقط بما يحتاجونه في حياتهم الأرضية الإبتلائية، ومن الواضح أن معرفة حقائق الأشياء ليست مِما يحتاجونه في هذه الحياة، ولا تتوقف عليها حياتهم الإبتلائية، بل على العكس جَهْلُهم بكثير من الأشياء التي ليست المعرفة بها ضروريةً لأداءِ الإمتحان، ثم إستسلامهم للخالق المالك المُبْتلي لهم، جزءٌ من ابتلائهم! ومن الجليِّ أنَّ الإنسان كلمّا تقدّم في مضمار العلم والمعرفة والكشف عن سنن الله وأسرار الخلق، كلّما ازداد عِلْماً بجهله بحقائق الأشياء، فعلى سبيل المثال ـ وكما أشرْنا اليه من قبل ـ كان العلماء قبل انفلاق الذرة، يتصوّرون بأن الذرة هي أصْغر الأشياء المادية في الوجود وسموّها: (الجزء الذي لا يتجزّء)، ولكن بعد تقدّم علم الفيزياء، وخصوصاً على يد (ألبرت آينشتاين)، تَبيَّنَ لهم أنهم كانوا مخطئين، بل الذرة تتكون من ثلاثة أجزاء رئيسة، وأكثر من مائة من الجُسَيْمات الصغيرة! وهذا في مجال المادة الصمّاء التي هي في متناول أيدينا، وهي أقرب الأشياء الينا، إذْ نتعامل مع مختلف مُكوَّناتها ومظاهرها ليل نهار! وأما بالنسبة للمخلوقات والعوالم الأخرى، كالنبات والكائنات الحيَّة والإنسان والجنّ والملائكة، فَحدِّث ولا حرج، في عَجْزِ الإنسان عن معرفة حقائقها والإيغال في أعماقها، ومتاهاتها التي لا يعلمها سوى خالِقها القوي القدير، وبارئِها العليم الخبير، الذي هو لكل صوتٍ سميعٌ، وبكل شيء بصيرٌ جلّ وعز، ويحضرني في هذا المقام قول رائع لأحد العلماء، حيث يقول:

(إنَّ بَحْرَ العلم بخلاف البحار الأخرى، إذْ في بحر الماء، يغرق الإنسان في وسطها وأعْماقها، وينالُ النجّاة والسلامة في شواطئها، ولكن بحر العلم والمعرفة تُغْرِقك شواطئها وتُنْجيك أعْماقُها)[1].

(١) جاء هذا القول في كتاب (قصة الإيمان...) للشيخ نديم الجسر.

وقصده أن الإنسان الراسخ في العلم والمُتَبحِّر فيهِ، يَعْرفُ قدر نَفْسه ويعرف غَوْر أعماق الحقائق في تواضع ويُقرُّ بِعجزِهِ، أما الجاهِلُ الذي لم تترسخْ قدمُهُ في العلم، وهو بَعْدُ على شاطيء بحره المتلاطم، فهو لِسَطْحيَّتِهِ وضَحالة علمِهِ يُخيَّل اليه أنه يعرف كلَّ شيء، وأنه اطَّلَع على كل الأسرار والحقائق، فَيَغْتَرُّ ويفتخر ويَتَباهى! ويقال بأنه سئل (سُقراط) الفيلسوف ـ ورُبَّما يعتبر أكبر فلاسفة اليونان ـ هل هو عالمٌ أم لا؟! فأجاب بالنفي، فقيل له: إذن: ما الفرق بينك وبين أهل (أثينا؟!) فقال: (الفرق بيني وبينهم، هو أنني أعلم بأني جاهلٌ، ولكنَّهم يجهلون ذلك!)، وخير مثال لهذا النوع من الجهلة السَّطحيين في العلم، والمغترِّين بِعلمهم القليل هو (جوليان هكسلي)، الذي كتب يوماً كتاباً بعنوان: (الإنسان يقوم وحده) (Man stands alone) وادّعى فيه، بأنه لو أوتي مقداراً من الماء والتراب والهواء ووقتاً مناسباً، لخلق إنْساناً! وقد كذب الرجل كغيره من الكفار الملاحدة، إذ كان الماء والتراب والهواء في متناول يده، والذي يخلق إنساناً لا يعجزُ عن تحديد الوقت المناسب، ولكن الإدعاء الأجوف لا يُكَلِّفُ صاحِبَهُ شيئاً سوى ذهاب سُمْعَتِهِ! وكذلك خير مثال للعالم المتواضع ـ في العلوم التطبيقية الحديثة ـ هو كل من:

١ ـ (كريسي موريسون) الذي ردّ على (جوليان هكسلي) بكتاب رائع بعنوان: (الإنسان لا يقوم وحده) «Man Does not stand alone» وقد ترجم إلى اللغة العربية بعنوان: (العلم يدعو للإيمان)، وقد قال في كتابه ذلك رداً على ذلك المغرور الجاهل، بما معناه: ها إنَّ كلَّ المواد التي ذكرتها تحت يدك، فاصْنَعْ لَنا بَشَراً كما تَزْعُمُ! ثُمَّ قال: لا شكَّ أنك عاجِزٌ عن تحقيق ادّعائك، ولكن هَبْ لو أنك استطعت أن تخلق بشراً أفكنت تَنْسِبُهُ إلى الطبيعة! أم كنت تفتخر به وتعتبره أعظم إنْجازٍ لك! فَلِمَ لا تَنْسِبُ نَفْسَك وسائر الناس كذلك إلى خالقهم الذي أبْدَعهُمْ؟!

٢ ـ (ألكسيس كاريل) نائل جائزة نوبل في الطب، عام: ١٩١٢م، وصاحب كتاب: (الإنسان ذلك المجهول)، والذي يقول في كتابه هذا: (إنَّ جَهْلَنا بأنفسنا جَهْلُ مُطْبِقٌ...)...وبناءً على كل ما مرَّ ذكره، نقول:

إن الإنسان الذي يعجِزُ عن درك أسرار أصغر الأشياء ـ وهو الذرة ومكوّناتها ـ وأقْرَب الأشياء ـ وهو نفسه التى بين جنبيه ـ كيف يتسّنى له إدراك حقيقة أعظم الأشياء، خالِقِ الأشياء وبارئِها سبحانه وتعالى؟!! كلاَّ لم يؤت الإنسان في هذه الحياة الأرضية الإبتلائية القدرة على هذا، بل ولا حتى قدرة رؤية الله تعالى، ولذلك لما طلب موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من الله تعالى أن يُرِيَهُ نَفْسَه كي ينظر إليه: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾! أجابه الله تبارك وتعالى بقوله: ﴿قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ﴾ ومعنى هذا الكلام والله هو العليم الحكيم ـ إن الجبل مع ضخامته وصلابته لا يتحمَّل تجلِّي نور الله العظيم، فكيف بالإنسان الضعيف! ثم يبيِّن تعالى نتيجة تجلّيهِ للجبل وكيف أن الجبل تصدَّع وانْدَكَّ: ﴿...فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ... ١٤٣﴾ [الأعراف].

ومن الواضح أن الإنسان لو أوتي قدرة إدراك كيفية الله تبارك وتعالى، أو قدرة رؤيته والنظر اليه، لما تحققَّتْ الحكمة التي خلق الله تعالى الإنس والجنّ من أجلها، وهي ابتلاؤهم بفرض عبادته عليهم، وإعطائهم الحرية والخيار تجاهها!

الثالثة: والله سبحانه وتعالى أحدٌ لا ثاني له، وهو مُسْتغنٍ عن غيره، وكل ما عداه محتاج اليه، وهو لا أصل له يرجع اليه، ولا ذرية له تتفرَّع عنه، ولا مثيل له، ولا نِدَّ، ولا شبيه:

وهذا ما صرّحت به سورة (الأخلاص) المباركة: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ٢ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ٣ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ٤﴾ [الإخلاص].

وقد أنزل الله الحكيم هذه السورة لما سُئِل رسولُ الله ﷺ من قبل الكفّار[1] (يا محمد! صِفْ لنا ربك الذي بعثك)، فأنزل الله تعالى هذا

(١) قال السيوطي في سبب نزول سورة (الاخلاص) المباركة: ـ أَخرج الترمذي والحاكم وابن خزيمة من طريق أبي العالية عن أبي كعب: أن المشركين قالوا لرسول الله ﷺ: =

الكلام المبارك إجابةً على سؤالهم، وتعريفاً بنفسه، فقال آمِراً رسوله ﷺ أن يقول في جوابهم:ـ

١ ـ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ أي: إنَّ رَبـيِّ الـذي أعـبـده وأدعـوكـم لعبادَتِهِ هو ﴿ٱللَّهُ﴾ وهو أحَدٌ، وكلمة ﴿أَحَدٌ﴾ في اللغة العربية يُعبَّر بها عن الشيء الفريد الوحيد في نوعه، والذي لا ثاني له ولا نظير ولا شبيه، ولا أحَدَ بهذه المثابة سوى الله الخالق.

٢ ـ ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾ أي: إنَّ ربّي هو الله تبارك وتعالى وهو ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ والـ(صَّمد) في اللغة هو الذي لا يحتاج إلى غيره، بل هو مُسْتَغْنٍ بنفسه، وكل ما عداه يحتاجه، ولا أحد يوصف بهذه الصفة سوى الله سبحانه وتعالى[1].

٣ ـ ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ أي لم يتفرَّعْ منه أحدٌ أو شيء على سبيل التناسل والتوالد، كيف؟! ولا يكون التناسل إلَّا بين اثنين متزاوجَيْن، والله تبارك

= إنْسِبْ لنا ربك، فأنزل الله ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ إلى آخرها.
وقال: واخرج الطبراني وابن جرير مثله من حديث جابر بن عبدالله، فاستدل بها على أن السورة مكية.
وأخرج ابن ابي حاتم عن ابن عباس أن اليهود جاءت إلى النبّي ﷺ منهم (كعب بن الأشرف) و(حيي بن الأخطب) فقالوا: يا محمد صِفْ لنا ربك الذي بعثك، فأنزل الله: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ إلى آخرها.
وأخرج ابن جرير عن قتادة وابن المنذر عن سعيد بن جبير مثله، فاستدل بهذا على انها مدنية.
أنظر: لُباب النقول، ص٢٦٨، رقم: ١٢٤٨ و١٢٥٠.
وقال النيسابوري في سبب نزولها:ـ
قال قتادة والضحاك ومقاتل: جاء ناس من اليهود إلى النبي ﷺ فقالوا: صف لنا ربك، فإن الله أنزل نعته في التوراة، فأخبرنا من أي شيء هو، ومن أي جنس هو، أذَهَبٌ هو أم نحاس أم فضة؟ وهل يأكل ويشرب، ومِمَّن وَرِثَ الدنيا ومَنْ يُوَرِّثُها؟ فأنزل الله تبارك وتعالى هذه السورة.
انظر: أسباب النزول، ص٢٦٩.
والرواية الأولى التي أوردها السيوطي برقم: ١٢٤٨ سَنَدُها حسن، كما قال مؤلِّفا: الاستيعاب في بيان الأسباب، ج٣ ص٥٧٨ ـ ٥٨٠، وأوردها كل من: أحمد في «المسند» (١٣٤/٥)، والبخاري في «التاريخ الكبير» (٢٤٥/١) وغيرهما.

(١) المعجم الوسيط، ص٥٢٣.

وتعالى أحد فَرْدٌ صَمَدٌ؟! كما قال تعالى في هذا المجال: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْۖ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتِۭ بِغَيْرِ عِلْمٍۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾ [الأنعام].

٤ ـ ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ أي وهو لم يتفرَّعْ عن أحدٍ أو عن شيء، وكيف يُولدُ وهو الأول الذي ليْسَ قبله شيء، والخالق الذي أبدع كلَّ شيء، والربّ الذي وهب الوجود لكل شيء؟!

٥ ـ ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ أي: ليس أحد كُفْؤاً له، والكفؤ هو النظير والمساوي[1]، وكيف يكون للخالق الرب جلَّ في علاه نظيرٌ أو مثيلٌ أو شبيهٌ، ولا يوجَدُ ثمة غَيْرُهُ سوى مخْلوقاتِهِ، والمخْلوق غَيْرُ خالقِهِ في كل شيء ومن كل وجهٍ؟! وهذه السورة القصيرة المباركة كُلّما تأمَّلَها الإنسانُ وتدبَّرها، وجَدَ فيها المزيدَ والمزيدَ من حقائق معرفة الله وأوصافه العظيمة الجليلة.

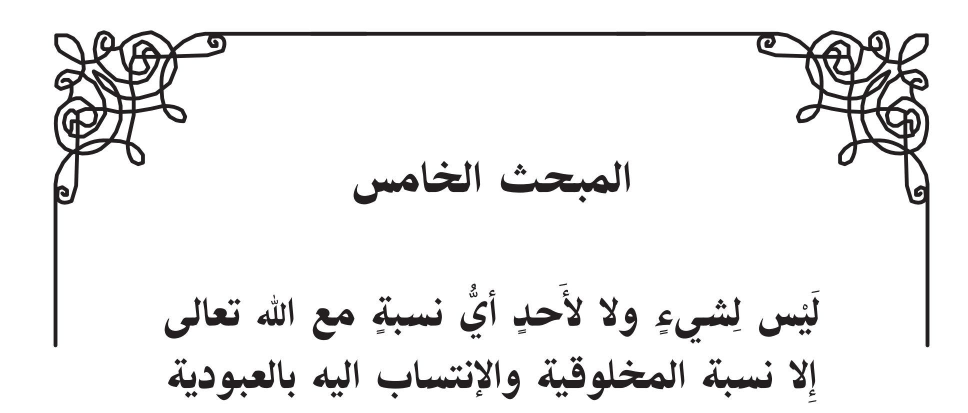
الرابعة: والله تبارك وتعالى لا سَمِيَّ له في شيء من أسمائِهِ الحُسْنى:

وهذا ما صرَّحت به الآية (٦٥) من سورة (مريم): ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾ [مريم]، إذْ معنى قوله تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ هو: لا يوجد سميٌّ له البتة، وسَمِيُّ الشيء هو حامِلُ اسمه فإذا قُلْنا مثلاً:

ان هذا الكتاب هو سميُّ ذاك، أي يحمل اسمه وعنوانه.

والله سبحانه وتعالى منفردٌ بأسمائه وأوصافه، كما أنه منفردٌ بذاته، وهذا في الحقيقة وفي عالم الواقع، ومن الواضِح أن التَسَمِّي بأسماء الله أو إطْلاق بعض أسمائِهِ وأوصافِهِ على أحدٍ من مخلوقاته، لا يتجاوز حدود عالم الذهن والوهم، ولم يكن الكذب والزور يوماً لِيُغيِّر من الحقيقة والواقع شيئاً!

(١) المصباح المنير، للفيومي، ص٢٧٧.



المبحث الخامس

لَيْس لِشيءٍ ولا لأَحدٍ أيُّ نسبةٍ مع الله تعالى إِلا نسبة المخلوقية والإنتساب اليه بالعبودية

وهذه الحقيقة العظيمة تَجلَّتْ في آيات كثيرة جداً من كتاب الله المبين وهذه أمثلة منها:ـ

قال الله العليُّ العظيم سبحانه وتعالى:

١ ـ ﴿. . .قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾﴾ [الرعد].

٢ ـ ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ [مريم].

٣ ـ ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ۖ. . . ﴿٧٧﴾﴾ [الفرقان].

٤ ـ ﴿. . .إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ. . . ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات].

٥ ـ ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾ [الإسراء].

٦ ـ ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم

بِذُنُوبِكُمۖ بَلۡ أَنتُم بَشَرٞ مِّمَّنۡ خَلَقَۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾ [المائدة].

٧ ـ ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَةٗۚ قُلۡ أَتَّخَذۡتُمۡ عِندَ ٱللَّهِ عَهۡدٗا فَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ عَهۡدَهُۥٓۖ أَمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰۚ مَن كَسَبَ سَيِّئَةٗ وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [البقرة].

٨ ـ ﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا ﴿١٢٤﴾﴾ [النساء].

٩ ـ ﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۚ قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ أَن يُهۡلِكَ ٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗاۗ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٧﴾﴾ [المائدة].

١٠ ـ ﴿لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعٗا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡتَنكَفُواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴿١٧٣﴾﴾ [النساء].

ولنقتبس من أنوار هذه الآيات المباركات الحقائق الآتية:

١) الله سبحانه وتعالى هو وحده الخالق وكل ما سواه هو مخلوقاته الخاضعة المُسْتَسلِمَةُ لمشيئته القاهرة لكل شيء:

وهذا ما بَيَّنَتْهُ الآية (١٦) من سورة (الرعد) والتي يأمر فيها ربُّ العزَّة جلَّ وعلا نبيَّه ﷺ أن يُعْلِن للناس بأن الله تعالى هو وحده خالق كل شيء

وفاطره وربّه، وهو واحد في ذاته وصفاته وقهّار لغيره، أي أَخْضَع كل شيء لمشيئته وألْزَم كلَّ شيء بِسُننه التي وضعها في خَلْقِهِ.

٢) كل ذوي الشعور الموجودين في السَّموات والأرض عَبيدٌ لله تعالى، وهو مُحصٍ لهم جميعاً وسَيُوافيه كل منهم يوم القيامه بمفرده، ولا يُرافق أحداً منهم خَدَمٌ أو حشمٌ أو عشيرة أو جيش:

والآيات (٩٣ و٩٤ و٩٥) من سورة (مريم) مصرِّحة بهذا بأجْلى عبارة.

٣) الشيء الوحيد الذي يفيدُ الإنسانَ فيما بينه وبين ربِّه هو عبوديته لله تعالى وطاعته، لا غير:

وهذا ما بيَّنته الآية (٧٧) من سورة (الفرقان)، وتدلُّ الآية المباركة على أن الصِّلة الوحيدة بين العبد وربِّه هي العبادة، وبقدر ما يدعو الإنسان ربَّه ويعبده، يُكرِمُهُ ربُّه الكريم ويَعْبَأُ به، (وعَبَأ بِهِ) أي: اهتم به وراعاه وجعله موضع عنايته[1].

٤) وبقدر ما يُحَصِّلُ الإنسان التقوى في نفسه، يَزْدادُ كرامة عند ربِّه، وأما غيْر التقوى من نَسَبٍ وحَسَب وغِنى... إلخ فلن يُغني أحداً شيئاً:

وهذا ما بيَّنته الآية (١٣) من سورة (الحجرات) في قول الله المبارك: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾، وسنشرح مفهوم التقوى بإذن الله في الباب الثالث في الفصل الأول منه، وخلاصة تعريف التقوى هي: الإلتزام بِشريعة الله إيماناً وعبادةً وطاعةً على كل الأصعدة الفردية والأسرية والجماعية، وفي جميع مجالات الحياة التي شمَلتْها الشريعة بأحكامها.

٥) وكل الذين يُدْعَوْنَ من دون الله ويُشْرَكُونَ في عبادته جهْلاً وظُلْماً لا يملكون لعابديهم ودعاتهم شيئاً، من كشف الضُرِّ بَلْ ولا حتى تحويله! بل أولئك المدعوون ـ ويُقصد بهم هنا الملائكة أو الصالحون من البشر كالأنبياء وغيرهم ـ مَنْ كان منهم أقربَ إلى الله تعالى، كان أعبد له وأشدَّ

(١) المعجم الوسيط، ص٥٧٩.

سعياً لامتلاك الوسيلة المقرِّبة له إلى الله تعالى، وكلهم يرجون رحمة الله ويخافون عذابه:

وبيَّنتْ هذه الحقيقة الآيتان (٥٦و٥٧) من سورة (الإسراء) وسَنُلقي الضَّوْءَ على مسألة دعاء غير الله تعالى ـ والذي هو شركٌ وكفرٌ عظيم ـ في المبحث الثاني من الفصل الثاني من الباب الثالث بإذن الله وتوفيقه.

٦) دَحض وتفنيد ادّعاءات اليهود والنَّصارى بأنهم هم أبناءُ الله وأحِبّاؤه، بدليل أنَّ الله تعالى عاقبهم على انحرافاتهم وذنوبهم وعذَّبَهُمْ عليها:

كما بيَّن ذلك ربّ العالمين جلَّ شأنه في الآية (١٨) من سورة (المائدة)، وقَدْ أعْلَن فيها الله تبارك وتعالى أن اليهود والنصارى ليسوا سوى بشرٍ مثل سائر الناس، وليس لهم أي فضلٍ أو امتياز على الآخرين.

وعذاب الله تعالى المنصبّ على اليهود والنصارى، بسبب انحرافاتهم وذنوبهم، تَمَثَّلَ في أشياء كثيرة، منها:

١ ـ البلايا والمصائب: كما قال تعالى في سياقٍ يتحدَّث عنهم أو عن اليهود خاصة: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾﴾ [الأعراف].

٢ ـ تحريم بعض ما كان حلالاً، عليهم: كما قال تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾﴾ [النساء].

٣ ـ تفريقهم وتشتيت شمْلهم: كما قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ...﴾ [المائدة]، وقال: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا

مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ... ﴾ [المائدة].

٤ ـ ضرْب الذِّلَّةِ والهوان عليهم سوى في حالات استثنائية: كما قال تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ... ﴾ [آل عمران]، والآية يقصد بها (اليهود) خاصة، لأن هذه الجملة وردت في سورة (البقرة) في الآية (١٦) والسياق كلّه يتحدَّث عن بني إسرائيل (أي اليهود) ـ والظّاهر أن المقصود بالحالتين المستثنيتين: (إلَّا بِحبْلٍ من الله، وحَبْلٍ من الناس) هو أن اليهود سيظلّون أذلة ومضطهدين إلَّا في حالة يعيشون فيها تحت ظل حكم شريعة الله، فَيَنْعَمُون بالحياة السّعيدة العزيزة الكريمة، أو في حالة استظلالِهِمْ بتحالفات دولية تحمي مصالحهم بحقٍ أو بباطلٍ، والحالة الأولى تحققت طيلة القرون الثلاثة عشر التي عاش فيها اليهود في ظل الدولة الإسلامية، كما أنَّ الحالة الثانية هي واقع حالهم الآن حيث اغتصبوا أرض فلسطين الإسلامية سنة (١٩٤٨) وبنوا فيها كيانهم الظالم بمساعدة الدول الكبرى الكافرة، والتي لا تزالُ تقَدّم لهم العون السَّخِيَّ!

٧) إبْطالُ دعوى اليهود، بأنّهم حتى إذا دخلوا النّار يوم القيامة فلا يبقون فيها إلّا أياماً معدودة، بأن هذا لا يمكن أن يحدث إلّا بناء على وعد الله تعالى، وبما أنه لا وعد من الله تعالى لأحد منهم بذلك، فهي مجرَّد دعوى باطلة وقول بلا علم:

وهذا ما بيَّنه الله تعالى من خلال الآيات (٨٠و٨١و٨٢) من سورة (البقرة).

وقد ردّ سبحانه وتعالى على نفس هذه الدعوى الباطلة لليهود في الآية (٢٤) من سورة (آل عمران) بقوله: ﴿...ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾، وهذه الجملة المباركة تشير إلى حقيقة عظيمة بالنّسبة لكيفية حدوث الإنحرافات عند أهل الدِّين (أي الدين الرّباني)، وهي أن أتباع الدين من جرّاء شيوع الإنحرافات والأفكار المفتراة التي لا أصل لها، بينهم، وتغلغلها في عقولهم وقلوبهم،

وَتَبَنِّيهم لها، ينحرفون عن الجادة ويخدعون أنفسهم بتلك الخرافات والأوهام والإفتراءات التي لا أصل لها في الدين، ويُنْزِلونها في أنفسهم محلّ حقائق الدِّين وأحكامِهِ.

٨) تنبيه الله تعالى لأهل الإسلام أنْ يَحذروا ولا يَقعوا في المنزلق الذي وقع فيه قبلهم أهل الكتاب، وهو الإكتفاء في التدين بمجرّد الأُمنيّات والكلام الفارغ والمظاهر الشكلية:

وهذا ما تجلّيهِ الآيتان (١٢٣ و١٢٤) من سورة (النساء)، والآن لنتابع الآيتيْن الكريمتين جملة جملة:

١ ـ ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾، الخطاب هنا مُوجَّهُ لأهل الإسلام فَيُخْبِرُهم الله الحكيم أن الأَماني الفارغة لا تفيدهم شيئاً، كما لم تُفِدْ قبلهم أهلَ الكتاب، وإذا كانت أماني المسلمين المقصودة في الآية غير معروفةٍ وغير معلومةٍ لنا، فأماني أهل الكتاب واضحةٌ، وهي الَّتي أشرنا اليها من قبل، من تصوّر كونهم أبناءَ الله وأحِبّاءَهُ، وكونهم غير مُعَذَّبين سوى أيام معدودة يوم القيامة! وبهذا نعلم أن أماني المسلمين المقصودة في الآية الكريمَة، كذلك هي من هذا القبيل.

وبعد هذا النفي الحاسم الواضح لِنَفْع الأمانيِّ ـ والأمانيُّ[1] جمع أُمنية، وهي ما يتمنّاها المرء ويأملها من غير أن يكون لها أساس من الواقع ـ يُبيِّن الله تعالى سنَّته الحكيمة في تعامله مع البشر، بقوله:

٢ ـ ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾﴾، أي: إن الله تعالى لا يُحابي أحداً من البشر، أيّاً كان اسمه ولقبه وانتماؤه الديني، بَلْ كل مَن يْعملُ عملاً سيجزيه به، ومن الواضح أن كُلاً من كلمة ﴿مَن﴾ و﴿سُوء﴾ عامتان تشملان كلَّ إنسان وكلَّ ما هو شيء، من النيات والأقوال والأعمال بلا استثناء،

(١) المصباح المنير، ص٣٠٠، و(المعجم الوسيط)، ص٨٨٩.

وقوله تعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾﴾ تيئيس لكل من يَطْمَعُ في تولِّي أحدٍ من الناس له يوم القيامة أو مناصرته، فلا وليَّ لِمَنْ انقطعت صلته بالله، وانعدَمَتْ ولايته معه بسبب سيِّئاته، ولا نصير له ولا معين.

هذا بالنسبة لارتكاب الشرِّ، وَأما بالنسبة لعمل الخير، فيقول تعالى:

٣ ـ ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾.

أي: وكذلك كل من يعمل عملاً صالحاً ـ والعمل الصالح هو كل ما حبَّذه الشرع وأمر به، ويشتمل مفهومُهُ على كل نشاطات الإنسان القلبية والبيانية والتنفيذية ـ سواء كان ذَكراً أو أنثى، شريطة كونه مؤمناً، فأولئك سيدخلون الجنّة ولا يُظلمون نقيراً، أي لا يُبخَسُ جزاؤهم الذي يستحقونه، حسب عملهم الصالح، أدنى مقدار، والنقير هو الشق الطولي الذي في ظهر نواة التمرة[(١)].

أجَلْ إنَّ هاتين الآيتيْن وأمثالهما، تنبيه من ربِّنا، وتحذيرٌ لنا نحن المسلمين، من أنْ نَنْخَدِعَ بالأَماني الفارغة، ونسلك طريق أهل الكتاب مِنْ قَبْلِنا، من ترك الإلتزام والعمل الجِدِّي الذي يتطلَّبه الإيمان والإسلام، ثم تَسْويلُ النفس بأن مجرّد الإنتساب للإسلام أو بعض المظاهر الشكلية الأخرى، سيُعوِّضُ عن العمل الصالح الذي يُثْمِرُهُ الإلتزام بشريعة الله، ولا بأس أن نشير باختصار إلى أربع من تلك الأماني التي انخدع بها كثير من أهل الإسلام أو المحسوبين على الإسلام، في هذه الأيام، على غِرار أهل الكتاب المنحرفين، وذلك في أربعة مطالب:

❋ ❋ ❋

(١) المصباح المنير، ص٣٠٩.

المطلب الأول
الإغترار بمجرَّد الإنتساب للإسلام

هناك عَدد من المحسوبين على الإسلام ـ في كل الشعوب الإسلامية ـ قد خدعهم الشيطان وغرَّهم وأقنعهم بأنَّ مجرد انتسابهم للإسلام وإحصائهم في السجلاّت من ضمن المسلمين، كافٍ لاعتبارهم مسلمين عند الله، وإنْ لَمَ يلتزموا بشيء من أعمال أهل الإيمان! غافلين بأن المؤمن انما يمتاز عن غيره بالإلتزام بدين الله الحق، إذْ لا معنى للمسلم إذا لم يلتزِمْ دينَ الله ومنهجَه، لأن كلمة (المُسْلِمْ) تعني الخاضع والمنقاد لله تعالى ولدينه.

نعم، فما لم يكن هناك التزامٌ وانقيادٌ، تبقى كلمة المسلم فارغة وبلا محتوى! وكذلك كلمة (المؤمن) تعني: الإنسان المنقاد المُخبت لربِّه والمطيع لرسوله والملتزم بشريعته، ولهذا قَلَّما ذكر الله تعالى كلمة (آمنوا) في كتابه إلَّا وأردفها بكلمة (وعملوا الصالحات) تنبيهاً على أن الإيمان والعمل الصالح كالشمس وأشعتها، أو كالشيء وظِلِّه، لا يَنْفكّ أحدهما عن الآخر أبداً، وسنوضِّح مفهوم الإيمان والإسلام في الفصل الأول من الباب الثاني بتوفيق الله الكريم.

أجل هناك ـ في عصرنا الحالي ـ أناس يتصوّرون بأن مجرَّد كونهم مسجَّلين في سجلات النفوس كمسلمين، كافٍ ووافٍ لِيُحْسَبوا في عِدادِ المسلمين المؤمنين، وان لم يَلْتَزموا بشيء من دين الله، سواء في خاصة أنفسهم، أو في إطار أسرتهم ومجتمعهم، أو في المجال السياسي في حياتهم! بَلْ وبعضهم يَحْسَبُ نَفْسَهُ مُسْلِماً جيّداً، بالرغم من أنه منتم لِحزْبٍ عَلْمانيٍّ، اتخذ غير الإسلام منهجاً ودستوراً، مُمَنِّياً نفسه: بأنه طالما أن حزبه لمْ يُعْلِنْ صراحة وجِهاراً كُفْرَهُ بالإسلام، ـ وقد يُعلن بعضهم ذلك جهاراً ـ، بل قد يَمْدَحُ بعض قياديّيه الإسلام في بعض المناسبات كتابة أو شفاهة، لذا فحزبه وان لم يكن أساسُهُ الإسلام، لكنه لا يتصادم مع الإسلام ولا يتقاطع معه!!

ولا شك أن هذا تصوّر عجيبٌ وغريب يحتوي على تصوّرات خاطئة، منها:

أ ـ تصوّر أنه يمكن الوقوف محايداً بين الإسلام والكفر، أي: أن يكون شخص أو حزبٌ ما، محايداً بين الإيمان والكفر!! ولكن هذا منطقٌ مُعْوَجٌّ بكل المقاييس، والذي يختار الحياد بين الإسلام والكفر، يعتبر منافقاً حسب ميزان القرآن، والمنافق أخبث كفراً من الكفار! قال تعالى عن حياد المنافقين وتذبذبهم بين الإسلام والكفر: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ﴿١٤٣﴾﴾ [النساء]، وقال تعالى عن كونهم أسوأ عاقبة من كل أصناف الكفار: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾﴾ [النساء].

ب ـ تصوّر أن الإنسان يمكن أن يكون مسلماً أو يظلَّ مسلماً على الرغم من انخراطِهِ في سلك حزبٍ منهجه غير مُسْتَمدّ من كتاب الله وسنة رسوله! غافلين عن أنَّ مَنْ حادَ عن دين الله القيمِّ وانحرف عنه، وفي أي جانبٍ من جوانبه الأساسية، يعتبر خارجاً عن الإسلام، ولا يَشْفَعُ لانحرافِهِ عن صراط الله بالعمل والموقف، ادّعاؤه الإسلام بالقول والمظهر، حيث قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران]، وربّما جَهِلَ أولئك أن (الدِّينَ) هو المنهاج الذي يتبعه الإنسان ـ أو المجموع ـ سواء كان من الله تعالى، وهو الدِّين الحق، أو من البشر، وهو كل الأديان والمناهج الباطلة، وبناءً عليه: فكل حزبٍ أو جماعة اتَّبعوا منهجاً غير مُستَمدّ من كتاب الله وسنة رسوله، فهم اخترعوا ديناً لأنفسهم غير دين الله، أيّاً كان اسم وعنوان الحزب أو المنهج الذي يَسيرون عليه: (العَلمانية، القومية، الوطنية[1]، الإشتراكية، الرأسمالية، الليبرالية. . .) إلخ، وسنوضِّحُ مفهوم كلمة (الدِّين) في الباب الثالث تفصيلاً

(١) من الواضح أن حُبَّ (القوم) و(الوطن) والذي هو شيء فِطريٌّ، يختلف عن الفكرتين (القومية) و(الوطنية) المتصادمتين مع الإسلام.

بإذن الله تعالى، كما سنوضِّحه مختصراً بعد قليل.

جـ ـ تصوّر أنَّ وجود بعض نقاط الإشتراك بين (منهج) حزبه أو (شعاره)، وبين بعض نواحي شريعة الله وأحكامِهِ، كافٍ لاعتبار منهج حزبهم مُوافِقاً للإسلام وغير متعارضٍ معه! ولكن هذا التصوّر خطأٌ فظيعٌ، بدليل:

١ ـ إنَّ دين الله الحق لا يَرْضى بأنصاف الحلول، بَلْ مَنْ يرفض بَعْضَه كَمَنْ يَرفُضُه كلَّه، فهما في الكفر سواء، بَلْ رفض حُكْم واحدٍ من أحكام شريعة الله واعتباره خطأ أو غير صالح لعصر من العصور، يعتبر كفراً، كما قال تعالى: ﴿. . . أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِۗ ﴿٨٥﴾﴾ [البقرة].

وقد سمَّى الله تبارك وتعالى دينه بـ(دين الحق) و(الدّين القيّم) و(ديناً قِيَماً) واعتبره تاماً وكاملاً: ﴿. . . ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ ﴿٣﴾﴾ [المائدة]، وقال: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًاۚ ﴿١١٥﴾﴾ [الأنعام].

وعليه: فمن يعتبر شيئاً من دين الله الحق، ناقصاً، ولو حكماً واحداً من أحكامه المنصوصة عليها، فهو يكفر، لأنه نَسَبَ إلى دين الله الحق، ما نفاه الله عنه، وهذا تكذيب للهِ، واذا لم يكن تكذيب الله ورسوله كفراً، فما هو الكفر؟!

٢ ـ إنَّ وجود بعض نقاط الإلتقاءِ بين الإسلام ومنهج حِزبٍ من الأحزاب، لا يَمْسَحُ اسم الكفر عنه، وذلك لأن النقاط المشتركة موجودة بين الإسلام وكل من اليهودية والنصرانية أيضاً، ولكن هذا لم يجعل اليهودية والنصرانية شيئاً واحداً مع الإسلام! والذي جعل اليهودية والنصرانية دينينِ باطلين، بعد أن كانا ديناً حقاً في زمن موسى وعيسى عليهما السلام هو ذلك الباطل الذي شابهما، من قِبَلِ الأحبار والرهبان المُحَرِّفين، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾﴾ [آل عمران].

وربما لا يوجد منهج ونظام لحزب أو مجموعة من الناس في شرق الأرض وغَرْبها وشمالها وجنوبها، إلَّا وتوجد بينه وبين الإسلام (دين الله الحق) قواسم مشتركة! ولكن المنهج الصّحيح للحياة هو الذي تمحَّض للحق ولم يُخْلَطْ به شيء من الباطل، وليس ذلك سوى دين الله الحق!

٣ ـ ثم نسأل ذلك المخدوع، فنقول:

هَلْ إنَّ حزْبَكَ يَقْبَلُ أن يُعَدَّ منهجُهُ منهجاً إسلامياً، ويُصَرِّحُ بهذا ويَصْدَعُ أم لا؟! فإن كان الجواب نعم، فَبِهِ ونعْمَ، ولكن في هذه الحالة يجب أن يُغَيَّرَ اسمُ الحزب، إنْ كان يُنافي الإسلام، ثم أن تُزال من منهاجه ونظامه أي مادة أو فقرة تخالف الكتاب والسنَّة، وأنْ يلْتَزم الأعضاء بالشريعة فعلاً وواقعاً!

وان كان الجواب بالنفي، وهذا هو المتوقع والمعقول، فيقال حينذاك: إن الذي يرفض الإسلام حتى اسْماً، سواء على الصعيد الفردي أو الجماعي، فهو لا يمكن إلَّا أن يكون كافراً، وذلك لان الله تعالى سمَّى دينه ومنهاجَهُ إسلاماً، وسمَّى أَتباعه مسلمين، كما قال تعالى: ﴿. . . وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ ﴿٣﴾﴾ [المائدة]، ﴿. . . هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا ﴿٧٨﴾﴾ [الحج].

٤ ـ إن الله تعالى سمّى دينه دين الحق: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾ [الفتح]، وكذلك سمّاه حقاً: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْۚ ﴿٢٩﴾﴾ [الكهف].

ثم أعلن سبحانه وتعالى أن الحق لا يكون إلَّا من قبل الله تعالى وأنه ليس سوى الحق إلاّ الضَّلال: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّۗ ﴿٣٥﴾﴾ [يونس]، ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [يونس].

وبناءً على هذا:

فالإسلام هو دين الله الحق، وليس غير الحق سوى الباطل والضلال، كما أنه ليس في مقابل الإسلام إلَّا الكفر، ولا يوجد بديل ثالث بين الطرفين، بَلْ إمّا الإسلام وإما الكفر، إما الحق وإما الضلال، إما حكم الله وإمّا حكم الجاهلية، وذلك لأن الله تعالى قابل بين هذه الأشياء الستة، كأضداد وعكوس بعضها مع بعض، قال تعالى:

١ ـ ﴿... فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴿٢٩﴾﴾ [الكهف].

٢ ـ ﴿... فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ﴿٣٢﴾﴾ [يونس].

٣ ـ ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المائدة].

إذن:

مسألة كُفْرِ مَنْ يختار غير منهاج الله، سواءٌ كانَ فرداً أو حِزْباً، واضحةٌ ومحسومةٌ في كتاب الله كأوضح ما يكون الوضوح، ولكني أرى أن عدم فهم كلمة (الدِّين) في كتاب الله الحكيم، فهماً صحيحاً له دور كبير في ضلال وانحراف، أو في الأقل انخداع بعض أهل الإسلام وتوجّههم نحو أحزابٍ ذات مناهج غير إسلامية ـ أي كفرية ـ مع اعتبار أنفسهم مسلمين، ولهذا أودّ أن أُلْقيَ بعض الضَّوء على مفهوم كلمة (الدين) في كتاب الله، إلى أن نَشرحَهُ بالتفصيل في الفصل الثالث من الباب الثالث، بإذن الله، فنقول:

لقد استعمل كتاب الله المبين كلمة (الدِّين) بأربعة معانٍ:

أ ـ الجزاء (أي الثواب أو العقاب): كما قال تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾﴾ الفاتحة، أي مالك يوم الجزاء.

ب ـ الخضوع والطاعة: كما قال تعالى: ﴿... إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا

هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ ﴿٣﴾﴾ [الزمر]، أي: فاعبد الله مجرِّداً له الطاعة والخضوع، انتبهوا أنَّ الطاعة الخالصة هي اللائقة بالله تعالى.

ج ـ منهج الحياة مُطلقاً سواءٌ كان حقاً أو باطلاً:

كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ...﴾ [الفتح: ٢٨]، [التوبة: ٣٣]، [الصف: ٩]، حيث سمّى الله تبارك وتعالى كلاً من منهاجه الحق المتمثِّل بالإسلام، والمناهج الباطلة البشرية، سواء كان أصلها ربّانيا كاليهودية والنصرانية، ثم حُرِّفت وغُيرِّت، أو بشرياً ككل المناهج والأنظمة التي تمخَّضت عَنْها عقولُ الناس في الشرق والغرب، والتي تجتمع كلها تحت عنوان (العلمانية) العريض ـ أي اللادينية ـ مثل: الرأسمالية، الإشتراكية، الليبرالية، الدكتاتورية، العولمة، القومية، الوطنية[١]... إلخ.

د ـ الإسلام (أي دين الله الحق):

وسمّى الله تبارك وتعالى الإسلام ديناً (أي منهجاً ونظاماً للحياة) في آيات كثيرة، ولكن كلَّما استعمل الله تعالى كلمه (الدِّين) بمعنى الإسلام، جعل لها قرينَةً تُمَيِّزُها عن سائر الأديان والمناهج الباطلة، كما قال تعالى:

١ ـ ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ...﴾ [الفتح: ٢٨]، [التوبة: ٣٣]، [الصف: ٩].

٢ ـ ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ﴿١﴾ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ﴿٢﴾﴾ [النصر]، ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ ٱلۡقَيِّمِ ﴿٤٣﴾﴾ [الروم].

(١) كما أشرنا سابقاً، إن حب الإنسان لقومه ووطنه شيء جبلي فطري، هذا شيء وجعل القوم والوطن فوق كل الإعتبارات الأخرى، وعقد الولاء والبراء على أساسهما، شيء آخر، والقومية والوطنية المرفوضتان في الشرع هما بالمفهوم الثاني، أي: عند تحوّلهما إلى صنمين ودينين!

٣ ـ ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴿١٦١﴾﴾ [الأنعام].

٤ ـ ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾﴾، ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾﴾ [الكافرون].

وبناءً على كل ما مرَّ، نقول:

إنَّ أي كيان أو حزب، أو تجمع قليل أو كثير، يجتمع على أساس غير الإسلام، ويُسَمِّي نَفْسه بغير اسم الإسلام، ويُوَجِّه بالتالي أفراده وأعضاءَهُ غير وجهة الإسلام، ويسعى لتحقيق مجموعة من الأهداف ربَّما تَتَّفِقُ أو تختلف عما يَأْمُرُ به الإسلام، فهو من حيث منهاجُهُ يعتبر حِزْباً كافراً، لأنَّه اتَّخذ غير الإسلام منهاجاً ونظاماً واسماً ووجهةً، وغير الإسلام ليس سوى الكفر، إذْ ليس هناك شيء ثالث بينهما، بل كل ما ليس إسلاماً فهو كفرٌ، ولكن من حيث أفراده وأعضاؤه، وانْ كانوا عموماً يعتبرون أهل كفر، لأنهم اتّبعوا غير الإسلام، وغير الإسلام كله كفرٌ، ولكن لا يحكم على كل فردٍ بعينِه كونه كافراً، إلَّا بعد التحقق التام من أمره وتطبيق قاعدة: (ثبوت الشروط وانتفاء الموانع) عليه، وسَنَتَحَدّثُ عن هذه القاعدة في كل من الباب الثالث والرابع، فَنُحِيلُ اليهما[١].

ونَخْلُصُ من كل ما تقدَّم إلى القول:

إنَّ قوله تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴿٣﴾﴾ [المائدة]، يعني: أيها المسلمون: لقد حدَّدْتُ لكم منهاجاً وشريعة لحياتكم، وهو الإسلام الذي اخترتهُ لكم وحَبَوْتُكُمْ به! وإنَّ قوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ...﴾ [آل عمران]، يعني: ليس هناك دين ومنهج يقبل الله من البشر اتِّباعه سوى الإسلام، إذ لا يعتبر الله تعالى غير الإسلام من المناهج والأديان إلَّا باطلاً وضلالاً!

(١) وكذلك شرحنا القاعدة المذكورة في كل من المجلد الأول والسادس من كتاب (الايمان والعقيدة الإسلامية في ضوء القرآن والسنة) وهو كتاب مطبوع باللغة الكردية.

وإنَّ قوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران]، أي: أن كل من اتبع غير الإسلام الذي هو منهج الله الحق، منهجاً آخر، فهو خاسِرٌ وشقيٌّ في الآخرة أيَّ خسرانٍ وشقاءٍ.

وأختم هذا الموضوع بإيضاح نقطتين:

الأولى: أن رفض الإسلام كمنهج للحياة كما أراده الله تعالى له ـ أي إرادة تشريعية ـ يُعتبر كفراً بمفرده، وانْ لَمْ يَنْضَمَّ اليه شيء آخر، ولا يشترط في كون رفض الإسلام كمنهج للحياة، أن يُعلَن عنه إعلامياً، إذ الرفض العملي أبلغ من القولي، ولسانُ الحال أبلغ من لسان المقال، والأدلّة من كتاب الله على أن الرفض العملي للإسلام وأحكامه كلياً أو جزئياً، يُعتبر كفراً، كثيرةٌ جِدّاً، سنفصِّل فيها القول لاحقاً في الأبواب الأخرى، بإذن الله، ونكتفي هنا بهذه الآية المباركة:

﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ النور.

الثانية: أن منهج ونظام الحياة قبل أن يكون مجموعة أحكام، تَنْتَظِمُ على أساسها روابط المجتمع وأحوالُهُ، هو عقيدة وتصوّرات وقيم وموازين، يَنْظُر الإنسان من خلالها إلى الوجود والحياة والأشياء والناس، ومن ثم تنبثق منها الأحكام المنظِّمة للحياة.

وبناءً عليه:

فعندما ننظر إلى منهج دولة أو حزب أو تجمُّع ما، لنعرف مدى تصادُمِهِ مع دين الله ومنهاجه، ينبغي لنا أنْ ننظر إلى الجانب العَقَديِّ والفكري والتصوّري والقيمي منه، قبل الجوانب الأخرى، لأنَّ هذا الجانب هو الأساس والمنطلق للجوانب الأخرى، وتأسيساً على هذا نقول:

إنَّ أيَّ منهج (أي دين) يتبنَّى غير (تعبيد الناس لِربِّهم) من خلال إيمانهم والتزامهم بدينه وشريعته، يعتبر ديناً ومنهجاً جاهلياً وكفرياً، وذلك

لأن الله تعالى لم يخلق الجنّ والإنس إلّا لعبادته، كما قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات]، ولهذا كان أساس دعوة الأنبياء كلّهم عليهم الصلاة والسلام، مع أقوامهم وأول كلامهم معهم، كان جملة: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف]، هذا ما قاله كل من (نوح وهود وصالح وشعيب عليهم الصلاة والسلام)، كما حكاه لنا ربّ العزَّة عنهم في سورة (الأعراف) في الآيات (٥٩ و٦٥ و٧٣ و٨٥)، أجل إنَّ المنهج الذي يَرْسُمُ لأتباعه بعض الأهداف الدنيوية القومية والوطنية والسياسية والإقتصادية والإجتماعية، بدون أن يستند في تحديده لتلك الأهداف إلى الكتاب والسنة أولاً، ثم يربطها بتحقيق العبودية لله تعالى، فهو وان ادَّعى ما ادّعى، يعتبر منهجاً داعياً لإبعاد الناس عن الله تعالى، بإشغالهم بالأهداف التي يرسمها هو لهم، وعلى الأساس الّذي يريده هو، وبالتالي فمنهج كهذا يعتبر ديناً يريد أن يصير بديلاً لدين الله!

هذا من الناحية العَقَدية والفكرية، وأما من ناحية أُخرى، أي: ناحية الأحكام، فأي منهج يتبنَّى حُكماً واحِداً يُخالِفُ حكماً شرعياً منصوصاً عليه في كتاب الله وسنة رسول الله، فهو بتَبنِّيه لذلك الحكم الواحد يعتبر ديناً ومنهجاً مُضاداً ومُعاكِساً لدين الله الحق ومنهاجه، والدليل على هذا هو: أن الله تعالى اعتبر عقوبة السارق دِيناً وجُزءاً من دينٍ، كما قال: ﴿... مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ...﴾ [يوسف: ٧٦].

وانَّمَا قال سبحانه هذا القول بمناسبة تمكُّن يوسف عليه السلام من أخذ أخيْه (بنيامين) رهينة، جزاءً على أنهم عثروا على (صواع الملك) في رحله، وكانت هذه العقوبة للسارق عقوبة (دين) يعقوب عليه السلام وأبنائه، ولهذا سأل يوسف إخوته عن عقوبة السارق عندهم ـ أي في دينهم ـ وكان يعلم ذلك، وقصد بسؤاله أن يُدِينَهم مِنْ فَمِهِمْ، وأن يتمكّن من أخذ أخيه رهينة عنده، لأنَّ دين ملك مصر آنذاك، ما كان يسمح بهذا الإجْراء، ولم تكن فيه تلك العقوبة!

إذن :

فقد اعتبر الله تبارك وتعالى حكم عقوبة السّارق (ديناً)، لِذا فَمَنْ أصدر حكماً واحداً يُضادّ حكماً من أحكام الشريعة، يعتبر إصداره ذلك الحكم الواحد مزاولةً له بوضع دين (منهج) يخالف دين الله، ومن اتبَّع حكومةً أو حِزْباً يتبنَّى حكماً واحداً فقط، مِمّا يخالف الشريعة، يُعتبر مُتَّبِعاً لغير دين الله، هذا من حيث المنهج، وأما بالنسبة لموقفه لواضع المنهج ـ الذي يشتمل على حكم أو أحكام تخالف شريعة الله ـ فيعتبر عابداً لَهُ لأنَّهُ اتخذه مُشَرِّعاً وحاكماً له، والتشريع والحاكمية جزءٌ من ربوبية الله تعالى وألوهيته، ولهذا سمَّى الله تعالى المشرِّعين للدِّين والأحكام من غير إذن الله (شركاء)، حيث قال: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ ﴿٢١﴾﴾ [الشورى]، وإنما سمّاهم شركاء حسب ظنِّ أتباعهم وعابِديهم لهم، الذين أعطوهم حق التحليل والتحريم ووضع الشرع والمنهج والدِّين، وهذا الحق محصور لله تعالى، بحكم ربوبيته وألوهيته للناس، ولهذا فمن أعطاهُ لغير الله تعالى، فهو قد جعل ذلك الغير شريكاً لله تعالى ونِدّاً له .

❋ ❋ ❋

المطلب الثاني
الإغترار بالإنتساب إلى الشعب العربي

وهذا أيضاً نوع آخر من الإغترار بالأماني، حيث يوجد أناس من المُنْتَمِين إلى الشعب العربي المسلم، يزعمون بأن مُجَرَّدَ كونهم ـ من حيث القومية ـ عرباً، يُغْنيهم ويُعْفيهم عن الإلتزام بأعمال الإسلام وأحكامه، أو على الأقل يجعلهم ذلك الإنتساب فوق المسلمين الآخرين، مِمَّن ينتمون إلى الشعوب الأخرى!! ولكن من الواضح أن هذا تصوّر جاهلي ما أنزل الله به من سُلْطان، ولا يوجد له أي سَنَدٍ لا في النقل (الكتاب والسنة) ولا في العقل، وقبل أن نُبَيِّن زِيْفَ هذا التصوّر وبُطْلانَه، نَوَدُّ أن نُقَدِّم هذا الإيضاح كي لا يُساءَ فهم ما نقوله:

من الواضح أن الشعب العربي المسلم الذي اختار الله تعالى فيهم نبيَّه الخاتم محمداً ﷺ وخلفاءَهُ الراشدين وصحابته الكرام وأهل بيته ﷺ الذين كانوا أول حمَلَةِ الرسالة الخاتمة إلى البشرية، وكانوا بحق مُجَسِّدين لدين الله الحق بكل جوانبه، أجل إن هذا الشعب المسلم ـ عموماً ـ يَجبُ على المسلمين حُبُّه والحرص عليه والإهتمامُ به والسَّعي لخيره وصَلاحِهِ، وكيف لا يُحِبُ المسلم الصادق في دينه والفاهم له، الشَّعْب المسلم الذي يَنْتمي اليه نَبيُّهُ الكريم ﷺ وخلفاؤه الراشدون، وصحابته وأهل بيته، رضوان الله عليهم أجمعين؟!!

والآن بعد هذا الإيضاح نقول:

إن اغترار بعض العرب بنسبهم العربي، وتصوّرهم بأنه يجعلهم في غِنىً عن الإلتزام به، أو على الأقل ذا إمتياز ودرجة على غيرهم من المسلمين في الشعوب الأخرى، يبدو بعد التأمل في أقوالهم وادعاءاتهم، أنه يَنْشَأ من أحد الأسباب الثلاثة الآتية، أو مجموعها:

أ ـ الجهل بالدين.

ب ـ قياس النفس على الآباء.

ج ـ التعصب القومي.

وهذا توضيح كل من هذه الأسباب الثلاثة:

أ) الجهل بالدِّين:

ويَتَمَثَّلُ الجهل بالدِّين ـ بالنسبة لمن نتحدث عنهم ـ في أشياء كثيرة، أهَمُّها إثنان:

أولاً: فهم بعض آيات كتاب الله فهماً مُعْوَجّاً.

ثانياً: التَّمَسُّك بأقوال منْسوبة إلى النبّي ﷺ لا تَمُتُّ إلى الإسلام ونبيِّ الإسلام بِصِلَةٍ.

والآن لِنضْرِبْ مِثالاً لكُلِ واحدٍ مِنْهما:

١ ـ أما بالنِّسبة لِفَهْم بعض الآيات فهماً معوَّجاً سقيماً، فَمِثْلُ فهمهم لقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [آل عمران].

على أنَّ المقصود به هو: الشعب العربي كشعبٍ!! ولكن لا شكَّ أنَّ هذا غلطٌ واضحٌ، لأنَّ الآية الكريمة وردت في سياقٍ كلُّه حديثٌ عن أهل الإيمان وأمة الإسلام، ولا علاقة له بشعبٍ خاصٍّ بِصِفَتِهِ شعْباً مُطلقاً.

وهذا هو السياق والآيات التي وردت فيه:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۚ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا

عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [آل عمران].

كما نرى، يَتَحدَّثُ السِّياق كلّه عن أهل الإيمان وأمة الإسلام والتزامهم بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، وتوثيق صلة التقوى بينهم وبين ربهم، وتمتين رابطة الأخوة بينهم بعضهم مع بعض، والحذر من الوقوع في شَرَكِ أعدائهم وفِخاخِهم[١] التي ينصبونها لهم دَوْماً!

ومن الجليِّ أنَّ كون المخاطبين الأولين بالآيات الكريمة عَرَباً، إلَّا نادراً، لا يُغيِّرُ من الموضوع شيئاً، وذلك لأنَّ الله تعالى لم يُخاطِبْهم بصفتهم عرباً، ولم يَمْدَحْهُمْ ولم يُثْنِ عليهم لعروبتهم! بل خاطبهم بكونهم أهل الإيمان والإسلام، وأثنى عليهم لكونهم مؤمنين متقين، داعين إلى الخير، وآمرين بالمعروف، وناهين عن المنكر، وإلَّا لشَمَلَ المدح والثناءُ أيضاً أمثال أبي جهلٍ وغيره من صناديد الكفر، إذْ كانوا كلهم عرباً!! نعم إنَّ الدليل على أن الله تعالى لم يخاطبْ ولم يَمْدَحْ الرعيل الأول الممتاز من أهل الإيمان وأمة الإسلام، بسبب انتمائهم للشعب العربي، بل بسبب ولائهم للإسلام والتزامهم به، هو أن الله تعالى جعل عنوان الخطاب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، هذا أولاً، وثانياً، جعل سبب ثنائه عليهم ثلاثة أشياء: ﴿تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ فالمتَّصفون بهذه الصفات الثلاث هم المشمولون بالخطاب فقط، وكل من اتصف بهذه الصفات يشمله الخطاب، أيّاً كان انتماؤه القومي والعِرْقي، وثالثاً: سمَّى الله تعالى المخاطبين (أمة) لا شعباً أو قوماً، ومن الواضح أن العرب شعب وقوم من الشعوب والأقوام التي وزَّع الله عَلَيْها البشرية، مثلهم مثل سائر الشعوب والأقوام، ومفهوم الأُمّة مختلف تماماً عن مفهوم الشعب والقوم،

(١) الفخاخ والفُخوخ جمع فخ، وهو لصيد الحيوان بمثابة الكمين للبشر، المعجم الوسيط، ٦٧٦.

كما سنوضح ذلك بإذن الله في الفصل الثاني من الباب الثالث، وذلك في الفقرة السادسة من المطلب الأول من المبحث الأول، تحت عنوان: (بين الإنتماء للشعب والولاء للأمة)، وإضافة إلى كل ما مرَّ، فسبب نزول الآيات أيضاً يساعدنا في فَهم مرامها:

إذْ نزلت هذه الآيات في حادثة شجار ونزاع وقعت بين الأوس والخزرج (الأنصار)، بعد أن قرأ أحد اليهود عليهم بعض أشعار الجاهلية التي تراموا بها قبل الإسلام، وحرَّض بعضهم على بعض، وذَكَّرهُمْ ثارات الجاهلية، فقاموا إلى سلاحهم وتواعدوا مكاناً للقتال، فَعَلِمَ الرسول ﷺ بذلك وجاءهم فنصحهم وذكّرهم، وأنزل الله هذه الآيات(١)!

وعليه:

فهذه الآيات المباركات نزلت مُذَكِّرَةً أهل الإيمان نعمة الإسلام، وزاجرةً لهم عن التفرّق والتشرذم والتنازع بسبب الوقوع تحت تأثير اليهود والنصارى، وآمرةً إياهم أن يعتصموا بحبل الله وهو كتابه ودينه، وعدم اتِّباع أهواء وأقاويل ودعايات اليهود والنصارى، ولهذا أقول:

أوَليس من أعجب العجائب أنْ تُجْعَل آيةٌ من هذه الآيات ـ بسبب

---

(١) أورد كل من النيسابوري والسيوطي في أسباب النزول، هذه القصة في سبب نزول هذه الآيات، وهذا لفظ السيوطي:

(اخرج ابن اسحاق وأبو الشيخ عن زيد بن أسلم قال: مرّ (شاس بن قيس) وكان يهودياً على نفر من الأوس والخزرج، يتحدثون، فغاظه ما رأى من تآلفهم بعد العداوة، فأمر شاباً معه من يهود أن يجلس بينهم فيذكرهم يوم (بعاث)، ففعل، فتنازعوا وتفاخروا حتى وثب رجلان (اوس بن قيظي) من الأوس و(جبار بن صخر) من الخزرج، فتقاولا وغضب الطرفان وتواثبوا للقتال، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فجاء حتى وعظهم وأصلح بينهم، فسمعوا وأطاعوا له، فأنزل الله في (أوس) و(جبار) ومن كان معهما: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ [آل عمران]، وفي شاس بن قيس: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ...﴾ [آل عمران]، انظر (لُبابُ النقول في أسباب النزول) ص٥٥، رقم: ٢١٤، وانظر: أسباب النزول، للنيسابوري، ص٦٢، ٦٣، وانظر: جامع البيان، للطبري: وأسباب النزول، للواحدي: ٢٣٢. وانظر: الاستيعاب في بيان الأسباب، ج١ ص٢٧٨ ـ ٢٨١، إذ ذكر أربع روايات للقصَّة وصحَّح إحداها.

الفهم المعوج أو التحريف المتعَمَّد ـ وسيلة لترويج التعصب القومي والعِرْقيِّ في الشعب العربي!! بلى والله، وخاصة عندما يكون ذلك الترويج من قبل بعض اليهود والنصارى!!

٢ ـ وأما بالنسبة للتمسك ببعض الأقوال المنسوبة إلى رسول الله ﷺ والتي فيها مَدْحُ مطلق للعرب، بدون التمييز بين مسلمهم وكافرهم، فأكتفي أيضاً بمثال واحد، وهو:

جاءَ في بعض الكتب أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**أحبُّوا العَرَب لثلاثٍ: لأنّي عربي، والقرآن عربي، ولسانَ أهل الجنّة عربي**»!! وقد كفانا مؤنة الردِّ على هذا القول المنسوب إلى نبيّ الإسلام، علماء الحديث، حيث ذكر كل من (إسماعيل العَجْلوني) في كتابه (كَشْفُ الخَفا ومُزيلُ الإلباس عمّا اشتهر من الأحاديث على أَلْسِنة الناس)[١] و(ابن الجوزي) في كتابه (تذكرة الموضوعات)[٢]، و(الألباني) في (سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة)[٣] أن هذا القول لَيْس حديثاً أصلاً، بل هو ممّا وضَعَهُ بعضُ الناس المغرضين على لسان الرسول ﷺ، هذا من جهة السند والرواية، وأما من جهة المعنى والدراية، فلا يمكن أن يكون هذا القول من كلام رسول الله ﷺ، إذْ كيف يأمر نبيُّ الإسلام بحب العرب مطلقاً ـ أي كشعبٍ وبغَضِّ النظر عن إيمانهم وكفرهم ـ وهو كان أشدّ الناس بغضاً وعداوةً لكفار العرب ومشركيهم ومنافقيهم، وقد حاربهم وقاتلهم قبل الشعوب الأخرى، بَلْ قد توفاه الله تعالى وَأَلْحَقَهُ بالملأ الأعلى والرفيق الأعلى، قبل أن يتفرّغ لقتال كفار (العجم) ـ أي غير العرب ـ بسبب انشغاله بقتال كفار العرب!!

واذا قيل بأن المقصود بالعرب، مسلموهم فحسب، فيقال: وكيف يأمر الرسول ﷺ الشعوب الأخرى، بحبِّ الشعب العربي، بدون أن يأمر العرب كذلك بحب المسلمين من الشعوب الأخرى، وقد كان أبعد الناس عن التَعصُّب القومي؟!

---

(١) انظر: ج١، ص٥٥، حيث قال: سنده ضعيف جداً.
(٢) انظر: ج٢ ص٤١، وقال: قال العقيلي: منكر لا أصل له.
(٣) انظر: ج١ ص٢٩٣ ـ ٢٩٨ رقم: ١٦٠، وقال: موضوع.

ب) قياس النفس على الآباء:

وهذا سبب آخر لحصول الغرور في نفوس بعض العرب وتفاخرهم على الشعوب الأخرى، وادّعاء الإمتياز عليهم، حيث ينظرون إلى جيل الصحّابة ﭬ وكانت أغلبيتهم السّاحقة من العرب، فيرونهم في القِمَّة بالنسبة للآخرين، ثم يقيسون أنفسهم عليهم ظانّين أنَّهُ بما أنهم يرتبطون بهم نسبياً ـ وهذا إذا صحَّت تلك الأنساب ـ فهم مثلهم في الرِّفعة والسموّ بالنّسبة لغيرهم، وان لم يحقِّقوا الإيمان والإسلام في أنفسهم! ولكن لا شك أنَّ هذا خطأ فادحٌ، ذلك لأن الصحابة، إنَّما امتازوا على الناس بسبب إيمانهم وتقواهم وجهادهم وإلتزامهم بدين الله، وليس بسبب نسبهم وعرقهم، وإلَّا لكان يجب أن يكون مسلمهم وكافرهم مُمتَازين على غيرهم، لاشتراكهم في العِرْق والنَّسَب! ثم من البديهي أن الإيمان والإسلام شيء اكتسابي يكتسبه كلُّ إنسانٍ في نفسه بنفسه، وليس كالصفات الوراثية التي تنقلها الكروموسومات من الآباء إلى الأَبْناءِ!! وقال تعالى بهذا الصّدد: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾ [البقرة].

أجل إن فضيلة المسلمين الأولين من العرب، ورفعة مقامهم، كانت بسبب الإيمان والتقوى والتجّرد لدين الله، ولهذا دانت لهم الشعوب والبلاد وصاروا لهم أتباعاً وأجناداً، من دون الشعور بالحسد والغيرة والتعصّب، ولكن لما غَيَّر بنو أُمية مسار الحكم الإسلامي والدولة الإسلامية، وحوَّلوه من الشُّورية الإسلامية إلى الوراثة القبلية، وبدل أن يكون الإسلام وأمجاده حديث مجالسهم مثل المسلمين الأوائل، أصبح التعصُّب القبليُّ والتغنِّي بالأمجاد القومية، مدار حديثهم، حينذاك تغيّر موقف الشعوب الأخرى تجاه العرب ـ الذين كانَ تُمثِّلهم الأُسرة الأُموية القبلية ثم الأسرة العباسية ـ إذ شعرت تلك الشعوب أو اضطرتْ أن تشعر بانتماءاتها القومية، وبالتالي قاموا بثورات وثارات إلى أن اجتُثَّتْ الأسرة الأموية الحاكمة في أقل من قرن من الزمان، ونُبِذَتْ نَبْذَ النواة، ولم تكن عاقبة الأُسرة العباسيَّة كذلك بأمثل من سابقتها، إذْ سيطرت عدَّة شعوب مسلمة على مقاليد أمور الدولة بالتناوب وبالتدرّج، إلى أن لم يبق للحاكم العباسي سوى اسم مجرّد من كل سلطة وصلاحية!

ج) التعصَّب القومي:

و(التعصب القومي) هو تفضيل الإنسان قومه وشَعْبه من حيث هو شعب وقوم، على سائر الأقوام والشعوب، كما هو الحال في اليهود الذين يسمّون أنفسهم: (شعب الله المختار) وينظرون إلى الشعوب الأخرى بكثير من الإزدراء والإحتقار! ومن الواضح أن التعصّب القومي والعرقي مذْمومٌ مطلقاً، إذْ هو خلاف النقل والعقل والمصلحة البشرية العليا، والَّتي لا تَتحقَّقُ إلَّا باحترام الشعوب بَعْضها بعضاً، وتعامل بعضها مع بعض على قدم المساواة، وكما خلقهم الله تعالى وأمرهم أن يكونوا، كما قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ الحجرات.

نعم أن البشرية كلّها ترجع إلى أبوين، ثم هي جعلت شعوباً وقبائل لتتحقق حكمة الله البالغة بذلك، وهي ﴿لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ﴾، لِذا فليس لقوم من الأقوام أن يفتخر على باقي الشعوب، ويتبجَّح عليهم ويَّدعي الإمتياز عليهم، من حيث كَوْنُهُ شعْباً، وربّما ما يدفع بعض العرب إلى التعصب القومي، هو:

كون كتاب الله الأخير نزل باللغة العربية، وكون رسول الله الخاتم ﷺ عربياً، ولكن بما أن كلاً من القرآن العظيم، ونبيّ الله الخاتم الكريم ﷺ ينهيان عن التعصُّب، حيث قال تعالى: ﴿...إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ...﴾ [الحجرات].

وقال نبي الله ﷺ: «**لَيْسَ مِنَّا مَنْ دَعَا إِلَى عَصَبِيَّةٍ وَلَيْسَ مِنَّا مَنْ قَاتَلَ عَلَى عَصَبِيَّةٍ وَلَيْسَ مِنَّا مَنْ مَاتَ عَلَى عَصَبِيَّةٍ**» (رَوَاهُ أَبُو دَاوُد برقم: (٥١٢٣) عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ، وَضَعَّفَهُ الألباني في (ضعيف أبي داود) رقم: (١٠٩٥)).

وقال: «**لَيَنْتَهِيَنَّ أَقْوَامٌ يَفْتَخِرُونَ بِآبَائِهِمْ الَّذِينَ مَاتُوا، إِنَّمَا هُمْ فَحْمُ جَهَنَّمَ، أَوْ لَيَكُونُنَّ أَهْوَنَ عَلَى الله مِنْ الْجُعَلِ الَّذِي يُدَهْدِهُ الْخِرَاءَ بِأَنْفِهِ، إِنَّ الله قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَفَخْرَهَا بِالْآبَاءِ، إِنَّمَا هُوَ مُؤْمِنٌ تَقِيٌّ وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ، النَّاسُ كُلُّهُمْ بَنُو آدَمَ، وَآدَمُ خُلِقَ مِنْ تُرَابٍ**» (رَوَاهُ التِّرمِذِيُّ برقم: (٣٩٥٥)، وَحَسَّنَهُ الألباني).

وقال أيضاً: «. . .**لَيسَ لأَحَدٍ عَلَى أَحَدٍ فَضْلٌ إِلَّا بِدِين أَوْ تَقْوَىً أَوْ عَمَلٍ صَالِحٍ. . .**» (رَوَاهُ أَحْمَد برقم: (١٧٣٥١)، تعليق شعيب الأرناؤوط: حَدِيثٌ حَسَنٌ، وَالطَّبَرَانِيُّ في (الكبير) برقم: (٨١٤)، قال المناوي: وإسناد أحمد لا بأس به، وَصَحَّحَهُ الألباني في (السلسلة الصحيحة) رقم: (١٠٣٨)).

وكذلك قال ﷺ لأبي ذر ﷺ: «**انْظُرْ فَإِنَّكَ لَسْتَ بِخَيْرٍ مِنْ أَحْمَرَ وَلَا أَسْوَدَ إِلَّا أَنْ تَفْضُلَهُ بِتَقْوَى الله**» (رَوَاهُ أَحْمَد برقم: (٢١٤٤٥)، وَحَسَّنَهُ كل من الشيخين الألباني وشعيب الأرناؤوط انظر حديث رقم: (١٥٠٥) في صحيح الجامع).

لِذا فمن التناقض العجيب أنْ يفتخر أُناس بشيء، ينهى ذلك الشيءُ نَفْسُهُ أشدَّ النهي عن الإفتخار به، أو أن يكون مَبْعَثَ تَعَصُّبِ أُناسٍ شيء، هو نفسه ينْهى عن التعصُّب! وهذا الصنيع مثله مثل صنيع أتباع بعض الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام) الذين نَهوهم أبلغ النَّهي عن الشرك بالله، وحذّروهم أشدَّ التحذير، كعيسى بن مريم على سبيل المثال، ولكنَّهم ـ أي أَتباعهم المنحرفين ـ جعلوهم شركاء لله تعالى! ثم مِمّا لا شك فيه أن هناك حِكَما كثيرة في اختيار الله الحكيم (محمد بن عبد الله بن عبد المطلب) صلوات الله وسلامه وبركاته عليه وعلى آله أجمعين، ليكون خاتم أنبيائه، ولغة قومه لتكون لغة كتابه الأخير للبشرية، بعضها ـ أي بعض تلك الحِكَم ـ لها ارتباط بشخصية رسول الله ﷺ الفريدة الممتازة، كما قال تعالى مشيراً إلى هذه المسألة: ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ. . .﴾ [الأنعام]، وبعضها مرتبطة بتخلّف العرب الفكري المتمثِّل في أمّيتهم، آنذاك كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ. . .﴾.

والتخلّف الإجتماعي المتمثل في تناحرهم القبلي، كما قال تعالى: ﴿. . . وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا. . .﴾ [آل عمران]، وبعضها مُرتبطة بوضع العرب السياسي، حيث لم يكن لهم كيانٌ سياسي، أو حتى

إطار قومي، يجمعهم شعورياً، إذْ كانوا قبائل متناثرة، وبعضها مرتبطة بالجانب الجغرافي للجزيرة العربية (مهد الإسلام الأول)، حيث لم تكن مطمع أنظار الدول الكبرى آنذاك بسبب قلَّة مواردها، وبعضها مرتبطة بخصائص اللغة العربية التي قلّما توجد في اللُّغات الأخرى، وقد أشار إلى هذا الجانب ربُّنا الحكيمُ في أكثر من آية، كما قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء].

أجل، فاللِّسان العربيُ لِسانٌ مُبينٌ، يمكن أنْ يُعَبَّر به عمّا يرادُ أَدقَّ تعبير وأوْضَحَهُ وأبْيَنَهُ، وهذا كله لا يعني أنه لم تكن في الشعب العربي آنذاك، بجانب نقاط ضُعْفه وسَلْبياته التي أشرنا إلى بَعْضها، نقاط قوة وجوانب مُشْرِقَة، أهَّلَتْهُ ليكون أول جيل للأمة الإسلامية يتقدَّم الأجيال الأخرى من العرب وغيرهم، من شعوب الأرض على صراط الله المستقيم، بلى، كان الشعب العربي آنذاك يتمتع بمزايا وخصال جيِّدة أهَّلَتْه ـ بعد أن خالطتها روح الإيمان والإسلام ـ ليكون حامل مشعل هداية الله للبشرية، كالشجاعة والصبر والجلد والكرم ونقاوة الفطرة بسبب بساطة العيش... إلخ.

ومن الواضح أن لكل شعب من الشعوب المكوّنة للبشرية، في كل دورة من دورات حياته الإجتماعية، خصائص ومزايا جَيِّدة أو رديئة يتميَّز بها من بين الشعوب، ومن المعلوم أن الجوانب السَّلبية الموجودة في الشعب العربي آنذاك، كان لها دور كبير في تجلية وإبراز مدى تأثير الإسلام في تغيير الناس، والأخذ بأيديهم إلى مدارج الرّفعة والسمّو في كل المجالات، إذْ لو أن القرآن نزل في بيئة كالتي كانت في ظل دولة الفارس أو الروم، فَلَرُبَّما عَزى الناسُ الدَّورَ العظيم الذي كان يَلْعَبَهُ، والتأثير الكبير الذي كان يُظْهِرُهُ، إلى الحضارة المادية التي كانت موجودة في الدَّولتين، أمّا وقد نزل في مجتمع لم يكن يملك دولة وكياناً سياسياً وحضارة فَحَسْبُ، بَلْ لم يكن يعرف القراءة والكتابة، إلَّا نادراً! فلا يمكن أن يُعْزى ذلك الإنقلاب الجذري الشامل الذي حدث في ذلك المجتمع المتخلِّف بكل المقاييس، والذي صار فيما بعد أكثر المجتمعات البشرية تقدّماً وسُمُواً ورفعة ورقياً، إلاّ إلى القرآن والإسلام ـ أي: الوحي النازل على خاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام ـ.

كما أنه كان للجوانب الإيجابية والمشرقة فيهم دورٌ وأيُّ دور، في تمكين العرب المسلمين من حَمْلِ رسالة الإسلام، ومشعل الهداية الربانية، إلى شعوب العالم آنذاك.

ومن الواضح أن التعصُّب القومي مذْمُومٌ مطلقاً من أيّ كان، ولكن هنا خصَّصنا المتعصبين من العرب بالذكر، لأن بقية الشعوب المسلمة لا يجدون ذريعة أو شبهة دينية يمكنهم الإستناد إليها ـ بغير الحق ـ لإدعاء الإمتياز والشّرف والإفتخار على غيرهم.

ولكن من البديهيّ أيضاً أنَّ العرب بسبب كون القرآن بلغتهم، وكذلك السنة النبوية، وتمكُّنهم من قرائتهما ودراستهما وفَهمِهما بسهولة، بالنسبة لسائر الشعوب، فَمسؤوليتهم أعظم تجاه دين الله وكتابه ونبيّه ومحاسبتهم أشدُّ، وذلك لأنَّ الله تعالى يُحاسب الناسَ ويُسائلهم حسب نعمه التي أسبغها عليهم، كما قال: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾﴾ [التكاثر].

ومن الجليّ أن كون القرآن عربياً، وكذلك سنة رسول الله ﷺ، نعمة عظيمة من الله عليهم، وسُيسْألون عنها، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الزخرف]، والذِّكر هنا أي: ﴿مُذَكِّرٌ﴾ لأنَّ القرآن يُذكِّر الإنسان بالحقائق التي فُطِرتْ عليها فِطَرتُهُ، من معرفة خالقية الله وربوبيته وألوهيته جلَّ شأنه، وعبودية الإنسان له، وما يترتّب على هاتين الحقيقتين ـ أي ربوبية الله وألوهيته، وعبودية الإنسان له ـ من نتائج.

❋ ❋ ❋

المطلب الثالث
الإغترار بالإنتساب إلى شجرة بَيت النبوَّة

وهذا نوع آخر من أنواع اغترار بعض المسلمين واتِّباعهم الأمانيَّ، أسوة بأهل الكتاب المُنْحَرِفين! إذْ نرى أناساً منتسبين للإسلام في أكثرية الشعوب الإسلامية، يُرجِعون أصلهم النسبيَّ البعيدَ إلى رسول الله ﷺ وأحفاده عن طريق فاطمة رضي الله عنها بنته الزهراء، زوجة علي رضي الله عنه، ثم يَبْنون على انتسابهم ذلك، أشياء ما أنزل الله بها من سلطان، وتتلخص تلك الأشياء في تصوّرهم المعوج بأن الإنتساب إلى رسول الله ﷺ يُعوِّض لهم عن العمل والإلتزام، أو على الأقل يجعل لهم ميزة ودرجة على غيرهم من أهل الإسلام! ولكن من الواضح لمن يعرف أساسيات دين الله القيمِّ، أنَّ مسألة النَّسب لا تقدِّم ولا تؤخرِّ في مجال التديُّن، وهناك عشرات الآيات المباركات التي حسمت هذا الموضوع بوضوح دونه الشمس في الظهيرة، وهذه أمثلة منها:

١ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات]، وهذه الآية المباركة كافية بوحدها إذْ يؤكّدُ الله الحكيم العليم الخبير، ويُعلِنُ بوضوح مُخاطِباً الناس كلهم، بأنهَّم من حيث نَسَبُهُم يعتبرون سواءً، إذْ هُمْ من أبٍ واحدٍ وأم واحدة، والله تعالى هو الذي وَزَّعهم على الشعوب والقبائل المختلفة، من أجل حصول التعارف بينهم، ثم يوضِّح لهم أن المعيار الوحيد عند الله تعالى في التفاضل بين الناس هو التقوى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ يعني: إنما تُنالُ الكرامة عند الله تعالى بتحصيل التقوى فقط، فمن كان لله أتقى، فهو عند الله أكرم وبفضله ورحمته أحظى.

٢ ـ ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الجاثية]، أي: لا ينفعُ الإنسانَ سوى عملِهِ الصالح، ولا يضرُّه سوى عَمَلِهِ الطّالح.

٣ ـ ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ [النجم].

٤ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾﴾ [الطور].

٥ ـ ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ ﴿٢٨٦﴾﴾ [البقرة].

ثم أن في مسألة (أبي لهب) عم النبّي ﷺ، لأعظم العبر والدروس في هذا المجال، حيث أفرَد الله تبارك وتعالى من بين الكفّار المعاصرين المعاندين لرسول الله ﷺ ولكتابه ودينه (أبا لهب) بالذكر، وأنزل سورة خاصة لهذا الغرض، وهي سورة (المسدّ): ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ﴿٥﴾﴾.

وذلك كي يعلم الجميعُ أن دين الله لا يُحابي أحداً، ويتعامل مع الكلّ معاملة واحدة، هذا وقد حسم رسولُ الله ﷺ هذا الموضوع بوضوحٍ تامٍ، حيث قال:

١) «. . .مَنْ بَطَّأَ بهِ عَمَلُهُ لم يُسْرِعْ به نَسَبُهُ» (رَوَاهُ مُسْلِمٌ برقم: (٢٦٩٩)).

٢) **«يَا فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ! يَا صَفِيَّةُ بِنْتَ عَبْدِالْمُطَّلِبِ! يَا بَنِي عَبْدِالْمُطَّلِبِ! لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ الله شَيْئَاً سَلُونِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتُمْ»** (رَوَاهُ مُسْلِمٌ برقم: (٢٠٤)، وَأَحْمَد برقم: (١٠٧٣٦) عَنْ عَائِشَةَ ﵂)، ولا شك أن غير هذا لا يليق بحكمة الله الحكيم وعَدْلِهِ إذْ لو كان للنسب النبوي تأثيرٌ في تحديد مصير الإنسان الأخروي، لكان لغير المنتسبين إلى النبّي ﷺ أن يقولوا: وما ذَنبُنا أن لم نكن نحن أيضاً من قرابة الرسول ﷺ كي ننال بدون تَعَبٍ ما ناله أقرباؤه؟!

ومن الواضح أن الصالحين من أهل البيت النبوي من أهل العلم وغيرهم، ليست عندهم تلك الإدّعاءات والتبجُّحات، بل يعتبرون أنفسهم مسلمين كسائر المسلمين، ويعلمون أنهم لا ينجون بغير عملهم، وأن قربهم

وبعدهم عن رسول الله ﷺ، يحدِّده إيمانُهم وعملُهم الصالح، مثلهم في ذلك مثل سائر الناس.

بل الصالحون من سلالة النبّي ﷺ سَعَوا دَوْماً أن يكونوا سبّاقين لكل ما هو خير، عبادة لربِّهم، ووفاءً لجدِّهم ﷺ، وقد صدق من قال: (الحسنة حَسنة، وفي بيت النبوة أحسن، والسيئة، سيئة وفي بيت النبوة أسوأُ!).

وأختم هذا الموضوع بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [المؤمنون].

نعم، لا ينفع الإنسانَ في الآخرة غيرُ نسب الإيمان والعمل الصّالح، لأنَّ الأنْساب الأخرى والصلات الأخرى، كُلّها تنقطع وتنفصم!

***

المطلب الرابع
الإغترار بالإنتساب إلى أهل العلم، أو أهل التصوّف، أو الجماعات العاملة للإسلام

وهذا أيضاً نوع آخر من اتِّباع الأَمانيِّ، والَّذي يُخدَع به في هذا العصر كثير من أهل الإسلام، فترى بَعْضَهُمْ يتصوّرون خطأً أن مجرّد انتمائهم إلى مذهب أو مدرسة أو حلقة أو إمام من أهل العلم، يُغنيهم عن كثير من العمل، لأن مجرّد الإنتماء خير كبير وشرف عظيم! ولكن هذا غَلَطٌ جسيم، لأن الله تعالى قسَّم أهل العلم الوارثين لكتابه إلى ثلاثة أقسام، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾﴾ [فاطر].

١ ـ ﴿ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾: أي العاصي لربِّه، بسبب عدم التزامه بالعلم الشرعي الذي يحتويه كتاب الله تعالى.

٢ ـ ﴿مُّقْتَصِدٌ﴾: أي متوسِّط الحال الذي لم يتخلَّفْ عن الطاعة، ولكنّه لم يتقدم فيها كثيراً أيضاً.

٣ ـ ﴿سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾: أي المسارع إلى الطاعة بِجدٍّ ونشاط والسابق لغيره في الميدان.

وعليه:

فإذا كان أهل العلم أنفسهم فيهم من حَسَبَهُ الله تعالى (ظالماً لنفسه)، بسبب عدم الإلتزام الجِدِّي بكتاب الله الذي شرَّفه بتعليمه وتوريثه إيّاه، فلا شك أن أَتْباعهم المقصرِّين في الطاعة والإلتزام، أولى وأحْرى بذلك الوصف.

وكذلك ترى بعضَ المسلمين المنتمين إلى إحدى مدارس أو طرق

التزكية والتصوف، يَزْعمون أنَّهم بمجرّد انتمائِهم ذلك أصبح لهم امتياز كبير وفَضْلٌ عظيم، على من عداهم من أهل الإسلام، وانْ كانوا مثلهم أو حتى دونهم في الطاعة والإلتزام بالشريعة! ثم يُمَنُّون أنفسهم بأنَّ الشيخ الفلانيَّ سيشفع لهم عند ربهم يوم القيامة، وسَتُمْحى عنهم جميعُ خطاياهم بسبب انخراطِهم في سلك أتباعه ومُريديه! ولا شك أن للأئمة الحقيقيين والعلماء العاملين والأولياء الصالحين، قدراً وكرامة ومقاماً رفيعاً عند الله، بحسب ما عندهم من الإيمان والتقوى، شرطي الوَلاية، كما قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس]، ورُبَّما سَيُكْرِمُهُم الله تعالى بتشفيعهم في أَتْباعهم، ولكن من هم أَتْباع أولئك الأفاضل؟ أو كُلُّ من ادّعى الإنتساب والإنتماء إليهم وأطلق لقباً معَّيناً على نفسه، يُعَدُّ مِن أَتباعهم؟! كلَّا بلا شك! كيف وحتى رسول الله ﷺ وهو خاتم النبيين وأعظم المرسلين وسيِّدُ الأولين والآخرين، لا يُسْمَحُ له يوم القيامة أن يشفع لمجموعة من أَتباعه من المنحرفين والذين يُذادون عن حوضه، أنْ يشربوا منه، كما تذادُ غرائب الإبل، ثم لما يريد الدفاع عنهم ويقول: «**يا رب أصحابي!**» يقول الله تعالى له: (إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك!)[1].

وهذا كله عندما يكون ذلك الشيخ المتبوع صالحاً، ومنهاجُهُ الذي يسير عليه ويرشدُ الناس على أساسه موافقاً لسنة رسول الله ﷺ، ولكن عندما يكون الشيخ وطريقته بخلاف ذلك، فذلك شأن آخر وله حكم آخر، إذ لا يجوز للمسلم أن يُسلِمَ قيادَهُ إلَّا لمن يطمَئِنُّ اليه أنه يسير به على جادة الشريعة، وطريقة النبيِّ الخاتم ﷺ، وإلَّا فيكون من الخاسرين الذين يقولون يوم القيامة: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾ [الأحزاب].

(١) عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه عن النبّي ﷺ قال: «**أنا فرطكم على الحوض ولَيُرْفَعَنَّ رجال منكم ثم لَيُختَلجن، فأقول: يا رب أصحابي؟ فيقال: إنك لا تدري ما احدثوا بعدك**». انظر: صحيح البخاري: ٦٥٧٦. وفي الحديث: ٦٥٩٣: «(... **فأقول: يا رب، مِنّي ومن أُمَتي**»، فيقال: هل شعرت ما عملوا بعدك...)؟!

وسنتحدَّث عن مسألة تزكية النفس والمدارس التزكويَّة والطرق الصوفية، في الفصل الأول من الباب الثالث (أي الكتاب التاسع) بتوفيق الله.

وكذلك ترى بعض المنتمين إلى التنظيمات والحركات والجماعات العاملة للإسلام، يَحْسَبون أن مجرَّد ذلك الإنتماء، يجعل لهم شأناً خاصاً، ويعطيهم درجة وامتيازاً على غيرهم من أهل الإسلام، وان كانوا مثلهم أو حتى دونهم في الطاعة والإلتزام! ولكن هذا أيضاً من تلبيسات إبلس اللَّعين، ثم لا شك أن المسلم الذي يعمل للإسلام، ويجاهد في سبيل الله بما يَتطَلَّبُهُ وضع المسلمين في المجتمع الذي هو فيه، أعظم درجة وأجراً من الذي يقعد في بيته مُرتاحاً ولا يحرِّك ساكناً، بل قد يكون في بعض الأحوال تخَلُّفُ وقعودُ المسلمين وتشرذمهم، وعدم انتظامهم في سلك عملٍ إسلامي جهادي منظَّم، يَسْعى لإعزاز المسلمين وإعادة حكم الله وشرعه إلى واقع الحياة: ذنباً عظيماً، يجرُّ لهم أوْخَمَ العواقب في الدنيا وأشدَّ العذاب في الأخرى، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [التوبة].

وقال رسول الله ﷺ: «**مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ، وَلَمْ يُحَدِّثْ نَفْسَهُ بِهِ، مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنْ نِفَاقٍ**» (رَوَاهُ أَحْمَد برقم: (٨٨٥٢) مُسْلِمٌ برقم: (١٩١٠) عَنْ أَبِي هُرَيرَة ﷺ)، ويكفي دليلاً على سوء حال المتخلِّفين عن العمل للإسلام في سبيل الله، في الدنيا والآخرة، أن التخلّف في ذلك المجال كان دَيْدَنَ المنافقين ومرضى القلوب، والأعراب المتظاهرين بالإسلام، وسِمَتَهُمُ البارزة في عهد رسول الله ﷺ والمجتمع الإسلامي الأول، كما هو واضح في كلٍّ من: سورة (آل عمران) و(التوبة) و(الأحزاب) و(محمد) و(الفتح) و(الحجرات)!

وسنتحدَّث عن الجهاد في سبيل الله تعالى، في المطلب العاشر من المبحث الثاني من الفصل الثالث من الباب الثالث ـ أي في الكتاب الحادي عشر من هذه الموسوعة ـ بإذن الله تعالى.

أجَلْ إنَّ شأن العمل للإسلام والإهتمام بالمسلمين، وخاصة في مثل أوضاعنا المأساوية الحالية، عظيمٌ جِداً، كيف وقد قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ أَصبحَ وهَمُّهُ غير الله فَلَيْسَ مِنَ الله، وَمَنْ أَصبحَ لا يَهْتَمُّ بالمُسْلِمِينَ فَلَيْسَ مِنْهُمْ**» (رَوَاهُ الحَاكِمُ عن ابن مسعود ﷺ ورمز السيوطي لصحته، ولكن حسبما قال المناوي ضعَّفَه الذهبي، انظر (فيض القدير): (٨٤٥٣)، وَضَعَّفَهُ الألباني في (ضعيف الجامع) رقم: (٥٤٢٩))، ولكن هذا كلُّه لا يعني أن مجرَّد الإنتماء إلى تنظيم أو حزبٍ إسلامي، يجعل للمرء فضيلة وامتيازاً على غيره، كلَّا، لأن الإنتماء وسيلةٌ ولَيْس هدفاً في حدِّ ذاته، بل هو وسيلة للقيام من خلال ذلك الإطار وتحت ذلك العنوان، بالعمل والسّعي والجهاد والكدح لتحقيق المقاصد الشرعية التي أَلْزَم الله المسلمين بتحقيقها، ولهذا ينبغي للمنتمين إلى فصائل العمل الإسلامي وقنواته وتنظيماته، أن يَبْذلوا قُصَارى جُهدهم لتحقيق الإيمان والإسلام والطاعة والتقوى وتزكية النفس والخلق الحسن... إلخ في أنفسهم، على أتمِّ ما يكون، وذلك كي يكونوا مرايا صافية لتجلية وجه دين الله المشرق الوضّاء، ويكونوا دعاة لدين الله الحق بأحوالهم وأعمالهم، قَبْل أقوالهم، وبالنتيجة إضافةً إلى نيل رضا الله وثوابه الأخروي، يكونوا كَسْباً ونقاط قوة في التنظيمات والجماعات التي ينتمون إليها، ويعملون تحت عناوينها، لا أن يكونوا ضرراً ووبالاً عليها، ونقاط ضَعْفٍ فيها.

٩) الردُّ على النّصارى الزّاعمين أنَّ عيسى عليه السلام له حَظٌّ في الألوهية مع الله، وأنَّه ابنْ الله! تعالى الله عمّا يقول الجاهلون علواً كبيراً:

وهذا ما تضمَّنته كل من الآية (١٧) من سورة (المائدة) والآيتان (١٧٢ و١٧٣) من سورة (النساء).

وتتضَّمن آية سورة (المائدة) ما يلي فيما نحن بِصَدَد بحثه:

١ ـ وَصْمُ النصّارى بالكفر من جرّاءِ ادّعائهم أنّ عيسى هو الله:

كما قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾، وإنّما ادَّعى النصارى هذه الدّعوى الباطلة المخالفة لكل الشرائع الرّبانية ودعوة كل الأنبياء، والمخالفة للعقل والواقع والفطرة، على أساس

أن عيسى طالما أنّه ولِدَ مِنْ أم (مريم) فقط بغير أب، إذاً: فالله هو أبوه!!
وأنا لا أعتقد أنه توجد فكرة أضلّ وأسخف وأشدَّ مناقَضةً للعقل والعلم والمنطق والفطرة، من فكرة النّصارى هذه!

وجديرٌ بالذكر أنَّ النَّصارى، وعلاوةً على عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ قد أضافوا كذلك روح القدس كإلهٍ آخر إلى الله تعالى، ومنْ ثَمَّ فالله تعالى عندهم مكوَّنٌ من ثلاثة أجزاء:

١) الله تعالى نفسه (الأب).

٢) عيسى ٱبن مريم (الإبن).

٣) روح القدس.

كما قال تعالى بهذا الصَّدد: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ...﴾ [المائدة]، ويُسمِّي النّصرانيون الأَجزاء الثلاثة المُركبِّة لله، بزعمهم ـ تعالى الله عما يقولون ـ بالأقانيم، فيقولون: (الأقانيم الثلاثة)، وهي: (أُقنوم الأب، وأُقنوم الإبن، وأقُنوم روح القُدُس)!.

وهم يقرُّون بأنَّ هذه الفكرة الثالوثية لا تنسجم مع العقل، والعقل لا يستوعبها، ولكن يجب الإيمان بها، على رغم أنف العقلِ!!

ولا شك أن هذا التعامل مع العقل يُمثِّلُ قِمَّةَ الإهانة له، إذْ ما مَعْنى أنْ يَرْفض العَقلُ شيئاً، ولكن يُجْبَرُ عليه ويُخْضَعُ له! ومعلوم لكلٍّ من عنده شيءٌ من المعرفة أن تلك الفكرة الثالوثية والّتي تعتبر لُبَّ النّصرانية المحرَّفة وجوهرها، ما أنزل الله بها من سُلطان، إذْ لم يخاطب الله تعالى الحكيمُ العليمُ البشَرَ قطّ، ولم يكَلِّفهُم بما يُضادُّ عقولَهم وفِطَرَهم، كيف والعقل هو أساس التكليف الشرعي!! ومن الواضح أنَّ إحدى بديهيات العقل هي (استحالة التناقض)، وكون الشيء واحداً وثلاثاً في نفس الوقت، تناقض صارِخٌ واضِحٌ، يرفُضُه العقلُ السّليم.

ثم إنَّ ما يستدلّ به النصّارى على ادّعائهم المتهافت، وهو: طالما أنَّ

عيْسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَيْس له أبُ بشري، إذاً: فأبوه هو الله، قول فارغٌ، لأنَّه بناءً عليه يجِبُ أن يكون الله تعالى أباً لآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ أيضاً، وكذلك لحوّاء عَلَيْهَا السَّلَامُ، إذْ كلاهما ليس لَهُ أبٌ من البشر، بَلْ وأكثر منْ ذلك لَيْسَتْ لهما أم كذلك!!

ولهذا استدلّ الله تبارك وتعالى بكيفية خلْقه لآدم، على أن عيْسى عَلَيْهِ السَّلَامُ كذلك مخلوق مثله سواءً بسواء، حيث قال: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ [آل عمران].

٢ ـ الردُّ على النَّصارى بتوجيه تساؤل مفُحِمْ حول: مَنْ بيده الحياة والموت سوى الله تعالى؟!

كما قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًاۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَاۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾ [المائدة].

أي: إن الله تعالى هو المحي والمميت، فهو الذي خلق عيسى وأمَّه عَلَيْهِمَا السَّلَامُ وكل من في الأرض، وهو الذِي يميتهم كذلك، لذا فهو هو وحده الرب والإله، وأنَّى لِمَنْ لا يملك شيئاً من أمر حياته وموته، أن يكون ربّاً وإلهاً! إذْ: ما الفرق بين الربِّ والعبد، وبين الإله والعابِدِ لَهُ حينذاك؟!

٣ ـ والردُّ عليهم بالتذكير بمالكية الله للسموات والأرض وما بينهما:

كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَاۚ...﴾ ولا يستطيع عاقلٌ أنْ ينسِبَ ملكيَّة السَّموات والأرض وما يقع بينهما لغير الله، فهو وحده الربُّ والإله، وكل مَنْ سواه مربوبٌ له ومملوكٌ، عيْسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وغيره!!

٤ ـ الردُّ عليهم بالتذكير بخالقية الله سُبحانه وتعالى:

كما قال جلّ شأنه: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ...﴾، ومن ضمْن مخلوقاته عيْسى عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي خلقه في بطن أمه مريم رَضِيَ اللهُ عَنْهَا عن طريق (جبريل) عَلَيْهِ السَّلَامُ

الذي نفخ فيها (روح) ابنها عيْسى ـ نفخ جبريل في جيب قميصها ودخلت روح عيْسى رحمها ـ، وعليه: فالخالق جلّ شأنه هو وحده الربُّ والإله، وقد ذكر سبحانه قصة كيفية تمثّل جبريل عليه السلام لمريم رضي الله عنها وإخباره إياها أن الله تعالى إنَّما أرسله اليها لِيَهَبَ لَها غلاماً زكياً بإذن الله، في سورة (مريم) الآيات: (١٦ إلى ٢٢).

٥ ـ الردُّ عليهم بِأن الله تعالى قادر على كل شيء، ولكن المخلوقين لَيْسوا كذلك:

كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾، ولكن عيْسى عليه السلام لم يستطع حتى إنقاذ نفسه، بَلْ رفعه الله إلى السماء، كما قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ...﴾ [آل عمران: ٥٥].

هذا حسب عقيدة المسلمين، وهذا هو الصحيح الذي لا ريب فيه، وحسب عقيدةِ النصارى الضالَّة فإنَّ عيْسى أُعْدِمَ وعُلِّق على المشنقة بالرغم من صياحِهِ واستغاثته بالله تعالى قائلاً: (إلهي لماذا تركتني؟!) كما جاء في الأناجيل[1]! وهذا القول إضافة إلى كونه كفراً، إذ الإعتراض على الله، وتوجيه اللّوم والعتاب اليه كفر وأيُّ كفر! فهو على أساس قاعدة (أُدينُك مِنْ فَمِك) أكبر دليل على النصارى، إذْ فيه إقرارٌ من عيْسى بأنه كان عاجزاً لا يمكنُهُ إنقاذ نفسه من المِشْنَقة، فاستغاث بالله.

فأي ربوبية وألوهية إذن لِمَنْ تَقْهرُهُ مجموعة من الجُنُود الرومانيين ويُعلِّقونه على الصَّليب، ثم لا يملك غير الصّياح والإستغاثة والعتاب؟!!

(١) كما جاء في (انجيل متَّي) و(انجيل مَرْقُس) ص١١٠ و١٨٨ من كتاب (التفسير التطبيقي للعهد الجديد)، ط١٩٩٦. والعبارة العبرية هي: (ايلي ايلي لما شبقتني) أو (أَلوي أَلوي لما شبقتني) كما في الإنجيلين، هذا وسنبحث موضوع التحريفات التي أَدخلها اليهود والنصارى في التوراة والإنجيل، في الفصل الرابع من الباب الثاني ـ أي الكتاب الخامس من هذه الموسوعة ـ بإذن الله، عند الحديث عن كتب الله تعالى.

هذا بالنسبة للآية (١٧) من سورة (المائدة)، ونأخذ من الآيتيْن (١٧٢و ١٧٣) من سورة (النساء)، ما يلي فيما نحن بصدد البحث فيه:

١ ـ أنَّ عيْسى ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ والملائكة المقرَّبون، لا يَسْتنكِفون عن عبادة الله: كما قال تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾﴾ [النساء].

وقد جاءت هذه الجملة في سياق يتحدَّث عن نفي بُنُوَّةِ عيْسى لله تعالى، حيث يقول تعالى في الآية: ﴿...يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾﴾ [النساء]. حيث يعرِّفُ سبحانه عيْسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بثلاثة أشياء، حاصِراً عيْسى فيها، وهي:

أ ـ رسول الله.

ب ـ وكلمته ألقاها إلى مريم (أي إنَّ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ خلقه الله تعالى بأمْرٍ منه مباشرة من غير أب).

ج ـ وروح منه.

ثم يخاطب الله أهل الكتاب (أي: النصارى) ويأمرهم أن يؤمنوا بالله ورسله ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ﴾، وهذا يَدلُّ على أن أهل الكتاب ليس عندهم إيمانٌ صحيح يستحق اسم الإيمان، لا بالله ولا بِرُسُله (عليهم الصلاة والسلام)، ثم ينهاهم عن قولهم المتهافت بالنِّسبة لله تعالى، وأنه مُرَكَّبٌ من ثلاثة أقانيم: ﴿...وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ...﴾.

ثم يبيِّن لهم سبحانه أن الله تعالى إلهٌ واحدٌ أحدٌ، ولا يمكن أن يكون له ولَدٌ: ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ﴾، ثم يُوضِّحُ لهم

مالكيته لكل ما في السمٰوات والأرض، وأنَّه وكيلٌ على كل الخلق: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾﴾ [النساء].

في مثل هذا السياق يُعْلِنُ ربُّ العزَّة جلَّ وعلا، أَنَّ عيْسى والملائكة المقرَّبون لا يأنفون عن عبادة الله تعالى ولا يترفَّعون عَنها، كيف والكل عبيدٌ مربوبون لله، وعِزُّهم في عبوديتهم لربِّهم العزيز الحكيم سبحانه وتعالى...!

٢ ـ سيجمع الله تعالى يوم الحشر كلَّ عبيده، سواء المستنكفين المستكبرين منهم، أو العابدين الصالحين: كما قال: ﴿...لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾﴾ [النساء].

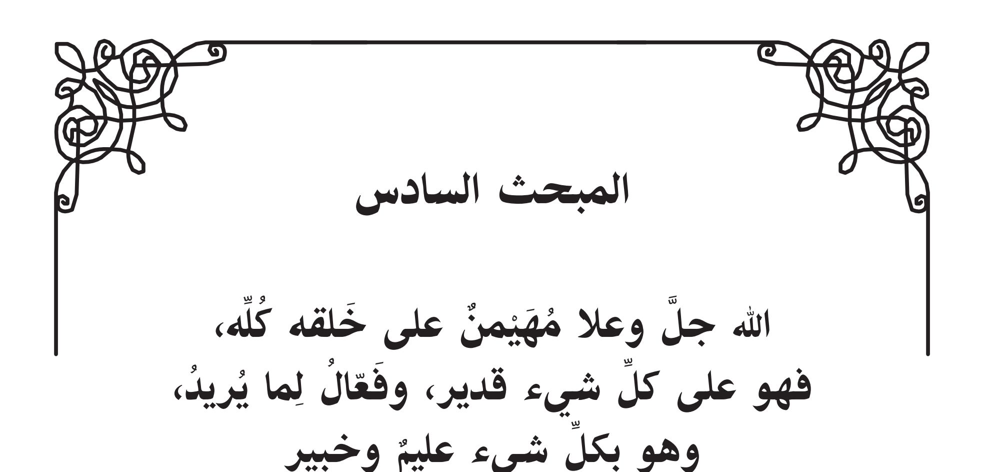
٣ ـ ثم يَجزي الله تعالى أهل الإيمان والعمل الصالح أحسن الجزاء، مُوفِّياً لهم أجورهم، زائداً لهم من فضله فوق ما يستحقونه حسب أعمالهم، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ...﴾ [النساء: ١٧٣].

٤ ـ كما وسيُعذِّب المستنكفين المستكبرين عن عبادته، عذاباً أليماً ثم لا ينصرهم أحدٌ من دون الله، ولا يتولَّاهم: كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾﴾ [النساء].

وفي ختام هذا المبحث الخامس، أقول:

لقد تبيَّن لنا من خلال ما مَّرَ معنا من آيات كتاب الله الحكيم، أنه حقاً ليستْ لمخلوقٍ أَيَّةُ نسبة مع الله تبارك وتعالى، سوى نسبة المخلوقية، كما أنه ليست لِعَبْدٍ من الملائكة والجنّ والإنس، نسبةٌ إلى الله الربّ الإله سوى نسبة العبودية، فكلُّ ما سواه مخلوق له، وكل مَنْ سواه عَبْدٌ له، تعالى جِدُّهُ، وتبارك اسمه، ولا إله غيره.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑



المبحث السادس

اللهُ جلَّ وعلا مُهَيْمنٌ على خَلقه كُلِّه، فهو على كلِّ شيء قدير، وفَعّالُ لِما يُريدُ، وهو بكلِّ شيء عليمٌ وخبير

وقد تجلَّتْ هذه الحقيقة في كتاب الله الحكيم في كثير من آياته المباركة، وهذه أمثلة منها:

١ ـ ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾﴾ [آل عمران].

٢ ـ ﴿...خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾﴾ [هود].

٣ ـ ﴿...أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾﴾ [فاطر].

٤ ـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾﴾ [فاطر].

٥ ـ ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾ [يونس].

ونقتبس من أنوار هذه الآيات المباركات فيما يَخُصُّ موضوعَنا، الحقائق الآتية:

١) الله تبارك وتعالى هو وحده المالك المطلق لكل ما في السمٰوات والأرض، وهو المهيمن القدير على كلّ شيء:

وهذا ما صرَّحت به آيات كثيرة، منها الآية (١٨٩) من (آل عمران).

٢) والله تعالى لا يسْتعصي عليه فِعْلُ أي شيء يُريده، إذ هو الخالق لكلِّ شيء أراده أو يريده:

وهذا مصرَّحٌ به في الآية (١٠٨) من (هود)، وفي آيات أخرى، منها الآية (٤٠) من (النحل): ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾.

والله سبحانه وتعالى بما أن إرادته مطلقة لا يُقَيِّدُها شيء إلا عِلمُهُ وحكمته، وله القدرة المطلقة والعلم المحيط، لِذا لا يستعصي عليه فِعْلُ شيءٍ ما، بَلْ ولا يصعب عليه أيضاً، كما قال: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾﴾ [لقمان]، وقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾ [ق].

٣) والله تعالى شأنه لا يُعجزهُ شيء في السمٰوات والأرض، ولا مَهْربَ ولا مَنْجىٰ من قبضة قدرته المطلقة، أبداً:

وهذا ما بيَّنته الآية (٤٤) من (فاطر)، وكما قالت الجنّ: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾﴾ [الجن]، وكيف يُعْجِزُ المخلوقُ خالِقَه أم كيف يفوتُهُ، والى أين يهرب منه، وأين يختفي منه؟!

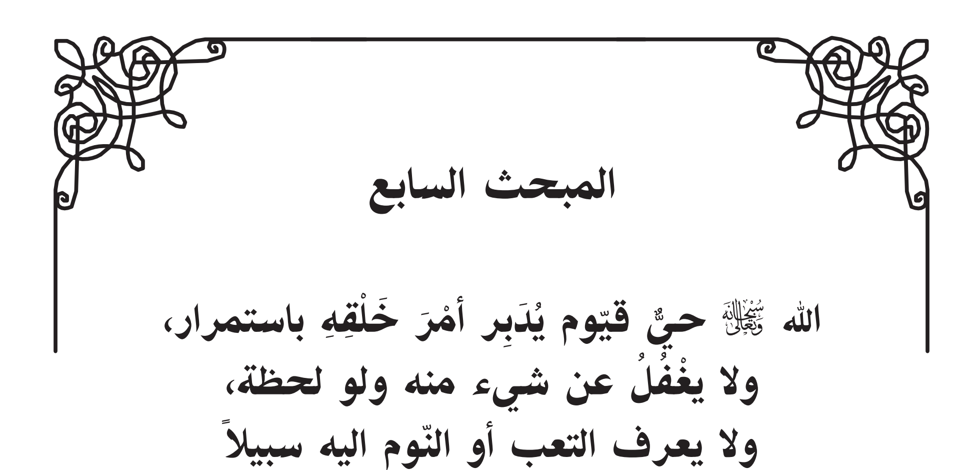
٤) والله وحده يعلم غَيْبَ السَّموات والأرض وأسرارها، حتى نيات القلوب وخواطرها المكتومة:

وهذا أيضاً بيَّنَتْهُ آيات كريمات كثيرة، منها الآية (٣٨) من (فاطر)، وقد خَصَّ الله سبحانه نفسه بعلم الغيب، فلا يطَّلعُ عليه أحَدٌ غيره، كما قال: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾﴾

[النمل]، والطريق الوحيد الذي يمكن للبشر أنْ يطَّلعوا مِنْهُ على الغَيب هو الوحي، كما قال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ﴿٢٧﴾﴾ [الجن]، وبناءً عليه: فكلّ مَنْ يدَّعي معرفة شيء من الغَيْب من العرّافين والكهّان ومراقبي أبراج القمر وأحوال النجوم... إلخ. كذّابون بلا استثناء.

٥) والله سبحانه وتعالى يُراقِبُ أحوالَ البشر جميعهم لحظة بلحظة، سواء منْ يقرأ القرآن، أو مَنْ يزاول أيَّ عمل آخر، فهو سُبحانه يَراه بنفسه مباشرة بالإضافة إلى مراقبة الملائكة، وقد أحصى الله تعالى كل مخلوقاته، الذرّات وما دونها وما فوقها، وسجَّل كلَّ شيء في مخلوقٍ سمّاهُ الله تعالى بـ﴿إِمَامٖ مُّبِينٖ﴾ أو ﴿كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ أو ﴿لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ﴾: وهذا ما بيَّنته الآية (٦١) من (يونس) وكلمة ﴿كِتَٰبٖ مُّبِينٍ﴾ وردت فيها، كما أن كلمة ﴿إِمَامٖ مُّبِينٖ﴾ وردت في الآية (١٢) من (يس)، وكلمة ﴿لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ﴾ في الآية (٢٢) من (البروج).





المبحث السابع

الله ﷻ حيٌّ قيّوم يُدَبِر أمْرَ خَلْقِهِ باستمرار، ولا يغْفُلُ عن شيء منه ولو لحظة، ولا يعرف التعب أو النّوم اليه سبيلاً

وهذه بعض آيات الله المباركات بهذا الصدد:

١ ـ ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ . . . ﴿٢٥٥﴾﴾ [البقرة].

٢ ـ ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾﴾ [المؤمنون].

٣ ـ ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الرحمٰن].

٤ ـ ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾ [ق].

٥ ـ ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ [البقرة].

وتَهبُنا هذه الآيات البَيِّنات، جملةً من الحقائق في موضوعنا الذي نحن بصدده، منها:ـ

١) الله تبارك وتعالى هو وحده المتفرِّد بالألوهية، وهو حي حياةً مطلقة كاملة ذاتية، وقيُّوم لغيره ومدبِّر لشؤونه، وغيره هو المخلوقات قاطبة، وهو مُنَزَّهٌ عن النوم وعمّا هو دونه:

وهذا ما بَيَّنَتْهُ الآية (٢٥٥) من (البقرة) في بدايتها، و﴿ٱلْقَيُّومُ﴾ صيغةٌ المبالغة من (القائم)، و(قام بالأمر)، أي: دبّره وأداره[١]، فقوله تعالى: ﴿ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ يعني: أنَّ الله تعالى قائِمٌ بنفسه، لأنه حيّ حياة مطلقة حقيقية ذاتية، ومُدَبِّر لأمور خلقه وقائم عليها، والنوم معروف والـ(سِنَة) هي مقدِّمَة النوم، أي النُّعاس الذي يعتري الإنسان قبل استغراقه في النوم[٢]، والمخلوقات المادية الحيَّة انما تحتاج النوم بسبب ما يعتريها من التعب، تجديداً للنشاط وطلباً للراحة، والله سبحانه وتعالى بعيدٌ عن التعب، وغنيٌّ عن الراحة التي يَجْلِبُها النوم.

٢) والله سبحانه وتعالى دائم التدبير لخلقه، لا يغفل عن شيء منه ولو لحظةً:

كما بينته الآية (١٧) من سورة (المؤمنين) والمقصود بالطرائق السبع هو السمٰوات السَبع، والطرائق جمع طريقة[٣]، كما أن الطُّرُقَ جمع طريق، وهذا إشارة إلى أن السمٰوات فيها الطرق، كما قال تعالى في الآيتيْن (٧و٨) من سورة الذاريات: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ۝٧ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝٨﴾، والحبُك جمع (حبيكة) وهي أيضاً بمعنى الطريق[٤].

٣) والله تعالى يتوجه اليه بالطلب والدعاء، كلُّ المخلوقات ذوات الشعور في السمٰوات والأرض، وهو دائم التدبير لأمور خلقه، ومستمرٌ في القيام بتسيير شؤونه:

---

(١) المعجم الوسيط، ٧٦٧.
(٢) المعجم الوسيط، ١٠٣٣.
(٣) الطريقة: الطريق والسيرة والمذهب، جمعها: طرائق، والطرائق: الطبقات بعضها فوق بعض، المعجم الوسيط، ص٥٥٦.
(٤) المصدر السابق، ص١٥٣

وهذا مبيَّن في الآية (٢٩) من (الرحمٰن).

والله تعالى وهّاب كريم لا يَرُدُّ سائلاً خائباً، ولكن يجيبهم بما شاء ومتى شاء، وهو الحكيم العليم.

وكلمة (اليوم) في اللغة العربية تعني مطلق الزمان، أو مدة منه[١]، وكلمة (شأن) هنا يقصد بها التدبير الذي يقوم به رَبُّ العالمين في تسيير أمور خلقه[٢]، وعليه: فمعنى قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾ أي: هو سبحانه دائم التدبير لخلقه ومستمرُّ الإِشراف على شؤونه، وهذا تكذيبٌ لزعم بعض الفلاسفة الذين كانوا يقولون: ان الله تعالى خلق الخلق ثم تركه وشأنه، بل الخلق مثل دولاب مُتَحرِّكٍ فحرَّكه الله وتركه! ومما لا شك فيه أن شعور الإنسان بأن الله تعالى معه باستمرار، يراه ويسمعه ويرعاه ويتولاه، يعطي إيمانَهُ بالله حيويةً وقوةً ويزيدُ ارتباطَه به شدةً ووثاقةً.

٤) الله تبارك وتعالى خلق السمٰوات والأرض بدون أن يَتْعَب، بَلْ أنْ يَمسَّه مُجَرَّد المَسِّ:

وهذا واضح في ضوء نور الآية (٣٨) من سورة (ق)، حيث ينفي جلَّ وعلا أن يكون قد مسَّه (لغوب) من جراء خلق السمٰوات والأرض في ستة أيام، واللغوب هو التعب والفتور[٣]، وكذلك قال تعالى في نفس الموضوع: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾ [الأحقاف]، والإِعياء أيضاً هو التَّعَبُ، أو هو قريب منه[٤].

٥) الله جل في علاه هو وحده ملك ومالك السمٰوات والأرض وما

(١) المصباح المنير، للفيومي، ص٣٥٢.
(٢) المعجم الوسيط، ص٤٦٩.
(٣) المصدر السابق، ص٨٣٠.
(٤) المصدر السابق، ص٦٤٢.

فيهما ومَنْ فيهما، يُدبّر الكلَّ ويحفظه ويرعاه، من دون أن يتطرق اليه العجز أو التعب، وهو عليٌّ علواً مطلقاً، وعظيمٌ عظمة لائقةً به:

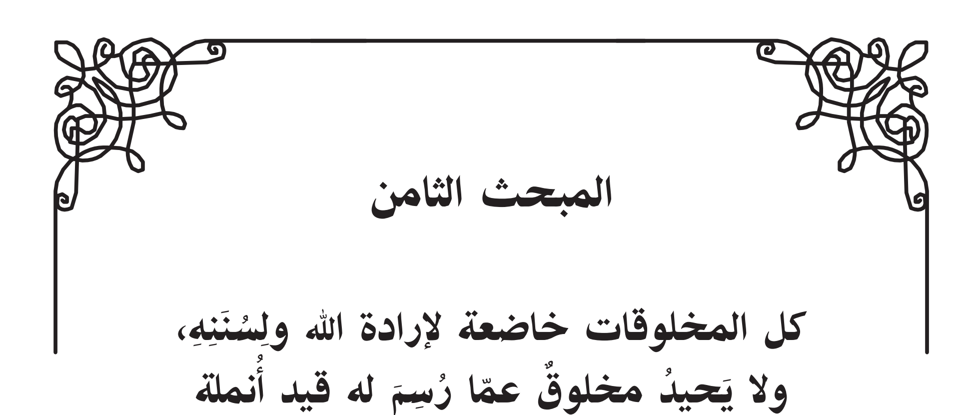
كما قال تعالى في نهاية الآية (٢٥٥) والمعروفة بآية الكرسي... ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ [البقرة].

والمقصود بكلمة الكرسيّ هنا، هو: هيمنة الله تعالى وولايته وتدبيره الشامل للخلق كُلِّه، و(آدَهُ يؤده) أي ثَقُل عليه وأتْعَبَهُ[1]، فقوله تعالى: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَاۚ﴾ أي: لا يَثْقُل عليه ولا يُتْعِبُهُ حِفْظُ السمٰوات والأرض وساكنيهما.

وكل من العلوِّ والعظمة المطلقين مُخْتَصّان به سبحانه، وعُلوُّهُ وعَظَمَتُهُ من صفاته التي هي لائقة به، وليسا من جنس ما يوصف به المخلوقات، لأن الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ﴾ في ذاته وأسمائه وصفاته وجميع شؤونه.



(١) المصدر السابق، ص٣٢.



المبحث الثامن

كل المخلوقات خاضعة لإرادة الله ولِسُنَنِهِ، ولا يَحيدُ مخلوقٌ عمّا رُسِمَ له قيد أُنملة

وقد تجلَّت هذه الحقيقة في كثير من آيات الله البينات في كتابه المبارك وهذه أمثلة منها:

١ ـ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ۩ ﴿٥٠﴾﴾ [النحل].

٢ ـ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ۩ ﴿١٨﴾﴾ [الحج].

٣ ـ ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [آل عمران].

٤ ـ ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يس].

ونقتبس من أنوار هذه الآيات المباركات، أضواء الحقائق الآتية:

(١) يسجد لله تعالى كل الموجودات المادية ذات الظلّ، غير ذات الشعور، وكل ملائكة السَّماء، وكل دوابّ الأرض:

وهذا ما صرّحت به الآيات (٤٨، ٤٩، ٥٠) من سورة النحل:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَـٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾﴾.

أما سجود الموجودات المادية غير ذات الشعور ـ أي: الجمادات والنباتات ـ، فيتمثَّلُ في تَفَيُّؤ ظلالها يميناً ويساراً، يميناً عند طلوع الشمس إلى قُبيل بلوغها كبد السَماء، ويساراً بعد زوالها عن وسط السماء إلى الغروب.

والتفيُؤ هو حَرَكَةُ الفَيءِ والظلِّ تبعاً لحركة الشمس.

أما سجود الدواب ـ أي الحيوانات كلِّها ـ فيتمثَّل (على ما أرى) في تقيُّدها التام بتلك السنن التي وضعها الله تعالى لها ـ أي الغرائز ـ إذْ لا يَحِيدُ حيوان عمَّا تُمليه عليه غريزته.

وسجود الملائكة ظاهرٌ، إذْ قد ذكر سبحانه الطاعة المطلقة للملائكة تجاه ربهم، في أكثر من آية، منها آية (٢٠٦) من الأعراف ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾.

وانما استثنينا الإنس والجنّ من مفهوم كلمة (مِنْ دابّة) هنا، وانْ كان شامِلاً لهما في الأصل، لأن الله تعالى عَمَّمَ السجودَ على الدّواب، ومن الواضح أنَّ الإنس والجنّ فيهم الكفار الذين لا يسجدون لله تعالى! فهم ليسوا مقصودين في الآية، ودليل آخر على أن مفهوم الآية مُنْحَصِرٌ في الحيوانات وغير شامل لغيرها، هو أن الله تعالى في الآية (١٨) من سورة (الحج) وفي معرض الحديث عن خضوع الموجودات كلّها لله تعالى، وسجودها له، قسّم الناس إلى قسمين:

ساجد لله، وغير ساجد، كما سنذكر بعد قليل، والمقصود في هذه الآيات ـ حسبما أرى ـ هو ان الله تبارك وتعالى يُبيّن للنّاس أن المخلوقات كُلَّها تخضع لله وتسجد كل حسب طريقته التي تليق به، فالجمادات والنباتات من خلال ظلالها المتحركة على الأرض، حسب سنن الله الجارية، والحيوانات من خلال تقيُّدها بغرائزها، والملائكة بأداء مختلف الطاعة والوظائف المحدَّدة لها.

ومن الجلِّي أن في عرض هذه الحقيقة، توبيخٌ وأيُّ توبيخٍ للكافرين الرافضين لطاعة الله تعالى، إذْ تقولُ لهم هذه الحقيقة:

إنكم إذْ لم تتشبَّهوا بالملائكة الطّاهرين في عبادتهم لله تعالى، فقد أنزلتم أنفسكم إلى أسفل سافلين وأحطِّ الدركات، لأنَّه لا يوجد مخلوق في السمٰوات والأرض، لا يخضع لله ولا يسجد له بَدْءاً بالجمادات والنباتات ومروراً بالحيوانات، وعروجاً إلى الملائكة!

أجل فطالما كل الموجودات تخضع لله وتسجد من أدْناها إلى أعلاها، ينبغي للإنسان ألَّا يكون شاذاً من قاعدة المخلوقات، وصوتاً نشازاً في ذلك الكورس[1] الذي كلُّه يُرَجِّع نشيد العبودية لله، والخضوع له بصوتٍ واحدٍ!

(٢) يسجد لله تبارك وتعالى كل الملائكة المتواجدين في السمٰوات والأرض، والشمس والقمر والنّجوم، والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس، ولكن كثيراً منهم كذلك لا يسجدون:

وهذا مصَّرحٌ به في الآية (١٨) منْ سورة (الحج) حيْث عدّد الله تعالى المخلوقات الساجدة له في تسع نقاط، هي:

١) منْ في السّموات.

٢) منْ في الأرض.

٣) الشمسُ.

(١) الكورس: مجموعة من المنشدين.

٤) القمر.

٥) النجوم.

٦) الجبال.

٧) الشجر.

٨) الدّواب.

٩) كثيرٌ من الناس (أي قسم منهم)، والظّاهر أن المقصود بـ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ هم الملائكة، لأن كلمة ﴿مَن﴾ تُسْتَعْمَل لذوي العقول والشعور، ولأنَّ الناس والدوابّ مذكوران فيما بعد.

ومعنى كلمة (كثير) الواردة مرتين هو: (قسم) لأن الله تعالى عبَّر عن كل من الساجدين وغير السّاجدين من البشر بكلمة (كثير)، فالمقصود بها قسم من الناس، سواء كانوا أكثرية أو أقلية.

ويفهم من قوله تعالى: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ ومن قوله: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾، إنَّ عدم السُّجود لله تعالى يَجُرُّ لصاحبه العذاب والإهانة، والعذاب بالإضافة إلى إيلام الجسد، كذلك فيه إهانة للروح، كما أن الإهانة علاوة على عذاب الروح تَسْتَصْحِبُ إيلامَ الجسد، وخاصة في الدار الآخرة التي تكون كَفَةُ الروح والمعنويات راجحة على كفة الجسد والماديات، كما يبدو من كتاب الله.

(٣) الله سبحانه وتعالى، قد استسلم له اختياراً أو جبراً وخَضَعَ، كلُّ ذوي العقول الساكنين في السمٰوات والأرض:

وهذا ما بيَّنته الآية (٨٣) من سورة (آل عمران).

والظّاهر أن المقصود بـ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ هو كل ذوي الشعور وهم على ما نعلم من كتاب الله هم الملائكة والجنّ والإنس، والمقصود بالإستسلام والخضوع الطوعي لله تعالى، هو خضوع الملائكة الكرام واستسلامهم وطاعتهم، كُلِّهم، وأهل الإيمان من الجنّ والإنس، له

سبحانه، وأما الخضوع والإستسلام الإجباري الإضطراري، فهو خضوع الكل أي: الملائكة والجنّ والإنس في الجوانب التي جَبَلَهُمْ الله عليها، ولا يملكون الإختيار والحرية حِيالَها، وذلك مثل إيجاد الله تعالى لهم، وخَلْقه إياهم بالكيفيات التي خُلِقُوا عليها، وخضوعهم للسنن والنواميس الحاكمة عليهم، والتي تُنَفَّذ عليهم رغماً عنهم، ولا يجدون حيالها حيلة!

(٤) الله سبحانه وتعالى هو الذي يتصَّرف من خلال سننه التي وضعها في الخلق في إحداث الليل والنَّهار، وجريان الشمس والقمر، ولا يحيد أيُّ مخلوقٍ عمَّا حدَّده الله تعالى له، بل الكل يسير وفْق مشيئة الله وخِطَّته التي وضعها لخلقه عامة، ولكل مخلوق منه على حدة:

وهذا ما بَيَّنَتْه الآيات (٣٧ إلى ٤٠) من سورة (يس) والتي تُجَلِّي هذه الحقائق الخمس:

١) إن الله تعالى هو الذي يَسْلَخُ النَّهار من اللّيل وَيَنتَزِعُهُ منه، فإذا الدنيا ظلامٌ دامسٌ على الناس يَلُفُّهم جميعاً: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [يس].

٢) وهو الَّذي قدَّر بعزَّته وعلمه لجريان الشمس مستقراً (أي زمان ومكان تَوَقُّفٍ لها) إذْ كما أن لجريها بدايةً، كذلك لها نهايةٌ تستقرُّ فيها وتَسْكُنُ، بعد أن تُنْهِيَ وظيفتها المقدَّرة لها: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾ [يس].

٣) وكذلك هو (سبحانه وتعالى) الذي حدَّد وقَدَّر للقمر وسيْره الشهريِّ حول الأرض، منازِلَ ومراحِلَ، إلى أن يعود في نهاية المطاف صغير الحجم، في أنظار أهل الأرض، وكأنَّه عود شِمْراخ النخل اليابس[1] المُعْوَجّ: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾﴾ [يس].

٤) وهو الذي وضع القوانين الصّارمة لكل من الشمس والقمر واللَّيل

(١) العُرْجون: ما يَحْمِلُ التمرَ، والعذق، وهو من النَّخْل كالعنقود من العِنَبِ. المعجم الوسيط، ص٥٩٢.

والنَّهار ـ والمقصود باللَّيل والنَّهار هنا الأرض الدائرة حول نفسها أمام الشمس، والتي يَحْدُثُ جرَّاء حركتها هذه، اللَّيلُ والنَّهارُ اللَّذان يتعاقبان على وجهها ويتبع أَحَدُهما الآخر باستمرار، إذ ليس اللَّيل والنَّهار سوى عَرَضيْن حادثين على سطح الأرض ـ، ولا يقدر أي منهم على الخروج عنها، فلا الشمس تلحق القمر، ولا اللَّيل يتقدَّم على النَّهار، بل الكل يتحركون حسب الخِطَّة الموضوعة لهم، والسنن التي أُلْزِموا بها: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ . . .﴾ [يس].

٥) وكل من الشمس والقمر والأرض الملفوفة دَوْماً بالليل والنَّهار، يدورون في فلك محدَّد: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

والأرض وإن لم يصرَّح بذكرها، ولكنها مذكورة ضِمْناً، وذلك بذكر اللَّيل والنَّهار اللَّذَيْنِ يَلُفّانها، ويَخلُفُ أَحَدُهُما الآخر على وجهها، والدليل على أنَّ المقصود باللَّيل والنَّهار في الآية، هو الأرض بالإضافة إلى كون الَّليل والنَّهار عرضين وأثَرَيْنِ لغيرهما لا يتأتى منهما الدوران! هو أن الله تعالى لم يذكر في الآية من الأجرام السماوية سوى الشمس والقمر، ولكن استعمل فعل (يَسْبَحون) الذي هو للجمع ـ أي ثلاثة فصاعداً ـ! ولا يمكن أن يكون الثالث شيئاً آخر هنا إلَّا الأرض التي تُحْدِثُ الليل والنَّهار بحركتها ودورانها حول نفسها أمام الشمس مرةً كل (٢٤) ساعة، وبناءً عليْه: فالجمع السَّابحون هم: الشمس والأرض والقمر.

وهذا أحد الإعجازات العلمية في كتاب الله الحكيم، لأن دوران الأرض حول نفسها، لَمْ يُكْتَشَفْ إلَّا بعد قرون طويلة، بعد نزول القرآن كما هو معلوم.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑



المبحث التاسع

جعل الله لخلقه سُنناً ونواميس صارمةً ومحدَّدةً، ولكن مشيئته مطلقة وهي تابعة لِحِكْمَته البالغة وعدله المطلق

وقد بينت آيات كثيرة هذه الحقيقة، هذه أمثلة منها:

١ ـ ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾ [البروج].

٢ ـ ﴿... إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾﴾ [الحج].

٣ ـ ﴿... أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ۩ ﴿١٨﴾﴾ [الحج].

٤ ـ ﴿... يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾﴾ [المائدة].

٥ ـ ﴿... وَٱللَّهُ يَحۡكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكۡمِهِۦۚ ...﴾ [الرعد].

٦ ـ ﴿لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء].

٧ ـ ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنبياء].

٨ ـ ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾﴾ [مريم].

٩ ـ ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾ [مريم].

١٠ ـ ﴿إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود].

١١ ـ ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨﴾﴾ [التين].

وتُجلّي لنا هذه الآيات المباركات، الحقائق الآتية بالنسبة لكون مشيئة الله تعالى مُطلقة وغير مُقيَّدة:

١) لا يَسْتَعْصي على الله، بل لا يَصْعبُ عليه، فِعلُ أيِ شيء يريدهُ ويشاؤهُ:

وهذا ما بَيَّنَتْهُ كل من آية (١٦) من سورة البروج والآيتان (١٤) و(١٨) من سورة (الحج)، حيث يُبين الله تعالى فيها، أنهُ يفعل كلَّ ما يُريده ويشاؤه، من غير استثناء أي شيءٍ، ولكن من الواضح ان الله تبارك وتعالى لا يريد إلا ما تقتضيهِ حكمته البالغة، وما خَطَّطَه بسابق قَدَرِه وعِلْمِهِ المحيط بِكُلِّ شيء.

٢) الله سبحانه وتعالى هو وحده الحاكم المطلق على الخلق، فَيحْكم على الخَلق حَسْبَ مشيئته تكويناً وتشريعاً:

وهذا ما أعلنه في كل من الآية (١) من سورة (المائدة) والآية (٤١) من سورة (الرعد) والآية (٢٣) من سورة (الأنبياء).

حيث بيَّن الله العليم الحكيم في آية (المائدة) أنه يحكم على عباده ويُشرِّع لهم ما يريده، والسياق هو الذي يحدِّد أنَّ المقصود بالحكم هنا هو الحكم التشريعيُّ الأمريُّ فقط.

وفي آية الرعد يُعْلِنُ المولى جلَّ وعلا أنه يحكم حكماً مطلقاً، ثم لا يوجد مَنْ يَتَعقَبُ حُكْمَهُ بالنقض، وبدلالة السياق نعلم أن المقصود بالحكم هنا، هو الحكم التكويني الخَلْقيُّ القَدَريُّ.

وفي آية (الأنبياء) أعلن الله الحكيم أنه لا يوجد منْ يُسائِلُ الله تعالى ويُحاسِبُه على ما يفعله، بل هو يَسْألُ ويُحاسِبُ، وهنا يحتمل (الفِعْل) كلا مَعْنَيَيْ الفعل التكويني القَدَري، أو التشريعي الأمري، ومَن الذي يمنع الله الخالق عمَّا يريدُ فِعْلَهُ، أو يعترض على أمره وشرعه؟! نعم قد أعطى الله تعالى الحرية والخيار للناس حيال أمره الشرعي ابتلاءً منه لهم، ولكن من أراد أنْ يبقى مؤمناً، وأن يَأمَنَ مِنْ غَضَبِ الله وعقابِهِ، يجب أن يَلْزَم حَدَّه، ولا يعترضَ على شيءٍ، لا قلباً ولا لساناً.

٣) الله سبحانه وتعالى متى أراد أن يُوقِفَ سُنَنَهُ الكونية التي وَضعها في خلقه، يُوقفها بمشيئتِهِ المطلقة المهيمنة على كل شيء:

وهذا ما تبينه الآيتان (٦٨، ٦٩) من (الأنبياء) الواردتان في سياق قصة إبراهيم عليه السلام مع أبيه وقومه العابدين للأصنام، إذ يبين الله تعالى كيف أنهم بعد أن يُفْحِمَهم إبراهيمُ بالحجة والبرهان، إخفاءً لفشلهم، يلجأون إلى إضرام النيران ويقذفون بإبراهيم فيها ـ بعد أن يضعوه في المنجنيق، وكانت آلة كالمدفع تُقْذَف بها الحجارةُ والحديد المَحْميَّتان إلى القلاع والحصون ـ، ولكن هل يدع الرب الجليل جلَّ شأنه ابراهيم الخليل تلتهمه النار المتأجِّجةُ؟! كلاّ، بل أصدر جبَّار السمٰوات والأرض أمره الفوري إلى النار،

فإذا هي بَرْدٌ وسلامٌ على ابراهيم، كما أمرها ربُّها وحدَّد لها: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾ وهلْ يَسَعُ النارَ أو أي مخلوق آخر، تجاه أمر الخالق الربّ جلَّ وعلا، سوى الإنصياع والإنقياد!

٤) وكذلك متى شاء الله تعالى أنْ يَخْرِق السُّنَن الَّتي فرضها على خلْقِه تجاوزها وعَمِلَ بخلافها، حسْبما تقتضي حكمته:

وتَدُلُّ على هذا كل من قصة ولادة (يحيى بن زكريّا) عليهما السلام من أبٍ شيْخٍ هرم، وأُمٍ عاقرٍ، المذكورة في الآيات (٧ و٨ و٩) من سورة (مريم).

وولادة (عيسى ابن مريم) عليهما السلام من (أم) بلا أب، وبواسطة نفخ الروح من قِبل جبريل عليه السلام في أمّه عن طريقٍ جِيْب قميصها، كما هي مذكورة في الآيات (١٦ إلى ٢١) من سورة (مريم).

والملاحَظُ أن كلاً من (زكريا) المُبشَّر بـ(يحيى)، و(مريم) المُبَشَّرَةِ بـ(عيسى) عليهم الصلاة والسلام جميعاً، قد استغربا عند سماع خبر البشارة، حيث قال زكريا عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾﴾؟! وقالت مريم: ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾﴾؟!

ومن الواضح أن استغرابهما في محله، لأنهما سمعا خلاف ما رأياه وأَلِفاهُ في حياتهما، وجواب كليهما ـ أي جواب سؤاليهما الإستغرابيين ـ جملة واحدة وهي: ﴿كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ و﴿كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾.

أجل كل شيء هَيِّن على الخالق جَلَّ شأنه، وانْ كان مخالفاً لما اعتاد النّاس أنْ يروه، ومخالفاً لما أَلِفُوه، لأن الخلْق خَلْقُهُ فقط، والأمْرَ أمْرُهُ فَحَسْبُ، فلا خلق ولا أمر في الوجود لِسواه، كما قال تعالى: ﴿... إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف].

ومن له الخلق كله، يخلق ما يشاء كما يشاء، كما أن منْ له الأمر كله، يأمر بما يشاء، ويحكم كما يشاء جل جلاله.

٥) ولكن هذا كلّه لا يعني أن مشيئة الله تعالى المطلقة، تعمل اعتباطاً (سبحانه وتعالى) كلاّ بل تجري مشيئته وفقاً لحكمته البالغة ولعلمه المحيط، وهو أحكم الحاكمين:

وهناك آيات كثيرة دالّة على هذا، ومن ضمنها الآية (٥٦) من سورة (هود) حيث يقول (هود) نبّي الله الكريم عليه السلام لقومه (عاد) واصفاً طلاقة مشيئته الشاملة لكل شيء: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ أي: أن زمام كل كائن على وجه الأرض، هو بيد الله تبارك وتعالى، فلا شيءَ خارجٌ عن دائرة مشيئته، ثم يُبَيِّن (هود) عليه السلام أن هيمنة الله تعالى على الأحياء والأشياء وإدارته لأمور الخلق، سواء كان حسب سُنَنٍ معروفة ومألوفة لنا، أو حسب سنن غير معروفة لنا، ففي كلِّ الأحوال هيْمَنة الله على خلقه وتدبيره لأموره، على صراطٍ مستقيم، ﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

ولكي يتبين لنا مفهوم جملة ﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ لِنتأمَّلَ هذه الآيـات: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحجر].

كما نرى: إن إبليس بعد أن يُهَدِّد بإغراء كل ذرية آدم عن طريق تزيين المعاصي لهم، يعود فيستثني منهم عباد الله الصالحين المُخلصين، ويقول تعالى مُعقِّباً على كلامه الأخير: ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحجر].

ومعنى هذا الكلام المبارك ـ حسبما يبدو لي وهو الظّاهر ـ ان الله تعالى يقول لإبليس: إن كونك عاجزاً عن إغواء عبادي الصالحين المُخلصين، هو صراطي المستقيم الَّذي وضعته كسنةٍ من سُنَني في عالم

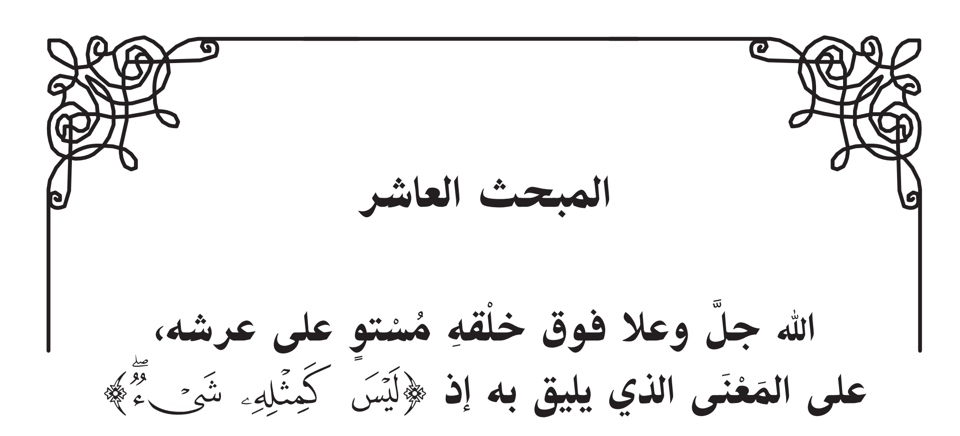
البشر . . . أي انَّ عدم تَسَلُّطِ إبليس بالإغواء على عباد الله المختارين المخلصين، هو سنة ثابتة من ضمن سُنَنِه التي وضعها في حياة البشر، وبناءً عليه: فمعنى: ﴿صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ هو السنن الثابتة الحكيمة التي وضعها الله تعالى في عالم البشر، وسنَّها لهم ويتعامل معهم وُفْقَها، فمنْ يُخْلِصْ لله عبادتَهُ، ويَتَوجَّهْ إليه بِصدق وإخلاص، يكون بمنأىً من تأثير إبليس، وبِمَنْجَىً من كيده ووسوسته المُغوْية المُضِلَّة.

وكذلك من الآيات الدالة على أن الله تعالى يُجري أُمور خلْقهِ وفقاً لحكمته البالغة، هي الآية (٨) من سورة التين: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝٨﴾؟ أي: لو أنه فُرض وجود حكّامٍ آخرين، غيْر الله تعالى، لكان هو أكثرهم حكمة.

إذن: مشيئة الله تعالى وانْ كانت مطلقة ولا يقيِّدها شيءٌ، حتى سننه التي سَنَّها في خلقه، والتي تبدو لنا وكأنها لا يمكن أن تُخْرَق وتُبدَّل، ولكنَّ الله تعالى حكيم وعليم وخبير، ولا يفعل بمشيئته الكلية المطلقة، إلا ما هو موافق لحكمته البالغة المطلقة، لأنه يتعامل مع خلقه حسب صراطه المستقيم، ولأنه هو أحكم الحاكمين.







المبحث العاشر

الله جلَّ وعلا فوق خلْقهِ مُسْتوٍ على عرشه، على المَعْنَى الذي يليق به إذ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾

هناك آيات كثيرة صَرَّحتْ بِعُلُوِّ الله العظيم سبحانه وتعالى على خَلْقه واستوائه على عرشهِ، هذه أمثلة منْها:

١ - ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾﴾ [الشورى].

٢ - ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ۩ ﴿٥٠﴾﴾ [النحل].

٣ - ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾﴾ [المعارج].

٤ - ﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾﴾ [غافر].

٥ ـ ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴿١٠﴾﴾ [فاطر].

٦ ـ ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾﴾ [النحل].

٧ ـ ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾﴾ [الزمر].

٨ ـ ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف].

٩ ـ ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ﴿٣﴾﴾ [يونس].

١٠ ـ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ ﴿٢﴾﴾ [الرعد].

١١ ـ ﴿ٱلرَّحْمَـٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [طه].

١٢ ـ ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ﴿٥٩﴾﴾ [الفرقان].

١٣ ـ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ ﴿٤﴾﴾ [السجدة].

١٤ ـ ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ﴿٤﴾﴾ [الحديد].

وكيفية دلالة هذه الآيات المباركات على علوِّ الله تعالى وكونه فوق الخلق مستوياً على عرشه، نُوضّحُها في البنود الآتية:

١) في الآيات (٣ و٤ و٥) من (الشورى) يخاطب الله تبارك وتعالى رسولَهُ محمداً ﷺ أنه هو الذي أوحى اليه، كما أوحى إلى جميع الأنبياء من قبله «عليهم الصلاة والسلام»، وأنه هو المالك الوحيد المطلق لكل ما في

السمٰوات والأرض، ثم يَصِفُ نَفْسَه بالعلوِّ والعظمة، ويُعلن أن السمٰوات تكادُ يَتَشقَّقْنَ من الجهة العليا مِنْهُنَّ... أي خوفاً ووجلاً وهيبةً مِنْ فاطرهِنَّ الَّذي هو فوقهنَّ جلَّ وعلا، ولهذا أشير إلى أنَّ انشقاقهنَّ الوشيك، يبدأ من طَرَفِهنَّ الأعلى الذي هو قريب من عرش الله!

٢) وفي الآيتيْن (٤٩ و٥٠) من (النحل) بعد أن يبين الله تعالى أن جميع ما في السمٰوات والأرض من الدواب والحيوانات والملائكة الكرام، يسجدون لله متواضعين، يوضِّحُ أنهم يخافون ربهم الذي من فوقهم.

٣) وفي الآيات (١ إلى ٤) من (المعارج) يَصِفُ الله تعالى نَفْسَه بأنهُ صاحب المعارج، ثم يُعلِنُ أن كُلاً من الملائكة والروح (وهو جبريل) يَصْعدون إليهِ في يوم (أي مدة زمنية) قَدْرُه خمسون ألف (٥٠٠٠٠) سنة، ومن الجليِّ أن العروجَ والصعود لا يكون إلَّا إلى الأعلى.

٤) وفي الآيتيْن (١٤،١٥) من (غافر) بعد أن يأمر الله تعالى عباده بتجريد العبادة والطاعة له، على الرغم من كراهية الكافرين لذلك، يصف نفسه بـ(رفيع الدرجات ذو العرش) وواضح أن الدرجات لا تكون إلا في الطرف الفوقاني، بعكس الدركات التي تَتَّجه إلى الطرف التحتاني، كما قال تعالى عن مكان المنافقين في جهنم: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾﴾ [النساء].

٥) وفي الآية (١٠) من (فاطر) بعد أنْ يُعلِنَ الله تعالى أنَّ منْ أراد نيل العزة يجب أن يَطْلُبها من الله تعالى، لأنه هو وحده الذي يملك العزَّة جميعها، يُبيِّنُ أن وسيلة نيل العزة هي الكلم الطيب الذي يصعد إلى الله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ والكلم الطيب، شامل لكل قول مَرضيٍّ لله تعالى، وسيد الكلم الطيِّب هو كلمة التوحيد المباركة (لا إلٰه إلَّا الله)، ثم يُبيِّن جلَّ شأنه أن الكلم لا يصعد إلى الله تعالى بنفسه، بل لا بد معه من العمل الصالح، كي يرتفع إلى الله تعالى: ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾.

٦) وفي الآية (٢) من (النحل) يبيِّن المولى الحكيم جلَّ وعلا أنه هو الذي يُنَزِّل الملائكة، أي: جبريل ومنْ معه من الملائكة بالوحي على من

يشاء من عباده ـ أي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ـ وقد سمَّى الله تعالى الوحي روحاً، لأنه لحياة البشرية بمثابة الروح للجسد، ومن الواضح أنَّ الإنزال لا يكون إلا من الفوق إلى الأسفل.

٧) وكذلك في الآية (٢) من (الزمر) يُخاطب الله تعالى رسوله النَّبِيَّ الأُمِّيَّ ﷺ أنه هو الذي أنزل إليه الكتاب بالحق.

هذا كله بالنِّسبة لعلوِّ الله العلي جلَّ شأنه وكونه فوق خلقهِ.

وأما بالنسبة لكونه على عرشه أو مستوياً عليه، والإستواء على الشيء هو الصّعود والإرتفاع والإستقرار[1]، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الزخرف]، فهذا ما بيَّنه كتاب الله في كل من:

١ ـ الآية (٥٤) من سورة (الأعراف).

٢ ـ والآية (٣) من سورة (يونس).

٣ ـ والآية (٢) من سورة (الرَّعد).

٤ ـ والآية (٥) من سورة (طه)

٥ ـ والآية (٥٩) من سورة (الفرقان)

٦ ـ والآية (٤) من سورة (السجدة)

٧ ـ والآية (٤) من سورة (الحديد).

فهذه سبع آيات من سبع سور، تُبيِّن استواء الله تعالى على عرشه، وتؤكِّدهُ، وقد ذكرنا معنى الإستواء[2]، وأمّا العرش (أي عرش الله تعالى)

(١) المصباح المنير، ص١٥٥، و(المعجم الوسيط)، ص٤٦٦.

(٢) كلمة (استوى) إذا تعدَّت بـ(إلى) مثل: (ثم استوى إلى السماء) تفيد معنى توجُّه الإرادة والقصد إلى الشيء المراد بصورة جازمة، المعجم الوسيط، ص٤٦٦.

فكُلّ ما نعرف عنه في ضوء كتاب الله هو:

أ ـ أنه مخلوق عظيم، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾﴾ [النمل].

ب ـ وأنه كريمٌ، كما قال تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ [المؤمنون].

ج ـ وأنَّه مجيد، كما قال تعالى: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [البروج][1].

د ـ وأنه الآن يحمله الملائكة ويَلْتفُّون به، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ ﴿٧﴾﴾ [غافر].

هـ ـ وأنه قبل أن يخلق الله تعالى السّموات والأرض، كان على الماء: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾﴾ [هود].

وبناءً على ما تقدم ذكره، نقول:

إنَّ الله تعالى وصف نفسه بالعُلوّ والعظمة والفوقية، بالنسبة لمخلوقاته، وكذلك وصف نفسه بكونه مُستوياً على عرشه، ويجب علينا نحن أيضاً أن نصف الله تعالى بما وصف به نَفْسه، بلا زيادة أو نقصان.

ولكن لا بُدَّ هنا من التنبيه على حقيقتين:

الحقيقة الأولى: كون الله تعالى فوق خَلْقهِ، وعلى عرشه، وفي السماء، لا يعني أن الله تعالى داخل مخلوقاته! كما يَفْهَمُ بعضُ الجُهّال ذلك من قوله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾﴾ [الملك].

حيث استنْتجوا من هذه الآية وأمثالها، أن الله تعالى داخل السماء!! وهذا جهل عظيم بمقام الله تعالى وعُلُوِّهِ وعظمته، إذْ كيف يَسَعُ الله خَلْقُهُ،

(١) هذا بناءً على قراءة (مجيد) بالكسر، كي يكون صفة للعرش، ولكن إذا قريء بالضمِّ، يكون صفةً لله ذي العرش ﷻ.

والله محيط بكل شيء إحاطةً تليق به، كما قال تعالى: ﴿...وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطٗا ﴿١٢٦﴾﴾ [النساء].

بل المقصود بقوله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أي أأمنتم من في فوق...، وذلك لأن كلمة السماء في اللغة العربية تعني فوق، والجهة العليا مطلقاً، وقد استعمل كلامُ الله المبارك، كلمة السماء بخمسة معانٍ، كلّها تدل على العلو والفوقية، وهي:

١ ـ ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾: كاسم جنس للسموات السبع كلها، أي التي تقابل الأرض كقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا بَٰطِلٗاۚ ﴿٢٧﴾﴾ [ص].

٢ ـ الجوّ والهواء المحيط بالأرض، كما قال تعالى: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ مُسَخَّرَٰتٖ فِي جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُۚ ﴿٧٩﴾﴾ [النحل].

٣ ـ الجهة العليا مطلقاً، كما قال تعالى: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ ﴿٣١﴾﴾ [الحج].

٤ ـ السّحاب، كما قال تعالى: ﴿...وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ طَهُورٗا ﴿٤٨﴾﴾ [الفرقان].

٥ ـ سقف البيت، كما قال جلَّ وعلا: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ فَلۡيَنظُرۡ هَلۡ يُذۡهِبَنَّ كَيۡدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾﴾ [الحج].

والمقصود بقوله تعالى: ﴿فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ﴾ أي: فَلْيُعلِّقْ نَفْسَهُ بِحَبْلٍ مربوط إلى سقف بيتٍ ولْيَخْنِقْ نَفْسَه، فالمقصود بكلمة ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ في الآيةِ هو سقف البيت الذي هو بالنسبة لمن هو تحته سماء، إذْ كلّ ما هو فوقك فهو سماؤك، ومن الواضح أنه لا يمكن تعليق الحبل وربطه بالسماء المعروفة.

الحقيقة الثانية: بما ان الله تعالى وصف نفسه بـ﴿...لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ...﴾ [الشورى]، وهذا الوصف مطلق من أي قيد، وهذا يعني أن الله

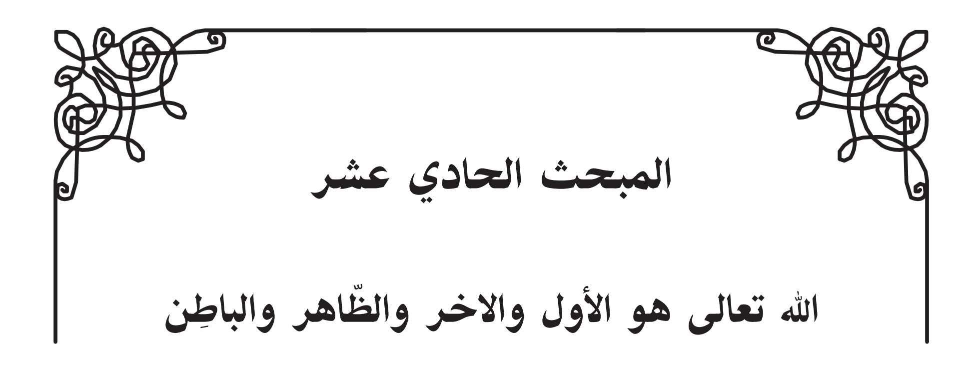
تعالى لا يُشبه شيئاً، ولا يُشبهُهُ شيءٌ لا في ذاته ولا في أسمائه ولا في صفاته ولا في أفعاله... إلخ، لذا يجب أن نُبْعِدَ عن أذهاننا ظِلالَ كلّ ظَنٍّ وَوَهْم وخيال، عندما تُذكر صفةُ استواء الله على عرشه ـ وكذلك أيّ صفة أخرىً من صفاته ـ وذلك لأن أَذهاننا لا يُمكِنُها الظن والتوهم والتخيل، إلَّا في إطار عالم المخلوقات، والله تعالى خالق كل شيء، وليس كمثله شيء، بل نَقول:

إن الله تعالى أخبر عن نفسه باستوائه على عرشه، ونحن على يقين بأن الله تعالى لا يُشْبهُ في شيء شيئاً من مخلوقاته، لذا نقول: أن معنى كلمة الإستواء معلوم وكيفية الإستواء (أي استواء شيء على شيء آخر) معلومة لنا، عندما نستعمل كلمة الإستواء لنا، ولكن بالنسبة لله تعالى، يجب أن نقول:

إنَّ الإستواء على عرشه على المعنى الذي يليق به، وبالكيفية اللائقة به، والتي هي مجهولة لنا كسائر صفاته الأُخَر، وقال (مالك) رَحِمَهُ اللَّهُ بهذا الصدد هذه الجملة المشهورة التي هي محلّ اتفاقٍ بين العلماء جميعاً: (الإستواء معلومٌ، والكيف مجهول، والإيمان به واجِبٌ، والسؤال عنه بدعة)، وإنما قال (والسؤال عنه بدعة) لأن الصحابة رضي الله عنهم ما كانوا يخوضون في البحث عن مثل هذه المسائل، وكانوا أعمق إيماناً، وأكثر فقهاً في دين الله تعالى، وأرسخ معرفة بالله، من أن يظنّوا حتى مجرَّد الظن، بأنهم يمكنهم التوصل إلى معرفة كيفية صفات الله تبارك وتعالى، أو أنْ يقيسوا صفات الله العلي العظيم على صفات مخلوقاته وأحوالها!

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑





المبحث الحادي عشر

الله تعالى هو الأول والاخر والظّاهر والباطِن

ونختم هذا الفصل الأول من الباب الأول، والذي خصَّصناه للحديث عن الله تبارك وتعالى، بالتنبيه على عدَّة حقائق أُخَر، في ضَوْءِ الآيات المباركات الآتية:

١ ـ ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [الحديد].

٢ ـ ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ. . . ﴿٥١﴾﴾ [الكهف].

٣ ـ ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ. . . ﴿٣٥﴾﴾ [النور].

٤ ـ ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنعام].

أولاً: وصف الله تبارك وتعالى نفسه في الآية (٣) من الحديد، بالأوصاف الأربعة الآتية:

١) الأوَّل:

والأول هو منْ لَيْس قبله أحدٌ أو شيء، والله سبحانه وتعالى بما أنه خالق كل شيء، فلا يمكن تصوّر شيء قبله، إذْ لا يمكن وجود موجود إلَّا بعد ما يُعطيه الخالق الكريم الوجودَ، كما قال: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ [طه].

والله سبحانه هو الأوَّلُ، ولكن بلا بداية، أي إنه كان موجوداً أزلاً،

ولهذا فسؤال (منْ الذي خلق الله؟!) سؤال تافِهٌ ومتناقضٌ في ذاته، إذ المحتاج إلى الخالق هو المخلوق المُحْدَثُ، أما الخالق الّذي لم يَسْبِقِ العَدَمُ وجودَه، ولم يَزلْ موجوداً، فهو غنيٌّ عن غيره، وإنما قُلْنا بأن هذا السؤالَ مُتناقضٌ في ذاته، لأن الذي يسأل عن خالق الله تعالى، فهو يقول: من الّذي أوجد وَخَلقَ الخالق الذي لم يوجد، ولم يُخْلَقْ؟ ولا شك أن هذا قول متناقضٌ وعديم المعْنى، وتقريباً للأذهان يمكننا القول:

ان شأن الله الخالق تبارك وتعالى، كشأن العدد (١) مع الأصفار، وذلك لأنك لو وضعت أَيَّ عددٍ من الأصفار، أمام العدد واحد (١) لأعطى كُلّها قيمةً عدديةً، فمثلاً: عدد ألف (١٠٠٠) ما كانت أصفاره الثلاثة تمتلك أَية قيمة عددية في ذاتها، قبل أن تستقِرَّ على يمين العدد (١)، ولكن بعد استقرارها على يمينه اكتسبتْ قيمة، ولو أُزيح العدد (١) عن مكانه، لأصبحت الأصفار كلّها عديمة القيمة (٠٠٠)، ولكن العدد (١) بما أن قيمته ذاتية، وليست مكتسبة، فقيمتهُ ثابتة لا تتغيّر، سواءً وُجِدَت الأصفار أم لا.

وهذا المثال فقط لتقريب المعنى للذهن، وإلّا فشأن الله أعظم وأعلى وأجلُّ! وقد جاء في صحيحَيْ البخاري ومسلم أن رسول الله ﷺ وصّى الذي يوسوس اليه الشيطان بسؤال (من خلق ربك؟!) أن يقول (لا إلٰه إلّا الله) أو يقول (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم)[1].

وأرى إن الحكمة في هذه الوصية النبويَّة هي أن مثل هذه الخواطر والأفكار ليست وليدة العقل والمنطق، بل نابعة من وسوسة الشيطان ودغدغته، لِذا يجب أنْ تُدفع بالتأكيد على التوحيد والإلتجاء إلى الله تعالى.

٢) الآخر:

والآخر هو منْ ليس بعده أحدٌ أو شيءٌ، والله سبحانه وتعالى بعد أنْ

(١) عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**يَأْتي الشَّيْطانُ أَحَدَكُمْ فَيَقُولُ: مَنْ خَلَقَ كَذا؟ مَنْ خَلَقَ كَذا؟ حَتَّى يَقُولَ: مَنْ خَلَقَ رَبَّكَ؟ فَإذا بَلَغَهُ فَلْيَسْتَعِذْ بِالله وَلْيَنْتَهِ**» (رَوَاهُ البُخَارِيُّ برقم: (٣٢٧٦)، وفي (صحيح مسلم): «**فَلْيَقُلْ: لا إلٰه إلا الله**».

يُفْنِيَ العالمين، يبقى وحده كما كان قبل خلقه إياهم وحده، قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمٰن].

هذا بالنسبة للأحياء من أهل الأرض، وقال بالنسبة لأهل السماء والأرض كلِّهم إلَّا ما اسْتُثْنِيَ: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزمر].

وكذلك قال بالنسبة لجميع المخلوقات والأشياء قاطبةً: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [القصص].

٣) الظّاهر:

والظّاهر هو الجليُّ البَيِّن الواضح، والله تبارك تعالى ظاهرٌ ومتجلٍّ أشدَّ الظهور والجلاء، خالقاً ورباً ومالكاً وإلهاً، بأسمائه الحُسنى وصفاتِهِ العُلى على صَفَحات مخلوقاته، وفي آيات كتابه المُبين، لمن لم تَتَغَيَّر فِطرتُهُ واحتكم إلى أحكام العقل السليم، ومقرّرات العلم الصحيح.

والملاحَظُ أن الله تعالى سَمّى نفسه نوراً، وأعلن أنَّ له نوراً، كما قال: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ ﴿٣٥﴾﴾ [النور]. وقال: ﴿... وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِا۟ىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [الزمر]، وكذلك يُفهم من قصة سؤال موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ربَّه أن يُريَهُ نَفْسَهُ، وجواب الله تعالى بالنفي، ثم تعليل جوابه المنفيِّ بأنه لن يقدر على ذلك، وإثبات أو إظهار ذلك له بتجلّيهِ سبحانه وتعالى للجبل، وعدم ثبات الجبل أمام تجلّي الله العظيم، واندكاكه وخرور موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مَغْشياً، كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ ...﴾ [الأعراف: ١٤٣].

أجل يُفهم من هذه القصة، أن الله تعالى إنما تجلّى للجبل بنوره، فلم

يَتَحَمَّلْ الجَبَلُ مع صلابته وضخامته تجلِّي الله تعالى، والدليل على أن تجلّي الله تبارك وتعالى للجبل، كان بنوره، هو أنَّ التجلِّي لا يستعمل إلَّا للحالات التي تدل على الظهور والضياء والجلاء، كما قال تعالى: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴿٣﴾﴾ [الشمس]، والضمير في جلاّها يَرجع إلى الأرض التي يُجَلِّيها النَّهارُ ويُظْهِرُها ويَكْشِفُها بنوره وضيائِه المنعكس عليه من الشمس.

ولكن يجب أَن ننتبه إلى حقيقة أنَّ تسمية الله تعالى نفسه نوراً، وبيانه أنّ له نوراً، وتجلِّيهِ بالنور، كلُّ هذا لا يعني أن نور الله العظيم هو مثل النور المحسوس المعروف لنا، إذ النور المادي المعروف لنا، مخلوق من مخلوقات الله، وأمّا النور الذي هو صفة الله تعالى، فهو نور خاصٌّ غير معروف الماهية لنا، كسائر صفات الله تبارك وتعالى التي ليست كصفات المخلوقات، ولا تتشابَهُ أصلاً.

ولعلّ استعمال كتاب الله كلمة (النور) كاسم وصفة لله تعالى ـ بالمعنى اللاّئق بالله تعالى ـ هو من أجل أن النور هو أوضح وأجلى الأشياء، بل هو سبب وضوح الأشياء وجلائها وإمكان رؤيتها، كما أن (إستواء الله تعالى على العرش) يعني صعوده وارتفاعه عليه، واستقراره عليه، مع عدم تكييف معنى الصعود والإرتفاع والإستقرار، لأن كيفيتها مجهولة لنا، فكيفما كيَّفْناها لا نَقْدِرُ قدْرَها ونُخطِئُ فيها، كذلك كون الله تعالى نوراً للسموات والأرض، وكونه ذا نور، نفهم منه جلاء الله تعالى وظهوره وتَجلِّيَهُ، ولكن لا يمكننا أن نقول بأن ذلك الجلاء والظهور والتجلِّي، هو مثل ما نعرفه ونحسُّهُ في عالم الخلق، بل كيفية جلاء الله وظهوره وتجلِّيهِ مجهولة لنا، ككيفية سائر صفاته التي ليس كمثلها شيء.

وفي هذا المجال جاء هذا الحديث المبارك: **(إن الله ﷻ لا يَنام ولا ينبغي له أن ينام يَخْفِضُ**[1] **القسط وَيرْفعُهُ، يُرْفعُ اليه عَمَلُ الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل حجابُهُ النور لَو كَشَفَهُ لأحْرقَتْ سُبُحات وجهه ما انتهى اليه بَصَرُه من خَلْقِهِ)** رواه مسلم ٤٤٤/٢٩٣.

(١) المقصود بـ«القسط» هنا: الميزان، أي: يُنْزِلُ الله تعالىٰ الميزان ويُعْلِيه.

٤) الباطن:

والباطن في اللغة عكس الظّاهر، فالباطن هو الخَفِيُّ المُستَتِر الغائب، وليس كون الله تعالى ظاهراً أو باطناً في نفس الوقت، من باب التناقض واجتماع النقيضين في شيء، بل هو من باب اختلاف اعتبارات، أي أن الله تعالى ظاهرٌ لمن كان سليم العقل والفطرة والبصيرة، ولكنه باطِنٌ لمنْ كان سقيم العقل والفطرة ومطموس البصيرة، وكذلك هو ظاهر، لمن رام معرفته بالعقل والقلب، ولكنَّه خفيٌّ باطِنٌ، لِمَنْ بحث عنه بحواسِّه، وهو ظاهر لمن أراد أنْ يَعْرِفَهُ من خلال آثاره، ولكنَّه باطن لمن أراد الإطِّلاع على حقيقة ذاته وصفاته.

وهو ظاهر جَليٌّ لمن تأمل آياته الخَلْقِّية الكونية في الأنفس والآفاق، وتدبَّر آياته الأمرية الشرعية برغبة وإنصاف، ولكنَّه باطن خَفِيٌّ لِمَنْ أعرض عن آياته بكلا نوعيها، إهمالاً أو استكباراً.

ثانياً: وفي قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنعام].

وقوله تعالى: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ ﴿٥١﴾﴾ [الكهف].

تنبيه للبشر على حقيقة عظيمة، وهي:

أنهم لا يمتلكون المعرفة الحقيقية، حتى عن كيفية خلق أنفسهم التي هي أقرب الأشياء إليهم، وكذلك عن كيفية خلق السمٰوات والأرض، لأن الله تعالى لم يُشْهِدْهُمْ ولم يُرِهِمْ ذلك، فكيف إذن يطمعون أن يَطَّلعوا على حقيقة الخالق تبارك وتعالى، في حينٍ هم عاجزون حتى عن معرفة كيفية خَلْقِ مخلوقاته، بل أقرب مخلوقاته اليهم؟!

وأختم هذا المبحث الحادي العشر، بقولي الآتي:

بما أنَّ الله تعالى خلق الإنسان ليبتليه، في هذه الحياة الأرضية المؤقتة، فهو بعد أن فطره على معرفته والإعتقاد به، وأودع عقله القوانين

البديهية التي يهتدي بها في ضَوْئِها إلى معرفة رَبّه وفاطره، الذي يهفو اليه قلبُهُ وتَشْتاقُ اليه فطرته، ثم بعد النورين الذاتيين القلبي والعقلي، زوَّده بنور ثالث خارجيٍّ آخر، وهو نور الوحي والذي هو النور الأتَمّ، الذي يكشف له عن كل ما يحتاجه لمعرفة ربه وفاطره، وكيفية تعامُلِهِ معه، مثل أسماء الله تعالى وصفاته وشؤونه، ثم أحكامه وتوجيهاته، وتوضيحاته عن الخلق عموماً والإنسان خصوصاً، وحكمته في إيجاده لهما. . . إلخ.

أجل بعد كل هذا غَيَّبَ نفْسَهُ عنه (أي: الله تعالى جَعَل نَفْسَه غائباً وغير محسوس) ليمْتحنه بذلك: هل يؤمن به ويَخافُهُ ويُعَظِّمه ويعبده ويطيعه مع غيابه عنه، من حيث الحواسُّ الظّاهرة، أم يُهْمِلُ الأنوار الثلاثة المباركة التي أَتْحَفه الله بها، ولا يتعامل مع ربِّه بمقتضاها! ولهذا مدح سبحانه وتعالى عباده الذين يؤمنون به بالغيب، ويخافونه بالغيب، وينصرونه بالغيب، في أكثر من آية كما قال:

١ ـ ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ. . .﴾ [البقرة].

٢ ـ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ۝٤٨ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ۝٤٩﴾ [الأنبياء].

٣ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝١٢﴾ [الملك].

٤ ـ ﴿. . .لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ۝٢٥﴾ الحديد.

وقد أعطى الله الحكيمُ الإنسان كُلاًّ من إمكانية تنوير نفسه، تجاه الله تعالى بنور القلب (الفطرة) ونور العقل ـ والعلم تابعٌ له ـ ونور الوحي، وبالنتيجة: الإيمان بربِّه الكريم، والعبادة له، والتقوى له، أو بالعكس إظلام نفسه، وإهمال تلك الأنوار الثلاثة وعدم العمل بمقتضاها، فالدخول في متاهات الإلحاد والشرك والكفر والنفاق، ويشير إلى هذه الحقيقة ـ أي إلى امتلاك الإنسان هذا الإستعداد المزدوج ـ قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧

﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس].

ثم نتيجة الإستجابة إلى الأنوار الثلاثة، وصعود الإنسان إلى قمّةِ الإيمان والعمل الصالح، تَزْدادُ تلك الأنوار الثلاثة ضياءً، ويزدادُ قَلْبُ الإنسان وعَقْلُهُ تنوّراً وتشعشعاً، بقدر إيمانه وتقواه وعمله الصّالح، إلى أن يتنوَّر باطِنُهُ وظاهره بنور الإيمان، بحيث لا تبقى في كيانه ذرة من الظلمة، ويصل إلى اليقين التام والطمأنينة الكاملة، وهناك يتحوّل الإيمان بالله تبارك وتعالى، من إيمانٍ إستدلاليّ بُرهانيّ، إلى إيمانٍ شهوديّ حضوريّ، ويتعامل الإنسان مع ربِّه الكريم العظيم لحظة بلحظة، وفي كل الأحوال ذِكْراً وفِكْراً ودعاءً وعبادةً وطاعةً وتقوىً، والى هذه الحالة الرفيعة، يشير قوله تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران].

وقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾ [يونس].

وبخلافه: مِنْ جَرّاء الإعراض عن الأنوار الثلاثة، تُظْلِمُ النَّفْسُ ويَخْبو نورا القلب والعقل، ويُخَيِم ظَلامُ الكفر الدّامِس على وجود الإنسان، ويَصْبِغُهُ بصبغته، كما قال تعالى مُصَوِّراً حال الكافر: ﴿أَوْ كَظُلُمَـٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَـٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾ [النور].

ويُشْبِهُ حالُ الإنسان في هذا المجال حالَ شَخْصٍ جالس أمام شبّاك من زجاج، يرى من خلاله العالم الخارجيَّ، فإنْ هو أَجْهَدَ نَفْسَهُ بتنظيفِ زُجاجِ الشبّاك، وصقله باستمرار، تيسّرت له الرؤية من خلاله، وكلما بذل جهداً أكبر في التنظيف والصَّقْل وإزالة الغبار، وكلِّ ما يُغوِّشُ الشُبّاكَ، كُلَّما كان أقدر على الرؤية الواضحة من خلاله، ولكن إن هو أهمل تنظيف الشبّاك، بحيث تراكم عليه الغبار والبخار والدخان، فَسَيَحْرِمُ بِإهمالهِ ذلك نَفْسَهُ من

الرؤية، بل سيتحوَّل زُجاجُ النافذة نتيجة الإهمال المستمر، حاجِزاً سميكاً يَحْجُبُ عنه كُلَّ شيء، كذلك الإنسان في مجال معرفة الله تعالى والإيمان به، ففي وُسْعِهِ إن أراد ورَغِبَ وَبَذَلَ الجُهْدَ، أنْ يضاعِفَ ضياءَ الأنوار الثلاثة في كيانه، حتى يرى الله تبارك وتعالى بعقله وقلبه وكيانه، من خلال أسمائه الحُسْنى، وصفاته المتجلّية في آياته الخلقية الكونية، وآياته الأمرية الشرعية، بجلاءٍ ووضوح تام، ويَمُرَّ بمرحلة علم اليقين البرهانيّ، إلى مرحلة علم اليقين الشهوديِّ، ثم يصل بفضل الله وتوفيقه إلى وجدان الحقائق الإيمانية وتذوّقِها ولمسها، ويدخل في مقام حق اليقين.

كما أنه في وسعه خلاف ذلك، أي: أنْ يُعْرِضَ عن الأنوار الثلاثة ويَحْرِم نَفْسَه عن رؤية آيات الله المتجلّية في كلا كتابي الخلق المنظور والوحي المتلو، ويَغْمِسَ نفسه في الظلمات المتراكمة! فيكون الله تعالى بالنسبة للشخص الأول (ظاهراً) ومُتَجلِّياً، وبالنسبة للثاني (باطناً) وَمُتَخَفِّياً، تبعاً لِمَوقِفَيْهما الإيمانيِّ النورانيِّ، والكُفريِّ الظُّلمانيِّ.

وهذا بعض ما بدا لي من مفاهيم الكلمات الأربع المباركة التي وصف الله العظيم بها نفسه: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [الحديد]، ولا يُدْرِكُ غَوْرَ الحقائق وأسرار كلمات الله سواه، كيف والكلمات على قدر القائل والمتكلم!

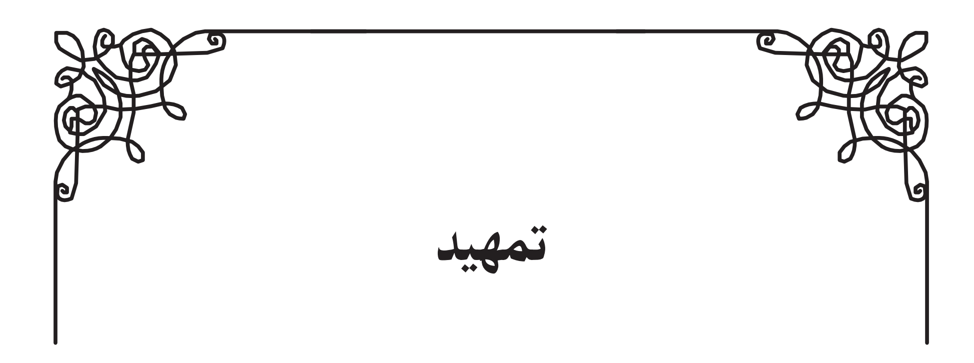
وبهذا نختم هذا المبحث الحادي العشر، وبه نختم الفصل الأول من هذا الباب الأول، وننتقل بإذن الله وتوفيقه إلى الفصل الثاني منه.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑



الفصل الثاني

الخَلْقُ بِمجموعه خلقهُ الله بِحق، وكلُّ شيءٍ فيه مَخْلوقٌ بحكمةٍ وإتقانٍ



تمهيد

سنوضِّح الموقف المعرفيَّ الصَّحيح الوحيد تجاه الخلق (السمٰوات والأرض وما بينهما) في ضَوْءِ أنوار بعضٍ من آيات كتاب الله المبين، في المباحث الثمانية الآتية:

١ ـ الخلق كله من أصغر شيءٍ إلى أكبره، مخلوق لله تعالى بلا استثناء، وهو سبحانه ربُّ كُلِّ شيء.

٢ ـ بداية الخلْق مجهولة لنا كنهايته، لا نعلم عنها شيئاً سوى ما بَيَّنَه لنا فاطره الحكيم، تبارك وتعالى اسمه ولا إله غيره.

٣ ـ الخلق منه ما هو منظورٌ لنا، ومنه ما هو مَسْتورٌ عنّا.

٤ ـ خَلَقَ الله تعالى الخلْق بمجموعه بِحقٍ وحكمةٍ وميزانٍ.

٥ ـ كلُّ شيءٍ في الخلْق أَبْدَعه خالِقُهُ بِحكمةٍ وإتقان، وعلى أحسن ما يكون الخلق والإبداع.

٦ ـ خَلَقَ الفاطر الحكيمُ الخلْق كُلَّه، منْ أجل ابتلاء الإنسان ثم مجازاتهِ.

٧ ـ كما أن للخلق بدايةً بدأ منها، كذلك له نهايةٌ ينتهي إليها، ولكن لا يعلمها إلَّا الخالق الحكيم العليم جلَّ وعلا.

٨ ـ بعض الحقائق التي ذكرها الخالق تبارك وتعالى صراحة أو إشارة عن الخلق.

ونبدأ بالمبحث الأول، وسنُدْرِج الآيات المباركات التي نَسْتضيء بأنوارها لإيضاح عناوين المباحث، عند كل مبحث على حدةٍ:



المبحث الأول

الخلْق كله من أصغر شيء فيه إلى أكبره، مخلوق لِله تعالى بلا استثناء، وهو سبحانه ربٌّ كل شيء

وهذه بعض الآيات الدالة على هذه الحقيقة، أو هاتين الحقيقتين:

١ ـ ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ﴿٦٢﴾﴾ [الزمر].

٢ ـ ﴿...قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ قُلِ ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ لَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ نَفۡعٗا وَلَا ضَرّٗاۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ أَمۡ هَلۡ تَسۡتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُۗ أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾﴾ [الرعد].

٣ ـ ﴿...بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿١٠١﴾﴾ [الأنعام].

٤ ـ ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [غافر].

٥ ـ ﴿ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا ﴿٢﴾﴾ [الفرقان].

٦ ـ ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿١١﴾﴾ [لقمان].

٧ ـ ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾﴾ [الأحقاف].

٨ ـ ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ... ﴿١٦﴾﴾ [الرعد].

٩ ـ ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ... ﴿١٦٤﴾﴾ [الأنعام].

١٠ ـ ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [يونس].

بما أنّنا قد تحدثنا في الفصل الأول عن خالقية الله تعالى وربوبيته لكل شيء، ومخلوقية كلِّ شيءٍ وَمرْبوبيَّتِهِ له، لِذا لا نطيلُ الوقوف هنا أمام هذه الآيات المباركات، ونكتفي بتعليق مختصر عليها:

أما بالنسبة لخالقية الله تعالى لكل شيء، ومخلوقية كل شيء له بلا استثناء، فهذا ما صرَّحت به كل من:

١) الآية (٦٢) من سورة الزمر.

٢) الآية (١٦) من سورة الرعد.

٣) الآية (١٠١) من سورة الأنعام.

٤) الآية (٦٢) من سورة غافر.

٥) الآية (٢) من سورة الفرقان.

حيث جُعِلَ (كلُّ شيء) مخلوقاً لله تعالى بلا استثناء، في كل من هذه الآيات المشار إليها، ثم في كل من:

٦) الآيتيْن (١٠، و١١) من سورة لقمان.

٧) الآية (٤) من سورة الأحقاف.

يَتَحدَّى الخالق العظيم جَلَّتْ عظمته وتبارك اسمه، كلَّ الكفرة والمشركين بعْد أن يُلْفت أَنظارهم إلى عدة مظاهر من خلقه المُتْقَن، أن يُروه شيئاً ولو أدنى شيء، ممّا خَلَقه غَيْره، ويُطالبهم بإقامة البُرهان على دعواهم، بأن غير الله تعالى خَلَقَ شيئاً، إنْ تجَرؤوا على مثل هذه الدعوى أصلاً! ومن الواضح أنه لا جواب أمام هذا التحدِّي الربّاني سوى السُّكوت والوجوم، وهل يقدر الخلائق الذين لا حول لهم ولا قوة، أمام خالقهم وتحدِّيه العظيم، على غير السّكوت ونكْسِ الرأس؟!

وبالنسبة لربوبية الله تعالى لكل شيء، وتدبيره وتصريفه لأمور الخلْق جميعاً:

١ ـ في الآية (١٦) من سورة الرعد، يأمر الله تعالى نَبيَّه ﷺ أنْ يوجِّه هذا السؤال التوبيخي للكفار: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؟! ثم يأمره إلَّا ينتظر جوابهم بل يجيب بِنَفْسه: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ وذلك لأنَّ جواب هذا السؤال من الوضوح والجلاء، بحيث يعتبر من البديهيات التي لا يمكن أن يتجادل فيها اثنان (أي من العقلاء).

٢ ـ وفي الآية (١٦٤) من سورة الأنعام، يأمر الله تبارك وتعالى نَبِيَّه الخاتم ﷺ ومن خلاله ومن ورائه كل مسلم من أمته، أن يوجِّه هذا السؤال الإستفهاميِّ الإنكاريّ لكل الذين يشكُّون أو يجادلون في ربوبية الله الشاملة: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾؟! وهذا يعني أن ربوبية الله تعالى لكل شيء، قضية بديهية ومُسَلَّمة، ولهذا جعلت تِكأةً وبرهاناً على ربوبيته للناس.

٣ ـ وفي الآيتيْن (٣١ و٣٢) من سورة يونس، يأمر الله تعالى نبيه وكلّ مسلم تالٍ لكتابه، أَنْ يُوجِّه إلى الكفار والمشركين، سؤالاً إنكارياً يتضمَّنُ التعريف بالله ربِّ العالمين جلَّ وعلا، من خلال سبعة من أفعاله وشؤونه التي لنْ تتأتىَ لغيره سبحانه، وهي:

١ و٢: إِدرارُ الرزق على النّاس من السّماء والأرض.

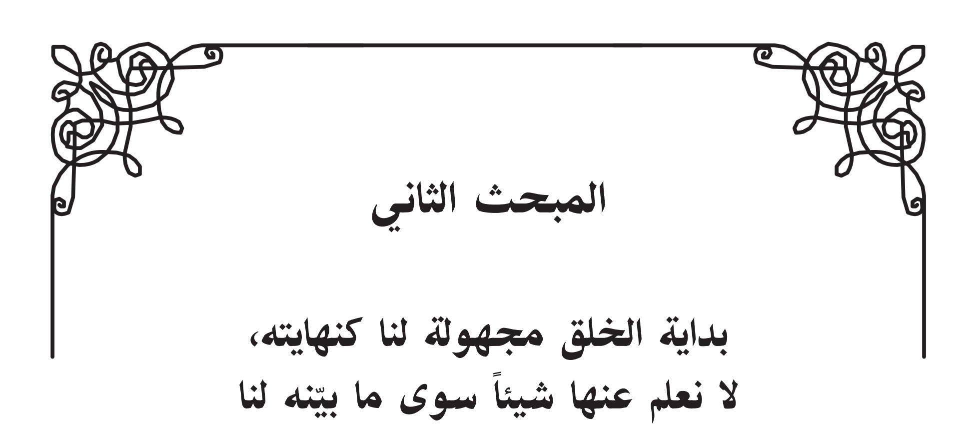
٣ و٤: إمتلاك السّمع والأَبصار.

٥ و٦: إخراج الحيّ من الميت، وإخراج الميِّت من الحيِّ.

٧: تدبير أمر الخلْق وتصريف شؤونه.

ثم يبين الله تعالى بأنهم سيُجيبون بأن الله تعالى هو وحده القائم بتلك الأفعال: ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ﴾ لأن غير هذا الجواب لا يُرضي العقل والفطرة، ثم يأمر الله تعالى نَبِيَّه أن يوبِّخَهُمْ على موقفهم المتناقض المتهافت، والذي يتمثل في إقرارهم بربوبية الله لكل شيء، ثم لا يتقونه باجتناب الشرك وتقديم العبادة الخالصة له: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾﴾.





المبحث الثاني

بداية الخلق مجهولة لنا كنهايته، لا نعلم عنها شيئاً سوى ما بيّنه لنا فاطِرُهُ الحكيم، تبارك اسمه ولا إلٰه غيره

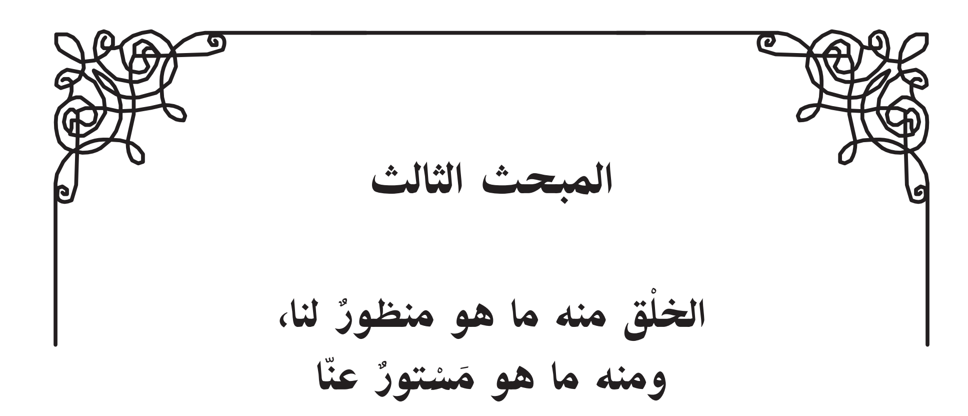
قال سبحانه تعالى بصدد عدم معرفة البشر بداية الخلق، وعدم إطْلاعِهِ إياهم عليها: ﴿۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾﴾ [الكهف]، ومعنى الآية باختصار هو: ما أطلعتهم ـ أي البشر عامةً ولكن المقصود هنا الكفّار ـ على كيفية خَلْقي للسموات والأرض، ولا على كيفية خَلْقي لهم أنفسهم، وإني لنْ أستعين بالمُضِلّين ولا أتَّخذهم سنداً، وهذه الآية الكريمة دليل على أن كل ما قيل ويُقال من نظريات وآراء حول كيفية نشوءِ الكون ـ وهو الجزء المكتَشَفُ من الخلْق لحِدِّ الآن ـ وكيفية خلْق الإنسان واستقراره على الأرض، ممّا يُخالِفُ كلَامَ الله وحديث الرسول ﷺ، لا يُعوَّل عليه أصلاً، بل يُعتبر من الرجم بالغيب، كما قال تعالى في وصف الكفار:

﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾﴾ [سبأ]، إذْ لا شك أن الكلام عن بداية الكون وبداية حياةِ الإنسان، في الوقت الذي تفْصل بيننا وبين تلك البدايات، فواصل زمنية لا يعلم مقدارها إلَّا الله، موقف غير منطقي ولا علمي، اللّهم إلَّا إذا أُعلِنَ منذ البداية أن تلك النظريات، ليست سوى محاولات وآراء قابلة للخطأ والصواب، ولكن عندما يُضْفي على تلك

النظريات والآراء طابعُ العلم، وتُلْبَسُ ثَوْبَ الحقيقة، كما كان الماركسيون والشيوعيون يفعلون قبل انهيار دينهم الخرافي، تبعاً لإنهيار دولتهم الدكتاتورية المتمثلة في الإتحاد السوفيتي السابق، فذلك يعتبر خيانة كبرى بحق العلم والمعرفة والحق والحقيقة، وجديرٌ بالذكر أن اتِّباع الظنون والأوهام، هو دين أهل الكفر الفاقدين للعلم الصحيح والحق الأبلج، كما قال تعالى عن الملاحدة الدهريين: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الجاثية].

ومن الواضح أن إثارةَ الضجيج والضوضاء الدّعائي، حول بعض تلك النظريات المذكورة، لخداع البُسطاء به، لا يُغَيِّر من حقيقتها ومحتواها شيئاً، ومن المحال التستُّر على عورة الباطل طويلاً، وقديماً قيل: (إنَّ حَبْلَ الكذب قصير) هذا وسنلقي في المبحث الثامن من هذا الفصل، بعض الضَوْءِ على عددٍ من المسائل المتعلّقة ببداية الخلق، وكيفية خَلْقِ السمٰوات والأرض، ولكن ليس رَجْماً بالغيب، بل في ضَوْءِ أنوار آيات الكتاب المبين، بإذن الله تعالى.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑



المبحث الثالث

الخلْق منه ما هو منظورٌ لنا، ومنه ما هو مَسْتورٌ عنّا

أجلْ إنَّ خَلْقَ الله تعالى ليس منحصراً في دائرة المحسوسات، بل منه ما لا يُدْرَكُ بالحواس، أي السمع والبصر واللمس والذوق والشم، وغير المحسوس من الخلق أجَلُّ وأعظم وأكثر من المحسوس، كما سنشير اليه بعد قليل.

وقال تعالى بالنسبة لكون المخلوقات منقسمة إلى ما هو منظور، وما هو غير منظور: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [الحاقة].

كما نرى: يُقْسِمُ سبحانه بما نراه وبما لا نراه من المخلوقات، على أن القرآن قولُ مُرْسَلٍ كريم من الله إلى النبي الخاتم - وهو جبريل - وليس قول شاعر ولا كاهنٍ، ويوبِّخُ الله تعالى الكفار المنكرين لربانية مصدر القرآن، على قِلّة إيمانهم وتذكُّرهم، ثم يُعْلِنُ مؤكّداً مرة أخرى، أن القرآن انما هو تنزيلٌ من ربّ العالمين تبارك وتعالى.

وإقسامُ الله تعالى هنا بالمنظور والمستور من خَلْقه، في مَعْرض الردِّ على الكفار المنكرين للوحي والنبوة، وكون القرآن كلام الله، إحدى حِكَمِهِ هي انتشال الكفار من مستنقع المادية، ودائرة عالم المحسوسات الضيِّقة،

وفتح عين بصيرتهم على الوجود، كما هو في الواقع بغيبه وشهادته، وذلك لأن الإيمان بكون الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام) موحى إليهم من الله، وكون كتب الله، كلام الله المبارك الذي تكلم به إلى جبريل، وجبريل بدوره نَقَلَهُ إلى الأنبياء، متوقِّفٌ على أنْ يوسِّع الإنسانُ دائِرَةَ تفكيره وأُفُقَهُ، ولا يتصوّر بأن الوجود منحصرٌ فيما تقع عليه الحواس الخمس!

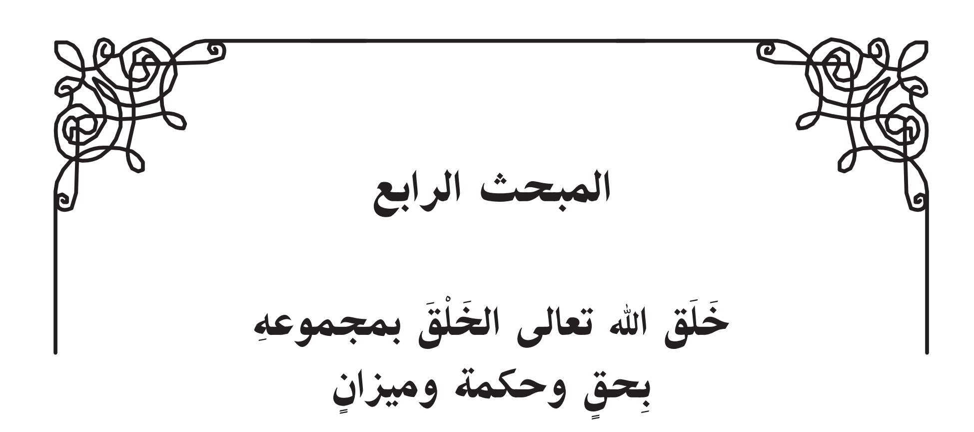
ومن البين الجليّ أن الإنسان كلما اتَّسع أُفُقُ تفكيره، بسبب التطور العلمي والكشف عن نواميس الخلْق وخفاياه، كلَّما فهم هذه الآية المباركة وهذا القَسَمَ الرباني، فَهْماً أوسع وأعمق، حيث في الماضي القريب وقبل اختراع المجهر (الميكروسكوب)، كان الناس يظنون أن الوجود المحسوس المنظور هو المادة وظواهرها، وأن الوجود اللاّمنظور واللاّمحسوس هو الرّوح وعالما الجنّ والملائكة فَحَسْبُ! ولكن بعد تطور علمي الكيمياء والفيزياء، وصُنْعِ المِجْهَر ثم المجهر الألكتروني، تبيَّن لهم أن الموجودات الغائبة وغير المحسوسة، أكثر بكثير من أنْ تُحْصَر في دائرة العوالم الثلاثة ـ عالم الروح، وعالم الجنّ، وعالم الملائكة ـ، حيث كشف علم الكيمياء وعلمُ الأحياءِ اللِّثام عن عالم أو عوالم الكائنات الحيّة غير المرئية، كالميكروبات والڤيروسات والخلايا بأنواعها، وكذلك اكْتشف علمُ الفيزياءِ عالَمَ الجزيئات (molecules) ثم عالم الذرات، ثم الجسيمات الصغيرة داخل الذرات، وكذلك وَسَّع اختراعُ التلسكوب (المنظار) نطاقَ العالم والسماء والفضاء أمام الإنسان، حيث كان قبل ذلك ـ أي قبل صنع المناظير الفلكية التي تُرى بها النجوم البعيدة والمجرَّات ـ يَنْظُرُ الناسُ إلى السماء المزّينة بالنجوم، وخاصة الغربيون المتأثرون بنظريات (بطليموس) الفلكية، فيتصوّرونها سقفاً جامداً لِلكُرَةِ الأرضية، ويحسبون أنَّ النجوم ليست سوى مصابيح مركوزة في ذلك السقف، والأرض مثل صينية كبيرة طافية على سطح الماء! ولكن علم الفلك الجديد المُجَهَّز بالمناظير وغيرها من الآلات، اكتشف أَنَّ أرضنا التي نعيش عليها، ليست سوى تابع من ضمن تسعة توابع، تتشكل بمجموعها المجموعة الشمسية، لأنَّها تدور حول الشمس، وكذلك الشمس ليست مركز العالم كما كان يُتَصوّر، بل هي نجم متوسط

الحجم والعمر، من نجوم مجرة (دَرْبِ التبَّان) والتي تحتوي على أقل تقدير على ملايين النجوم، ومجرّة درب التَّبَان بدورها واحدة من المجرات الكثيرة التي يُكْتَشَفُ منها المزيدُ والمزيد باستمرار!

وإذا كان ما نبصره، سواء بالعين المجردة أو المسلحة بالمجهر أو المنظار، هي المادة الجامدة ـ أو الصحيح التي نحسبها كذلك ـ وظواهرها المحسوسة، فدائرة ما لا نبصره واسعة جِداً، حتى في نطاق عالم المادة نفسها! إذِ المادة نفسها غير المنظور منها أكثر بكثير من المنظور، سواء نظرنا اليها من حيث لَبِناتُها الأساسية ـ في عالمنا الحالي ـ من ذرات وجسيمات دقيقة، والتي لم يَرَها الإنسان من بعد حتى بالمجهر الالكتروني الذي يُكبِّر الأشياءَ أكثر من ستمائة ألف (٦٠٠،٠٠٠) مرة! وإنَّما تعرَّف عليها من خلال آثارها، أو نظرنا اليها من حيث مكوّناتُها الدقيقة الحيّة، كالميكروبات والفيروسات والخلايا.

ثم لا ننس من مخلوقات الله غير المحسوسة، تلك القوة العظيمة الّتي تربطُ المادة بِبَعْضها البعض، بَدْءً بالذرات والجزيئات، وانتهاءً بالنجوم ومجاميعها المسمّاة بالمجرّات والسُّدُم، تلك القوة التي لم يتعرف عليها العلماء إلا من خلال آثارها والتي عرفت باسم (الجاذبية)، وقد ذكرنا من قبل أن الله تعالى اشار اليها بقوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ﴿١٠﴾﴾ [لقمان]. وبقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ﴿٢﴾﴾ [الرعد].





المبحث الرابع

خَلَقَ الله تعالى الخَلْقَ بمجموعهِ بِحقٍ وحكمة وميزانٍ

وهذه بعض الآيات التي تبيّن هذه الحقيقة:

١ ـ ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الجاثية].

٢ ـ ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الأنبياء].

٣ ـ ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ [ص].

٤ ـ ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الدخان].

٥ ـ ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾﴾ [الروم].

٦ ـ ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [العنكبوت].

٧ ـ ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴿٩﴾﴾ [الرحمٰن].

ونقتبس من أنوار هذه الآيات البيّنات، أضواء الحقائق الستِّ الآتية:

١) خلق الله تعالى الخلْق بالحق والحكمة، وهما يتمَثَّلان في ابتلاء الله للإنسان في حياته الأرضية، ثم مجازاته في الحياة الآخرة الأبدية:

وهذا ما بَيَّنَتْهُ الآية (٢٢) من سورة (الجاثية) ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾، والآية (٧) من سورة (هود): ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا . . .﴾.

حيث جعل الله تعالى في آية (الجاثية) مجازاة كل نفس بالعدل، حكمة خلقه السمٰوات والأرض، وفي آية (هود) ربط إيجاد الخلق كلِّه بِابتلاء الإنسان.

والملاحَظُ أنَّ الله يُعبِّر عن خلقه دوماً بـ(السماء والأرض وما بينهما) أو (السّموات والأرض وما بينهما) والحكمة في ذلك كما أرى، هي: أن السمٰوات السبع والأرض من ضمنها، تُشَكِّلُ كُلَّ الخلْق المُرْتبِطِ بنا أو مُعْظَمَهُ على الأقلّ، ثمَّ إنَّ الأرض تُمَثِّلُ بالنسبة لنا أسفل الخليقة وقاعها، وما بقيَ منها فتُمثِّلهُ السّموات السبع، وبناءً عليه: فتعبير (السمٰوات والأرض وما بينهما) يشمل كل الخليقة المرتبطة بنا، من أعلاها إلى أدناها، أو من سقفها إلى قعرها، وكلمة (السماء) يقصد بها جنس السمٰوات، وتشمل السمٰوات السبع كلها، والسماءُ هي كل ما علاك وكل ما فوقك، إلى آخر مدىً يُتَصوَّر، علّواً وصعوداً.

٢) لم يخلق الله تعالى الخلْق لاَعِباً، بل لإحْقاقِ الحق وإزْهاقِ الباطل:

وهذا ما بيّنته الآيات (١٦ و١٧ و١٨) من (الأنبياء)، حيث ينفي الله تعالى أن يكون قد خلق السّماء والأرض وما بينهما لَعِباً، ويقول بِأنه لو أراد

اللعبَ لاتّخذ لعباً من عنده، ولكنَّهُ لم يفعل ذلك، لأن الله تعالى لا يليق به اللّعب واللهو، سبحانه وتعالى عمّا يقولُ الظالمون ويزعمون علواً كبيراً، ثم يُبَيِّنُ بأنَّ الحكمة في خلقه لهما هي قذف الحق على الباطل وزهقه، (والحقّ هو الإيمان والتوحيد وما يثمرانه ويقتضيانه، كما أنَّ الباطل هو الكفر والشرك وما يتولَّدُ منهما)، ثم يهدِّدُ الكَفَرَة الذين يظنون بالله مثل هذه الظنون الفاسدة، بقوله: ﴿وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾، ويفهم من هذه الجملة الأخيرة بوضوح، أن تصوّر كون السماء والأرض وما بينهما خلقت من غير حكمة، هو تصوّر وظن أهل الكفر فقط.

٣) تصوّر كون الخلْق خُلِقَ لغير حكمة، تترتّبُ عليه نتائج خطيرة، إحداها نسبة الظلم إلى الله بتسويته بين أهل الصلاح والفساد، والمتقين والفجار:

وهذا ما بينته الآيتان (٢٧ و٢٨) من سورة (ص) إذْ يبَيِّنُ تعالى فيهما أن تصوّر كون الخلْق خلِق باطلاً وعَبَثاً، ظن الكفار وتوهماتهم الباطلة، وهم يستحقون النار على تلك الظنون والتوهّمات الباطلة، ثم يقول تعالى مُسْتدّلاً على تفاهة ذلك النوع من التفكير: كيف يمكن أن نُسَوِّيَ بين المؤمنين الصالحين والكفار المفسدين، أو بين أهل التقوى وأهل الفجور؟!

٤) كلّ من العلم الصحيح والتفكير السليم، يؤدّيان بالإنسان إلى الإعتقاد بأن الخلْق خُلِقَ بِحقٍ وحكمةٍ:

وهذا ما صرّحت به كل من الآيتيْن (٣٨ و٣٩) من (الّدخان) وآية (٢٨) من سورة (الروم)، إذ أعلن المولى جلَّ وعلا في آيتي (الدخان) بأنه لم يُوجِدِ السّموات والأرض وما بينهما على سبيل اللعب، بل أبدعهما وما بينهما بالحق، ثم يقول: ﴿وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ أي: إن الجَهْل هو الذي يُودي[1] بأكثرية الناس ـ وهم أهل الكفر ـ ويُؤَدِّي بهم إلى ذلك الظن الفاسد بخلق الله المُتَقن الذي لا يُرى في أصغر شيء منه إلى أكبره، أدنى خللٍ بل كل شيءٍ فيه،

(١) أوْدى به ويُودي به: أي أهلكَهُ ويُهْلِكُهُ. المعجم الوسيط، ص١٠٢٢.

وكذلك هو بمجموعه خُلِقَ وأُبدِعَ على أتم ما يكون الخلْق والإبداع، ولو أنَّهم كانوا يملكون العلم لما تورَّطوا في تلك الورطة الفظيعة!

ويقول تعالى في آية (٨) من سورة (الروم) ما معناه بأنَّ الناس لو تفكروا في أنفسهم، أي: قاموا بالتفكّر والتأمل الذاتي حول خلْق الله العظيم المُتَمَثِّل في السّموات والأرض وما بينهما، لوصلوا إلى بَرْدِ اليقين أنَّ الله تعالى لم يخلْق الخلْق إلَّا بالحق والحكمة، وان هذا الخلق له ميقات مُحَدَّدٌ وأجلٌ مقدَّر محتوم، ينتهي عنده وجوده، ثم يقول: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ﴾، وهذا يعني أنهم ـ الكافرين بلقاء ربهم ـ من جرّاء عدم التفكير السّليم وعدم التأمل الذاتي الهاديء حول الخلْق، لم يهتدوا إلى دَرْك حكمة الله في هذا الخلْق، ومن جرّائهِ لم يؤمنوا بلقاء ربّهم الذي لا يتحقق بدونه الحق الذي خلق الله الخلْق من أجله!!

٥) أهل الإيمان يبصرون بنور بصيرتهم وإيمانهم، حكمةَ الله تعالى في خلْقه السّموات والأرض، ويكون إدراكهم لِلحكمة التي خلق الله تعالى الخلْق من أجلها، آية عظيمة لهم على ربوبية الله الحكيم:

وهذا ما صرّحت به الآية (٤٤) من سورة (العنكبوت)، ومن الواضح أنَّ الإيمان لا يتم إلا عن طريق التفكير السّليم والعلم الصحيح، ولهذا كلما كان الإنسان أرجح عقلاً وأغزر علماً ومعرفةً، كان أكمل وأرسخ إيماناً واعتقاداً بالله تبارك وتعالى، والمؤمن مستيْقِنٌ بحقانية الله تعالى، كلما كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ [الحج]، [لقمان: ٣٠]، والله الحقُّ جلَّ وعلا، لا يصدر منه إلَّا الحق أي لا يقول ولا يفعل إلَّا الحق، ولا يخلق ولا يحكم إلَّا بالحقِ، كما قال تعالى:

١ ـ ﴿...مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾﴾ [الأحزاب].

٢ ـ ﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ...﴾ [غافر: ٢٠].

٣ ـ ﴿...قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ...﴾ [يونس: ٣٥].

٤ ـ ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ...﴾ [العنكبوت: ٤٤].
٥ ـ ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ...﴾ [الكهف: ١٨].

٦ ـ وضع الله تعالى في الخلْق ميزاناً دقيقاً، فكل شيءٍ فيه مُقَدَّرٌ تقديراً دقيقاً، وموزوناً ميزاناً مضبوطاً، لذا يجب على الإنسان انْ يُمضيَ حياته طبقاً لميزان الشرع الذي أنزله الله، كي لا يُخالف الإتجاه العام والوضع المتَّزِنَ للخلْق:

وهذا ما تشير اليه الآيات (٧ و٨ و٩) في سورة (الرحمٰن): ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴿٩﴾﴾.

والملاحَظُ أن الله تعالى ذكر لفظ (الميزان) في الآيات الثلاث، ثلاث مرات، في كل آية مرة، وأرى ـ والله هو العليم الحكيم ـ أن (الميزان) جاء في الآيات الثلاث بمعانٍ مختلفة، وليس له في الآيات الثلاث معنىً واحد، وإن كانت المعاني الثلاثة متشابهة ومتقاربة:

أ ـ فالمقصود بالميزان في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾﴾ هو ذلك التوازن الدقيق المُدْهِشُ الذي وضعه الله تعالى في خلْقه، من أصغر مخْلوق كالذرة ومكوّناتها إلى أكبرها ـ حسب علمنا الحالي ـ وهي المجرّة، سواء في كل مخلوق على حِدةٍ، أو في مجموع الخلْق وارتباط بعضه ببعض، وقد ظهر للإنسان قَدَرٌ كبير من ذلك التوازن العجيب، وسيظهر أكثر فأكثر طبقاً لوعد الله الحكيم: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فصلت].

ب ـ وأما المقصودُ به في قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾﴾، فالظّاهر هو الشريعة التي أنزلها الله تعالى لجعل حياة البشر مُتّزِنةً، مُسْتَقيمةً، عدلاً، وقد ربط الله تعالى عدم الطغيان في الميزان الثاني بوضعه الميزان الأول، وهذا يعني: كما أن الخلْق وضع بميزانٍ، ويرتبط بعضه ببعض بميزان، وكل شيءٍ فيه بميزان، كما قال تعالى:

١) ﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۚ وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ ﴿٨﴾﴾ [الرعد].

٢) ﴿وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ ﴿١٩﴾﴾ [الحجر].

٣) ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ ﴿٢١﴾﴾ [الحجر].

فكذلك كونوا أنتم ولا تَشُذُّوا عن القاعدة الكليِّة في الخلق وأمْضوا حياتكم طبقاً لميزان الشريعة، ولا تتجاوزوا الحدود!

وقد جعل الله (الميزان) قريناً لكتابه الذي أنزله بالحق، فقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَۗ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٞ ﴿١٧﴾﴾ [الشورى]. والميزان المقصود في الآية، إمّا هو العدل الذي يُحصَّل باتباع الكتاب، أو هو كل الوسائل التي يُلْهِمُ الله البشرَ لِصُنْعِها وتحصيلها، والتي يحقِّق بها العدل في حياته، ومنها الآلة المعروفة بالميزان والتي تعددت أنواعها في هذا العصر كثيراً.

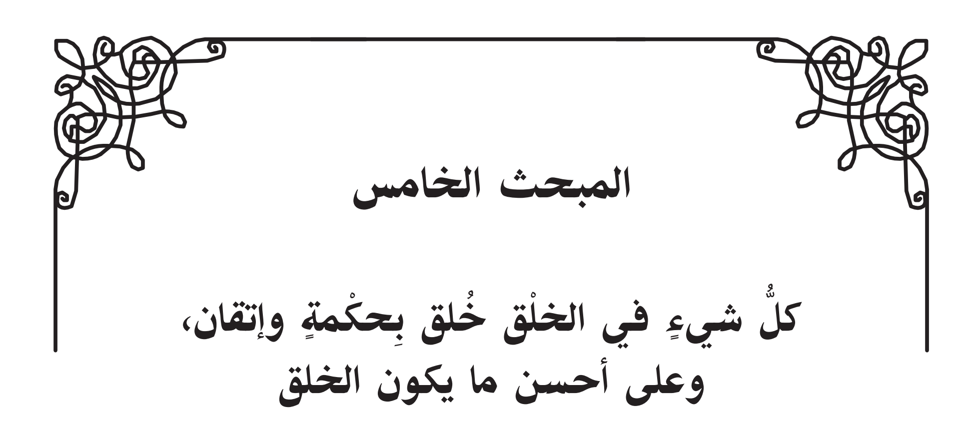
ج ـ ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ﴿٩﴾﴾ فواضِحٌ أنَّ المقصود به هو الآلة المعروفة التي توزن بها الأشياء، وذلك بدليل ذكره بعد الأمر بإقامة الوزن بالقسط، ومعلوم أنَّ الوزن لا يُقامُ بالقسط إلَّا بواسطة الميزان.

وعليه:

فالميزان الأول هو الميزان الخَلْقيُّ الموضوع في عموم الخلق، من حيث كيفياتُ المخلوقاتِ وأحجامُها ومقاديرُها وحركاتُها وارتباطُ بعضها ببعضٍ... إلخ.

والميزان الثاني هو الميزان الأمري الشرعيُّ، الذي أنزله الله لتنظيم حياة البشر وجعلها متزنةً ومنْسَجمةً مع الخلق المُتْقَنِ المتوازن.

والميزان الثالث هو الميزان الآليُّ، الذي هو وسيلة لتحقيق العدل والقسط والميزان في حياة البشر.



المبحث الخامس

كلُّ شيءٍ في الخلْق خُلق بِحكْمةٍ وإتقان، وعلى أحسن ما يكون الخلق

وقد جلّت هذه الحقيقة آياتٌ كثيرةٌ في كتاب الله الحكيم، وهذه أمثلة منها:

١ ـ ﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾﴾ [السجدة].

٢ ـ ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النمل].

٣ ـ ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [الملك].

٤ ـ ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾﴾ [الأعراف].

٥ ـ ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر].

٦ ـ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾﴾ [الأعلى].

٧ ـ ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ [طه].

وبما أنَّنا قد تحدثنا في المبحث الأول من الفصل الأول، عن (حقيقة) ان الله تبارك وتعالى خلق كل شيء في الخلْق، والخَلْقَ بمجموعه، بمنتهى الدقة والإحكام والإتقان والنظام، وعلّقنا على كلٍّ من هذه الآيات التي اسْتشهدنا بها هنا، فلا نعيد ما قلْناه هناك، ولكنْ نقول باخْتصار مؤكدِّين:

مِمّا لا شك فيه ان الله تعالى هو وحده الذي يعلم كلَّ أسْرارِ خَلْقه، والنِّظامَ والإتقانَ العجيبَ المدهِشَ الذي أودعه فيه، سواء من حيث مجمُوعه الكُلِّيُّ، أو من حيث كل مخلوق فيه على حدة، كما قال تعالى: ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك].

ويُبَيِّنُ الخالِقُ اللطيفُ الخبيرُ العليم الحكيم السَّميع البصير جلَّ شأنه، ويُعلِنُ في هذه الآيات المدرجة أعلاه، أنه:

١) خلق كلَّ شيءٍ وأبْدَعَهُ على أحسن وجهٍ وأفضَلِهِ. الآية (٧) من (السجدة).

٢) وأنه أوجد كل مخلوق بلا استثناء بأعلى درجة من الإتقان والنظام، الآية (٨٨) من النمل، والآية (٢) من (الأعلى).

٣) وأنه مهما بَحَثَ الناسُ ودقَّقوا النَّظَر، لا يجدون أدْنى خللٍ في خلق الله، ولا يَعْثرُون على أقَلِّ نقصٍ في شيء، ممّا أوجده الرحمٰن العلي الكبير، الآيتان (٣،٤) من (الملك) والآية (١٨٥) من (الأعراف).

٤) وأنه جلَّ وعلا خلق كل شيءٍ مقدِّراً كل شؤونه تقديراً دقيقاً محيِّراً لِلألباب، الآية (٤٩) من (القمر)، والآية (٣) من (الأعلى).

٥) وانه تبارك اسمه، قد هدى كلَّ مخلوقٍ إلى أداء وظيفته المحدّدة له، فلا يَحيدُ شيءٌ عمّا حُدِّد له قيد أنمُلَةٍ ـ باستثناء الإنس والجنّ اللَّذَيْن أعطاهما الله الحكيم الإختيارَ والحرية في جانبهما الإرادي للإبتلاء والإمتحان ـ، الآية (٥٠) من (طه)، والآية (٣) من (الأعلى).

أجل، هذا ما يقوله الله الخالِقُ العليمُ بما خَلَقَ جلَّ وعلا، عنْ خَلْقه، وهو أصدق القائلين: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ

فِيهِۗ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا ﴿٨٧﴾﴾ [النساء].

وما يقوله خالق الخلق تبارك وتعالى، نَجِدُ مِصْداقَه في عالم الواقع، وعلى صعيدي الأنفس والآفاق، أجْلى من الشمس في الظَّهِيرَةِ، وكلَّما كان الإنسانُ أرجحَ عقلاً وأعمقَ علماً وأوسعَ معرفة، كلما كان أكثر اقتناعاً بالنِّظام والإتقان والإحكام البالغ في خلق الله عموماً، وفي كل شيء على حدةٍ خصوصاً، ولهذا أثنى الله الحكيم على العقلاء والعلماء في مجال الإطِّلاع على أسرار خلقه، وشهود آيات خالقيته وربوبيته، في مرآة ظواهر الخلق المُتْقَنَةِ الصُّنْع، كما قال تعالى:

١ ـ ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران].

فهذا ثناؤه جلَّ وعلا على العقلاء المتفكرين المتأمِّلين في الخلق، والذاكرين لربِّهم والمُدْرِكين لحكمة الوجود.

٢ ـ ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٖ مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهَاۚ وَمِنَ ٱلۡجِبَالِ جُدَدُۢ بِيضٞ وَحُمۡرٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٞ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مُخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَۗ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ [فاطر].

وهذا ثناؤه على العلماء المطَّلعين على بعض أسرار خلقه، وبيان أنهم وحدهم الذين يخشون الله تعالى حق الخشية، لأن الإنسانَ كلّما كان أرْسَخَ قدماً في معرفة خلق الله البديع المتقن الصّنع، كان أبصرَ بصفات خالقه العليم القدير، وبالنتيجة أكثر هيبة منه، وإجلالاً له أشدّ، وخشيةً وحياءً منه وتعظيماً له.

هذا وقد أقَرَّ العلماءُ ـ المُنْصِفون ـ المتخصِّصون في شتى فروع العلم والمعرفة بالحقيقة المذكورة، فعلماء الكيمياء والفيزياء، وعلماء الفلك وطبقات الأرض، والمتخصِّصون في علم النبات، وعلم الحياة (بيولوجيا)،

والأطباء وعلماء التشريح، وعلماء النفس والإجتماع... إلخ، كلهم يُقِرّونَ ـ كلٌّ في مجال اختصاصه الذي تعمَّق فيه أكثر ـ أن الأشياء والمخلوقات كُلَّها خُلِقَتْ وصُنِعتْ على أفضل ما يكون الخلق والصنع، بحيث لا يُتَصوَّرُ أحسن وأفضل ممّا هي عليه الآن.

فالفلكي والفيزيائي ـ مثلاً ـ يقولان:

إنَّ أحجام الأجرام السماوية من نجوم وكواكب وأقمار، وكثافتها، ومسافة بُعْدِ بعضها عن بعض، وكيفية حركتها ودورانها، وقوة جاذبية الرابطة بينها.. وكلِّ شؤونها الأخرى، كان يجب أن تكون كما هي عليه الآن، إذْ لو نَقَصَ أو زادَ أحد تلك المقادير الكثيرة الدقيقة، لاخْتلَّ أمرُها وما استقام سَيْرُها.

وكذلك الطبيب وعالم التشريح، يقولان:

أن الوضع الحالي الذي عليه الجسم البشري الآن، هو الوضع المثالي النَّموذجي الأفضل الذي لا يتصوّر أحسن منه، سواء نظرنا إلى الشكل الظّاهري (الديكور) للجسم، أو نظرنا إلى مُكوِّناتِهِ من جِلدٍ سابغ لكل البدن، وشعر ساترٍ لِما يلزم سَتْرُه من الجسم، كلياً كالرأس، أو جزئيا كبعض الأعضاء، وهيكل عَظْميّ محكم متناسق مترابط، بِدْءاً بجمجمة الرأس، ومروراً بالعمود الفقري، ووصولا إلى أخمص القدمين، وانَّ في ربط العظام بعضها ببعض بواسطة المفاصل العظمية أو الغضروفية البالغ عددها ثلثمائة وستين (٣٦٠) مِفْصَلاً، والذي أشار اليه تعالى بقوله: ﴿نَّحۡنُ خَلَقۡنَٰهُمۡ وَشَدَدۡنَآ أَسۡرَهُمۡۖ...﴾ [الإنسان]، أجل إنَّ في هذه الظّاهرة وحدها لآياتٌ وآياتٌ!، وهذا فقط في الجانب الظّاهري البادي من الجسم، والذي يشترك في الشعور بالإتقان المودَعِ فيه، الناسُ عموماً، ولكن عندما نَنْتَقِلُ إلى الجانب الداخلي الباطني من الجسم، وذلك كالعمل المتقن الدؤوب لأجهزة الجسم المعقَّدة المختلفة الكثيرة، كالدماغ والقلب، وجهاز التنفس، وجهاز الهضم، وجهاز البول، وجهاز الدفاع الداخلي من البدن المتمثل بالكريات البيض، والتي تهاجم أي جسم غريب داخلٍ في الجسم، ولو كان أخبث المكروبات، أو أشد الڤيروسات فتكاً، أو أخطر أنواع السّموم! ثم

أجهزة السمع والبصر والكلام والذوق والشم واللمس... والتي كل منها معجزة في حَدِّ ذاتِهِ، تُحيِّر الألباب، وخاصة جهازي السمع والبصر اللَّذَيْن كثيراً ما يجمعهما الله مع الفؤاد ـ أي العقل ـ[1] وثم... وثم... الخ ـ، نعم عندما نَنْتَقِلُ إلى التأمُّل في هذه المحتويات الداخلية للجسم، فَسَنجِدُ من آيات ربوبية الله وعظمته وعلمه وقدرته ورحمته وحكمته، ما ليس في وسع أي صاحب بيان، أو بنانٍ أن يعبِّر عنها، ولو أفنى فيه عُمُرَهُ! ولهذا قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [التين].

وهكذا كلّ المتخصِّصين في مختلف فروع العلم الكاشف عن سنن الله الحكيمة في خلْقه المتقن الصُّنْع، يُقِرّون بتواضع أن كل مخلوق خُلِقَ وأُبْدِع بإتقانٍ وحكمة وميزان، لا يتُصَوَّر أحسنَ منه، والكلُّ يقولون:

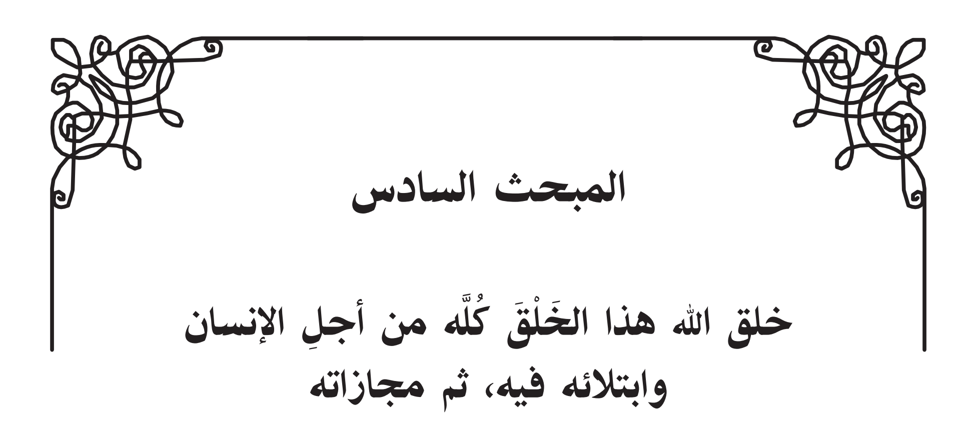
لو أنَّ شيئاً من المخلوقات كان على غير ما هو عليه، في أيِّ جانب من جوانب وجوده، لاختلَّت حالُهُ، ولساءَ مآلُهُ، وتحتَّم زوالُهُ!

وقد نقلنا في الفصل الأول عن (جفري براون) مؤلف كتاب (الحضارة الأوربية في القرن التاسع عشر) قوله: (... بأنَّ جميع الظواهر المادية الملموسة في الكون إنَّما تسلك مَسْلكاً منطقياً معقولاً، وأن ما جعل الإنسان يُسيءُ فَهْمَها هو عقله المشوَّشُ غير المنتظم ليس إلَّا)[2].



(١) سنوضِّح في الباب الثاني من الفصل الأول منه ـ أي الكتاب الثاني من هذه الموسوعة ـ السّبب الذي يدفعني إلى القول بأن المقصود بالفؤاد في كتاب الله الحكيم هو العقل في الأعمِّ الأغلَب وليس القلب، كما هو شائع، ولعلّ الحكمة في كثرة ذكر الله تعالى للفؤاد والسمع والبصر هي: أنَّ الموجودات عموماً إمّا أنَّها غير محسوسة يعرفها العقل عن طريق آثارها، أو مسموعة الصوت غير مرئية الصورة، أو مرئية تُبْصرها العين.

(٢) انظر: الحضارة الأوروبية في القرن التاسع عشر ص ١٤١، جفري براون، وراجِعْ صفحة ٩٣ من هذا الكتاب.



المبحث السادس

خلق الله هذا الخَلْقَ كُلَّه من أجلِ الإنسان وابتلائه فيه، ثم مجازاته

صرَّحت آيات مباركات كثيرة بهذه الحقيقة، وهذه أمثلة منها:

١ ـ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۗ . . . ﴿٧﴾﴾ [هود].

٢ ـ ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ ﴿٢﴾﴾ [الملك].

٣ ـ ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةٗ لَّهَا لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيۡهَا صَعِيدٗا جُرُزًا ﴿٨﴾﴾ [الكهف].

٤ ـ ﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓۗ ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [النمل].

٥ ـ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ لِتَجۡرِيَ فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّر لَكُمُ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ دَآئِبَيۡنِۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ

﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم].

٦ ـ ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَـٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ . . . ﴿٢٠﴾﴾ [لقمان].

٧ ـ ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الجاثية].

ودلالة هذه الآيات جَليَّةٌ جداً على الحقيقة العظيمة التي عَنونّا بها هذا المبحث السادس، وهي كالآتي:

١) أمّا الآية (٧) من (هود) فَيُعْلِنُ الله تبارك وتعالى فيها أنه خلق السمٰوات والأرض في ستة أيام (أي: سِتِّ مُدد زمنية)، وكان حيْنذاك عرشُهُ مستقراً على الماء، ثم يُخاطب الله تعالى البشر، فيقول: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ﴾، أي: إنما خلق الله ما خلق كُلَّه من أجل ابتلائكم وامتحانكم، كي يظهر من خلال الواقع العملي، مَنْ منكم يكون عمله أحسن وأجود وأفضل حسب ميزان الله تعالى العدل!

وبناءً عليه:

فهذا الخلق بسماواته وأرضه، وكلِّ ما يقع بينهما وكلِّ ما تشتملان عليه من مكوّنات، إنما خلقه الله الحكيم كي يبتلي فيه البشر، لذا فهو بمثابة قاعة اختبار وامتحان للبشر!

٢) والآيتان (١،٢) من (الملك) يُعْلن فيهما الله تبارك وتعالى عن عظمته ومجده ومالكيته وقدرته على كل شيء، ثم يُبَيِّن أنه إنما أبدع ظاهرتي الموت والحياة كي يمتحن الناس، ويَبْدُو لَهُ الناسُ من خلال واقعهم وأعمالهم، مَنْ منهم أحسن عملاً منْ غيره، ثمَّ يقول تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾، وذلك كي يعلم المسيئون المستكبرون أن الله تعالى عزيز وسينتقم منهم، ولا يفوتونه،

وكذلك يعلم المحسنون الصالحون، أن الله تعالى غفور، وسيرحمهم ويغفر لهم قصورهم وتقصيرهم.

٣) وفي الآيتيْن (٧،٨) من (الكهف) يبيّن الله الحكيم جلَّ وعلا أنه جعل الأرض مُزَيَّنة أي مُجهَّزَةً بكلِّ ما يحتاجه البشر من المتاع، كي يمتحن الناس، منْ منهم يَسْبِقُ الآخرين في مِضمار العمل الصالح، ويكون أحسن عملاً من غيره، ثم يُعْلِنُ جلَّ شأنه أنه سيجعل وجه الأرض بكل ما عليه من متاع وزينة، أرضاً جرداء ليْس عليها شيء، كزرع محصود لم يبق له أثر! وذلك في نهاية مطاف الحياة الدنيا، وبعد أنْ يؤدِّي الناس امتحانهم.

هذا وقد فسَّر العلماءُ ومنهم (الفضيل بن عياض) كلمة ﴿أَحۡسَنُ عَمَلٗا﴾ بـ(أخْلَصه وأصْوبه) والعمل الخالص هو ما كان لله وحده، ولم يكن لغيره فيه نصيب، كما أن العمل الصائب هو ما كان موافقاً للشرع غير حائدٍ عن جادته، وعليه: فمعنى قوله تعالى: ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا﴾ أي: ليمتحنكم أيكم أخلص له في نيته، وأتبع لشريعته[1]، ولا شك أن الإنسان كلّما ازداد إخْلاصه لله في عبوديته وطاعته له، كلَّما سعى للتحرّي والتفحُّص الأفضل لمتابعة الشرع في كل تصرفاته، إذْ لا بدَّ لعبادة الله من سلوك الصراط المستقيم.

وكذلك كلَّما ازداد تمسكه بشريعة الله ومتابعتُهُ لسنة رسول الله ﷺ كلما ازداد إخلاصاً وتجرُّداً لله تبارك وتعالى.

٤) وفي كل من الآيتيْن (٥٩،٦٠) من (النمل) والآيات (٣٢، ٣٣، ٣٤) من (ابراهيم)، يَربط الله تعالى بين خلقه السمٰوات والأرض من جانب، وإنزاله الماء من السماء، وإنباته النبات، وإخراجه الثمرات للبشر من جانب آخر، إذاً: فكما أن للماء النازل من السحاب (مطراً وثَلْجاً وَبَرَداً) والنبات والزرع والثمرات، علاقةً وطيدةً بحياة البشر، فكذلك لخلق السمٰوات والأرض ارتباطاً وثيقاً بها، فالكلُّ وسائل لتهيئة حياة رغيدة وسعيدة ـ من

(١) أنظر: المصباح المُنير في تهذيب تفسير ابن كثير، ص(٦٢٩).

الناحية المادية ـ للبشر، ولهذا يُعَقِّبُ الله تعالى على آيتي (النمل) بقوله: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ ويُعَقِّبُ على آيات (إبراهيم) بقوله: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾، ومعنى التعقيب الأول هو: كان ينبغي للناس ألَّا يعبدوا مع الله معبوداً آخر، لأنَّه لا يوجد إلهٌ آخر سواه، ولكن الناس ـ أي الكفار ـ ينحرفون عن الجادة، جادة الفطرة والعقل قبل جادة الشرع، وعليه: فعدم انصياعهم لنداء فِطرهم وحُكْمِ عقولهم، ثم وحي ربِّهم، هو الذي أدَّى بهم إلى تلك العاقبة التعيسة.

ومعنى التعقيب الثاني هو: أن نعم الله الكريم لا تُعَدُّ ولا تُحْصى، ولكن الإنسان ـ أي الكافر ـ كثير الظلم لنفسه، وكثير الكفران لربِّه، وإلَّا فما الذي يجعله يبتعد عن ربِّه الذي يَتقلَّبُ في نعمه ليل نهارٍ، وينساه ويعصيه!!

٥) وفي كل من الآية (٢٠) من (لقمان) والآية (١٣) من (الجاثية) يُعلن سبحانه وتعالى أنه سخَّر للناس كلَّ ما في السّموات وما في الأرض، أي جعله طوع إرادتهم، فيتمتَّعون به بقدر ما يكتشفون فيه سُنَنَ الله الحاكمة عليه، وفي آية (لقمان) يُضيفُ سبحانه وتعالى إلى التذكير بنعمة تسخيره ما في السّموات وما في الأرض للبشر، قولَه: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ﴾ والسّابغ من الثياب ما كان كاملاً وشاملاً وساتِراً للجسم كُلِّه[1]، ويقصد بقوله تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ﴾ أي: جعل نعمه عليكم شاملة وكاملة ووافية وكافية، كما قال تعالى في الآية (٣٤) من (ابراهيم): ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ﴾ أي: أعطاكم كُلَّ ما تحْتاجونه في حياتكم الأرضية، وطلبتموه من الله تعالى بلسان الحال.

(١) المعجم الوسيط، ص٤١٤.

والمقصود بالنعم الظّاهرة، هو النعم التي هي بادية للعيان، ولا يحتاج إدراكها إلى التأمل وإمعان النظر، سواء كانت في ذواتنا أو فيما حولنا، والنعم الباطنة هي النعم الخفيَّةُ والدقيقة التي لا يُحَسُّ بها، إلّا بعد التأمل وتدقيق النظر.

ويُفْهَمُ من هذه الآيات البيّنات، أن الله تبارك وتعالى انما أبدع هذا الخلق كُلَّه ليكون قاعة امتحان وساحة اختبار للإنسان، وهذا واضحٌ ومُصَّرحٌ به، وبناءً عليه: فلِلسَّموات كُلّها، والتي لم يكتشف الإنسان منها لحد الآن سوى جزءٍ ضئيل ـ كما سنبين هذا في المبحث الثامن ـ ارتباط بحياة الإنسان الأرضية هذه، وعدم اكتشاف الإنسان كيفية وجوه ارتباط السمٰوات الواسعة الأرجاء، لا يغير من تلك الحقيقة العظيمة التي بيَّنها لنا خالق الخلق وربّ الإنسان في محكم كتابه شيئاً، وربما سيكتشف الإنسان بعضاً أو كثيراً من جوانب هذا الموضوع فيما سَيأتي من الأيام، كما قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فصلت].

وقبل أن نترك هذا المبحث، أذكِّر أن المقصود بالتسخير، في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ...﴾، هو جعل الله تعالى المخلوقات مِطْواعة للإنسان، يمكنه التعامل معها، والإستفادة منها بشتّى الأوجه، والدليل على هذا، بالإضافة إلى دلالة كلمة (سخَّر) في اللغة العربية، والتي تعني جعل الشيء ذلولاً مُنقاداً[(١)]، هو قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الزخرف].

إذْ نرى أن الله تعالى يُعلِّمنا ـ بعد تذكيرنا بنعمة تسخيره الفلك والأنعام لنا لركوبنا ايّاها ـ أنْ نقول عند ركوبنا السفن والدّواب: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ

(١) المعجم الوسيط، ص٤٢١.

لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ ومعنى ﴿وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾ أي: مطيقين وقادرين على تذليلها[1]، وعليه: فجعل الشيء مسخّراً يعني جعله منقاداً ذليلاً سهلاً مُسَيَّراً، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ [الملك]، والذلول صفة للبعير الذي ينقاد لصاحبه عندما يُنيخُهُ أو يُقِيمُه، وكذلك سائر الدّواب التي تُرْكَبُ وتُسْتَخْدَمُ للحمل والنقل[2].

وخلاصة القول:

أن الله تعالى سخَّر هذا الخلْق بِعُلْويِّه وسُفْليِّه، للبشر كي يبتليه فيه، وجعله طَوْع إرادته، إذا ما اكتشف السنن والنواميس التي أودعها الله تعالى فيه وعمل وفقها، والإبتلاءُ فيه كلتا حالتي النجاح والسقوط، ولا بُدَّ للناجِح الفائز من ثواب، كما أنَّه لا بُدَّ للساقط الخاسر من عقاب، حسب حكمة اللهَ وعدله، وهذا ما سنبحثه في المبحث الآتي بإذن الله تعالى.



(١) المصدر السابق، ص٧٣٠.

(٢) المصدر السابق، ص٣١٥.



المبحث السابع

إنَّ للخلق بدايةً بدأ منها، وله نهايةٌ ينتهي اليها، ولكن لا يعلمها سوى الخالق جلَّ شأنه

والآيات الدالة على هذه الحقيقة كثيرة جِداً، وهذه أمثلة منها:

١ ـ ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّىۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعْرِضُونَ ۝٣﴾ [الأحقاف].

٢ ـ ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٌۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ۝٨٥﴾ [الحجر].

٣ ـ ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٥٧ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِيٓءُۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ۝٥٨﴾ [غافر].

٤ ـ ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسِۭ بِمَا تَسْعَىٰ ۝١٥﴾ [طه].

٥ ـ ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَاۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّيۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَۚ ثَقُلَتْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةًۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَاۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٨٧﴾ [الأعراف].

ودلالة الآيات المدرجة أعلاه، على كون هذا الخلق مخلوقاً لمدةٍ معينة، وله أجلٌ وحدٌّ ينتهي اليه، هي كالآتي:

١) في كل من الآية (٣) من (الأحقاف) والآية (٨٥) من (الحجر)

يُعْلن سبحانه حقيقتين اثنتين عن السمٰوات والأرض وما بينهما (أي مجموع الخلق):

أ ـ كون الخلق مخلوقاً بحق: ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: إن هناك حكمة لله تعالى وراء خلقه الخلق، ولم يخلقه عبثاً ولعباً وباطلاً، لأن الله تعالى بعيدٌ ومنَزَّهٌ عن العَبَث واللعب والباطل، ثم لا توجد أيَّةُ شائبةٍ للعبث واللّعب والباطل، في شيء من مخلوقات الله تعالى.

ب ـ كون الخلق مخلوقاً لمدة معينة، وكونه محدّداً له أجلٌ ينتهي اليه: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّىۗ...﴾ [الروم]، و﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٌ﴾ أي: الساعة التي حدّدت فيها نهاية الخلق، آتية لا محالة.

٢) وفي الآيات (٥٧ و٥٨ و٥٩) من (غافر) يبيّن الله العليم الحكيم تبارك اسمه، ثلاث حقائق مُترتِّباتٍ بعضها على بعض بالنّسبة للخلق:

أ ـ كون خلق السمٰوات والأرض أكبر من خلق الناس ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ أي: أن الخالق الذي قَدَر على خلق وإبداع هذا الوجود الذي لا يعلم مداه الا الله، والذي يتمثل في السمٰوات والأرض وما يقع بينهما، فهو يسهل عليه ـ وكل شيء عليه سهْلٌ، لأنه ليس لعلْمه وقدرته وإرادته حدود ـ إعادة خلق الناس وإحياءهم بعد الموت، ثم يقول: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: إن جهلهم هو الذي يحول بينهم وبين اعتقادهم بالبعث بعد الموت.

ب ـ إنه لا يمكن أبداً في ميزان عدْل الله وحكمته، تسوية الأعمى بالبصير، (أي العالم بالجاهل، والعالِمُ الحق هو الذي يعرف نفسه وربَّه، كما أن الجاهل الحق، هو الذي يجهل نفسه ويجهل ربَّه)، ولا المؤمن العامل للصالحات (أي المحسن) بالمسيء: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِيٓءُۚ﴾، ويُعَقِّبُ سُبحانه وتعالى على ما مرَّ ذكره بقوله: ﴿قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ والخطاب موجه لأهل الكفر، أي نادراً ما

تتذكرون الحقائق الفطريةَ التي تدلّ عليها الفِطَرُ والعقول، وإلّا لما أنكرتم البعث والحساب، الذي بدونه تكون حياة الناس عبثاً وباطلاً، حيث يستوي في الحياة الدنيا الصالح والطالح والمحسن والمفْسِدُ، بلْ ربما يكون الطّالح أسعد من الصالح، والمفسد أكثر حظوة من المصلح!! ولا شكّ أن هذا لا يليق بِعدل الله، ولا ينسجم مع حكمته البالغة أبداً.

ج ـ وبعد تقديم البُرهانَيْن القاطعين السّاطِعَيْن السّابِقَيْن، يؤكِّد سبحانه وتعالى مجيء السّاعة، الذي هو يوم الحساب والجزاء: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [غافر]، وإنما عقّب ربّ العالمين على كون الساعة آتية لا محالة، بقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾﴾ لأن أكثر الناس وان اعتقدوا نظرياً بمجيء السّاعة، ولكن يعيشون ويتصرفون كَمَنْ لا يعتقد بوجود القيامة والحساب أصلاً! ومن الواضح كما أنَّ العلم بوجود الله تعالى والإعتقاد بخالقيته وربوبيته يختلف عن الإيمان به ـ وهذا ما سنوضِّحه في الفصل الأول من الباب الثاني بإذن الله ـ، كذلك الإعتقاد والعلم بمجيء القيامة والحساب والجزاء، يختلف عن الإيمان به، إذ الإيمان بيوم القيامة ـ كما سنوضِّحه في الفصل السادس من الباب الثاني باذن الله ـ يَسْتَلْزِمُ العمل والإستعداد لذلك اليوم.

٣) وفي الآية (١٥) من (طه) يبيّن الله تبارك وتعالى في أول كلامه المبارك مع كليمه موسى (عليه الصّلاة والسلام) ثلاث حقائق عن السّاعة:

أ ـ ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ﴾ أي: لا شك في مجيء الساعة، فهي آتية لا محالة.

ب ـ ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ أي أكاد أن أُخفي موعد الساعة حتى عن نفسي! وهذا تعْبيرٌ يُراد به مدى خفاء أجل هذا الخلق الذي لم يُطْلِعِ الله تعالى عليه أحداً، لا مَلَكاً حتى (جبريل)، ولا رسولاً حتى محمداً ﷺ.

ج ـ ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ وهذا بيان لِهَدَفِ وحكمة مجيء الساعة، حيث يجزي الله الحكيم بالقسط كُلَّ نَفْسٍ حسب سعيها وعملها.

ثم يأمر الله تعالى نبيّهُ موسى عليه السّلام، بقوله: ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا

مَن لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرۡدَىٰ ﴿١٦﴾﴾ [طه]، أي فلا تَنْصَعْ لوسوسة الذي لا يؤمن بالساعة، واتَّبع ما تهواه نفْسهُ، فتهلك من جرّاء ذلك.

٤) وفي الآية (١٨٧) من (الأعراف) يُبين الله جلَّ وعلا بِصدد السّاعة، أربع حقائق:

أ ـ يأمر الله تعالى نبيّه الخاتم ﷺ أن يقول في جواب الذين يسألونه عن موعد مجيء الساعة، والذي يُصَوِّرُهُ القرآن بتعبير: ﴿أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَا﴾؟! وكأنَّ الساعة سفينة تَرْسو وتسْتقرُّ بعد إتمام سفرها في المَرْسى (الميناء) المحدَّد لها! ﴿**قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّيۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقۡتِهَآ إِلَّا هُوَۚ**﴾ إذن: حتى رسول الله الخاتم ﷺ لم يكن يعلم عن موعد مجيء الساعة شيئاً، فَعِلْمُ ذلك منحصرٌ في الله تعالى وحده.

ب ـ ثم يعلن الله تعالى أن الساعة ثقيلة وشديدة الوطأة على كل من في السّموات وكل ما فيها، إذْ هي انقلاب عظيم هائلٌ، يحدث في الخلق كلّه: ﴿**ثَقُلَتۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ**﴾.

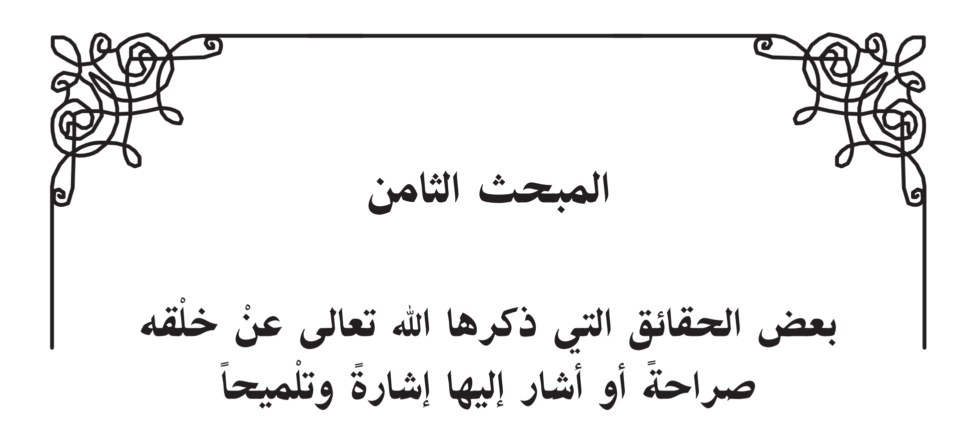
ج ـ ثم يخبرنا الله الحكيم أن السّاعة إنّما تأتينا فجأة، وعلى حين غِرَّةٍ وغفلة: ﴿**لَا تَأۡتِيكُمۡ إِلَّا بَغۡتَةٗۗ**﴾، لذا يجب أن نكون في استعداد وحذر دائم، ولا شك أن من لَمْ تَفْجَأْهُ القيامة الكبرى في الخلق كله، فسَتَفْجأُهُ القيامة الصغرى في خاصة نفْسه! ولهذا قيل: (من مات فقد قامَتْ قيامتُهُ) وهناك بعض الأحاديث النبوية في (صحيح اليخاري) و(صحيح المسلم) وغيرهما من كتب الحديث، عبّر فيها رسول الله ﷺ عن الموت بالساعة، وقصده الساعة الصغرى بلا شك، ومن تلك الأحاديث أنه جاءه وفد فسأله عن الساعة، فنظر فيهم، ثم أشار إلى أصغرهم سِنّاً، وقال: «**إِنْ يَعِشْ هَذَا لَمْ يُدْرِكْهُ الْهَرَمُ قَامَتْ عَلَيْكُمْ سَاعَتُكُمْ**» (رَوَاهُ مُسْلِمٌ برقم: (٧٣٣٥)[1]، وهذا

(١) أُنظُر: صحيح مسلم: (٢٩٥٢)، وَرَوَاهُ البُخَاري وَمُسْلم بلفظ آخر، هذا نَصُهُ: عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ رَجُلاً سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: مَتَى تَقُومُ السَّاعَةُ؟ قَالَ: فَسَكَتَ رَسُولُ الله ﷺ هُنَيْهَةً ثُمَّ نَظَرَ إِلَى غُلَامٍ بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ أَزْدِ شَنُوءَةَ، فَقَالَ: «**إِنْ عُمِّرَ هَذَا لَمْ يُدْرِكْهُ الْهَرَمُ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ**» (صحيح البخاري رقم: (٦١٦٧)، وصحيح مسلم: رقم: (٧٣٣٧) و(٢٩٥٣١).

واضحٌ أن المقصود بالساعة في قوله: «**ساعتكم**» إنما هو أجل الموت، ومعلومٌ انه عندما يَهْرَم الصغيرُ يموت الكبير، فمعنى قوله: «**قامت عليكم ساعتكم**» أي: يأتيكم أجلكم وتموتون.

د ـ ثم يأمر الله تعالى نَبِيَّه الكريم، أنْ يقول في جواب الذين كانوا يُلِحّون عليه في السؤال عن القيامة، ظانين أنه مُطَّلِعٌ عليها: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ أي: لا يعلمون أنّ الله تعالى قد حَصَرَ عِلْمَ موعد الساعة في نفْسه، ولا يعلمه سواه.





المبحث الثامن

بعض الحقائق التي ذكرها الله تعالى عنْ خلْقه صراحةً أو أشار إليها إشارةً وتلْميحاً

ونكتفي بذكر الحقائق الخمس الآتية، كلٌّ منها في مطلب على حِدَة:

١ ـ محتويات الخلق سبعة أشياء رئيسة: العرش، وسدرة المنتهى، والجنّة، والسمٰوات، والأرض، وما بينهما، وجهنَّمُ.

٢ ـ المادة التي خلق الله منها السّموات، هي الدخان.

٣ ـ السّموات والأرض كانتا كتلة واحدة ملْتصقة، ثم انفصلتا.

٤ ـ خلق الله السّموات والأرض وما بينهما في ستِ مراحل زمنية.

٥ ـ كل الكائنات الحيّة مخلوقة من الماء.

والآن نُلْقي ضَوْءَ كتاب الله المبين على كل من هذه الحقائق الخمس، حسب التسلسل الذي ذكرناه، ونبدأ بالأولى في المطلب الأول:

❊ ❊ ❊

المطلب الأول
محتويات الخلق سبعة أشياء رئيسة، وهي: العرش، وسِدْرة المُنْتهى، والجنّة، والسّموات، والأرض، وما بينهما، وجَهنَّمُ

وبداية أقول: انما نقصد بكلمة (الخلق) كلَّ الموجودات التي أخبرنا الله تعالى في كتابه الحكيم أنه خلقها وأوجدها ـ غير الملائكة الكرام والجنّ والإنس ـ، وبعد اسْتقرائي لكتاب الله، أرى أن الموجودات الأساسية التي يتكون منها الخلق، هي هذه الأشياء السبعة، والتي رتَّبْتُها حسب أَهَميتها، أو من الأعلى إلى الأدنى:

١ ـ العرش:

وانما بدأنا بالعرش لأنه هو أعظم المخلوقات وأَهَمُّها وأعلاها وأسْبقُها في الوجود، وهذا جليٌّ بَيِّنٌ لمن تدبر الحقائق الآتية التي ذكرها الله تعالى عن عرشه:

أ ـ إن الله تعالى مستوٍ على عرشه على الوجه الذي يليق به:

وقد ذكرنا في الفصل الأول أن الله تعالى بيَّن اسْتواءَهُ على عرشه في سبع آيات مباركات من كتابه الحكيم، وهي هذه الآيات:

(٥٤) من (الأعراف)، و(٣) من (يونس)، و(٢) من (الرعد)، و(٥) من (طه)، و(٥٩) من (الفرقان)، و(٤) من (السجدة)، و(٤) من (الحديد).

وهذا دليل واضح على أن العرش هو أعظم المخلوقات وأهمها وأعلاها، كيف ودونه المخلوقاتُ كلُّها، وليس فوقها سوى الله تبارك وتعالى، الذي ليس كمثله شيء، لا في ذاته ولا في صفاته.

ب ـ وكان العرش موجوداً قبل أن يخلق الله السّموات والأرض:

كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ﴾ [هود].

نعم فقد سبق وجودُ العرش وجودَ سائر الخلق، لأن قوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ يعني قبل خلق السمٰوات والأرض.

ج، د، هـ ـ: وقد وصف الله تعالى عرشه بـ(العظيم) و(الكريم) و(المجيد):

كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾﴾ [النمل]، وقال: ﴿. . . لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون]، وقال: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [البروج]. وذلك إذا قُرِئَ لفظ (المجيدِ) بالكَسْر كصفة للعرش.

و ـ وبيّن الله تعالى أن الملائكة هم الذين يحملون عرشه الآن، وَيلْتفُّون حوله:

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ . . .﴾ [غافر].

ز ـ وكذلك أخبرنا سبحانه وتعالى أنه سيحمل عرشه يوم القيامة، ثمانية:

كما قال تعالى: ﴿. . . وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَاۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾﴾ [الحاقة].

وأولئك الثمانية وإن لم يُصَرَّح به، هل أنَّهم من الملائكة الكرام أم لا؟ ولكن الظّاهر أنهم من الملائكة، وانما استغنى عن التصريح بهم، لوضوح ذلك، ولو كانوا من نوع آخر من المخلوقات، لَبَيَّن ذلك، والله هو العليم الحكيم.

٢ ـ سِدْرة المُنْتهى:

وسدرةُ المنتهى مذكورة مرَّة واحدة[١] في كتاب الله المبين، في سياق

(١) أي بلفظ (سدرة المنتهى) وإلَّا فقد كرَّر سبحانه تعالى ذكرها مرة أخرى وفي نفس السياق بلفظ (السِّدْرة)، وواضحٌ أن المقصود بها هو نفسها، وقد وصف النبيُّ ﷺ في=

آيات تتحدث عن مسألة إيحاء الله تعالى إلى نَبيِّه محمد ﷺ عن طريق جبريل، كما قال تعالى: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾ [النجم].

والمقصود بهذه الآيات باختصار، هو أنَّ الله تعالى يخاطب الكفار الذين كانوا يشكُّون في رؤية النبي ﷺ لجبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ وكانوا يتَّهمونه بأن ما يراه هو شيطان وليس مَلَكاً!، فقال تعالى مُفنِّدا اتهَّامهم المذكور، أوَ تجادلونه في الذي يراه؟ ولقد رآه مرةً أخرى (أي رأى النبيُّ ﷺ جبريلَ في صورته الحقيقية مرة أخرى) عند سِدرة المنتهى، والتي تقرب منها جنَّةُ المأوى، حيث يغشى السدرة ما يغشاها (ولا يعلمه إلا الله) ولمْ يَمِلْ بَصَرُ رسول الله عمّا رُسِمَ له، أنْ ينْظر إليه وَلمْ يتجاوز الحَدَّ، ولقد رأى النبَّيُّ عِدَّةَ آيات من آيات ربه الكبرى (في سفره ذلك وهو سفر الإسراء والمعراج، كما هو واضح من السياق)[١].

و(السِّدْرة) هي الشجرة[٢]، وكلمة (المُنْتَهى) تدلّ على أن تلك الشجرة تقع في نهاية المخلوقات، ونحن لا نعلم شيئاً عن تلك الشجرة، غير ما يدلّ عليه اسمها، إذْ يبدو حسب اسمها أنَّها شجرة عظيمة، وأنّها في نهاية

= حديثه عن المعراج (سدرة المنتهى) بقوله: «...**ثُمَّ ذَهَبَ بِي إِلَى السِّدْرَةِ الْمُنْتَهَى، وَإِذَا وَرَقُهَا كَآذَانِ الْفِيلَةِ، وَإِذَا ثَمَرُهَا كَالْقِلالِ، قَالَ: فَلَمَّا غَشِيَهَا مِنْ أَمْرِ الله مَا غَشِيَ تَغَيَّرَتْ، فَمَا أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ الله يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْعَتَهَا مِنْ حُسْنِهَ..؟**» (رَوَاهُ مُسْلِمٌ برقم: (٤٢٩)، وَرَوَاهُ البُخَارِي أَيضاً لَكِن بلَفْظٍ آخَر.

(١) وقد روى كل من (البخاري) و(مسلم) في صحيحيهما حديث رسول الله ﷺ عن (الإسراء والمعراج) وسنورد الحديث بطوله في المبحث العاشر من الفصل الخامس من الباب الثاني ـ أي الكتاب السابع من هذه الموسوعة ـ، بإذن الله تعالى، والذي سنتحدث فيه عن (خاتم الأنبياء) محمد ﷺ.

هذا وأورد (البخاري) حديث الإسراء والمعراج في أكثر من موضع في صحيحه. أُنظر على سبيل المثال، الحديث رقم:٣٤٩، والحديث رقم:٧٥١٧.

(٢) مختار الصّحاح، ص٢٦٣، لفظ: س د ر (السّدْرُ: شَجَر النّبْقِ واحدُهُ: سِدْرة والجمع: سِدْرات).

المخلوقات، وهي قريبة من الجنّة، كما صُرِّح به في الآيات، وبما أن الجنّة قريبة من عرش الله تعالى، كما يبدو من قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾﴾ [القمر]، فسِدْرة المنتهى أيضاً قريبة من العرش، وربَّما هي فوق الجنّة وتحت العرش، والعرش سقف أعلى درجة في الجنة وهي الفردوس كما جاء في الحديث الصحيح[(١)].

٣ ـ الجنّة:

ومن المخلوقات التي ذكرها كتاب الله وأكثر من ذكرها، هي الجنّة، وهي قريبة كما ذكرنا قبل قليل من سِدْرة المنتهى، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾﴾ [النجم].

والظّاهر أنَّ الجنّة هي دون سِدْرة المنتهى وفوق السّموات السبع، وسنتحدثُ عن هذا الموضوع في الفصل السادس المخصَّص لليوم الآخر من الباب الثاني بإذن الله تعالى.

٤، ٥، ٦ ـ السَّموات السَّبع، والأرض، وما بينهما:

ذكر الله تعالى هذه الثلاثة مقترنة بعضها ببعض، أو منفردة، في آيات كثيرة، وقد ذكرناها في السابق، لذا نكتفي هنا بهذه الآية: ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾﴾ [الأحقاف].

وكذلك ذكر الله تعالى في أكثر من آية أن السّموات سَبْعٌ، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ

---

(١) عَن أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «. . . **إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا الله لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ الله مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ فَإِذَا سَأَلْتُمُ الله فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ أُرَاهُ فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ**» (رَوَاهُ أَحْمَد برقم: (٨٥٢٦)، وَالبُخَارِيُّ برقم: (٦٩٩٥)، وَالتِّرمِذِيُّ برقم: (١٢٨١)، وَابْنُ مَاجَه برقم: (٤٣١٤).

فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٞ ﴿٢٩﴾﴾ [البقرة].

وأما (الأرض) فما ذكرت في القرآن إلّا مفردة، والمقصود بها أرضنا التي نعيش عليها، والتي هي كوكب من ضِمن تسعة كواكب تدور حول الشمس وتسمّى: (المجموعة الشمسية) وهذه أسماؤها: الأرض، المِرِّيخ، المشتري، الزُّحَل، نبتون، بلوتو، أورانوس، عطّارد، زهرة.

والآية الوحيدة التي أشارت في كتاب الله إلى تعدد الأرض كالسماء، وهي آية (١٢) من (الطلاق): ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ﴿١٢﴾﴾.

ولكن لمْ يَتَبَيَّن لي لِحدّ الآن، ما المقصود بقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ﴾؟ هل المقصود هو أن هناك سبع أرضين منفصلات بعضها عن بعض؟ أم المقصود هو القارات السبع: آسيا، أفريقيا، أوروبا، أمريكا، أستراليا، القطب المتجمد الشمالي، القطب المتجمد الجنوبي؟ أو المقصود هو طبقات الأرض؟ أو غير ذلك؟ فلا أستطيع الجزم بشيء في هذا الموضوع.

واما كلمة (وما بينهما) فالمقصود بها هو: كلُّ ما يَقَعُ بين السّموات والأرض، أي الأشياء التي توجد في المكان الذي يعتبر حداً فاصلاً بين السّماء والأرض.

والظّاهر أن السّماء أو ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾ هي المحتوى الأساسي للخلق، أو على الأقل الخلق المرتبط بحياة الإنس والجنّ الإبتلائية.

وبما أن كلمة السماء تعني الجهة العليا مطلقاً، والكرة الأرضية معلقة في الفضاء وتحيط بها السماء من جميع جهاتها، فالأرض جزءٌ من السماء، وكلمة (السماء) أو (السّموات) يشمل مفهومها الأرض وغيرها من الكواكب والنّجوم.

وقد أطلق الخالق جلّ شأنه أوصافاً كثيرة على السّماء، نتعَّرف من

خلالها على كثير من خُصوصياتِها، وقبل أن نخوض في ذكر تلك الأوصاف، نذكّر بأن المقصود بكل من: (السماء) و(السّموات) و(سبع سموات) هو شيء واحد، وهو الجهة الفوقانية المحيطة بالأرض، ممتدة إلى المدى الذي لا يعلمه سوى الخالق جلَّ وعلا.

وهذه هي الأوصاف التي أطلقها كتاب الله الحكيم على السَّماء:

أ ـ السمٰوات سبع، وهي متطابقة بعضها على بعض:

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ . . .﴾ [الملك]، وقال: ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ كَيۡفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلۡقَمَرَ فِيهِنَّ نُورٗا وَجَعَلَ ٱلشَّمۡسَ سِرَاجٗا ﴿١٦﴾﴾ [نوح].

ويبدو من هذه الآيات وأمثالها أن السمٰوات السبع، طبقات بعضها على بعض، وتحيط الثانية بالأولى والثالثة بالثانية والرابعة بالثالثة والخامسة بالرابعة والسادسة بالخامسة والسابعة بالسادسة، وتحيط الكلُّ بالكرة الأرضية والمجموعة الشمسية وتشتمل عليهما، كما تحيط أقشار البصلة المتطابقة بعضها على بعض، بما يعتبر كنواة لها.

ودليلي على هذا بالإضافة إلى دلالة كلمة (طباقاً) هو: أن الله تعالى ذكر أنه جعل القمر نوراً في السّموات السّبع، وجعل الشمس سراجاً فيهنَّ، وبما أن كلاً من الشمس والقمر يقعان في حدود السّماء الأولى، وهي السماء الدنيا التي زيّنها الله بالمصابيح، كما سنوضح هذا بعد قليل، فلا يمكن أن يكون (القمر والشمس) داخلين في دائرة السّموات السبع كلها، وأن يكُنَّ مشتملات عليهما، إلَّا إذا كانت هيئة السّموات السّبع على الصورة التي ذكرناها.

ب ـ السّماء شديد الخلق واسع النطاق، وهي ذات عظمة وضخامة لا يعلم مقدارها الا الله تبارك وتعالى:

كما قال تعالى: ﴿ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمۡكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغۡطَشَ لَيۡلَهَا وَأَخۡرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾﴾ [النازعات]، وقال: ﴿وَبَنَيۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعٗا شِدَادٗا

﴿١٣﴾ [النبأ]، وقال: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [غافر]، وقال: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الذاريات].

ج ـ السَّماء فيها الطرق:

كما قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ﴿٧﴾﴾ [الذاريات]، والحبك جمع (حبيكة) وهي الطريق، ومن الطرق التي في السّماء الأولى، هي مدارات النجوم، والتي أقسم الله تعالى، بها حيث قال: ﴿۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ [الواقعة].

والملاحظ أن الله تعالى علَّق إدراك عظمة إقسامه بمواقع النجوم بالعلم، وفعلاً بعد أن تطوَّر علم الفلك وعلم الفيزياء، واطَّلع البَشَرُ على شيء من أسرار النجوم ونظامها المدهش، وكيفية حركتها ودورانها في مواقعها ومداراتها التي حُدِّدَتْ، من دون أنْ يحيد أحدٌ منها عن طريقه المرسوم قيد شعرة، الآن يُدرك الناس أكثر من أي وقت مضى، عظمة قسم الله العظيم جلَّ وعلا بمواقع النجوم.

د ـ السّماء الأولى الأقرب إلينا ـ نحن أهل الأرض ـ مُزَيَّنة بالنجوم والكواكب ومحروسة بالشهب المنفصلة عنها وبالملائكة، من الشياطين أن يتسمَّعوا إلى أخبار السّماء، وهذه بعض الآيات البينات بهذا الصَّدد:

١) ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾﴾ [الصافات].

٢) ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾ [فصلت].

٣) ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾﴾ [الملك].

٤) ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ

شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾ [الحجر].

٥) ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْءَانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾﴾ [الجن].

والمقصود بالسّماء الدنيا هو السّماء الأقرب الينا، أي: السماء الأولى، لأن (الدّنيا) مؤنث (الأدنى) أي الأقرب.

وقد استعمل كتاب الله كلمات (المصابيح، والكواكب، والبُروج) بمعنى (النجوم) كما هو ظاهر في الآيات، والتفريق بين النجم والكوكب، بأن الأول له ضَوْءٌ ذاتي، والثاني له نورٌ مكتسب، هو تعريف اصطلاحي، ولكن ربَّما يُسْتأنس له بقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا. . .﴾ [يونس].

والدليل على أن السّماء الدنيا محروسة ومحفوظة من الشياطين المسْترقين للسَّمع، هو كُل من الآيات التي أدرجناها أعلاه، إذْ كلّها واضحة الدلالة على ان الله تعالى قد حفظ السّماء الدنيا من الشياطين، وصُعودِهِم للإسْتماع إلى الملأ الأعلى ـ أي الملائكة الكرام ـ كما قال تعالى: ﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾﴾ [الصافات].

واما الدليل على أن ذلك الحفظ للسّماء الدنيا: إنَّما يتم بواسطة كل من الملائكة الكرام، والشُّهب المُنفصَلة من النجوم، فهو:

أولاً: قول الجنّ المؤمنين الذين اسْتمعوا إلى الرسول الخاتم، وهو يقرأ القرآن وآمنوا به، حيث قالوا: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾﴾، والحرس الشديد هم الملائكة بلا شك، بل القاذفون والرّامون بالشّهب هم الملائكة الحارسون للسّماء كذلك، لأن الله تعالى بيّن أن الشياطين المَرَدَة المُسْترِقين للسّمع، يُقْذَفون من كل النواحي والجهات: (ويقذفون من كل جانبٍ) ولا بُدّ للقذف من قاذفٍ، والقاذفون للشهب هم نفس الحرس الشديد الذين أوْكَل الله إليهم حِفْظَ السّماء الدنيا من صعود الشياطين.

ثانياً: وكذلك قول الجنّ: ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْآنَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾، إذْ من الواضح أن حالة الرصد والترقّب لرمي الشياطين بالشهب، لا يمكن إلَّا أنْ تكون من ذوي الشعور وهم الملائكة الكرام.

وقد جاء في الأحاديث النبوية أن حراسة السماء الدنيا إنّما شُددّت أكثر من ذي قبل، بعد بعثة النبّي الخاتم، قطعاً للطريق أو تضييقه أكثر على الشياطين والكهّان والعرّافين المدَّعين لمعرفة الغيب، ويدل على هذا بوضوح قول الجنّ: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْآنَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾﴾، وقد جاء في الأحاديث أن الجنّ لما عرفوا هذا التغيير الحاصل في السّماء، دفعهم هذا إلى البحث والتنقيب عن حادث حدث في الأرض، فحصل بسببه هذا التغيُّر في وضع السّماء، ومن خلال بحثهم وتنقيبهم عثروا على خبر رسول الله ﷺ فجاؤه واستمعوا له، كما قال تعالى حاكياً قِصتهم[1]: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْآنَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾﴾ [الجن].

ثالثاً: ويدل عليه أيْضاً قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾ [الحجر]، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾﴾ [الصافات]، اذْ كلمة (أتْبعه) واضحة الدلالة على أن ذلك الشهاب الواضح النافذ الحارق الذي يُرْمى به الشيطان المارد المُسْتَرِقِ للسّمع، هناك رام وقاذفٍ يرمي به ويُتْبِعَهُ الشيطانَ المُسْترِقَ للسَّمع! وبناءً على كل ما تقدمً ذكره، يمكننا القولُ:

إنّ كلّ ما نشاهِدُهُ في السّماء من النجوم والمجرات سواء بالعين المجرّدة أو التلسكوبات (المناظير الفلكية)، هي كلّها داخلة في حدود السماء الأولى الأقرب الينا، والسّموات الستُّ الباقيات فوقها، وان كُنّا لِحدِّ الآن لا نعرف حدود انتهاء السماء الأولى، وبداية السماء الثانية، وبالأحرى ألَّا نعْلم شيئاً عن حدود السمٰوات الأخرى الأبعد مِنّا! وكلمة (الكون) التي يعبر بها عن الخلق،

(١) وقد روى هذه القصة كل من البخاري: ٧٣٩، ومسلم: ٤٤٩، والترمذي: ٢٨٦١، وأبو داود: (٣٢/١)، وأحمد: ٤١٤٩، وانظر: (المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير)، ص١٢٧٣.

مفهومها ليس أضْيَق بكثير من مفهوم كلمة (الخلق) فَحَسْبُ، بل أَضْيَقُ حتى من مفهوم (السمٰوات)، بل و(السماء الدنيا) أيضاً، إذْ لم نشاهدْ لِحد الآن بمناظيرنا البعيدة المدى، سوى جزءٍ من السماء الدنيا، والدليل على ما قلنا: أنَّ الله تعالى بيّن في أكثر من آية أنه زيَّن السّماء الدنيا بمصابيح، وعليه:

فكلُّ ما نشاهدها من نجوم متناثرة ـ حسب رؤيتنا وإلَّا فهي كُلُّها داخلِةٌ في منظومات محسوبة في كل النواحي ـ ومجرات، فهي كلّها من مكوّنات السماء الدنيا المزيّنة بالمصابيح!

وقد ذكرنا من قبل أن علماء الفلك يقولون:

إن شمسنا ليست سوى نجم متوسِّط الحجم من ضمن آلاف بَلْ ملايين النجوم والتي تتكون منها مجرتنا الأقرب الينا والمسمّاة بـ(دَرْب التَّبّان)!

ولكن لا شك أنَّه من الغباء وسُخْفِ الرأي أن يُستَنْتَج من سعة (الكون) والذي كما قلنا لَيْسَ سوى جزءٍ من السماء الأولى فقط! وصِغَرِ حجم الأرض، بأنَّ الأرض شيءٌ صغيرٌ تافِهٌ بالنسبة للكون، كما يزعم بعض الملاحدة أو المتأثرون بأفكار الملاحدة، وذلك لأن المخلوقات لا تقاس بأحجامها بل بمحتوياتها وكيفياتها، وإلَّا لكان ينبغي أن تكون الفِيلَةُ والحيتان والكركدنات أكثر أهمية من الإنسان، لأن كُلاً منها تُساوي من حيث الحَجْمُ مجموعةً من الناس، وليس إنساناً واحداً فحسب!

أجل أن أرضنا التي نعيش عليها صغيرة في حجمها، ولكنها كبيرة وعظيمة ومُهمة جِداً، من حيث كيفيتها ومحتوياتها، ولولا أن الأرض لها أهمية عظيمة جداً لَما أكْثرَ الله الحكيم من ذكرها في كتابه الكريم، إذْ ورد اسم الأرض وتكرر في كتاب الله بعدد مساوٍ لورود اسم السماء!

والمعرفة الصحيحة بالخلق، إنما مصدرها الوحيد هو الوحي الربّاني، وإلَّا فإن الفكرة الإلحادية السخيفة التافهة التي أرادت يوماً ما ومن خلال النظريات الخرافية كالدارونية والفرويدية والماركسية، أن تجعل الإنسان مجرد حيوانٍ راقٍ أرقى بشيء من القِرد! فهي لا تأبى كذلك أن تجعل الأرض ـ بسبب صغر حجمها ـ مجرد هباءة تافهة في الكون العريض!

والإنسان دَوماً يقيس الأمور بنفسه ـ أي الإنسان الكافر ـ فهو بما أنه يرى نَفْسَه تافهةً، وحياته تافهة لا قيمة لها، وهذا صحيح بالنسبة له، إذْ ليست حياة الكافر سوى لهو ولعب، مثلها مثل حياة الحيوانات والبهائم، لذا يتصوّر أن الأمور كلّها بما فيها الأرض والسماء هي على نفس الشاكلة! ولكنها الغفلة عن النفس وعن الخلق، ولهذا يقول سبحانه للكافر عند قبض الروح أو يوم القيامة: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾ [ق].

وكأنَّ الكافِرَ في بئر مُغطّاةٍ أو في داخل قِدْرٍ كبير، وعندما يُرْفَعُ عنه الغِطاءُ يُفاجَأُ بما يرى! وهذا هو السبب في أن الكفار يقولون يوم القيامة: ﴿...وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ [السجدة]، وهذا هو الموضع الوحيد الذي قُدِّم فيه ذِكْرُ البصر على السمع، إذِ الكفار يوم القيامة، يرون المَشاهِدَ والأهوال، قبل أن يسمعوا الأصوات!!

٧ ـ جهنّم:

وإنّما أخَّرْنا جهنّم، لأنَّنا بَدَأنا بالأعلى نزولاً إلى الأسفل والأدنى، والظّاهر من الآيات أن جهنم هي أنزل المخلوقات وأسفلها، وهذا ما سَنوضِّحه في موضعه في الفصل السادس من الباب الثاني بإذن الله تعالى، وقد ذكر سبحانه وتعالى جهنّم سواء بلفظ (جهنّم) أو (النّار) أو (نار جهنّم) في آيات كثيرة جداً، نكتفي منها بهذه الآيات الثلاث:

١ ـ ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾﴾ [النبأ].

٢ ـ ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾﴾ [ص].

٣ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾﴾ [فاطر].

فهذه الأشياء السبعة هي مكوّناتُ الخلق ومحتوياته الرئيسة، حسبما يبدو من كتاب الله المبين، والله تعالى هو العليم الحكيم.

* * *

المطلب الثاني
المادة التي خلق الله منها السّموات هي الدّخان

وهذا ما صَرَّحَ به كتابُ الله تعالى، كما قال تعالى في الآيتيْن (١١، ١٢) من (فصلت): ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ۝١١ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ...﴾.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ يعني: ثم قصد الله تعالى خلق السماء وكانت في حالة دخان (أي كانت مادَّتُها التي شكَّلها الله منها في حالة غازية)، وذلك لأن ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾ إذا عُدِّي بـ(على) يفيد الصعود والإرتفاع والإستقرار، كما بيّنا من قبل، ولكن إذا عُدِّي بـ(إلى) يفيد التوجّهُ والقَصْد الجازم إلى فعل شيء[١].

وجدير بالذكر أن النظريات الباحثة عن كيفية نُشوءِ (الكون) انتهت إلى النظرية القائلة بأن أصل الكون قبل تشكلِّهِ بصورته الحالية، كان مادة غازية مُخَلْخَلةً، وبعد تَجَمُّعها وتشكُّلها في كتلة واحدة، ونتيجة لارتفاع درجة حرارتها الداخلية بشكل مُذهِل، حدث فيها انفجارٌ ضخمٌ هائلٌ، وأخيراً خرج الكون بصورته الحالية.

ومن الواضح أن هذه النظرية عموماً قريبة لما جاء في كتاب الله بصدد خلق السماء، ولكن نحن لا نُعَوِّل في تفسير كتاب الله تعالى على النظريات حتى تتجاوز عتبة النظرية، وتُصْبح حقيقة علمية، ومن الجَليِّ أن حقائق الوحي تُصَدِّقُها حقائِقُ العلْمِ دَوْماً، لأن بداية الوحي هي نهاية العلم، أي أن الدراسات والبحوث العلميَة متى انتهى بها المطاف ووصلت إلى الخاتمة اليقينية، تكون قد وصلت إلى ما يقولُهُ الوَحْيُ.

ولهذا نقول:

يستحيل أن يتصادم الوحي الصريح مع العلم الصحيح، وإِنَّما يَتَناقَضُ

(١) المصباح المنير، ص١٥٥، و(المعجم الوسيط)، ص٤٦٦.

ويتصادم العِلْمُ والدِّين المحرَّف أو الخُرافيُّ، أو الدين الحق والنظريات الخاطئة المحسوبة على العلم ظُلْماً.

والملاحَظُ ان الله تعالى ذكر الأرض أيضاً عند حديثه عن خلق السَّماء من الدخان حيث قال: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ والحكمة في ذلك ـ على ما أرى والله تعالى هو العليم الحكيم ـ هي أن الأرض إنما هي جزء من السماء، فكانت مادتها نفس مادة السماء، وكذلك كان خلقها مرافقاً لخلْقها بل من ضمنها.

وسنزيد هذه المسألة إيضاحاً في الحقيقة التالية:

❋ ❋ ❋

المطلب الثالث
السمٰوات والأرض كانتا كتلة واحدة مُلْتصقة، ثم انفصلتا

وهذه حقيقة أخرى ذكرها الله تعالى في الآية (٣٠) من (الأنبياء): ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا... ﴾ والرتق هو الإلتصاق والتَّضامُّ بين أجزاء الشيء الواحد[1]، والفَتْقُ هو الفَرْقُ والفَصْلُ[2]، وقد توصَّلتْ بعض النظريات في نهاية المطاف إلى تقرير هذه الحقيقة التي بَيَّنها كتاب الله تعالى قبل قرون كثيرة، اذْ تقول تلك النظريات:

انَّ الأرض ليست سوى جزءٍ منفصل عن الشمس، ثم بَرَدتْ تدريجياً إلى أن صارت صالحة للنبات والحياة، وتقول تلك النظريات: انَّ الدليل على انفصال الأرض من الشمس:

أن باطن الأرض ومركزها لا يزال يحتفظ بحرارة عالية جِداً، بل ليس مركز الأرض وباطنها سوى مواد ومعادن مُنْصَهِرة ومذابة، ولَيْسَت البراكين ألّا تَنْفيساً بين آونةٍ وأخرى عن تلك الحرارة العالية، ومن الواضح أنه كما أن الأرض كانت جزءاً من الشمس فانفصل عنها، وكذلك الشمس ومجموعتها كانت يوماً ما جزءاً من مجرة (دَرْب التبّان)[3] فانفصل عنها، وكذلك المجرة المذكورة كانت جزءاً من سائر المجرات، بل سائر السمٰوات فانفصل عنها، وذلك لأن قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا... ﴾ ليس مقتصراً على الأرض والشمس، بل شامل لكل السمٰوات! ومن الجلي انه لا مُنافاة بين هذه الحقائق، بل بعضها تُكْمِلُ البعض، والآية المباركة شاملة لها جميعاً.

---

(١) المعجم الوسيط، ص٣٢٧.

(٢) المصدر السابق، ص٦٧٢.

(٣) والكرد يسمون المجرة المذكورة: (ريَّى كاكيْشان) وهو نفس (درب التبان) العربية، والفارس يسمونها: (راهى شيرى) أي (الطريقُ الحليبيُّ)، والأوربيون يسمونها (milkway) وانما سماها الشعوب قديماً بهذه التسميات لأنهم تصوروا أنَّ تلك البقع البيضاء التي تتراءى لنا في السماء، هي حليب مسكوب، أو تِبْن متناثر في طريق مسلوك!!

المطلب الرابع
خلق الله السمٰوات والأرض وما بينهما في سِتِّ مراحل زمنية

وهذه حقيقة عظيمة أخرى ذكرها الله تبارك وتعالى عن الخلق، حيث صرَّح كتابُ الله الحكيم أن الله تعالى قد أبدع السمٰوات والأرض وما بينهما في غضون ستة أيام، وقد ذكرت هذه حقيقة في سبعة مواضعَ في كتاب الله، آيات مباركات، هي:

١ ـ ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ...﴾ [الأعراف: ٥٤].

٢ ـ ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ...﴾ [يونس: ٣].

٣ ـ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ...﴾ [هود: ٧].

٤ ـ ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ...﴾ [الفرقان: ٥٩].

٥ ـ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ...﴾ [السجدة: ٤].

٦ ـ ﴿۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾ [فصلت].

٧ ـ ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ...﴾ [الحديد: ٤].

وقبل أنْ نُبَيِّن ـ في ضَوْءِ كتاب الله ـ كيفية توزيع الأيام السَّتة التي استغرقها خلق السمٰوات والأرض وما بينهما، أوَدُّ أنْ نُلْقي الضوْءِ على مفهوم كلمة (ستة أيام) ولماذا عبَّرنا عنها بـ(ست مراحل زمنية)!؟ فنقول: أن كلمة (يوم) في اللغة العربية تعني (مدة زمنية) أو (مرحلة زمنية) وليس شرطاً

أن تكون تلك المدة اثنتي عشرة ساعةً أو أربعاً وعشرين ساعة[1]، وهذه بعض الآيات المباركات التي استعملت فيها الكلمة المذكورة مفرداً وجمعاً، بالمعنى الذي وضحناه:

١) ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾﴾ [النبأ].

٢) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾﴾ [إبراهيم].

٣) ﴿. . . وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ. . .﴾ [آل عمران: ١٤٠].

٤) ﴿. . . وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحج].

٥) ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾﴾ [السجدة].

٦) ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾﴾ [المعارج].

ومن الأمثال العربية الشائعة: (الدهر يومان، يوم لك ويوم عليك) ومن الواضح أنَّ قبل خلق السمٰوات والأرض، لم يكن مفهوم اليوم حسب استعمالنا الدارج لكلمة اليوم، موجوداً، اذْ حينذاك ما وجِدَ اليوم، سواء بمفهوم النَّهار والذي يستغرق من طلوع الشمس إلى غروبها، أو بمفهوم النَّهار واللَّيل، وهو أربع وعشرون ساعة، إلَّا بعد أنْ دارت الأرض حول نفسها أمام الشمس مُحْدِثَةً بذلك ظاهرتي الليل والنَّهار على وجهها! وبناءً على ما تقدم نقول: أن كلمة (ستة أيام) تعني ست مُدَدٍ، وست مراحل زمنية متعاقبة، وأما ماهية مقادير تلك الفترات والمراحل الزمنية التي استغرقها

---

(١) المعجم الوسيط، ص١٠٦٧,، و(المنجد)، ص٩٢٧.

خلق السمٰوات والأرض وما بينهما، فهي مجهولة لنا، وربما قد يتوصل الباحثون قريباً أو بعيداً إلى تصوّر تحديدي، أو على الأقل تقريبي لها.

والآن عودة إلى موضوع: كيفية توزيع الأيام الستة على خلق السمٰوات والأرض، وأقول باختصار: الذي يبدو من الآيات (٩ إلى ١٢) من (فصلت) بالنسبة لهذا الموضوع هو: ان الله تعالى خلق مجموع السمٰوات السبع والأرض من ضمنها في غضون يومين، ثم أبدع البديعُ الحكيمُ جل شأنه مكوّنات الأرض ومُؤهِّلاتِ حَياةَ النبات والحيوان، ثم الإنسان فيها، من الجبال والبحار والأنْهار والخزائن والمعادن، في غضون أربعة أيام فَتَمَّتِ الأيام الستة عند إتمام خلق الأرض، وتهيئة الأجواء ومستلزمات الحياة فيها، والآن لنوضح كيفية اقتباس الفهم الآنف، من آيات (فصلت):

قد ذكرنا من قبل وفي ضوء الآية (٣٠) من (الأنبياء): ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا...﴾ أنه تم خلق الأرض من خلال عمليتَي (الرتق) و(الفتق) الَّلتين مرَّ بهما تَخلُّق السماء، وهذا يعني أن الأرض قبل أن يخلقها الله مفتوقة ومُنْفَصِلَةً، قد خلقها من ضمن السماء مَرْتوقة ومتصلة، وعليه: فقد استغرق خلق السمٰوات والأرض كِلْتَيْهِما يَوْمَيْنِ (مرحلتين)، ففي اليوم الأول (المرحلة الأولى) كانت حالة الرتق، ثم في اليوم الثاني (المرحلة الثانية) حدثت حالة الفتق، والدليل في كتاب الله المبين على أنَّ خلق السمٰوات والأَرض معاً، قد تم في يومين اثنين ـ واللَّذَيْن أرى أنهما المرحلتان اللتان حدثت فيهما ظاهرتا الرتق والفتق ـ، هو أن الله تعالى بيَّن لنا أنه قد خلق السماء والأرض في يومين اثنين، كما قال: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ...﴾ [فصلت: ١١ ـ ١٢].

وبناءً عليه: فقد تمَّ خلق السماء والأرض معاً، وفي وقت واحدٍ، ومن خلال يومين، وانما اسْتُغْنِيَ فيما بعد عن ذكر الأرض واكْتُفِيَ بذكر السمٰوات السبع: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ...﴾ لأنَّ الأرض ذكرت من قبل، ثم أن الأرض ليست سوى جزء صغير من مكوِّنات السمٰوات

السبع، بل السماء الأولى منها! والدليل الآخر هو ان الله تعالى ذكر انه خلق الأرض في يومين! كما قال: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ...﴾ [فصلت].

ثم ذكر أنه خلق مُكوّنات الأرض، من جبال وبركات وخزائن وأقوات، في أربعة أيام: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [فصلت]، وما لم نجعل اليومين السابقين المذكورين اللَّذَيْن تم فيهما خلق الأرض، نَفْسَ اليَوْمَيْن اللَّذَيْن خُلِقَت فيهما السماء، فانه يستغرق خلق الأرض كل الأيام الستة التي ذكر الله تعالى أنه خلق فيها مجموع السمٰوات السبع والأرض، ولا يبقى حتى يوم واحد لخلق السماء، والذي نصَّ كتابُ الله تعالى عليه أنه خَلَقها في يومين: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ...﴾!! وإذا أصْرَرْنا على أن نُبْقي للأرض أيامها الستة المنسوبة اليها ظاهراً، فيجب أن نضيف يومَيْن آخريْن للأيام السّتَّة، لكي نَحْصُلَ على اليَوْمَيْن اللَّذَيْنِ تم فيهما خلق السمٰوات، وحينئذ يصبح عدد الأيام ثمانية بدل ستة!!

إذْ يكون الأمر هكذا: اليومان اللَّذان خلقت فيهما الأرض + الأيام الأربعة التي تم فيها خلق مكوِّنات الأرض ومستلزمات الحياة فيها + اليومان اللَّذان خلقت فيهما السمٰوات السبع (٢+٤+٢=٨)!! وبما أن هذا مخالِفٌ لسبع آيات في كتاب الله، والتي نصَّت كل منها أن السمٰوات والأرض قد تم خلقهما في ستة أيام، إذن:

فهو غَلَطٌ بلا شك، ولا يستقيم ولا ينضبط حسابُ تلك الأيام والمراحل الزمنية، وما أخبرنا الله تعالى به، أنه خلق فيها ما خَلَقَهُ مِنْ خلقه، إلَّا بالصورة التي بينّاها في أول هذا الموضوع، وهي: ان الله تعالى خلق السماء أولاً، من الدخان وجعلها سبع سموات والأرض من ضمنها في يومين، ثم أكمل خلق الأرض في غضون الأيام الأربعة الباقية من الأيام الستة، وذلك بجعل الجبال فوقها، وإيداع البركات وتقدير الخزائن والأَقوات (أي مستلزمات الحياة) فيها، ويكون طبقاً لهذا الفهم للآيات المباركات،

اليومان المذكوران في الآية (٩): ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ...﴾، هما نفس اليَوْمَيْن اللَّذَيْن ذكرهما الله تعالى في الآية (١٢): ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ...﴾!! ولكن الله تعالى قَدَّم ذكر خَلْقِه الأرض، على ذكر خلق السماء، وان كانت الأرض جزءاً من السماء، وكان تخلُّقها قد تَمَّ مِنْ ضمنها، لما لِلأرض من أهمية خاصة بالنسبة لنا، من حيث ارتباطُ حياتِنا المباشر بها، وبسبب ما هَيَّأَ الله تعالى لنا فيها من خيرات وبركات تستلزمها حياتنا الإبتلائية، كما قدَّم ذكر خلقها على ذكر خلق السماء، كذلك في الآية (٢٩) من (البقرة): ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾، لنفس السَّبب، وربَّما يتصوّر البعض أن كلمة (ثم) في كل من الآية (٢٩) من (البقرة) والآية (١١) من (فصلت)، تثيرُ إشكالاً في موضوعنا مورد البحث، لأنَّها تشير إلى أن خلق الأرض قد سبق خلق السمٰوات! ولكن الأمر ليس كذلك، وذلك لأن كلمة (ثم) لا تدلّ على الترتيب الزمني بالضرورة، بل لا بُدَّ من وجود قرينة توجب ذلك، وإلَّا فإنَّ (ثم) بنفسه، لا تدلُّ على ذلك، بل تختلف دلالتها حسب السياقات التي ترد فيها، فقد تستعمل لمجرد الإنتقال من موضوع إلى موضوع آخر، كقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾﴾ [الأنعام].

وقد تستعمل لإفادة الترتيب الرُّتْبيِّ، كقوله تعالى: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾﴾ [البلد].

إذْ من الجليِّ أن (ثمَّ) هنا، تفيد الترتيب الرتبي من الأدنى إلى الأعلى، وذلك لأن الإيمان أعلى رتبة من فكاك الرقبة، وإطعام الطعام، اللَّذَيْن ليسا سوى ثمرتين من ثماره الكثيرة، ولو لم نَقُلْ بأن (ثم) هنا تفيد الترتيب الرتبي، وقلنا بأنها تفيد الترتيب الزمني، لَلَزِمَنا القَوْلُ بأن تحرير العبد وإطعام الجائع، يسبقان الإيمان في الوجود! وهذا خطأٌ واضحٌ بلا شك.

وكذلك يدل على كون الأرض مخلوقة من حَيْث تنظيمُها وتهيئةُ مستلزمات الحياة فيها، وليس من حيث إيجادُها الذي تم من خلال إيجاد السماء، بعد السماء، قولُه تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾ [النازعات].

والشاهد في الآيات هو أن الله تعالى بعد ذكره خَلْقَ السماء وبناءَها، وَرفْعَ سَمْكِها وتسويتَها، وإظلاَم لَيْلها وإخراجَ ضيائها، لم يذكر خَلْقَ الأرض وإيجادَها، اذْ كانت موجودة ومخلوقة من ضمن السماء، بل ذكر جَعْلِه إيّاها مدحوّة ـ أي مبسوطة أو بيضوية الشكل ـ وإخراجَ مياهها ومراعيها وإرساءَ جبالها، ثم عقَّب سبحانه وتعالى على كل ذلك بقوله: ﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾ أي: إنَّما أحدثنا تلك التحولات والإصلاحات في الأرض، كي تكون موضع تمتيع لكم ولأنعامكم، وذلك لأنه بدون تلك التغييرات لم يكُنْ وجود ظاهرة الحياة الحيوانية والإنسانية، ممكناً على الأرض.

ومن الواضح أن آيات (النازعات) الآنِفِ الذكر، تفيد نفس المعنى الذي أفادَتْنا إيّاه الآية (١٠) من (فصلت): ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾﴾، إذ هي في معنى: ﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾ تماماً.

❊ ❊ ❊

المطلب الخامس
كلّ الكائنات الحيّة مخْلوقةٌ من الماء

وهذه حقيقة أخرى ذَكَرها كتابُ الله المبين في موضعين:

١ ـ ﴿. . .أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنبياء].

٢ ـ ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾﴾ [النور].

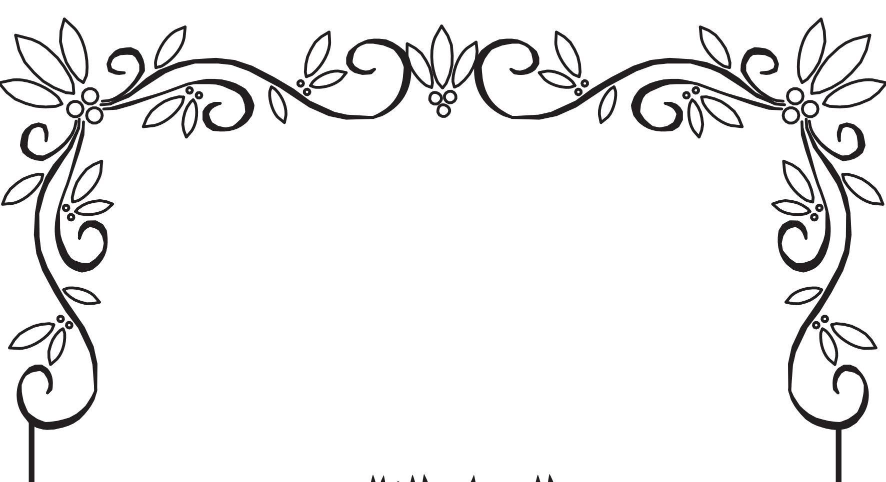
وهذه الحقيقة التي بيّنها كتابُ الله الحكيم قبل أكثر من أربعة عشر قَرْناً من الزمان، هي نفس ما تمخَّضَتْ عنه البحوث والتحقيقات العلمية في مجال علم الحياة (البيولوجيا) في عصرنا هذا، وهل يتمخَّضُ العِلْمُ الصّحيح إلَّا عمّا يُؤيِّد ما يقوله الوحي الصّريح! وكيف لا؟ أَوَليس العلم كاشفاً عن سنن خلق الله، والوحي صادراً من علم الله، وكلاماً مباركاً من الله، إذاً: كيف يمكن أنْ يتصادم فِعلُ الله وقولُه، أو خَلْقُه وأَمرُه، أو كونُه وشَرْعُه؟!

والملاحَظُ أن الله تعالى بدأ الآية (٣٠) من (الأنبياء) بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾، وختمها بقوله: ﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾؟! والحكمة في ذلك حسبما أرى هي:

أن بيان تينك الحقيقتين العظيمتين: كيفية خلق السمٰوات والأرض، وتحديد مصدر حياة الأحياء ـ من حيث الناحية الجسمية لهم ـ، كافٍ لإقناع الكفار بأن هذا القرآن الذي يُبيِّن في سطرٍ واحد من سطوره، حقيقةَ وسِرَّ الخلق والحياة، إنَّما أنزله الله العليم الحكيم الذي يعلم أسرار الوجود، ولا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، كما قال: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾﴾ [الفرقان]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾﴾ [آل عمران].

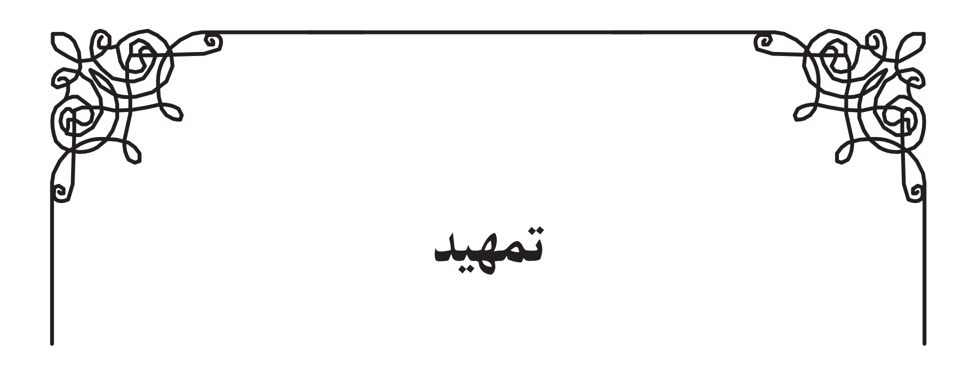
ونكرّرُ الآية المذكورة مرة أخرى، ونجعلها مسك ختام هذا الفصل الثاني كلّه: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾؟! وأَنتَقِلُ الآن إلى الفصل الثالث من هذا الباب، بعد استمداد العون والتوفيق من ربّي الكريم الوهاب، تبارك اسمه وتعالى جِدّهُ ولا إله غيرهُ.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑



الفصل الثالث

الإنسان خليفة الله تعالى في الأرض



تمهيد

للتعرف على شخصية الإنسان وحقيقته، من حيث: مكانتَهُ وَمَحلُّهُ من إعراب الوجود، وتركيبتُه، وطبيعتُه، وحِكمةُ الله في خلقه إيّاه، ووظيفتُهُ في حياته الأرضية، وقصة حياته، ومصيُره وعاقِبَتُه، لِنَسْتَمِعْ إلى كلام الله المبارك، المصدر الوحيد للمعرفة الصحيحة، ولْنَتَدَبَّر مجموعة من آياته المباركة، من خلال المباحث الستة الآتية:

١ ـ مكانة الإنسان وَمَحلُّهُ في إِعراب الخلق.

٢ ـ تركيبة الإنسان (آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ) وذريته وكيفية خلقه.

٣ ـ طبيعة الإنسان المزدوجة النادرة.

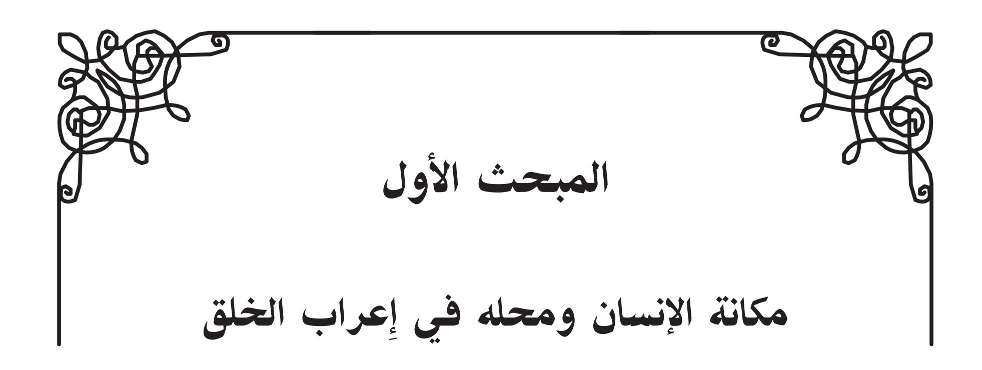
٤ ـ حكمة خلق الإنسان.

٥ ـ وظيفة الإنسان في حياته الأرضية المؤقتة.

٦ ـ قصة وجود الإنسان على الأرض ومراحلها.

ونبدأ بالمبحث الأول بتوفيق الله تعالى:





المبحث الأول

مكانة الإنسان ومحله في إعراب الخلق

بعد التدبّر في هذه الآيات المدرجة أدناه، نطلع على مكانة الإنسان وموقعه في الوجود، قال الله العليم الحكيم البر الرحيم جلّ شأنه:

١ - ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة].

٢ - ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب].

٣ - ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [التين].

٤ - ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ [الإسراء].

٥ - ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل

لَكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [البقرة].

٦ ـ ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾﴾ [ص].

٧ ـ ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الجاثية].

٨ ـ ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً . . .﴾ [لقمان: ٢٠].

٩ ـ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّر لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم].

ويمكننا تجلية مكانة الإنسان الرفيعة التي بَوّءَهُ الله إياها في الخَلْقِ بأسره، في المزايا العشر الآتية، وذلك في ضوء الآيات المدرجة أعلاه:

١) الإنسان خليفة الله في الأرض:

وهذا واضح بيِّن في الحوار الذي جرى بين ربّ العالمين وملائكتهِ الكرام، في الآيات (٣٠ الى٣٣) من (البقرة)، والدليل على أن لفظ الخليفة مع أن المقصود الأول به هو (آدم) عليه السلام ولكن مفهومه شامل لذريته أيضاً، هو قول الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾؟! إذْ من الواضح أن مقصود الملائكة هو: أن ذرية آدم سيُفْسِدون في الأرض ويَسْفِكون الدماء، وإلّا كيف يسفك آدم الدِّماء، وليس ثمة سوى أولَاده؟!

وكذلك من المستبعد أن يَنْسِبَ الملائكة الكرام الإفسادَ إلى نبيٍّ الله وصفيِّه آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ !

وبناءً عليه:

فإذا كان المقصود بالمفسد في الأرض والسّافك للدِّماء هو ذرية آدم، فهم مشمولون بمفهوم (الخليفة)، لأن الإفساد في الأرض وسَفْكَ الدّماء إنما جُعلا وصفين للخليفة.

وهناك آيات كثيرة وصفت البشر عموماً أو بعضهم، بكونهم خلفاء لله في الأرض، مثل قوله تعالى مخاطِباً عموم البشر: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر].

وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

وقوله تعالى مخاطباً أهل الإسلام: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ...﴾ [الحديد: ٧].

وقوله تعالى مخاطباً عَبْدَهُ ونبيّه (داود) عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ...﴾ [ص: ٢٦].

ومما لا شك فيه أن تسمية الله تعالى آدم وذرِّيَّتَهُ خليفة وخلفاء له في الأرض، دالَّةٌ على تشريف عظيم وتكريم وأي تكريم، من الله الكريم الوهاب لآدم وذرِّيَّتِهِ، وقد علمت الملائكة الكرام أن في استخلاف الله تعالى آدم وذرِّيَّتِهِ في الأرض، تفضيل وتكريم وترفيع من الله تعالى لهم، ولهذا طَمِعوا فيه، وَلَمَّحُوا إلى كونهم ـ حسب علمهم ـ أجْدَرَ وألْيَقَ بذلك المقام الرفيع من آدم وذرِّيَّتِهِ، بقولهم على سبيل الإستفسار: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾؟! ولكن الله تعالى بيّن لهم أن آدم وذرِّيَّتَهُ، بالرغم من نقاط ضعفهم، هم أجْدَرُ بِتَبَوُّءِ ذلك المقام الرفيع، لما يمتازون به من نقاطِ

قوةٍ لا توجد في غيرهم، وهذا ما سنوضِّحه فيما بعد.

هذا وقد استعظم بعضُ العلماءِ إطلاقَ كلمة (خليفة الله) على الإنسان عامة، وحاولوا تأويل آية البقرة، وسائر الآيات التي صرحت بكون الناس عموماً خلفاء الله في الأرض، بتأويلات ضعيفة، فَمثلاً قالوا:

إن المقصود بقوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ أي: جاعل خليفة للجن الساكنين في الأرض! ولكن هذا القول ـ والذي هو أقوى أدلتهم التي يستدلّون بها على إنكارهم كون آدم وذرِّيَّتِهِ خلفاءَ الله تعالى في الأرض ـ ضعيفٌ، بل مُتَهافِتٌ للغاية، وذلك للأدلة الآتية:

أولاً: إنَّ الإنس عموماً أشرف من الجنّ، بدليل أن الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام) للجن والإنس، لم يُبْعثوا إلَّا من الإنس، والجنّ تابعون للإنس في الخير والشر، وانْ كانت للشياطين منهم تأثيرات ضارّة، وأما أنَّ الأنبياء عليهم السلام مُنْحَصرون في الإنس، فسنوضِّحه في الفصل الخامس المُخَصِّص لبيان الإيمان بالرسل والأنبياء (عليهم الصلاة والسلام) في الباب الثاني بإذن الله.

إذن: فكيف يُصْبحُ الأعلى والأشرف خليفةً لِمنْ هو أدْنى منه؟!

ثانياً: إنّ تلميح الملائكة الكرام بكونهم أليقَ بذلك المقام ـ الخلافة في الأرض ـ بقولهم: ﴿...وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾! دليلٌ واضحٌ على أن ذلك المقام الرفيع الذي تطلَّع اليه أولئك الأكارم، إنّما هو خلافة الله تعالى، وليست خلافة الجنّ ولا غيرهم، ولهذا نوَّهوا بطاعتهم الدائمة لله تعالى، والتي لا تشُوبها شائبة الغفلة بَلْهَ المعصية.

ثالثاً: ثم انَّ الجنَّ لم يكونوا ساكني الأرض قبل بني آدم، حتى يَخْلُفَهم آدم وذرِّيَّتُهُ، بَلْ سكنوا الأرض مُتزامِناً مع سكون آدم وذرِّيَّتِهِ فيها، إذْ أهبط الله تعالى كُلاًّ من إبليس ـ الذي طرده من السماء من جرّاء عدم تنفيذه أَمْرَ الله بالسجود لآدم ـ وآدم وزوجته حوّاء عليهما السلام اللّذَيْنِ أخرجهما الله من الجنّة بسبب أكلهما من الشجرة الممنوعة، في وقت واحدٍ، كما قال

تعالى: ﴿... فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾﴾ [البقرة]، وهذا ما سنوضّحه في المطلب السادس من هذا الفصل بإذن الله تعالى.

أجل لَقَد أسكن الله تعالى كُلاًّ من الإنس والجنّ في هذه الأرض في وقتٍ واحدٍ، ولم يسبقْ أحدُهما الآخر، حتى يمكن القول بأن أحدَهما خليفة للآخر!

رابعاً: ثم إنَّ الجنّ مُستَمِرّون مع الإنس في الحياة على الأرض، ولم يُخْلُوا الأرض لهم، حتى يمكن القول بأن الإنس خَلَفُوهم فيها!!

والذي دفع أولئك العلماء إلى القول بإنكار كون الإنسان خليفة الله في الأرض، هو اسْتِعْظامهم لإطلاق اسم (خليفة الله) على الإنسان، ويقولون: كيف يجوز أن يكون لله تعالى خليفةٌ وهو حيّ قيّوم، وانَّما الخليفة يَنوبُ عمّن يموت أو يَغيبُ؟!

ولكن غاب عنهم أن الله تعالى (ليس كمثله شيء)، إذن:

كما أنَّ حياتَه وسَمْعَهُ وبَصَره واستواءَه على عرشه... إلخ، لا تُشْبِهُ صفاتِ المخلوقين، كذلك استخلافهُ لغيره لا يُشبه استخلاف المخلوقين بعضهم لبعض، وكل تلك التصوّرات التي اضطرتهم إلى مثل تلك التأويلات، انّما تَنْبُعُ من قياس الله تعالى على المخلوقين، وهذا خطأ مبين بيقين.

ومعنى استخلاف الله تعالى للإنسان في الأرض هو: أن الله تعالى أوكل إلى الإنسان أن يَحْيى على الأرض بإرادته الحرة، وأمره بتعمير الأرض: ﴿...هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا...﴾ [هود]، وأَمَره باتّباع شريعته وتنفيذ أوامره ونواهيه، ولكن لم يجبره على شيء ابتلاءً وامتحاناً منه له، وأخبره بأنه سيجزيه على كيفية حياته وأعماله وتصرفاته، خيراً كان أو شراً: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الجاثية]، وهذا هو الواقع الّذي يحياه الإنسان عموماً، فلم استعظامه؟!

وأما كيف عرف الملائكة أن آدم عليه السلام ـ مُتَمثِّلا في ذريته ـ سيُفْسِدُ في الأرض ويسْفِكُ الدماء؟!

فالجواب:

أنَّ الله تعالى عندما أخبر الملائكة بما يريد فِعْلَهُ في الأرض، وهو استخلاف آدم وذرِّيَّتِهِ فيها، قد بيَّن لهم في نفس الوقت شخصية ذلك الخليفة وطبيعته وطبيعة ذريته، ولكن كتابَ الله الحكيم يُوجِزُ حيث لا مُوجب للتفصيل، وقوله المبارك: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ يتضمَّن التعريف بذلك الخليفة، ولهذا لم يستفسر الملائكة الكرام عن شخصية ذلك الخليفة، لأن الله الحكيم عرَّفَهُ بهم عند إخباره إياهم بِاستخلافه له، واسْتنْتج الملائكة الكرام في ضَوْءِ معرفتهم بشخصية الخليفة المكرّم عليه السلام وطبيعته وطبيعة ذريته، أنهم سيقومون بما لا يُرْضِي الله تعالى منْ إفساد وسفك دمٍ، وكان استنتاجهم صحيحاً مائة في المائة!

٢) الإنسان حامل أمانة الله التي لم يكن في وسع مخلوق آخر سواه حَمْلَها:

كما صرّحت بهذه الحقيقة الآية (٧٢) من (الأحزاب): ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾.

ومن الجَليِّ أن اختيار الله الحكيم الإنسان لِحَمْل أمانته، من بين كل مخلوقاته، يُعْتبر امتيازاً عظيماً جليلاً، يكاد العقل يَعْجِزُ عن تصوّره! وهذا يفهم منه أن الإنسان له شأن وأيُّ شأنٍ من بين المخلوقات، وأي شأنٍ أخطر وأكْبرُ مِنْ أنْ يختارَهُ الله العظيم جلَّ وعلا لحمل أمانَتِهِ التي عجزتِ المخلوقات كلُّها عن حَمْلها، السّموات بكل ما لها من سعة وارتفاع وضخامة، والأرض بكل ما لها وفيها من غرائب المخلوقات، والأسرار المدهشة والترتيبات المُتْقَنة، والجبال بكل ما لها من صلابة وثقل وشموخ، كلُّها عَجَزتْ وأشفقَتْ من التصدِّي لحمل أمانة الله الثقيلة، ولكن الإنسان انبرى لها وحَمَلها وتحمَّلها، واحتازها وامتاز بها من بين الخلق كله!

ويحضرني بهذه المناسبة قول الشاعر مُخاطِباً الإنسان:

لقد خُلِقتَ لأمرٍ عظيمٍ لو فَطِنْتَ له فارْبأ بِنَفْسِك أن تَرْعى مع الهَملِ

وقد تحدَّث العلماءُ كثيراً حول تفسير هذه الآية، والذي اطمأنَّ اليه قلبي، بهذا الصدد بعد التدبّر، هو الآتي:

أن الله تبارك وتعالى أراد أن يبين لنا بهذه الآية المباركة، المكانة الرفيعة التي أكرم بها البشر، والوظيفة العظيمة والجليلة التي أسندها اليه، والتي تتمثل في عبوديته الإختيارية لله تعالى أو عَدَمِها، وبما أنه ستترتّب على الوظيفة المذكورة إيجاباً وسلباً، أعظم النتائج والتي تتمثل في الخلود الأبدي في الجنّة أو في النار، فقد صوّر الله ذلك في ذلك المشهد المهيب: عَرْضُ الله تبارك وتعالى أمانته على المخلوقات كلِّها والتي:

السمٰوات هي أعظَمُها وأوْسَعُها، والأرض هي أعْجَبُها وأكثرُها اشتمالاً على الغرائب والأسرار ـ حسب علمنا ـ، والجبال هي أصْلَبُها وأمْتَنُها، ولكنها كلّها أبدى عَجْزَها عن حمل تلك الأمانة، وخوفَها منها، ولكنَّ الإنسان وحده هو الذي تصدّى لحمل تلك الأمانة الربانية! والذي أفهمه من الآية المباركة: أنّه يراد بالآية تصوير حالة عجز وعدم وجود استعداد وأهليةِ أداء تلك الوظيفة المذكورة (العبادة الإختيارية) في المخلوقات جميعها، وانفراد الإنسان وحده من بينها بامتلاك الإستعداد والأهلية للقيام بها.

فجملة: ﴿وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ تُبيِّن مدى خطورة شأن تلك الوظيفة التي اضطلع الإنسان بها، وإلّا كيف يمَتنع مخلوقٌ عن فعل ما يريده الخالق العظيم منه؟ أم كيف يأمر الله تعالى مخلوقاً بأمر لم يُعْطِهِ أهليةَ تنفيذه؟!

إذن:

كما قلنا ما أريد بالآية الكريمة هو: التعبير عن الحقيقة المذكورة في قالب تصويري زيادةً في الإيضاح والتفهيم، والله تعالى هو العليم الحكيم.

وقد نبَّه الله الحكيم الإنسان إلى نقطتي ضُعفهِ اللَّتَيْن إنْ لم يَحْذرْهُما ويَتَجَنَّبْهُما، ويتصف بِضِدَّيْهما، أهلكتاه وأَوْدَتا بِهِ، كما قال تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا

ٱلْإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾.

والظلم عرَّفه العلماء بـ(وضعُ الشيء في غير موضعه) أو (تجاوز الحدود)[1] وهو على أيَّة حال، طالما جعل مقابلاً للجهل، والجهل: (هو عدم معرفة الحق)[2] أي: هو الإنحراف الفكري والنظري، وعليه:

فالظلم انحراف عمليٌّ، وربما قُدِّمَ الظلمُ على الجهل، لِسببين:

أولاً: الظلم قد يكون نتيجة الجهل، وقد يكون من غير جهلٍ، بل بسبب العناد والإستكبار واتباع الهوى.

ثانياً: قد لا يضرُّ الجَهْلُ إلَّا صاحِبَهُ، ولكن الظُّلْمَ لا يخلو من الإضرار بالآخرين.

وعكس الظلم وضدُّه: العَدْلُ[3]، كما أنَّ عكس الجهل وضِدَّهُ: العِلْمُ[4]، وأوّل العلم وأساسُهُ: معرفة الله تعالى خالقاً ورباً وإلهاً وولياً وحَكَماً، ومعرفة الإنسان نَفْسَهُ مخلوقاً لله ومربوباً ومملوكاً وعبداً، كما أنَّ أساس العَدْلِ ولُبَّهُ: قيامُ الإنسان بالوظيفة العُظمى التي كُلِّف بها، وتحقيق الحكمة البالغة التي خلق من أجلها، أي: العبادة لله تعالى بمفهومها الشامل لظاهر الإنسان وباطنه، وحالاته الفردية والأسرية والجماعية، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات].

ومن الواضح أن العدل لن يتحقق بدون العلم، كما أنَّ العلم الذي لا

---

(١) التعريفات، للجرجاني، ص١٤٥، لفظ: الظُلم، إذ قال: (الظلم: وضع الشيء في غير مَوْضِعِهِ، وفي الشريعة: عبارة عن التعدِّي عن الحق إلى الباطل، وهو الجَوْرُ وقيل: هو التصرُّف في مِلْكِ الغير، ومجاوزةُ الحَدِّ).

(٢) المصدر السابق، ص٨٥، لفظ: الجَهْل، إذ قال: (الجَهلُ: هو اعتقادُ الشيء على خلاف ما هو عليه).

(٣) العَدْلُ في اللغة: الإستقامة، وفي الشريعة: عبارة عن الإستقامة على طريق الحق بالإجتناب عمّا هو محظور ديناً، التعريفات، ص١٤٨، لفظ: العَدل.

(٤) العلم: هو الإعتقاد الجازِمُ المطابق للواقع، أو: إدراكُ الشيء على ما هو بِهِ، التعريفات، ص١٥٥، لفظ: العلم.

يُثْمِرُ العَدْلَ في صاحبه، يتحول إلى نِقْمة بعد أنْ كان نعمةً.

وبقدر ما يتَّصف الإنسان ويتحلَّى بالعلم والعدل، يَبْتعِدُ عن الجهل والظلم، وينتفيان عنه، وقد ذكر الله تعالى في الآية التالية لآية الأمانة، كُلاً مِنْ:

١ ـ المنافقين والمنافقات.

٢ ـ المشركين والمشركات.

٣ ـ المؤمنين والمؤمنات.

كما قال تعالى: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾﴾ [الأحزاب].

ولعلّ في هذا إشارة إلى أن المنافقين والمنافقات هم المثال البارز الذي تَجَسَّد فيه الظُّلْمُ، إذْ هم لا ينقصهم العلمُ الشرعيُّ الذي يعرفون به الحق من الباطل، وانّما يفتقدون العمل بالعلم، إيماناً وتقوىً وطاعةً والتزاماً، وان المشركين والمشركات يمثلون النموذج الصارخ الذي تجسَّد فيه الجهلُ، وهل هناك جهل أغْلَظَ وأشدَّ من الإشراك بالله، أي جعل بعض مخلوقات الله، شركاء لله في الربوبية والألوهية والولاية والحاكمية؟!

واذا كان المنافقون والمنافقات والمشركون والمشركات، يُجسِّدون كِلا نوعَيْ الإنحراف الحاصل من جرّاء التَّلبُّسُ بالظلم والجهل، ويستحقون عذاب الله الحكيم، فإن المؤمنين والمؤمنات، يُجسِّدون العلم والعدل في أنفسهم، ولهذا وعدهم الله الغفور الرحيم المغفرة والتوبة.

وبناءً على ما تقدَّم:

فالذي يخون أمانة الله العظْمى الملقاة على عاتقه ـ كالمنافقين ـ أو يُضَيِّعها ويُهْمِلُها ـ كالمشركين ـ فهو لا شك تنتظره العقوبة العادلة الربانية في الآخرة.

ولكن الذي يؤدّي أَمانَة الله وَيَرْعاها ويحْفَظُها، فهو تنتظره مغفرة الله وتوبته ورحمته.

وتشبه الآية (٧٣) من (الأحزاب)، الآية (٧) من (الفاتحة) والتي ذكر الله تعالى فيها كُلاً من:

١) أهل الإيمان ﴿ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾.

٢) أهل الكفر بكلا نوعَيْهم ﴿ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾ و﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾.

والمغضوب عليهم، هم الذين عرفوا الحق ولكن رفضوه، ولهذا غَضِبَ الله عليهم، كما أَن الضالين هم الذين أعرضوا عن الحق، فبقوا في جهلهم وضلالهم، وقد فسَّر رسولُ الله ﷺ ﴿ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾ باليهود، كما فَسَّر ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ بالنصارى[1]، وذلك لأن اليهود كانوا يعرفون نبي الله الخاتم ﷺ معرفة جيدة، كما قال تعالى: ﴿. . . يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡ . . .﴾ [البقرة].

ولكن النصارى ضلُّوا في أصل الدين والتوحيد منذ البداية، أي قَبْل بعثة النبّي الخاتم ﷺ، كما قال تعالى في سياق آيات تتحدث عن النصارى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ٧٧﴾ [المائدة].

ومن الواضح أن رسول الله ﷺ قصد بتفسيره المذكور، أن اليهود هم أبرزُ مِصْداقٍ للمغضوب عليهم، والنصارى أجْلى مصاديق الضالين، وإلَّا فمفْهوم الآية المباركة شاملٌ، وليس مُنْحَصِراً فيهما.

وأما أهل الإيمان الذين أنعم الله تعالى عليهم بهدايته وتوفيقه إيّاهم للإيمان، فهم عرفوا الحق وفهموه وفقهوه، ثم التزموه وطَبَّقوه واتَّبعوه، فلم يُفرّطوا لا في جانب العلم والمعرفة، ولا في جانب العمل والإلتزام.

---

(١) كما جاء في (سنن الترمذي) و(مُسْنَدِ أحمد)، وغيْرهما، أُنظر: (المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير)، ص٢٧، وهذا نصُّ الحديث: (إن المغضوب عليهم: اليهود، وإنَّ الضالِّين: النَّصَارىٰ).
وانظر: التفسير الصَّحيح، موسوعة التفسير المسبور من التفسير بالمأثور، ج١ ص ٧٩، ٨٠، إعداد: أ.د. حكمت بن بشير بن ياسين، إذ قال: وصحَّحه أحمد شاكر في التفسير رقم: ١٩٨، وحسَّن إسنادَهُ ابن حجر في فتح الباري: ج٨ ص ١٥٩.

٣ ـ الإنسان مخلوق في أفضل هيئة وصورة:

وهذا ما صرّحت به الآيات (١ إلى ٤) من (التين): ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤﴾ [التين].

و(تقويم) تفعيل من (القِوام)[1]، والظّاهر أن المقصود بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤﴾ هو: لقد خلقنا الإنسان وأبدعناه على أفضل ما يكون الخلق، وهذا شامل لِكِلا جانبَيْ الروحَ والجَسَدِ، فيكون المعنى: إن الإنسان هو أفضل وأحسن مخلوق معنىً ومادة، أو روحاً وجسداً، أو باطناً وظاهراً.

ولكن هذا من حيث الحياة الدنيوية الإبتلائية، أما الحياة الأخروية الجزائية فحكمها مختلفٌ، إذْ هناك ينفصل الناس بعضهم عن بعض، ويُصَنَّفون حسب الإيمان والكفر، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝١٢ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ ۝١٣ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ۝١٤ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ۝١٥ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلْأٓخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ۝١٦﴾ [الروم].

أجل، إنَّ بقاءَ الإنسان في حياته الأخروية في تلك المَنْزلة الرفيعة التي حباه الله بها في الدنيا ـ وهي كونه مخلوقاً مكرَّماً ومُفَضَّلاً ومُبْدَعاً في أحسن تقويم ـ مرهون باكتسابه الإيمان والعمل الصّالح، وإلَّا فهو في الآخرة ليس يفقد تلك المنزلة السامية فحَسْبُ، بلْ ينحطّ ويتسفَّل إلى أحط الدركات، ويصبح أحقر المخلوقات، بعد أن كان أكْرَمَها وأفْضَلها وأرْفَعَها، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦﴾ [التين].

---

(١) قوَّم المعوجَّ، عَدَّلَهُ وأزالَ عَوَجَهُ، وتقوَّم الشيءُ: تعدَّل واستوى، والقِوام: العمادُ والنّظام، المعجم الوسيط، ص٧٦٨.

ويقول تعالى تعقيباً على ما مرَّ ذكره، وفي ختام السورة المباركة: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴿٨﴾﴾ [التين].

ومعنى هاتين الآيتيْن ـ كما أرى ـ هو هكذا:

يُخاطِبُ الله تعالى الإنسان، أو الإنسان الكافِرَ خصوصاً ويقول:

ما الذي يجعلك مُكذِّباً بالجزاء والحساب، بعد أن سمعت ذلك الإيضاح الحكيم من ربّ العالمين، وهو: (أن الله تعالى أبدع الإنسان على أفضل وأكمل هيئة وقِوام، ولكن إن لم يؤمن بربّه، ولم يلْتزم بدينه، وبالنتيجة لم يحقق حكمة وجوده، فَسَيَرُدُّهُ الله تعالى في الآخرة إلى أنزل الدركات وأحَطِّ الرُّتَب، ولكن من آمن وعمل صالحاً، فسيحتفظ بمكانته ومنزلته الرفيعة، بلْ سَيَهَبُهُ الله الوهّاب ثواباً متواصِلاً غير منقطع أبداً)؟!

وكلام الله المبارك هذا يفهم منه، أن يوم الجزاء (أي الثواب والعقاب) شيءٌ لا بُدّ منه حسب خِطّة الله الحكيمة في خلقه، إذْ كيف يليق بعدل الله وحكمته أن يُسَوِّي بين المؤمنين المحتفظين بكرامتهم التي وهبها الله الكريم لهم، والكافرين الذين أنزلوا أنفسهم أسفل سافلين؟!

ولهذا يقول تعالى في الختام: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴿٨﴾﴾؟! أي: أَوَليس الله تعالى أكثر الحاكمين حكمةً، حيث جعل يوم الجزاء يوم الفصل والتمييز بين الأخيار والأشرار؟!

ونحن نقول: بلى، ونحن على ذلك من الشاهدين[1].

٤ و٥) الإنسان مُكرَّم عند الله تعالى، ومُفضَّلٌ لديه على كثير من مخلوقاته:

(١) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَن قرأ منكم (والتين والزيتون) فانتهى إلى قوله تعالى:** ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴿٨﴾﴾ [التين]، **فَلْيَقُلْ: (وأنا على ذلكم من الشاهدين)**»، وفي رواية: «**سبحانك فَبَلى**».

أخرجه الترمذي: ٣٣٤٧ وقال: حديث حسن، وأبو داود: ٨٨٧، وأحمد (٢٤٩/٢) وضعَّفه الألباني في (المشكاة) (٢٧٢/١).

كما قال تبارك وتعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ [الإسراء].

وتكريم الله تعالى للإنسان وتفضيله على كثير من خلقه أو أكثرهم أو كلِّهم ـ من بعض الوجوه كاستخلافه له وتحميله أمانته ـ، عام لكل البشر ولا يخص بعضهم دون بعض، وذلك لأن الله تعالى عمّم القول ولم يخصِّصْه: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ. . .﴾.

وبناءً عليه:

فكل من هو من نَسْلِ آدم عليه السلام، فهو مشمول بذلك التكريم والتفضيل بلا استثناء.

وقد ذكر سبحانه في الآية ثلاثة من وجوه تكريمه للآدميين، وهي:

أ ـ تسخيره لهم البَرَّ والبَحْر، وتسهيله لهم وسائل النقل والإنتقال فيهما: ﴿وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾.

ب ـ توفيره لهم أنواع الأرزاق الطيّبة: ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾.

ج ـ تفضيله إياهم على كثير من مخلوقاته، أو أكثرهم أو كلِّهم: ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾. وانّما قلنا (أو أكثرهم أو كلّهم) لأن العلماء فسّروا كلمة (كثير) بهذين المعنيين أيضاً، ويدل عليهما كون الإنسان مختاراً لِحَمْلِ أمانة الله من بين المخلوقات قاطبة.

وأما تفضيل الله تعالى للبشر، فيتمثل في أشياء كثيرة سبق ذِكْرُ بعضها، وسيأتي ذكر البقيّة تِباعاً بإذن الله.

٦) آدم أبو البشر عليه السلام بعد أن علّمه الله العليم الأسماء كلّها، أصبح معلِّما للملائكة:

وهذا مصرّح به في الآيات (٣١، ٣٢، ٣٣) من (البقرة) اذْ يبين الله تعالى فيها انه قد علَّم آدم عليه السلام الأسماء كلها، ثم عرض المسمَّيات

والأشياء التي علم آدم أسماءها على الملائكة، آمراً ايّاهم أن يُخْبروه بأسمائها، ولكنَّهم اعتذروا بأنّهم لا يعلمون إلّا ما علَّمهم هو إيّاه، وبما انه لم يعلمهم ذلك فلا يعلمونه! ولما أقَرَّت الملائكة الكرام بجهلها بمعرفة تلك الأسماء، أمر الله تعالى آدم عليه السلام أن يُخْبِرَهُمْ بها، ثم لما نفذ آدم أمرَ ربِّهِ العليم، وعلَّم الملائكة أسماء تلك الأشياء المعروضة، والتي لا ندري ما هي، قال سبحانه وتعالى لملائكته: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [البقرة].

وهذا كما يبدو لي إيضاح من الله العظيم لملائكته، حول سبب اختياره لآدم وذرِّيَّتِهِ دونهم لخلافته في أرضه، ويَتلخَّص ذلك السبب في أن الله تعالى قد أعطى آدم وذرِّيَّتَهُ القُدُرات والإمكانيات التي تُتيح لهم المجال للتعامل مع عوالم الأرض خاصة، وسائر العوالم والموجودات عامة، ومن أهم تلك القدرات والإمكانيات هي القدرة على تسمية الأشياء، ومن الواضح أن هذه لا تتم إلَّا بعد الإطِّلاع على الأشياء ومنافعها ومضارِّها وكيفية التعامل معها، وبما أن وظيفة الملائكة تختلف عن وظيفة الإنسان، فهم لم يُعْطَوا الإمكانيات التي أوتيها الإنسان، والتي تتطلبها وظيفته وحياته الأرضية الإبتلائية، ومن البيِّن أنَّ صيرورة آدم عليه السلام أبي البشر مُعلِّماً للملائكة الكرام، شرف وامتياز عظيم لآدم خصوصاً ولذريته عموماً.

٧، ٨، ٩) إضافة الله تعالى الروح البشرية إلى نفسه، وخلْقه آدم بيده، وإسجاده الملائكة كلهم له:

وقد ذكر الله تعالى هذه الإمتيازات الثلاثة في الآيات (٧١ إلى ٧٥) من (ص): ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [ص].

وقد أضاف سبحانه الروح البشرية مطلقاً إلى نفسه، في الآية (٩) من

(السجدة): ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝﴾ وهذه الآية وردت في سياق الحديث عن ذرية آدم وكيفية تخلُّقهم، إذْ يقول تعالى قبلها: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝﴾ [السجدة]، ثم يقول تعالى بعد ذلك: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ...﴾.

ومعلوم أن إضافة الله تعالى الروح الإنسانية وعملية نفخها في الجسد إلى نفسه، تدلّ بوضوح على أن للروح شأناً خاصاً، تنفرد به من بين المخلوقات، وذلك لأن المخلوقاتِ كلَّها مُلْكٌ لله تعالى، ولا يَدَ لأحدٍ في شيء منها، غَيْرَهُ.

وعليه: فتخصيص الله تعالى الروح بإضافتها إلى نفسه، دليل على أنَّ للروح شأناً ما ليس لغيرها، وكذلك يدل على هذا، قولُهُ تعالى مخاطِباً النبي الخاتم ﷺ بعد أن سُئِل عن الروح: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ۝﴾ [الإسراء].

هذا بالنسبة لاضافة الله تعالى الروح إلى نفسه، روح آدم عليه السلام وأرواح ذريته، وامّا بالنسبة لخلقه آدم بيده، كما قال تعالى مُوبِّخا إبليسَ على عدم سجوده لآدم: ﴿...مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّۖ...﴾؟! [ص]، فهذا أيضاً يدل على شرف عظيم لآدم وذرِّيَّتِهِ من بعده، إذْ لا شك أن خلق الله تعالى آدم بيديه من بين الخلق كله ـ لأن الله تعالى لم يذكر لنا انه خَلَق شيئاً آخر بيديه غير آدم ـ، فيه مِزْيةٌ عظيمة أخرى للإنسان، انفرد بها من بين المخلوقات كلها، ومما يدل دلالة واضحة على أن هذا مزية للإنسان، هو أن الله تعالى ذكر هذه الحقيقة في معرض توبيخه لإبليسٍ على عدم سجوده، وهذا يعني ان الله تعالى يقول لإبليس: ما الذي منعك أن تسجد ـ سجدة تحية وإكرام ـ للمخلوق المكرَّم الذي شَرَّفْتُه بأن خلقته بيدي؟! ولكن بالنسبة ليدي الله تبارك وتعالى، نكتفي بالقول: بأن الله تعالى لا يُشْبِهُ شيئاً ولا يُشْبِهه شيءٌ، لا في ذاته ولا في صفاته ..الخ، وقد أضاف الله تعالى اليدين إلى نفسه، ونحن نُثْبِتُ لله تعالى ما أثبته لنفسه،

ولكن مع التنزيه المطلق، ونفي أي نوع من المماثلة والمشابهة بينه وبين مخلوقاته، وسنفصل القول في صفات الله تعالى وأسمائه في الفصل الثاني من الباب الثاني منه، بإذن الله تعالى.

وكذلك إسجاد الله تعالى كل الملائكة الكرام لآدم عليه السلام ـ سجود تحية واحترام، كما قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [ص]، شَرَف عظيمٌ للإنسان، يصعب على العقل تصوّر أبعاده، وتصوّر النتائج العظيمة التي تترتب عليه! إذْ لم يخلق الله تعالى ـ حسبما نرى في كتابه المبين ـ خلقاً أطهر وأطوع وأنزه من الملائكة، الذين وصفهم الله تعالى بأوصاف، تدل كلها على طهارتهم وطاعتهم ونزاهتم إلى أبعد الحدود، ولكن مع ذلك أمر الله تعالى أولئك الكرام الأطهار بالسجود لآدم، إكراماً وإجلالاً فسجدوا جميعاً، ولم يتخلَّفْ منهم أحدٌ، سوى إبليس الشقي الذي لم يكن من صنفهم، وانّما كان مختلطاً بهم لأسباب يعلمها الله تعالى، كما قال تعالى مُبيّناً عدم سجود إبليس، وكونه من غير صنف الملائكة الكرام: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ. . .﴾ [الكهف].

وأنا أرى ـ والله هو العليم الحكيم ـ أن هذه المزية وحْدَها كافية لإثبات أنَّ للإنسان في هذا الوجود شأناً عظيماً وخَطْباً خطيراً، ليس لمخلوق سواه!

١٠) تسخير الله تعالى المخلوقات كلها للإنسان وإفاضته كلَّ النّعَم عليه، الظّاهرة منها والخفية:

وهذا ما بينه الله تعالى ـ على سبيل المثال ـ في كل من: الآية (١٣) من (الجاثية) والآية (٢٠) من (لقمان) والآيات: (٣٢، ٣٣، ٣٤) من (ابراهيم) حيث يقول سبحانه تعالى في آية الجاثية: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية]، وهذا يفهم منه أَنَّ للخلق كُلّه ارتباطاً بالإنسان، ارتباط خادم بمخدومه، ومَسودٍ بسيِّده، ولهذا عقَّب الله الكريم

على بيان ذلك الإنعام العظيم والتكريم العجيب، بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴿١٣﴾﴾! نعم والله الذي لا رب غيره، أن في جعل الإنسان سيد المخلوقات ومخدومها، وجعل المخلوقات عُلْويِّها وسُفْليِّها خادمةً له ومُسَخَّرةً له، مع أنه ـ أي الإنسان ـ صغير في حَجْمه وضعيف في جسده! لآيات وآيات...!! واحدى تلك الآيات ـ كما أرى والله هو العليم الحكيم ـ هي أن الإنسان إنَّما ساد الخَلْقَ كلَّه من حيث كونُهُ مُسَخَّراً له ـ بامتلاك تلك النفخة الربانية التي لها ارتباط خاص بالله تعالى، ولهذا لم يُسْجِدِ الله ملائِكَته الكرام لآدم عليه السلام، إلَّا بعد أن استقرّت في جَسَدِهِ المُسوَّى، تلك الروح العُلْويَّةُ الربانية، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [ص].

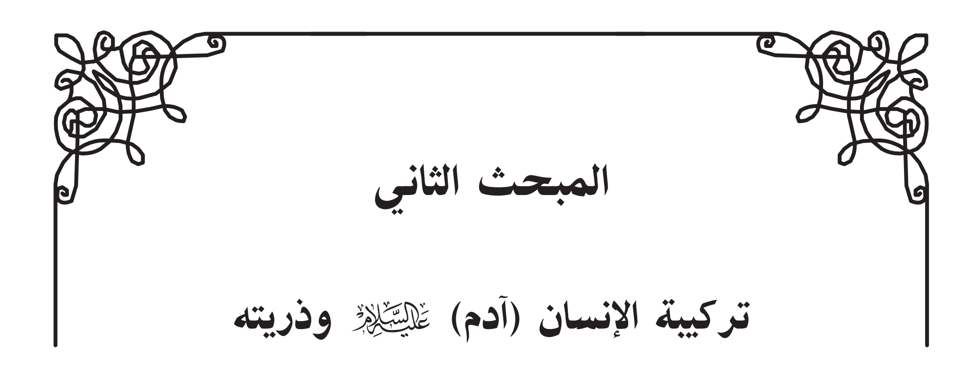
وفي آية لقمان: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً...﴾ [لقمان]، يخاطب الله العظيم الناس كلَّهم وينبههم إلى كون كل ما في السمٰوات وما في الأرض مسخَّراً لهم، وهذا الخطاب الرباني الحكيم، في الوقت الذي هو تذكير بنعم الله، كذلك إلفاتُ نَظَرٍ وتنبيه للبشر، بأنَّ الخَلْقَ كُلَّه مستعِدٌّ أنْ يُفيضَ عليه بخيراته وبركاته التي أودعها الله الكريم الحكيم فيه.

فَلْيَكْتَشِفْ سُنَنَه إذن ولْيَطَّلِعْ على أسراره وخفاياه، كي يُحْسِن التعامل معه، وينال خيراته وبركاته، وقد أشرنا من قبل إلى معنى النِّعَم الظّاهرة والباطنة، فلا داعي للتكرار، وفي الآيات (٣٢، ٣٣، ٣٤) من (ابراهيم) بعد أن يعدِّد الله تعالى عدداً من نعمه، يخاطب الناس بقوله: ﴿وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم]، أي: وأعطاكم ربُّكم أيها الناس! كلَّ ما سألتموه إياه بلسان الحال، وكلَّ ما تحتاجونه في حياتكم الأرضية، بحيث لا تحتاجون بعد نِعَمِهِ إلى شيء أبداً، فهو جلّ شأْنُهُ قد أغناكم بنعمه عن غيره، ونعمه من الكثرة والوفرة بحيث تجلُّ عن الحَصْر والعَدِّ والإحصاء!

ثم يختم قوله المبارك ذلك بـ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ وكلمة

الإنسان قَلَّما وردتْ في كتاب الله، إلَّا وقُصِدَ بها الإنسانُ الكافر، أو الذي لم تَصِلهُ يد الهداية الربانية بعد، وحقاً أن الإنسان لكثير الظلم وكثير الكفران تجاه ربِّه الكريم الوّهاب، إلَّا من رحم ربِّي، وبهذا نَخْتِمُ هذا المبحث الأول، وننتقل إلى المبحث الثاني، بتوفيق الله تعالى.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑



المبحث الثاني

تركيبة الإنسان (آدم) عليه السلام وذريته

أولاً: تركيبة آدم عليه السلام:

قال الله تعالى بهذا الصّدد:

١ ـ ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾﴾ [السجدة].

٢ ـ ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾﴾ [ص].

٣ ـ ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍۭ ﴿١١﴾﴾ [الصافات].

٤ ـ ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ [آل عمران].

٥ ـ ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾﴾ [الرحمٰن].

٦ ـ ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الحجر].

وتُبيِّن هذه الآيات تركيبة أبينا آدم عليه السلام بجلاءٍ:

١) ففي كل من الآية (٧) من (السجدة) والآية (٧١) من (ص) والآية (١١) من (الصافات)، يُعْلِنُ سبحانه خَلْقَهُ لأبي البشر عليه السلام من ﴿طِينٍ﴾،

وفي آية (الصافات) وصف ذلك الطين بـ﴿لَّازِبٍ﴾، وهو وصف للطين الملتصق المُتَمَسِّكِ بعضه ببعضٍ(١).

٢) وفي الآية (٥٩) يُخبرنا ربّ العالمين أنه خلق آدم عليه السلام من ﴿تُرَابٍ﴾.

٣) وفي الآية (١٤) من (الرحمٰن) وصف الله الرحمٰن جلَّ وعلا مادّة خلق الإنسان الأول، بأنَّه ﴿صَلْصَٰلٍ﴾ ﴿كَٱلْفَخَّارِ﴾، والصلصال هو الطين اليابِسُ الذي إذا احتكَّ به جسمٌ صَلْبٌ أو جافٌّ، صَوَّت صوْتاً كالصلصلة (وهي نوع من الجرس)(٢)، والفخار هو الخزف، أي: الطين الذي يَبُس وتَحَجَّرَ نتيجة تعريضهِ للحرارة(٣).

٤) وفي الآية (٢٨) من (الحِجْر) أضيف إلى كون مادة خلق الإنسان الأول ـ أي جِسمِهِ ـ صلصالاً، أنه كان ذلك الطين اليابِسُ الصلصالي من البداية ـ أي قبل تيبُّسهِ ـ طيناً أسْوَدَ متغيراً، أي متغير اللَّون أو الرائحة أو كِلَيْهما معاً.

إذْ الـ(حَمَأُ) هو الطين الأسود المنتن(٤)، والـ(مَسْنُونُ)(٥) هو المتغيِّر، كما قال تعالى: ﴿...فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ...﴾ [البقرة]، أي لم يتغيّرْ مع طول المَكْثِ وهو مائة سنة!

وهذا كلُّه بالنسبة للمادة التي خلق الله تعالى منها جسم آدم، ولكن آدم (الإنسان الأول) ليس جسداً مادياً ترابياً فَحَسْبُ، بل ليس جسدُهُ من روحه إلَّا كالثَوْبِ من البدن، وكالقِشْر من الُّلبِّ!

٥) وفي الآية (٢٩) من (الحجر) ـ وكذلك في آيات أُخَرَ كثيرة ـ

(١) المعجم الوسيط، ص٨٢٢.
(٢) المصدر السابق، ص٥٢٠.
(٣) المصدر نفسه، ص٦٧٦.
(٤) المصدر نفسه، ص١٩٥.
(٥) المصدر نفسه، ص٤٥٧.

بَيَّن الله تعالى أنه بعد أَنْ سوىَّ جسد آدم الطيني، نَفَخ فيه من روحه، فصار انساناً بعد تلك النفخة العلوية.

وقد بينّا في المطلب السابق أن للروحِ شأناً خاصاً، وارتباطاً خاصاً بربِّ العالمين، ونحن بالعلم القليل الجزئي الذي أوتيناه ـ والذي يكفي لحياتنا الأرضية الإبتلائية ـ ليس بمقدورنا الإِطّلاعُ على حقيقة الروح أو كيفية ارتباطها الخاص بالله تبارك وتعالى.

هذا والنظر السطحيُّ في الآيات المباركات التي تحدَّثتْ عن مادّة خلق بدن الإنسان الأول، يُوهِمُ لصاحِبهِ أن هناك اختلافاً أو تناقضاً بين الآيات! ولكن الحقيقة تتبدَّى بعد التدبُّر والتعمق في فهم آيات الله المملؤة بالحِكَم والأَسرار، والتي قد تكون بعيدة المنال ما لم نُوغِلْ في الأغوار، والمسألَةَ هي بالشرح الآتي:

أصل خلق بدن الإنسان هو التراب، وهو إذا أضيف اليه الماءُ صار طيناً، ثم إذا بقي الطين فترةً أَصْبَح حَمَئاً، ثم يتغيّر ويصير مسنوناً، ثم إذا جفَّ ويَبُسَ من جرّاءَ التعرُّض للحرارة، صار صلصالاً كالفخار.

وقد أشار سبحانه وتعالى في كل مقام إلى مرحلة أو أكثر من مراحل خلق جسد آدم عليه السلام، حسب اقتضاءِ المقامِ ومناسبة السياق.

فخلق بدن آدم عليه السلام مرَّ بتلك المراحل كلها، حسبما بيَّنه لنا كتابُ الله العليم الحكيم، وقد عبّر سبحانه عن تلك المراحل كلّها بكلمة (التسوية)، وهي جعل الشيء سوَّياً، أي كاملاً تاماً غير ناقص، كما قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [ص].

وكذلك عبر عنها بكلمة (التصوير) حيث قال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَـٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَـٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ [الأعراف].

ثانياً: تركيبة ذرية آدم:

وقال سبحانه وتعالى عن كيفية خلق ذرية آدم وتركيبتهم المادية والمعنوية:

١ ـ ﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ . . .﴾ [السجدة].

٢ ـ ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ۝١ إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ نَّبۡتَلِيهِ فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا ۝٢﴾ [الإنسان].

٣ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ . . .﴾ [الحج: ٥].

٤ ـ ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ ۝١٣ ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ۝١٤﴾ [المؤمنون].

ونقتبسُ من أنوار هذه الآيات المباركات، أضواء هذه الحقائق، فيما يخصُّ كيفية تركيبة ذرِّية آدم عليه السلام ومراحل تخلُّقهم:

١) في الآيات (٧، ٨، ٩) من (السجدة) بعد أن يبين الله تبارك وتعالى أنه خلق كلَّ شيء على أحسن ما يكون الخلق، وأنه خلق الإنسان الأول من الطين، يُخبِرُنا جلّ شأنه أنه جعل بداية خلق ذريته من ﴿سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ﴾ أي: خلاصة من ماءٍ حقير تَتَقزَّزُ منه النفسُ، والمقصود به هو منيُّ الرجل والمرأة، وبعد أن يتحدّث ربُّنا الحكيم عن تسويته للإنسان، بعد كونه نطفة ونفخه فيه من روحه، يُخاطِبنا بأنه جعل لنا السمع والأبصار والأفئدة (أي العقول)، ثم يقول: ﴿قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ﴾، أي: مع كل هذه النعم فَقَلَّما تشكرونني!

٢) وفي الآيتيْن (١، ٢) من (الإنسان) يتساءل سبحانه وتعالى على سبيل الإستفهام الإنكاري، فيقول: أَوَقَدْ مضى مقدار من الزمان ـ لا يعلمه

الا الله تعالى ـ على الإنسان قبل أن يُخْلَق ويكون له ذكر أو اسمٌ؟! ومعلوم أن السؤال الإستفهامي الإنكاري غنيٌّ عن الجواب، لأنه يحمل جوابه في طياته. ثم يبين الرب الحكيم كيفية خلقه الإنسان ـ أي كل انسان من ذرية آدم ـ فيقول: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ والنطفة اسم للخلية التي تتكون من جراء امتزاج حيمن الرجل وبويضة المرأة، وكل من الحيمن والبويضة، حيوان خلوي صغير لا يُرى بالعين المجردة، وكلمة ﴿أَمْشَاجٍ﴾ تعني الأَخلاط من (مَشَج الشيء بالشيء) إذا خلطه به[1]، وربما سُمِّيتِ النطفة أمشاجاً، لأنَّها خليط من مائَيْ الرجل والمرأة، أو خليط من مواد كثيرة وحاوٍ على صفاتٍ موروثة كثيرة، مطبوعة على الكروموسومات الحاملات للجينات الوراثية.

ثم بعد أن يُخبِرَ المولى جلَّ وعلا أنه يمتحن الإنسان ويختبره، يُبيِّنُ أنه قد وهب لَهُ السَّمع والبَصَر، أي زوَّده بما يُمَكِّنُه من النجاح في الإمتحان، إذا ما أراده وبَذَلَ جُهْدَه.

٣) وفي الآية (٥) من (الحج) يُخاطِبُ ربّ العالمين جلَّ وعلا البشرية كلَّها ويبين لهم كُلاً من مراحل تخلُّقهم في بطون أمهاتهم، ومراحل عمرهم وسَفَرِ وجودهم في هذه الحياة الأرضية، كي يستيقنوا من جرّاءِ تأملهم في مراحل وجودهم في الحياتين الرحمية والأرضية، أن الخالق الحكيم الذي مَرَّرهم عَبْرَ كل تلك المراحل، قادرٌ على إحيائهم وبَعْثِهم للحساب والجزاء.

والمراحل المذكورة في الآية لكلتا الحالَتَيْن، هي:

تراب، نطفة، علقة، مُضغة (مُخلَّقة وغير مخلَّقة) طفل، بلوغ الأشدّ، الوفاة المبكّر، أو قبل بلوغ الهرم، الإرتداد (بسبب الهرم) إلى أرذل العمر الذي يَفْقِدُ فيه الإنسانُ قواه الفكرية.

وإنّما جعل التراب بداية التخلُّق الجنينيّ، لأنَّ المَنِيَّ ـ أي مَنِيَّ الرجل والمرأة ـ إنما يتولَّد من الدَّم، والدَّم يتكون من الغذاء المهضوم، وهو بدوره

(١) المعجم الوسيط، ص٨٧٠.

يرجعُ إلى ما يَتَغذَّى على ما تُنْبِتهُ الأرض، وهو الحيوان، أو إلى ما تُنْبِتهُ الأرضُ مباشرة، وهو أنواع النباتات من حبوبٍ وزروعٍ وثمار...

٤) وفي الآيات (١٢، ١٣، ١٤) من (المؤمنون) يُبيِّنُ الله تبارك وتعالى المراحل السّبع التى يتدرّج فيها خلق الإنسان في الرحم، والتي لم يَطّلِعْ عليها علم الأجنّة إلَّا حديثاً، وهي:

المرحلة الأولى: ﴿خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ والمقصود بـ﴿سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ هو المنيُّ الذي هو الخلاصة المنتزعة والمتخلِّقة ـ بالعناية الربّانية ـ من الدّم المتكون من الغذاء (طعاماً وشراباً) المُحَضَّر من منتوجات النبات والحيوان، الناشئين من الماء والتراب، أي (الطين).

فالمرحلة الأولى لخلق الإنسان هي تكوّن المنيِّ في كل من الأَب والأُم والذي تنتهي سلسلة وجوده إلى الطين، ولهذا سمَّى الله الحكيم تلك البَذْرة الأولى لِتَخَلُّقِ الإنسان ﴿سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ وسُلالَةُ كل شيء هي: خلاصَتُهُ من (سُلَّ الشيءُ من الشيء يُسَلُّ) إذا أُخِذَ بعناية ودقةٍ ولُطْفٍ[١].

المرحلة الثانية: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾﴾ والنُّطْفة في أصل اللغة العربية تعني الماء الصافي[٢]، ولكن في الإصطلاح ـ أي: علم الأجنة ـ هي الخلية المتكونة من أحد الحيامن الموجودة بالملايين في منيِّ الرجل، والبويضة الموجودة في منيِّ المرأة.

والقرار المكين وصف ربّاني دقيق للرَّحم، والذي تستقر فيه النطفة لتتكوَّن فيه وتصير انساناً بإذن الله!

ورَحِمُ الأم فعلاً مستقر مكين وأمين للجنين، وفيه كل مستلزمات نشوء ونموِّ تلك البذرة الصغيرة التي لا تُرى بالعين المجردة، إلى أن تُصْبح إنساناً كاملاً، فَيُخْرِجُهُ ذلك المكان الأمين، والمستقر المكين، في الوقت المحدّد

(١) المعجم الوسيط، ص٤٤٥، (السُّلالةُ: ما استُلَّ من الشيء وانتزع).
(٢) مختار الصحاح، ص٥٧٣، لفظ: ن ط ف (النُّطْفة: الماءُ الصافي قلَّ أو كثر والجمعُ نِطاف بالكسر).

المقرَّر من غير تقديم أو تأخير، لِيَبْدأ نوعاً آخر من الحياة!

المرحلة الثالثة: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾ ثم إذا مرت أربعون يوماً على عمر النطفة تحولت بإذن الله العليم جلَّ شأنه إلى مخلوقٍ يَتَعَلَّقُ بِجدار الرَّحِم، ولهذا سُمِّيَتْ تلك البذرة البشرية العجيبة في تلك المرحلة بالعلقة، وإنَّما عَلِمْنا أن المدة التي يَسْتَغْرِقُها تحول النطفة إلى علقة، هي أربعون يوماً من حديث رسول الله ﷺ الذي رواه عنه الإمامان (البخاري ومسلم) في صحيحيهما(١)، ولم يتوصل علم الأجنة إلى معرفة هذه الحقيقة إلَّا أخيراً.

المرحلة الرابعة: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾ ثم تتحولُ العلقة في غضون أربعين يوماً أخرى إلى مضغة، أي إلى مخلوق صغير بقدر اللقمة التي تُمْضَغُ وتؤكل، ولهذا سُمّيَتْ البَذْرَة البشرية في هذه المرحلة ﴿مُّضْغَةٍ﴾.

المرحلة الخامسة: ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا﴾ وفي هذه المرحلة تتحولُ وتتطوَّر المضغة إلى عظامٍ.

المرحلة السادسة: ﴿فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا﴾ وفي هذه المرحلة السادسة يكسو اللحمُ العظامَ، ويكتمل تخلّقُ الجنين، أي تَتِمُّ تسويته، ويُصْبحُ مستعداً لاستقبال النفخة الربانية التي لا تدخل إلَّا في جسم سويِّ الخلق، كما قال تعالى بالنسبة لآدم عليه السلام: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى...﴾ [ص: ٧٢]، وقال بالنسبة لِذُرِّيَّتِهِ: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ...﴾ [السجدة: ٩].

المرحلة السابعة: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ...﴾ ويُقصد به نفخ الروح فيه، وهذه المرحلة تختلف نوعياً عن المراحل السابقة لإحلال الروح في

(١) انظر: (المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير)، ص٩١، حيث أَورد الحديث بكامِلِهِ.

وهذا هو نصُّ المقصود منه:

(إن أحدكم يُجْمَعُ خَلْقُهُ في بَطْنِ أُمّه أربعين يوماً نُطْفَةً، ثم يكون عَلَقَةً مثل ذلك، ثم يكون مُضْغَةً، مثل ذلك، ثم يُرْسَلُ المَلَكُ فَيَنْفُخُ فيه الروح...) صحيح البخاري: ٣٢٠٨، وصحيح مسلم: ٢٦٤٣.

الجسد، ولهذا سمّى الله الحكيم جلَّ وعلا جنين الإنسان في هذه المرحلة: ﴿خَلْقًا ءَاخَرَ...﴾.

وقال تعالى مُعَقِّباً على خلق الإنسان عَبْرَ المراحل السبع السابقة بذلك الترتيب العجيب المحيِّر للألباب: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ لأن خالقية الله تعالى تتجلَّى بأحسن صورها في خلق الإنسان، والذي لا يَطَّلِعُ على كل أسراره وحِكَمِهِ سواه جلّ شأنه.

وقد أشار سبحانه في كل من الآية (٦) من (الزمر)، والآيتيْن (١٣، ١٤) من (نوح) بإجمال إلى مراحل خلق الإنسان في بطن أمِّه، حيث قال:

١) ﴿...يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ...﴾ [الزمر: ٦].

٢) ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾ [نوح].

وفي هذه الآيات المباركات التي تتحدث عن كيفية خلق الإنسان أكثر من إعجاز علمي، حيث سبق كتابُ الله عِلْمَ الأجنة، خصوصاً وعلم الطب والتشريح عموماً، ببيان حقائق عظيمة لم تكتشف إلَّا بعد التقدُّم العلمي وصنع المجهر والأجهزة الطبيّة الأخرى، والتي بفضلها تمكَّن الإنسان من الإطلاع على البذرة الإنسانية العجيبة، وأطوار تخلُّقها ومراحل نموِّها، وكيفية تكاملها وصيرورتها بشراً، بعد أن كانت ماءً حقيراً مُسْتَقَذَراً! وخلاصة القول في تركيبة آدم عليه السلام وذُريّتِهِ وكيفة تخلُّقهما، هي:

أن الله تعالى خلق آدم ـ وكذلك زوجه حوّاء ـ وذريَّته من شيئين:

١ ـ الطين (تراب + ماء).

٢ ـ الروح.

أما جسد آدم عليه السلام فخلقه الله تعالى بصورة مباشرة من الطين، ولكن بعد إحْداثِ تغيرُّاتٍ وتطوّرات، حسب سنن لم نَطَّلِعْ عليها بَعْدُ.

وأما أجْساد ذُرِّيَّتِهِ فخلقها الله تعالى بصورة غير مباشرة من الطين، وذلك عَبْر مَراحِلَ متدرِّجة بَدْءاً بانتزاع خلاصة من الطين ﴿سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾

والمتمثِّلة في مَنيِّيَيْ الرجل والمرأة، ومروراً بالنطفة والعلقة والمضغة والعظام، وانتهاء بإكساءِ العظام باللحْم.

هذا بالنسبةِ للجسد، وأما الرّوح فشأنُها يختلف عن الجسد، إذْ نفخها الله الحكيم في كل من جَسَدِ آدم، وأجساد ذريته، بعد أن سَوّاها لها ـ وكأنّ الروح ضيفٌ كريم، لا يَنْزِلُ إلَّا في بيتٍ مُرتَّبٍ وعند مُضِيفٍ شريف ـ، وهذا دليل على أن شؤون الروح مختلفة تماماً عن شؤون الجسد، ولهذا لم يذكر الله تعالى أن تَخَلُّقها تَمَّ مُتَدرِّجاً واستغرق فترة من الزمن، كالجسد، وانما عبَّر عن تخلُّقها بقوله: (ونفختُ فيه من روحي) و(ونفخ فيه مِنْ روحه)، والحكمة ـ حسبما أرى والله هو العلم الحكيم ـ في التعبير عن إحْلال الروح في الجسد بالنفخة، هي: الإشارة إلى أن خلق الروح إنَّما تَمَّ في لحظة من دون تدرُّج واستغراق زمن، ولكن هنا يجب أن نتنبَّه إلى حقيقة عظيمة، وهي أن الحياة التي في الروح الإنسانية التي ينفخها الله تعالى في جسد الجَنين، بعد مُضيٍّ أكثر من أربعة أشهر، غير الحياة التي في النطفة وقبلها في كل من الحيامن والبويضات، اذْ هناك على الأقل ثلاث درجات من الحياة: الحياة النباتية، والحياة الحيوانية، والحياة الإنسانية، فالحياة النباتية ـ وهي أكثر أنواع الحياة بدائية ـ لا تتجاوز نشاطاتها نطاق التغذّي والنمو وتوليد المِثْلِ.

ولكن الحياة الحيوانية بَدْءاً بالأميبا (الحيوان ذو الخلية الواحدة) وانتهاء إلى ما يُعتبر أرقاها، من القِرَدَة وغيرها، فهي بالإضافة إلى التغذِّي والنموّ وتوليد المثل، لها الحركة الإرادية والدفاع عن النفس، وبعض الأعمال الدقيقة التي تُدْهِشُ العقول... ولكن كل ذلك بدافع غريزي وليس بدافع العقل والشعور، ثم لا تتجاوز أعمالُها ونشاطاتهُا الغريزية نِطاقَ ذواتها ولحظاتها الآنية.

أما الحياة الإنسانية الناشئة عن الروح، فهي شيء آخر مختلف تماماً عن الحياتين النباتية والحيوانية، اذْ بسببها يتمتع الإنسان بالعقل والشعور الذي يُوَفِّرُ لَهُ التفكير في نفسه وفي غيره، كما ويُوَفِّرُ له الإستنتاج مِمّا

تجمعه له حواسه من المسموعات والصور والمشمومات والمذوقات والملموسات، وكذلك يُوَفِّر له الإتصالَ ـ بشتَّى أنواعه ـ بالآخرين، وبناءَ الحياةِ الإجتماعية معهم، على أساس التفاهم عن طريق اللغة والتخاطب بها، والتي هي أيضاً من ثمار الروح الإنسانية وحْدَها، وكذلك يُتيحُ له المجالَ للتأمل في الوجود الماضي والمستقبل، ثم يُوفِّر له الإرتباطَ بخالق الخلق، وتلقّي الهداية منه وتنظيم حياته وفقها، عابِداً لله، ومطيعاً لِرُسُلِه، ومتَّبِعاً لِدينِهِ.

ولا شك أن هذه النشاطات وغيرها كثير، إنما تُثمِرُها الروحُ التي هي نفخة ربانية، وما العقلُ والقلبُ والسمعُ والبصرُ، وبقية الحواس والقوى الظّاهرة والباطنة، سوى جنود مطيعين لها تَتصَرَّفُ فيها وتَسْتَخْدِمُهُم كما تشاء!

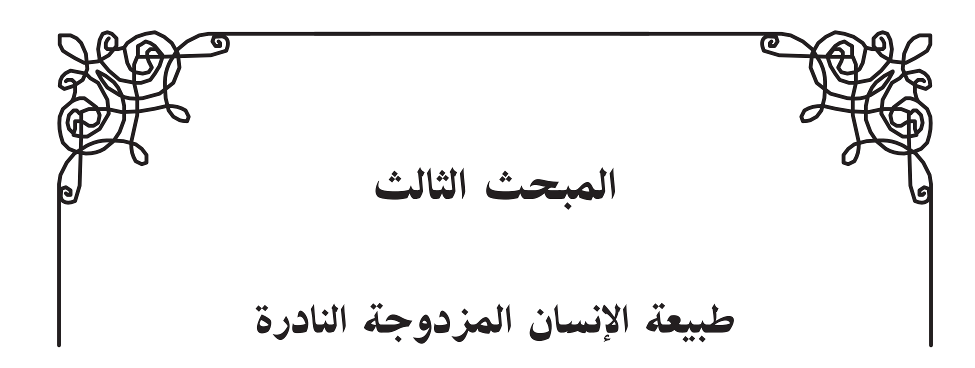
وانما وضَّحْتُ هذه المسألة كي لا يظن ظانٌّ عند سماعه لكلمة (الروح الحيوانية) أو (الحياة الحيوانية)، بأنها هي كذلك مثل الحياة والروح الإنسانية!، بَلْ بينهما بون شاسع، كما بين الأرض والسماء، ولم يصبح الإنسان ذلك المخلوق العجيب الذي يعتبر نَفْسَهُ مُسَخِّر الموجودات الأخرى كلّها لنفسه، إلا بتلك الروح البشرية التي لا يسعنا أن نُعرِّفها بأكثر من القول: (انها نفخة ربانية عُلْوية لا يعلم حقيقتها غير الباري ﷻ) وقد هَيَّأَ الخالق وأبدع لتلك الروح العجيبة، جسداً لائقاً بها، كلياقة مكانٍ مُرتَّبٍ أنيقٍ، بِضيف كريمٍ!

وأدلّ دليل على أن شؤون الروح الأمْريِّ مختلفة عن شؤون الجسد المادي، هو ظاهرة الرؤى، حيث يقول علماء النفس والمتخصِّصون في بعض شؤون النفس والروح كالرؤى وغيرها، أنَّ أطول رؤيا في المنام لا تستغرق سوى لحظة أو لحظات من الزمن! ومن الواضح أن رؤية الرؤى هي عمل الروح اذْ هي تنطلق هنا وهناك بعد تحرّرها الجزئي من قيد الجسم المادي، كما يُشير اليه قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ

تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ [الزمر].

إذن: هناك للنفس ـ أي الروح المُتلَبِّسَة بالبدن ـ وفاةٌ وانتقالٌ جزئي حين المنام، وهذا هو الذي يُمَكِّنُها من الإنطلاق هنا وهناك، أو الإتصالات المتنوعة واستقبال الموجات المعنوية المتعدّدة، حسب حالتها التي تَكْتَسِبُها في اليقظة.





المبحث الثالث

طبيعة الإنسان المزدوجة النادرة

وللإطلاع على طبيعة الإنسان، لِنَتَأَمَّلْ هذه الآيات المباركات:

١ ـ ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (١) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا (٢) وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا (٤) وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا (٥) وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا (٦) وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (١٠)﴾ [الشمس].

٢ ـ ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (٢) إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا (٣)﴾ [الإنسان].

٣ ـ ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا (١٣) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١٤) مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا (١٥)﴾ [الإسراء].

٤ ـ ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ...﴾ [الكهف: ٢٩].

وتُجلّي لنا هذه الآيات الطبيعة البشرية المُزْدَوِجة (أي القابلة للخير والشر) بوضوح تام كما خلقها الله تبارك وتعالى، وكيف لا يكون قول خالق الإنسان عن الإنسان وتعريفه له جلياً، وهو أعلم بخلقه، كما قال: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٣) أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤)﴾ [الملك].

والآن نحاول اقتباس أضواء بعض الحقائق التي تدلّ عليها هذه الآيات فيما يخصُّ النَّفس وطبيعتها العجيبة الفريدة:

١ ـ أما الآيات (١ الى١٠) من (الشمس): فَيُقْسِمُ فيها المولى الكريم جلَّ وعلا بسبعة أشياء، أحدُها النفسُ البشرية، وهي حسب الترتيب المذكور في الآيات:

١) الشمس وضياؤها ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١﴾.

٢) والقمر ومجيؤه بعد الشمس ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢﴾.

٣) والنَّهار عند تَجْلِيَتِهِ للأرض ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣﴾.

٤) والليل حينما يَغشى الأرض بظلامه ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ۝٤﴾.

٥) والسماء وبانيها (سبحانه وتعالى) ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥﴾.

٦) والأرض وطاحيها وهو الله العظيم (جلّ شأنه) ﴿وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦﴾، والطحو هو المدُّ والبسطُ[1].

٧) والنفس البشرية ومُسَوِّيها (تبارك وتعالى) ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧﴾.

وجواب هذه الأقسام السبعة (أي المُقْسَمُ عليه) هو قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس].

ولكي نعرف معنى هاتين الآيتيْن الكريمتين، يجبُ أن نعرف أولاً معنى قوله تعالى في وصف النفس: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾، لأن الآيتيْن التاليتين مترتبتان عليه، والمقصود بقول ربنا الكريم جلّ شأنه: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾ هو: أن الله تعالى فَطَر النفس البشرية

(١) المعجم الوسيط، ص٥٥٢.

وجَبَلَها على كلا جانبي الخير والشر، أي ان الله العليم الحكيم قد زوَّد الإنسان الذي خلقه للإبتلاء، بكلا استعدادي الصعود والهبوط، أو الإيمان والكفر، أو الشكر والكفران، أو الطاعة والطغيان، وهذه الطبيعة المزدوجة هي التي تُمَكِّنُ الإنسانَ من الصعود والعروج في معراج الإيمان ومدارج الطاعة، إلى أن يصير في أعلى عليين: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾﴾ [المطففين]، وكذلك هي التي تُسَهِّلُ عليه عملية التسفُّل والهبوط في دركات الكفر والعصيان، إلى أن يكون أسفل سافلين في سجين: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾﴾ [التين]، ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾﴾.

وأما قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس].

فيعلنُ فيه ربُّنا الأكرم جلَّ وعلا، فَلاحَ مَنْ يقومُ بتزكية نفسه، وفَوْزَهُ، وخَيْبَة من يقومُ بتدسيتها، وخُسرانَهُ، وبما أن كلمة (الزكاة) تعني النموّ والصلاح والطهارة[1]، فمعنى (تزكية النفس) هو: إنْماءُ وتربية جوانب الخير فيها، وتطهيرها من جوانب الشر، أو تحليتها بالفضائل وتخليتها من الرذائل، أو تقوية التقوى فيها وتصفيتها من الفجور، ولا شك أن النفس بقدر توجُّهها إلى الله تعالى عبر الإيمان والطاعة والإلتزام بالشريعة، تنمو فيها بذرة التقوى، وتَذبُلُ فيها بذرة الفجور، إذ كلتا البذرتين قد أودعهما الله الحكيم أرْضَ النفس البشرية، ثم أعطى الحرية والإختيار في تنمية أيهما شاء وتَقْويَتِهَا، بعد أنْ حذَّره من خلال كتبه ورُسُله من مغبَّة الفجور، وبَشَّره بعاقبة التقوى.

و(التدسية) هي عكس التزكية تماماً، إذْ التَدْسية تفعلة من (الدَّسِّ) وهو

(١) المعجم الوسيط، ص٣٩٦، (زَكا الشيءُ زكاءً وزكاةً: نَما وزادَ، وصَلَح، وَزكّاهُ: أصلحَهُ ونمّاه وطهَّرَهُ).

الإخفاء والسَّتْرُ[1]، كما قال تعالى مُبَيِّناً موقف المشركين الجهلة الذين كانوا يئدون بناتهم كرهاً لهنَّ: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [النحل]. إذْ معنى (يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ) أي يَدْفُنهُ ويُخْفِيه فيه.

وبناءً على هذا: فمعنى (تَدْسية النفس) هو إخفاءُ النفس تحت ركام المعاصي، أو إخفاء جانب الخير والتقوى فيها، وإبراز الفجور فيها، وبروز الفجور واستفحال الشرِّ ونموّ بذرته في النفس، يَحْصُلُ نتيجة إعراض الإنسان عن ربِّه ونسيانه له وإهمالِه لطاعته، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الحشر]، وعندما ينسى الإنسان نفسه من جرّاء نسيان الله تعالى، يَتَعَشَّشُ الشيطان فيها ويتخذها منْزلاً ومقاماً، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَـٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَـٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾ [الزخرف]، ومن الواضح أن النفس التي يَسْتَولي عليها الشيطان ينمو فيها الفجور، بل يَعُمُّها الخرابُ والفساد وتسودُ فيها الفوضى، وبالتالي يَذبُلُ فيها التقوى إلى أن يختفي تماماً تحت رُكام الفجور.

٢ ـ وأما الآيتان (٢، ٣) من (الإنسان): فيبين فيهما ربُّ العزة تبارك وتعالى أنه خلق الإنسان للإبتلاء، مُبْدِعاً اياه في مُبْتَدَءِ نشأته من نطفة مكونة من أخْلاطٍ، ومُجَهِّزاً اياه بالسمع والبصر، ثم يُبين أنه قد دَلَّه على صراطه المستقيم الذي يوصِلهُ إلى سعادة الدنيا وفلاح الأخرى، وَوَضَعَهُ بأعطائِهِ الحرية والإختيار، أمام طريقَيْ الشكر والكفران، ولكن حذَّره مُسْبَقاً من وخامة عاقبة الكفر والكفران، وبشَّره بعاقبة الشكر والإيمان، وأخبره بأنه وإنْ أعطاهُ إمكانية اختيار طريق الضلال، لكنه لا يرضى له سوى الشكر والإيمان، كما قال: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ﴿٧﴾﴾ [الزمر].

(١) المصدر السابق، ص٢٨٣.

ومن الواضح أن مشيئة الله تعالى ورضاه شيئان مختلفان، إذْ مشيئتُهُ وإرادته شاملةٌ لكل شيء، ولا يَحْدثُ شيء بغير إرادته، وكيف يمكن أن يحدث شيء في ملك الله العظيم من غير إذنِهِ وإرادته! ولهذا نَسَبَ الله الحكيم كلَّ شيء إلى مشيئَتِهِ المطلقة، ومن ضمنها إيمان المؤمنين وكفر الكافرين، أو الهداية والإضلال كما قال: ﴿. . . كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِى مَن يَشَآءُۚ ﴿٣١﴾﴾ [المدثر]، ولكنه لَمْ يُبْدِ رضاهُ إلَّا عن الإيمان والشكر: ﴿. . . وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡۗ﴾ [الزمر].

ومن سفاهة المشركين أنهم خلطوا بين رضى الله ومشيئته، ونتيجةً لهذا حَسِبوا أنَّ كل ما يحدُث بإرادة الله فهو موافق لرضائه، وبما أن إشراكَهم بالله لم يحصل إلَّا بإرادة الله، لذا فالشرك مرضيٌّ لله تعالى!! كما حكى الله تعالى عنهم هذا، حيث قال: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖۚ ﴿١٤٨﴾﴾ [الأنعام].

وقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ . . . ﴿٣٥﴾﴾ [النحل].

ولكن كما قلنا: نشأ احتجاجهم المُعْوَجّ هذا من جَرّاء خلطهم بين إرادة الله الشاملة لكل شيء، ورضاه المحصور في دائرة الشرع وحدها، ورُبَّما نشأ خطؤهم هذا نتيجة قياس الله تعالى على البشر، اذْ قَلَّما يريدُ الناسُ إلَّا ما يرضونه ويختارونه، فمشيئتهم ورضاهم مُتَّحِدان، ولكن الله تعالى له شأن آخر ولا يُشبِهُ شيئاً من مخلوقاته في شيء من صفاتهم.

٣ ـ وفي الآيات (١٣، ١٤، ١٥) من (الإسراء) يبين الله العليم الحكيم الحقائق الآتية في مجال التعريف بشخصية الإنسان وطبيعته:

١) مسؤولية كل إنسان في عنقه هو، وفلاحُهُ وخسرانُه مرهونان به وحده: ﴿. . . وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ ﴿١٣﴾﴾ [الإسراء].

٢) ويُجازى كُل انسانٍ حَسْب أعمالِهِ التي سُجِّلَتْ في كتابٍ خاصٍّ به هو: ﴿. . . وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾﴾ [الإسراء].

٣) ويُعْطى كلُّ انسانٍ سِجِلَّ أعماله ليقرأه بنفسه، وليُحاسِبَ نَفْسَهُ بِنَفْسِه في ضوء أعمالِهِ المُسَجَّلَة: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ [الإسراء].

٤) وسالك طريق الهداية لا ينتفع بهدايته إلَّا هو،كما أن المنحرف لا يضرُّ إلَّا نفسه: ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء].

٥) ولا يتحمل أحد مسؤولية أحدٍ، بل الكل يتحملون مسؤولية أنفسهم: ﴿. . . وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء].

٦) والله تعالى لا يُعَذِّب أحداً لا في الدنيا ولا في الآخرة، حتى يقيم عليه الحجة الرسالية: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء].

٤ ـ وفي الآية (٢٩) من (الكهف): يعلن الله تعالى أنه وإن كان الحق محصوراً فيه هو وحده، ولكنه أعطى الناس حرية الإختيار ولم يُلْزِمْهُم بما يُحِبُّهُ ويَرْضاهُ، بل خيَّرهم ليختاروا هم بأنفسهم ما يرغبون فيه، ومن ثم يتحملوا نتائج اختيارهم ذلك: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ. . .﴾ [الكهف].

وفيما مر ذكره من آيات الله البينات، وَضَحَ لنا بجلاءٍ تام أنَّ الإنسان له طبيعةٌ مُزْدَوجَةٌ كسلاح ذي حدين، ويمكنه التحرك يميناً وشمالاً، أو صعوداً وهبوطاً، نحو مرضاة الله ومحابِّهِ، أو غَضَبه ومَساخِطِه، وهذا ما سَنُوَضِّحهُ في المبحث الرابع بإذن الله.

ولكن هناك مسألة ربما تثير التساؤل في أذهان كثيرين، لِذا أودّ أن أتناولها ولو باختصار، وسيزيد تناولنا لهذا الموضوع (طبيعة الإنسان) وضوحاً وتبلوراً.

والمسألة هي:

أن هناك العديد من الآيات المباركات التي وصف الله تعالى فيها الإنسان بأوصاف ذميمة، وهذه أمثلة من تلكم الآيات:

١) ﴿. . . يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾ [النساء].

٢) ﴿. . . وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾ [الكهف].

٣) ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍۚ ﴿٣٧﴾﴾ [الأنبياء].

٤) ﴿. . . وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾﴾ [الحج].

٥) ﴿. . . إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب].

٦) ﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾ [المعارج].

٧) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾﴾ [الانفطار].

٨) ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾﴾ [العلق].

٩) ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾﴾ [العاديات].

والمثير للتساؤل هو:

إن الله تعالى أطلق تلك الأوصاف على الإنسان المُعَرَّف بالألِف واللاّم، وهذا يجعل كل إنسانٍ مشمولاً بذلك الحكم ـ أي: إطلاق تلك الأوصاف عليه ـ!

والجواب ـ كما يبدو لي بعد تدبُّر تلك الآيات في سياقاتها ـ هو الآتي:

إن المقصود بكلمة (الإنسان) في كتاب الله المبين في الأعَمِّ الأغلب هو الإنسان في أصل خلقته وفِطْرَتِهِ التي فطره الله عليها، قبل أن تصله يدُ الهداية الربانية، وقد يقصد به الإنسان الكافر الرافض لهداية الله والغارق في الجهل والضلال، وهذا ما سَنُبَيِّنُه بعد قليل عند تدبُّرنا للآيات التي استشهدنا

بها، وحكمة إطلاق تلك الأوصاف على الإنسان عموماً، هي ـ حسبما أرى والله تعالى هو العليم الحكيم ـ:

أن يعرف الإنسان ـ كلُّ إنسان ـ طبيعته ويَطَّلِعَ على نقاط ضعفِهِ كي يَحْذرَها ولا يقعَ في فِخاخِها، بل يحترس منها ثم يُشمِّر عَن ساعِدِ الجدِّ لمعالجتها وتطهير نفسه منها، أو تشذيبها إنْ كانت ممّا لا بُدَّ له منها، أو ممّا لا يمكن إزالتها.

والآن لنتدبرَّ تلك الأوصاف على الترتيب الذي أدْرَجْنا به الآيات:

١ ـ الضُّعْف: كما في الآية (٢٨) من (النساء) والآية تبين حقيقة واقعية، وهي ضعف الإنسان عموماً، وخصوصاً أمام الغريزة الجِنْسِيَّة، كما يدلّ عليه السياق.

٢ ـ الجَدَلْ: كما في الآية (٥٤) من (الكهف)، والمقصود بالإنسان الموصوف بالجدل، هو الإنسان الكافر، كما هو واضِحٌ في السياق.

٣ ـ العَجَلَةُ: كما في الآية (٣٧) من (الأنبياء)، والمقصود بالإنسان هو الإنسان عموماً، ولكن قبل أن تُهذِّبَهُ الشريعة، وتُزيلَ عنه رذيلة الإستعجال وتُحَلِّيَهُ بفضيلة الرزانة والوقار، كما وصف الله تعالى عباده الأخيار بقوله: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا...﴾ [الفرقان].

٤ ـ الكفران: كما في الآية (٦٦) من (الحج) والموصوف بهذه الصفة هو الإنسان الكافر الجاحِدُ لنعم الله، كما يدل عليه السياق بوضوح.

٥، ٦ ـ الظلم والجهل: كما في الآية (٧٢) من (الأحزاب)، والموصوف بهاتين الرذيلتين هو الإنسان في أصل خلقته، وقبل أن تصله الهداية الربانية، فيصبح بِفَضل استماعِهِ للوحِي الربّاني، عالماً، وبفضل طاعته لله والتزامه بشريعته، عادِلاً.

٧، ٨ ـ الجزع عند البلاء، والبُخْلُ عند النعمة: كما في الآيات (١٩، ٢٠، ٢١) من (المعارج)، والمقصود بالإنسان الموصوف بالـ(هلوع) والذي عرَّفَهُ الله تعالى بالجزع عند الشر والمنع عند الخير، هو الإنسان

الكافر، بدليل أن الله تعالى استثنى المؤمنين المصلِّين فيما بعد، حيث قال: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [المعارج].

٩ ـ الغرور: كما في الآية (٦) من (الأنفطار)، وواضح أن الخطاب في الآية موجَّهٌ للإنسان الكافر، بدليل قوله تعالى فيما بعد: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾﴾ [الانفطار].

١٠ ـ الطغيان عند الغِنى: كما في الآيتيْن (٦، ٧) من (العَلَق) ومن الواضح أن الموصوف بالطغيان عند الشعور بالغِنَى، هو الإنسان الكافر، كما هو واضح في السياق.

١١، ١٢ ـ الكنود[١] وشِدَّةُ الحُبِّ للمال: كما في الآيتيْن (٦ ـ ٨) من (العاديات)، والمقصود بهذين الوَصْفَيْنِ أيضاً هو الإنسان الكافر، بدليل أن الله تعالى يقول فيما بعد وفي نفس السياق: ﴿۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ﴿١١﴾﴾ [العاديات]، اذْ من المعلوم أن الإنسان الكافر، هو الذي يُنكِرُ بعثرة ما في القبور وإفشاءَ أسرار الصدور!

وهناك آيات أُخَرُ استعملت فيها كلمة الإنسان، والمقصود بها هو الكافر ولا يحتاج فهمها إلى توضيح، مثل قوله تعالى:

١ ـ ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾﴾ [يس].

٢ ـ ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾﴾ [مريم].

وخلاصة الحديث في طبيعة الإنسان المزدوجة النادرة، هي:

---

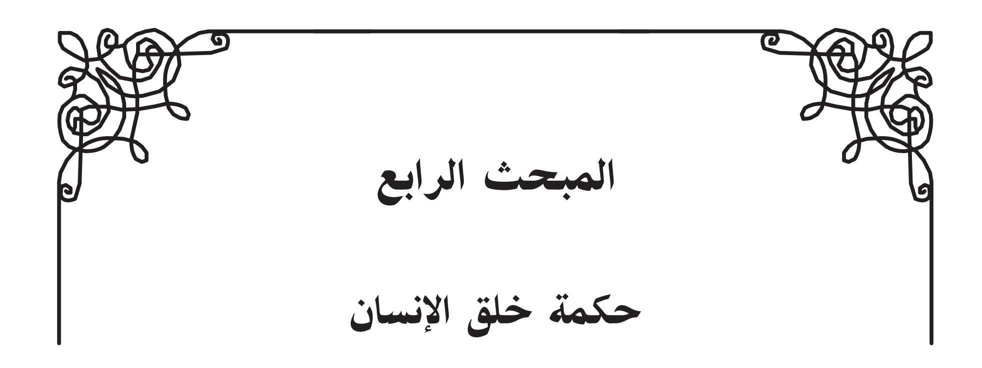
(١) كَنَدَ النِّعْمَةَ: كَفَرَها وجحَدَها، فهو وهي كنود، المعجم الوسيط، ص٨٠٠.

إن الله تعالى فطر الإنسان على خَصيْصَةٍ[1] امتاز بها من بين المخلوقات ـ عدا الجنّ ـ وهي: صلاحيته واستعداده للتوجُّه نحو الخير أو الشّر، وقُدْرَتهُ على الصُّعود والهُبوط، ولكن بالإضافة إلى هذه الخاصِّية، ففي النفس الإنسانية مجموعة نُقاطِ ضُعْفٍ وما لم يتداركْها الإنسانُ، ويتخلَّص منها أو يَضْبِطْها ويُشَذِّبْها، بِسبب التزامه بالشريعة واعتصامه بحبل العبودية لله تعالى، فإنَّها تُورِدُه موارد الهَلاك، ولهذا حكم الله الحكيم العليم في كتابه الكريم على جنسِ الإنسان بالخسران، باستشناء أهل الإيمان والعمل الصالح والتوصية بالحق والصبر، حيث قال: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر].

وكذلك أخبر أنه سَيَرُدُّ كلَّ إنسانٍ إلى أسْفلَ سافلين بعد أن خلقهم في أحسن تقويم، سوى أهل الإيمان والعمل الصالح: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦﴾ [التين].



(١) الخصيصة جمعها خصائص: الصِّفَةُ التي تُميّزُ الشيءَ وتُحَدِّدُهُ، المعجم الوسيط، ص٢٣٨.



المبحث الرابع

حكمة خلق الإنسان

قال الله تبارك وتعالى مُبَيِّناً حكمته في خلق الإنسان:

١ - ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾﴾ [الإنسان].

٢ - ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾ [الملك].

٣ - ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ [المؤمنون].

٤ - ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ [القيامة].

وتَهَبُنا هذه الآيات الحقائق الآتية، فيما نحن بِصَدَدِ البحث فيه:

١) أما الآية (٢) من (الإنسان) والتي استشهدنا بها أكثر من مرة في مناسبات سابقة، فَيُعْلِنُ الله الحكيم فيها خلقه الإنسان للإبتلاء أي الإختبار، وأما ما هي مادَّةُ ذلك الإمتحان وما هو مجال ذلك الإختبار؟! فهذا ما سنوضِّحُهُ بعد قليل.

٢) وفي الآية (٢) من (الملك) يُخْبِرُ الخالق الحكيم أنه إنَّما أبدع ظاهرتَيْ الموت والحياة لِيَبْتَليَنا، أي أن الحكمة من خلق الله تعالى الحياة

الإنسانية والتي تُخْتَمُ بالموت الذي يَعْقُبُه الجَزاء (الثواب أو العقاب) هي امتحانه للبشر، ثم يبين مادة الإمتحان وميدان المسابقة والرِّهان، بقوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، إذن:

حُسْنُ العمل هو المادة التي يُمتحن بها الإنسان، وبناءً عليه:

فَمَن أحسن العمل فهو الفائز المفلح الناجح في امتحانه، وتختلف درجة فوزه ونجاحِهِ بمقدار إجادَتِهِ وإحْسانهِ في العمل، ولكن المُسيء في عمله يُعْتَبَرُ خاسراً وفاشلاً وساقطاً في امتحانه بقدر سوءِ عمله، ولهذا عَقَّب الربُّ الحكيم جلَّ وعلا على الحقيقة السابقة بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ فهو عزيز لمن عصاه بإساءة العمل، ومن ثم سقوطِهِ في الإمتحان، وغفور لمن أطاعَه ونجح في الإختيار بِحُسْنِ عمله، ولقد صدق من قال قديماً: (عند الإمتحان يُكْرَمُ المرءُ أو يُهان).

ولا يَحْسُنُ العَمَلُ إلَّا إذا تَوفَّر فيه شرطان أساسيان وهما: (الإخلاص والإصابة) والإخلاصُ هو: أن يُجَرِّدُ العَبْدُ نيته لله تعالى، فلا يبتغي في عمله غيرَ نيل رضوان الله وثوابه، كما أن الإصابة هي أن يكون عمله بَدْءاً وانتهاءً شرعياً صحيحاً، وكلما رسخ التوحيد في عَقْلِهِ وقَلْبِه،كلما ازْداد إخلاصه وتجرُّده لله تعالى، وعدم التفاته إلى غيره، كما أَنَ الإصابة والشرعية في العمل هي ثمرة اتباع رسول الله ﷺ والإلتزام بسنته المباركة، ويُضادُّ التوحيدَ والإخلاصَ، الشركُ، والرياءُ نوع منه، كما أنه يضادُّ الإتّباعَ والإصابةَ، كلُّ أنواع الإنحراف، والإبتداع نوعٌ منه.

٣) وفي كل من الآيتيْن (١١٥، ١١٦) من (المؤمنون) والآية (٢٦) من (القيامة) يُنكِرُ الفاطرُ الحكيم والرب العظيم تبارك وتعالى، أشدَّ الإنكار أن يكون قد خلق الإنسان عَبَثاً وسُدىً ومن غير حكمَةٍ! اذْ يخاطب الكُفّارَ ويوجِّه إليهم سؤالاً إنكارياً توبيخياً شديداً: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون].

والعَبَثُ هو: خِلافُ الحق والحِكْمة، وهو كل قولٍ أو فِعلٍ لا طائل تحته ولا غاية وراءه(١)، كما قال تعالى موبِّخاً ـ على لسان نبيه (هود) مخاطِباً قومه (عاد) ـ الكفار الطواغيتَ الذين كانوا يَصْرِفون أموالاً طائلة في بناء قصور أو بنايات ما كانوا بحاجةٍ اليها، وإنما كان غرضُهم، التباهي والتفاخر وبقاءَ ذِكْرِهم: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الشعراء].

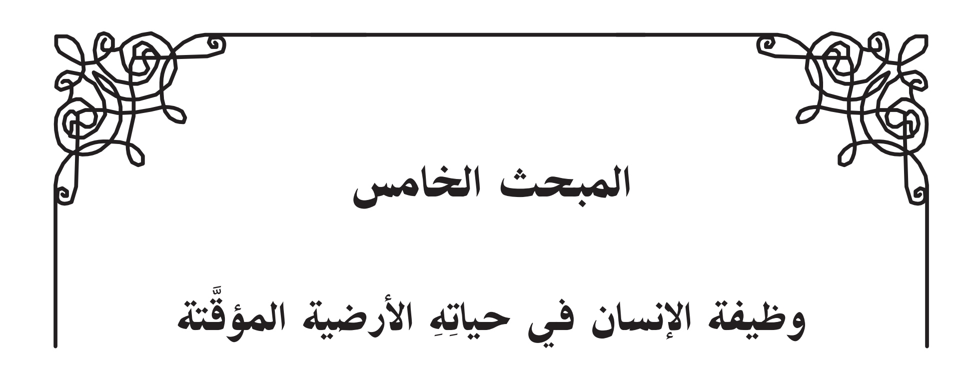
فيقول تعالى: أَوَ تصوّرتم بأنا خلقناكم من غير حكمةٍ، وأننا لا نبعثكم بعد الموت، ولا ترجعون إلينا للحساب والجزاء؟! ثم يُنَزِّهُ سبحانه نفسه عن أن يليق به هذا العَبَثُ، الذي هو خلاف ملوكِيَّته وأُلوهيَّته وربوبيَّته: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ [المؤمنون]، أي ان الله الملك الحق، والإله الوحيد الأحد، وربَّ العَرْشِ الكريم، عليٌّ وبعيدٌ عن أن يتطرَّق العَبَثُ والباطلُ اليه سبيلاً، ومعنى هذا أن كُلاً من ملوكية الله الحقة، وألوهيته التي تفَرَّدَ بها، وربوبيته للعرش الكريم فما دونه، تَمْنَعُ طروءَ العَبَث على أفعاله وشؤونه الَّتي تصدر من صفاته العُلى.

وكذلك يُوَجِّه سؤالاً إنْكارياً توبيخياً غيابياً، لكل إنسانٍ زيَّن له الشيطانُ وخَيَّل اليه بأن الحياة الدنيا ليست سوى باطل ليس تحته طائلٌ، فَيقول: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ [القيامة]؟! أي انَّ هذا التَّصوّر شيء منكرٌ وقبيحٌ، ومن العجيب أن يُقْنِعَ الإنسانُ نَفْسَهُ ويَخْدَعَها، بِمِثْلِ هذه الظنون الباطلة التي لا تنسجم لا مع العقل والفطرة، ولا مع عدل الله وحكمته، ولا مع واقع الخلق المُتْقَنِ الصُّنْع، الذي لا خلل فيه البتة، إذْ كيف يكون وجود الإنسان الذي هو سيد الخلق ومخدومُهُ، باطلاً وعبثاً؟!

(١) عَبِثَ يَعْبَثُ عَبَثاً: لَعِبَ وعَمِلَ ما لا فائدة فيه، وعَبِث به الدهر: تقلَّب، المعجم الوسيط، ص٥٧٩.

هذا وسَنُلْقي مزيداً من ضوء كتاب الله تعالى على هذا الموضوع ـ حكمة خلق الإنسان ـ في المبحث التالي الذي هو شديد الإرتباط بهذا المبحث ووثيق الصلة به، ولكنا آثرنا تخصيص مبحث مستقلٍّ لكل منهما، «أي: حكمة وجود الإنسان، ووظيفته في حياته الدنوية» إبرازاً لأهميَّتِهما.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑



المبحث الخامس

وظيفة الإنسان في حياتِهِ الأرضية المؤقّتة

لم يخلق الخلاّق الحكيم شيئاً إلَّا لحكمة وغاية، وما من مخلوقٍ مهما كان صغيراً، إلَّا وله وظيفة يؤدّيها في فترة وجوده، كما قال تعالى على لسان موسى عليه السلام في جواب فرعون، الذي سأله وأخاهُ هارون عليه السلام **عن ربّهما**: ﴿. . . قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ [طه].

والإنسان الذي اختاره الله لحمل أمانته العظيمة من بين كل مخلوقاته واصطفاه لخلافته في الأرض، كذلك له وظيفته الخاصه اللاّئقة به، والتي فرضها الله تعالى عليه، ووعده على أدائها، كما وحَذَّرَهُ وأوْعَدَهُ على إهمالها.

ولمعرفة تلك الوظيفة الجليلة، والمهمةِ الخطيرة الموكولة للإنسان الحامل لأمانة الله الكبرى والخليفَةِ له في الأرض، نَتَأمَّل هذه الآيات البينات:

١ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾﴾ [الانشقاق: ٦١].

٢ ـ ﴿. . . هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا . . .﴾ [هود: ٦١].

٣ ـ ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات].

٤ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ [البقرة].

٥ ـ ﴿. . .قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًاۢ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾ [طه].

ونأخذ من هذه الآيات التي ليست سوى أمثلة لغيرها، الحقائق الآتية فيما يخصُّ وظيفة الإنسان ومهمته الأساسية في هذه الحياة:

(١) في الآية (٦) من (الإنشقاق) يُخاطبُ الله الكريم من فوق سبع سموات، ومن فوق عرشه العظيم (الإنسانَ) ويُعْلِمُهُ أنه كادحُ في هذه الحياة الأرضية إلى أن يلقى ربَّه بعد الموت، ثم يُخْبِرهُ بأنه سيُلاقي نتيجة كدحِهِ لا محالة خيراً كانت أو شراً.

نعم، لقد خلق الله تعالى الإنسان للكدح[١] والكدِّ[٢] والتعب ومقاساة المشاقّ، كما قال في آية أخرى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ ﴿٤﴾﴾ [البلد]، والكَبَد قريب المعنى من التَّعَب والنَّصَب[٣].

ومن الجَليِّ أن ما قاله الخالق الحكيم هو الواقع الذي يَعيشُهُ الإنسانُ، أياً كان اعتقادُه وعَمَلُه واتّجاهُهُ، فلا تخلو حياة انسانِ من تَعَبٍ وكَدْحٍ، في حق كان أو باطل، وفي خيرٍ أو شرّ.

ولكن ما هو الكدح الذي يَرضاه الله، وما هو الميدان الذي أمَر البشر أن يَكْدَحُوا فيه؟ هذا ما تبيِّنه الآيات الآتية التي يأتي التعليق عليها تِباعاً.

(٢) ففي الآية (٦١) من (هود) يبين الله الحكيم على لسان نبيِّه الحليم (صالح) عَلَيْهِ السَّلَامُ الإتجاهَ الذي يجبُ أنْ يوجِّه إليه الإنسانُ اهتمامَه، والميدانَ الذي ينبغي له أن يُتْعِبَ فيه نفسه، كي يكون سعيه مشكوراً، وفي يوم لقاءِ ربِّه مسروراً، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾ [الإسراء].

---

(١) كَدَحَ يكدَحُ كَدْحاً: سَعى وكدَّ ودأب... عَمِلَ خيراً أو شَرّاً، المعجم الوسيط، ص٧٧٩.

(٢) كَدَّ يَكُدُّ كداً: اشتدَّ في العمل، وألحَّ في محاولة الشيء، المصدر نفسه، ص٧٧٩.

(٣) الكَبَدُ: المَشَقَّةُ والعَناءُ، يقال: لقي فلان في هذا الأمر كبداً، المصدر نفسه، ص٧٧٢.

وقال: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾﴾ [الانشقاق]، وذلك الإتجاه هو تعمير الأرض، كما قال تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾، إذْ جملة ﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ تعني: طَلَبَ سبحانه وتعالى منكم تعميرها، وانّما يتم تعمير الأرض باستخراج خيراتها التي أودعها الباري فيها، والعيش فيها بأمان وسلام وتآلفٍ ووئام، ولكن كيف يتمكن الإنسان من تحقيق هذا الهدف، أي القيام بتعمير الأرض وليس تدميرها والإصلاح فيها وليس الإفساد؟! هذا ما تُجَلِّيه الآيات الآتية:

(٣) ففي الآية (٥٦) من (الذاريات) يُعلنُ ربنا العليُّ العظيم جلَّ وعلا، أنه لم يخلق الجنّ والإنس لشيء سوى عبادتِهِ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات]، والعبادة لله تعالى باختصار تعني: [الإستسلام والإنقياد التام قلباً وقالباً لله، مع منتهى الحبِّ وغاية التعظيم والتقديس، وكل هذا يتمثل في الإيمان به خالِقاً ورباً ومالِكاً وإلهاً ووليّاً وحكماً، والإلتزام بشريعتِهِ على كِلا صَعيدَيْ الفردي والجماعي، وجعل دين الله المصدر الوحيد للمعرفة والتصوّرات والقيم والموازين، وتقديم الشعائر (التعبدية) لله وحْدَهُ، وأخذ الشرائع (الأحكام المنظِّمة للحياة بمختلف جوانبها) من الله ودينه وحده]، وقد فصلنا تعريف العبادة لله تعالى مستشهدين بالآيات البَيِّنات، في الفصل الثاني من الباب الثاني.

ومن الواضح أن عبادة الله تبارك وتعالى ـ أي اتخاذه معبوداً ـ وانْ كانت حقاً لله على عباده، لكونه خالِقَهم وربَّهم ومالِكَهم ووليَّهم الوحيد، ولكنه هو غنيّ غنيً مُطلقاً عنهم وعن عبادتهم، وانما المستفيد منها هم العبيد وحدَهم، وكذلك المتضرّر بتركها وإهمالها هم وحدهم، كما قال تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فصلت]، وكذلك قال مخاطباً بني اسرائيل ولكن المفهوم شامل للكل: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ...﴾ [الإسراء: ٧].

أجل لم يُوْجِبِ الله تعالى الطاعة والعبادة على الجنّ والإنس لحاجته

إليها ـ سبحانه وتعالى ـ وهل الأحد الصَّمد، الحيُّ القيُّوم، الغنيُّ الكريم جَلَّ شأنه يحتاج إلى شيء؟! أم هل يملك العبيد شيئاً كي يُعطوه لربّهم ومالكهم؟! ولهذا قال سبحانه في (الذاريات)، بعد الآية المذكورة مباشرة: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات].

وأمّا لِمَ فرض الله العبادة على الجنّ والإنس، مع أنه لا ينتفع بعبادتهم، كما لا تضره معصيتهم؟! فالجواب:

إن الله تعالى خالق الخلق ومالك الملك وله كل الأسماء الحسنى وجميع الصفات العُلى، وهو سبحانه لا يفعل إلّا ما هو عين الحكمة والصواب، لأنه الحق المطلق، وهو على صراطٍ مستقيم في جميع شؤونه، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ﴿٦٢﴾﴾ [الحج].

وقال على لسان نَبيِّه هود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿... إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود]، ثم لا يحق لأحدٍ أن يسائل ربّ العالمين ويعترض عليه في شيء من أقواله وأفعاله وشؤونه، كما قال: ﴿... لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء].

والذي يعترض على شيء مما له ارتباط برب العالمين، فهو يشهد بموقفه ذلك على نفسه بالجهل والسَّفه، وعَدَم قَدْرِهِ ربَّه حقَّ قَدْرِهِ، كما قال: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ...﴾ [الأنعام]. وذلك لأن الله تعالى (سُبُّوحٌ قُدوسٌ)[١] و(حميد مجيد)[٢] والسبوحُ القدوس، هو المُنَزَّهُ البعيد عن النقص

(١) كما قالت الملائكة الكرام: ﴿... وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة]، وكان رسول الله ﷺ بعض الأحيان يقول في ركوعه وسجوده: (سبوح قدوس، رب الملائكة والروح) متفق عليه.

(٢) كما قال تعالى واصفاً نفسه: ﴿... قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾ [هود].

والعيب مطلقاً، كما أن الحميد المجيد هو المُتَّصِفُ بجميع المحامد والمحاسن، ولهذا يُحْمَدُ ويُمَجَّدُ.

ومما لا شك فيه ـ لأنه ثبت بالنقل والعقل ـ أن العبادة لله تبارك وتعالى تُحقِّقُ لصاحبه سعادَةَ الدنيا وفلاحَ الأخرى، وتُثْمِر كلَّ الخيرات والبركات المعنوية والمادية للفرد والمجتمع، ولكن يجبُ على الإنسان أن يقوم بعبادة ربه بدافع إرضاءِ ربِّه بأداءِ حقه الذي افْتَرضَهُ عليه، كي يتصف بالشكر والإيمان، تجاه ربه الكريم، وليس الكفر والكفران، كما قال تعالى: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾ [النساء].

نعم، من كان كفوراً تجاه نعم ربِّه وكافِراً به، فهو يستحق عذاب الله وعقابه.

(٤) وفي الآية (٢١) من (البقرة) يخاطب الله العظيم الناس عامة، ويأمرهم أن يعبدوا ربهم الذي خلقهم وخلق الذين من قبلهم ـ أي آباءهم وأمهاتهم أو الأجيال البشرية السابقة عموماً ـ ويُعَلِّلُ أمره إيّاهم بعبادته، بتحصيل التقوى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾.

وتقوى العبد من الله تعالى هو أن يتعامل معه بالطريقة المَرْضِيَّة له بحيث لا يُعَرِّضُ نفسهُ لغضبه وعقابه، ولا يَحرِمُ[(١)] نَفْسَه من رحمته وإكرامه وإحسانِهِ وفَضْله، إذْ قد أعلن الله تعالى أنه يَغْضَبُ على مَنْ عصاه ولمْ يَلْتَزِمْ بهداه، ومن غضبَ عليه فسيُعَذِّبُهُ وينتقم منه، كما قال تعالى عن فرعون الطاغية وحاشيته: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الزخرف].

(١) حَرمَ يَحرِمُ فلاناً الشيء حِرْماناً: مَنَعه ايّاه، المعجم الوسيط، ص١٦٩.

وكذلك أخبر جلَّ شأنه أنه سَيَخُصُّ أهل طاعته برحمته وإكْرامَهُ وإحْسانَهُ وفَضْلَه، كما قال:

١) ﴿وَٱكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ [الأعراف].

٢) ﴿...وَلَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأعراف].

٣) ﴿...إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات].

٤) ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ...﴾ [الشورى: ٢٦].

٥) ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾﴾ [الرحمٰن].

وأما طريقة نيل التقوى وتحصيله، فَتُبَيِّنُهُ لنا الآية الآتية:

(٥) إذْ يبين الله الكريم في الآية (١٢٣) من (طه) ـ والتي وردت في سياق قصةِ إنزالِ آدم وزوجه حواء عليهما السلام من الجنّة، بعد أكلهما من الشجرة الممنوعة ـ أن مَن اتبَّع هدايته التي سَيُنَزِّلُها إليهم، فلا يتطرق اليه الضلال والشقاء: ﴿...قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾ [طه]، وكيف يَضِلُّ من التزم دين الله القويم، وسار على صراطه المستقيم؟!

أم كيف يَشْقى ولا يسعدُ مَنْ عَبَد رب العالمين وأطاعَهُ؟! والضَّلال مُرْتَبِطٌ بالدنيا، كما أن الشقاء مُرْتَبِط بالآخرة، وعليه:

فالعاصمُ الوحيد من الضلال الدينوي والشقاءِ الأُخروي، أو بتعبير آخر: الطريق الوحيد الذي يَضْمَنُ للإنسان الإهتداء ـ بمعناه الكامل الشامل ـ في الدنيا والفلاح والسعادة في الأُخرى، هو دين الله القيم وهداه المستقيم الذي أرسل به خاتم أنبيائه محمداً ﷺ، كما قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ

بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ ﴿٢٨﴾﴾ [الفتح]، وقال: ﴿...وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾﴾ [الحج].

أجل، إن الإنسان لا يتمكن من تحصيل التقوى الذي ربط الله تعالى به خير الدنيا والآخرة، وجعله ثمرة العبادة وعِلة وجوبها، إلَّا بالإلتزام بمنهاج ربّ العالمين، وسلوك صراطه المستقيم، ورَفْض كل الأديان والمناهج الأخرى، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام].

ويمكننا استخلاص النتائج الآتية في ضَوْءِ ما تقدم ذكره:

١ ـ مَنْ لم يتبع صراط الله المستقيم ومنهاجه القويم، رافضاً كل السُّبل والمناهج الأخرى، فلا يُعتبر متقياً، ولا يكون قد حصَّل التقوى في نفسه.

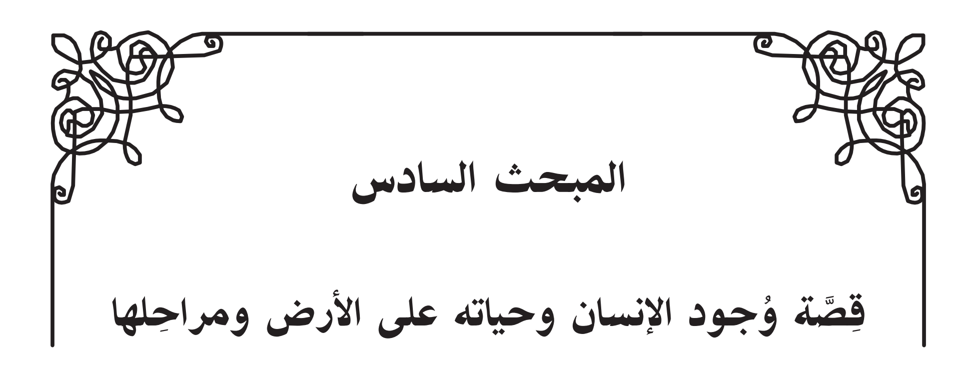
٢ ـ ومن لم يَتَّصفْ بالتقوى ولم يصرْ متقياً، فهو بمنأىً عن عبادة الله الحقة التي تُثْمِرُ في صاحبها التقوى لا محالة، وما يُزاولها من صلاة وصيام... إلخ ليست إلَّا حركات صورية وشكلية.

٣ ـ ومن لم يكن عابداً لله، كما أمره رَبُّهُ وحدَّدَهُ لهُ، فهو لم يُحَقِّقْ حكمة وجوده، ولم يؤدِّ وظيفته التي كُلِّفَ بها، ولم يَقُمْ بمهمته التي أوكلت اليه، وخلقه الله الحكيم من أجْلِها.

٤ ـ ومن لم يؤدِّ وظيفته الحياتية، ولم يُنَفِّذْ الواجب الذي أوجَبهُ عليه ربُّهُ، فهو يُعَرِّضُ نَفْسَهُ لغضب ربه وعقابه، ويَحْرِمُ نَفْسَه من رحمته وفضله وإِحسانه وثوابه.

وسنتحدث عن التقوى ومفهومه الشامل وكيفية ارتباطه بالإيمان والعبادة، في الفصل الأول من الباب الثالث (أي الكتاب التاسع) بإذن الله تعالى.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑



المبحث السادس

قِصَّة وُجود الإنسان وحياته على الأرض ومراحِلها

ويمكننا تلخيص قِصَّة وجود الإنسان وحياته على الأرض، في ضَوْءِ كتاب الله الحكيم، في خمس عشرة مرحلة متسلسلة، والتي سَنُدْرِجُها في النقاط الخمس عشرة الآتية:

١ ـ خَلْقُ الله تعالى السمٰوات والأرض وما بينهما، لتكون مكاناً لابتلاء الإنسان وحياته الأولى:

كما قال جل شأنه:

١) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ ﴿٧﴾﴾ [هود].

٢) ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾﴾ [الكهف].

٣) ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الأعراف].

أجل إن خلق الله العظيم السمٰوات والأرض، وتهيئته الأرض وتزيينه لها، وتمكين الإنسان فيها، كل هذا كان بِقَصْدٍ تحضير المكان الذي ينبغي للإنسان أن يعيش فيه، ويؤدِّي فيه امتحانه المفروض عليه من ربه، والذي يتمثل في تقديم العبادة الإختيارية لربِّه أو عَدَمِهِ.

٢ ـ خَلْقُ الله الحكيم جلَّ وعلا آدم من ترابٍ، فطين، فَحَمَإٍ مَسْنونٍ، فصلصالٍ كالفخار، وتسويته وتصويره، ثم نفخ الروح فيه:

وقد فصَّلنا القول في كل هذا سابقاً ـ في المبحث الثاني ـ ولا داعي لتكراره.

٣ ـ إعلامُ الله العليم الملائكةَ الكرام بإرادته جعل آدم (وذريته) خليفة له في الأرض، واستفسار الملائكة عن حكمة اختيار الإنسان لذلك المنصب، وكشف الله تعالى سِرَّ اختياره ذلك، بإظهار تفوق آدم على الملائكة في العلم:

كما قال تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [البقرة].

وقد عَلَّقنا على هذه الآيات في المباحث السابقة، فلا نعيده هنا.

٤ ـ أَمْرُ الله تعالى الملائكةَ كلَّهم بالسجود لآدم، بعد ظهور امتيازه العلمي عليهم، وتنفيذ الملائكة أمر ربِّهم الحكيم جميعاً فوراً:

كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [ص].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟...﴾ [البقرة].

وقال: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الحجر].

والدليل على أن الملائكة الكرام نَفَّذُوا أمرَ ربهم فوراً، بالإضافة إلى دلالة كونهم كما وصفهم ربهم: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [التحريم]، هو وجود (ف) التعقيبية على فعل (فسجد) و(فسجدوا) في الآيات الثلاث، التي هي أمثلة لغيرها.

كما أن الدليل على أن الملائكةَ الكرام نَفَّذُوا كُلُّهم الأمر الرباني، ولم يتخلَّفْ منهم أحد، هو قوله تعالى: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾ في كل من آية (الحجر) وآية (ص)، حيث أكد سبحانه سجود الملائكة كلهم بلا استثناء بكلٍّ من:

أ ـ الألف واللام الجِنْسيتين في ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾.

ب ـ كلمة ﴿كُلُّهُمْ﴾، أي: لم يتخلَّف عنهم أحدٌ.

ج ـ كلمة ﴿أَجْمَعُونَ﴾ أي: كان السجود جماعياً وفي وقت واحد.

د ـ إستثناء (إِبليس)، كما سيأتي الحديث عنه.

٥ ـ عِصيانُ إبليس اللَّعين أمْرَ الله العظيم تَكَبُّراً في نفسه، وحَسَداً لآدَمَ:

كما قال الله تبارك وتعالى:

١) ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [البقرة].

٢) ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ [الإسراء].

٣) ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأعراف].

وتتجلَّى لنا الحقائق الآتية، في الآيات المدْرَجة أعلاه، فيما نحن بصدد البحث فيه:

الأولى: إنَ إبليس كان من ضمن الملائكة، مكانةً وليس جنساً، بدليل شمول الأمر الصادر للملائكة بالسجود لآدم إياه أيضاً، ولو لم يكن في مستواهم ولم يُحسبْ في عِدادهم، لَما شَمَله الأمر، إذْ لم يَحْكِ لنا ربُّ العزة أمراً آخر خاصاً به على حِدة، ولكن إبليس ليس من جنس الملائكة، بدليل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ...﴾ [الكهف]، وبدليل أن الله تعالى وصف الملائكة بأنهم لا يَعْصونه أبداً، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنبياء]. وبما أن إبليس عصى أمر ربه، فهو ليس من جنس الملائكة الكرام الذين لم يعصوا الله تعالى قطُّ، ولا يعصونه أبداً.

الثانية: الكبر والحسد، هما دافعا إبليس اللعين لعصيانه ربَّ العالمين جلَّ وعلا، أما كبره فمنصوص عليه في أكثر من آية، مثل قوله تعالى: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [ص]. وأما حَسَدُه، فيدل عليه قوله تعالى حكاية عن إبليس: ﴿...قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ [الإسراء]. حيث أظهر ذلك الخبيثُ اللعين بُغْضَهُ وعداوته لآدم عليه السلام وذريته من جراء تكريم الله الحكيم لآدم وتفضيله عليه، إذ أمره

بالسجود له[1] ـ سجدة تكريم وتحية واحترام وليست سجدة عبادة، والتي لا يجوز فعلها لغير الله تعالى ـ، وقرَّر ـ بُغضاً وحسداً ـ أن يُضِلَّ ويستأصِلَ ذريته إلَّا قليلاً.

وقد أَدّى الكبر والحسدُ بإبليس علاوة على الكفر والعصيان، كما قال تعالى: ﴿. . .وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [البقرة]، إلى الإفتخار بأصله الناريِّ، وإلى الإزدراءِ بآدم عليه السلام واحتقاره، بسبب جسده الترابي الطِّينيِّ، كما قال في جواب ربّ العالمين، لمّا سأله عن سبب عدم سجوده لآدم: ﴿. . .قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأعراف]، وغفل اللعين عن حقيقة عظيمة جلية، وهي:

أنه حتى لو فُرِضَ أن النّار أفضل من الطين ـ وهذا ليس صحيحاً ـ لأنَّ النّار تَحْرِق والطين يُنبِتُ، وشَتّان بين المُنْتِج والمُبيد ـ فَلَيْس لإبليس أن يفتخر بأصله الناريِّ، ويزدري بالأصل الطِّينيِّ لآدم، وذلك لأنه لا يَدَ لأحدٍ منهما في اختيار مادة جسمه، وانه لمن السَّفَه أن يفتخر مخلوق ويَتَبَجَّحَ ويتباهى بما لا يَدَ له فيه، ولم يكتسبه بنفسه! والله سبحانه وتعالى رتَّبَ جزاءه الأخروي لعبيده على أعمالهم ومواقفهم وتصرفاتهم، إذْ ورد قوله تعالى:

---

(١) وكذلك سجود أبوي يوسف واخوته له عليه السلام كان سجود تحية وإكرام، حيث يقول تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا ﴿١٠٠﴾﴾ [يوسف]، وقد استعمل لفظ السجود بعض الأحيان في كتاب الله، بمعنى مجرد الميل والإنحناء، وهذا المعنى هو المقصود في سجود والدي يوسف واخوته له، والا كيف يمكن السجود المعهود على الكرسي والعرش؟ أو يقصد به مجرد الإشارة والإيماء للخضوع والإستسلام، كما هو الحال في حركة ظلال الأشياء يمنة ويسرةً، طبقاً لحركة الشمس شرقاً وغرباً، كما في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [النحل]، وقوله تعالى: ﴿وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا. . .﴾ [البقرة: ٥٨]، إذْ من الواضح البين انه لا يمكن المَشْيُ ساجداً، لِذا فَسَّرَ كَلِمَة ﴿سُجَّدًا﴾ هنا كلُّ المفسرين بالإنحناء أو الركوع، أي: أُدْخلوا الباب خاشعين خافضي الرؤوس ومنحنين أو راكعين.

﴿ . . . فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الأحقاف]، و﴿ . . . جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [التوبة]، و﴿ . . . ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [التحريم].

وما يشابهها من التعبيرات، في آيات كثيرة.

وهذا كله من الناحية العقلية والمنطقية، ورداً على استدلال إبليس، ولكن عندما نَنْظُر إلى موقف إبليس من الناحية الإيمانية، فَنَراه مَوْقِفاً غارقاً في سُوءُ الأدَب مع ربِّ العالمين الذي هو أحكم الحاكمين جلَّ وعلا، وهل هناك من هو أسوَءُ أدباً وأحَطُّ شأناً وأسخف عقلاً، من الذي يعترض على رب العالمين ويرفض أمره؟!!

الثالثة: وأقول: كفى بالكبر والحسد سوءاً وقبحاً، أن يكونا دافعَيْ أول معصيةٍ يُعصى بها الله في السماء من خلال إبليس، وكذلك دافِعَيْ أول معصية في الأرض تُرْتكبُ تجاه الله تعالى من خلال (قابيل) الذي قتل أخاه (هابيل) لا لشيء إلَّا لأنه خيرٌ منه وأصلح وأتقى لله وأشرف، اذْ عَزَمَ على قتل أخيه كبراً وحسداً، بعد أن علم أن الله قد تَقبَّل قربانَ أخيه، ولكنه لَمْ يَتَقَبَّل قُرْبانَهُ، ومن الجلي أنه لم تكنْ لأخيه يَدُ في ذلك، ثم الله تعالى حكيم عَدْل، ولَيْسَ عنده محاباة وانحياز تجاه أحد، ولكنه يحبُّ المتقين الصالحين، ويكره الفُجّار الفاسدين، وكل هذا واضحٌ في الآيات التي وردت بشأن قصة ابْنَيْ آدم عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْـَٔاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [المائدة].

الرابعة: وأن في افتخار إبليس اللعين بجَسَدِه الناريِّ، وازدرائِهِ لآدم بسبب جسده الطّينيِّ، ثم غضب الله عليه ولعنه ايّاه، كما قال تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ

فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الأعراف].

أجَلْ إن في تلك العاقبة الوخيمة التي نالهَا إبليسُ من جرّاء افتخاره بعُنصره الناري، وادِّعائه الإمتياز على آدم بما لم تكن له فيه يد، لأعظم العبر لكل من يفتخر بالحَسَب والنَّسَبِ، والجاه الموروث الذي لا يَدَ لهُ فيه، ويَزْعمُ أن له امتيازاً أو درجةً وشرفاً على غيره بسببه، ويحضرني بهذه المناسبة قول الشاعر:

كنْ ابن مَنْ شئت واكتسب أدباً   يُغْنيك مَضْمونهُ عَنِ النَّسبِ
فإنَّ الفَتى مَنْ يقول ها أنا ذا   وليس الفتى من يقول، كان أبي

٦ ـ لعنُ الله تعالى إبليس على عِصيانِهِ، وطَرْده من السماء وإهْباطِهِ إلى الأرض:

كما قال العزيز الجبار جلَّ وعلا:

١) ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾﴾ [الحجر].

٢) ﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الأعراف].

والهبوطُ هو النزول والإنحطاط، وهو ضِدُّ العُلُوِّ والإرتفاع، وانما قلنا أن طرد إبليس كان من السماء، بدلالة السياق، إذْ مَحَلُّ الملائكة هو السماء وكان إبليس معهم، ثم بدلالة لفظ ﴿فَٱهْبِطْ﴾ إذْ لا يكون النزول إلَّا من مكانٍ عالٍ، إلى موضع نازل واطِئ، ثم بدلالة ضمير ﴿مِنْهَا﴾ اذْ ليس ثمة ما تَرْجِع اليه (ها) التي للتأنيث المجازي، سوى السماء المسكونة بالملائكة (الملأ الأعلى)، كما قال تعالى مخاطباً نبيَّه الخاتم ﷺ:

﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى

خَلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [ص].

وهذا السياق واضح الدلالة على أن ذلك الحدث كان في السماء، وكان طَرْدُ إبليس منها وإهباطُهُ إلى الأرض، متزامناً مع هبوط آدم وزوجه، كما سيأتي.

ومِنْ سُنَنِ الله أنَّه يَجْزي الأشرار بعكس مقاصدهم السيئة، فإبليس أراد العُلوَّ والعزّة بالإثم، فعاقبه الله تعالى بلعنه ـ واللَّعْنُ هو الإبعاد عن رحمة الله ـ وطَرْدِهِ من السماء وإهباطِه إلى الأرض وإهانته وإذلاله، كما قال: ﴿فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ والصَّغار هو الذل والمهانة، وقد قال رسول الله ﷺ في هذا المجال: «**مَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلاَّ رَفَعَهُ اللَّهُ**» (رَوَاهُ مُسْلِمٌ برقم: (٢٥٨٣)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه).

٧ ـ طَلَبُ إبليس من الله تعالى الإمهال إلى يوم البعث، مُوعِداً آدَمَ وذرِّيَّتَهُ بالإضلال، وإستجابة الله الحكيم لطلبه والتماسِهِ:

كما قال الله تبارك وتعالى بهذا الصدد:

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾ [الحجر].

ونقتبسُ من أنوار هذه الآيات، أضواء الحقائق الآتية:

الأولى: وأول ما يَلْفِتُ النَّظرَ في هذا الحوار بين الله العظيم والشيطان الرجيم، هو حِلمُ الله وكَرَمُهُ وحكمتُهُ، اذْ قبِلَ التماسَ إبليس اللعين تأخير

أجله إلى يوم القيامة، وهو يعلم أنه إنما يطلب ذلك ـ أي العُمْر المديد ـ للإيغال في عداوته، والإمعانِ في إضلال عباده، وتكثير حزبه الخاسر منهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾ [فاطر]، فما أوسع حِلْمَهُ جلَّ شأنه، وما أدق حِكمَتَهُ، وما أكثر كَرَمَهُ!

الثانية: ولكن في مقابل حِلمْ الله وكرمه ولطفه، ما أسْفَه إبليسُ وما ألْأَمَهُ وما أسوءَ أدَبَهُ تجاه ربه الكريم!! اذْ هو لَمْ يَكْتَفِ بعِصْيانِهِ حتى طلب منه أن يُمِدَّ في عمره ويُؤَخِّر أجله، كي يتسنَّى له أكبر قدر من الإضلال لعباده إيغالاً في العداوة له سبحانه! وقد كان بوسع ذلك الخاسر الشقي أن يَطْلُبَ من ربِّه العفو والمغفرة، وكان يجده غفوراً رحيماً وعفواً كريماً، كما قال جل شأنه: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾ [النساء]، ولكنَّه الكِبْرُ الذي أعْمَى بصيرته، فاستمرّ في غوايته! ألا ما أَسْفَهَهُ وأَسْخَفَه! لعنه الله، ولهذا أطلق عليه إخوانُنا الجنّ المؤمنون لَقَبَ السَّفيه، حيث قالوا: ﴿...وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾﴾ [الجن].

الثالثة: وقد نسَب ذلك السَّفيهُ الخاسِرُ سَبَبَ غِوايته إلى ربِّه، حيث قال: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى...﴾! فكأن الله تعالى هو الذي مَنَعَهُ من السجود! أوْ كأنَّه أمَره بِعَدَم السجود! ألا أخزاه الله ما أجْحَدَه للحقِّ، وما أسوَءَ أدَبَهُ تجاه ربِّهِ الكريم! ويُفْهَمُ من هذا أن كل مَنْ نَسَبَ ضَلالَه وعِصيانَه وخُسْرانَهُ إلى الله تعالى، مُحْتَجّاً بمشيئة الله وقدَره، فهو على مذهب إبليس، كما قال المشركون: ﴿...لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍۚ ﴿١٤٨﴾﴾ [الأنعام].

وسنَتَحَدَّثُ عن هذه المسألة مُفَنِّدين ادِّعاءات إبليس والمشركين، في كلٍّ مِنْ:

نهاية المبحث الأول من الفصل الثاني من الباب الثالث، ـ أي الكتاب

العاشر من هذه الموسوعة ـ وفي الفصل الثاني من الباب الرابع ـ أي الكتاب الثاني عشر من هذه الموسوعة ـ، كما أننا سنشير إلى أساسيات الإيمان بالقدر في نهاية الباب الثاني ـ أي الكتاب الثامن ـ بإذن الله تعالى.

الرابعة: وقد هدَّدَ إبليسُ آدم وذُريَّته، بأنه سَيُزَيِّنُ لهم المعاصي في الأرض كُلِّها، لإضلالهم وإغوائهم: ﴿...قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [الحجر]، وقد نسَبَ الله تعالى تزيين المعاصي إلى إبليس، حيث قال: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَـٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [العنكبوت].

وهذا دليل على أن دور إبليس في إِضلال الناس وإِغْوائهم، لا يتجاوز التزيين للشرِّ والوسْوسَة والدعوة إلى المعاصي، كما يقول إبليس لأَتْباعِهِ الّذين يلومونه على إغوائهِ لِهم، مُجيباً على عتابهم: ﴿...وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَـٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ﴾ [إبراهيم].

وبناءً عليه: فليس لأحدٍ أن يحتجَّ بِتَسلُّط إبليس عليه، ويتذرَّع بوسوستِهِ وإغوائه، لأن الشياطين ليس لهم أي سُلطانٍ على من لم يستسلم لهم، ولم يُسْلِمْ إليهم قيادَهُ، وهذا ما سنبينه في الحقيقة الآتية.

الخامسة: ويستثني إبليسُ عبادَ الله المخلَصين، من أن يتمكن من إغوائهم ويعترفُ بِعَجْزه أمامهم، حيث يقول: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الحجر].

وقد أيَّد الله تعالى إبليسَ في استثنائه المذكور، فقال جلَّ وعلا:

مُبيِّناً سنة من سننه في ذلك المجال: ﴿قَالَ هَـٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحجر]، والمقصود بقوله تعالى: ﴿...هَـٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ أي أن عدم تسلطك على عبادي المخلَصين، من سُنَني ومن صراطي المستقيم الذي أُعامِلُ عبادي وفقه وعلى أساسِهِ! وأما من هم (عباد الله المخلصين)؟!

فالجواب هو: أن (المُخْلَص) هو المُختار المصطفى[1]، فعباد الله المخلصون هم عباده الصالحون الذين اختارهم الله تعالى واصطفاهم واجتباهم من بين الناس، وأما من هم الذين يصطفيهم رب العالمين وينتقيهم؟! فهم الذين حققوا العبودية لله تعالى في أنفسهم، بالقيام بالعبادة لله تعالى حقاً، بالمفهوم الحقيقي الشامل لكلمة (العبادة) والذي قد أشرنا إليه من قبل باختصار، والدليل على ذلك: أن الله تعالى قال في جواب إبليس:

﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ وعليه: فالعبد المُخْلَصُ المختار لله تعالى، هو العبد العابد لربّه حقاً، والمُتَّبعُ لدينه وصراطه المستقيم، أجل إن الله تبارك لا يختار أحداً ويصطفيه إلَّا إذا توجَّه إلى الله تعالى، بكلِّيته مُسْتَسْلِماً له ولدينه وشريعته، وبقدر ما يُخْلِصُ العبدُ عبادَتَهُ لله تعالى، ولا تَبْقى فيها شوائب الشرك والبدعة والإنحرافات والمعاصي، يستأهل لأن يختاره الله تعالى، ويُقَرِّبه إليه ويحبَّه ويُكْرِمَهُ ويحفظه من كيد إبليس وأعوانه، كما قال تعالى في حفظه يوسف عليه السلام من الوقوع في الفاحشة التي دعته اليها امرأةُ عزيز مصر: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [يوسف].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ واضح الدلالة على أن الشيطان لا يظفر بأحد من عباد الله تعالى سوى الذين يغوون بإتباع إبليس، والإستسلام لوساوسه والإستجابة لدعوته، كما قال تعالى في سورة النَّحل: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

السادسة: وقد تَوعَّد الله الجبارُ جل شأنه إبليسَ وأتْباعَه الغاوين، بأنَّ

(١) المعجم الوسيط، ص٢٤٩.

موعدهم جهنم، ثم يبين أن جهنم لها سبعة أبواب، فيدخل إبليسُ وأتباعُهُ الغاوون منها نارَ جهنم، ولكلِّ بابٍ من الأبواب السبعة، مجموعٌ مُحَدَّدٌ ومُخَصَّصٌ: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾ [الحجر]، وكلمة (الغاوون) والتي هي جمع (غاوٍ) أصلها من الغواية، وهي قريبة المعنى من الضلالة[1]، ولكن الغواية نتيجة الضلالة، أي فَمَنْ ضَلَّ يَغْوي ويَشْقى، ولهذا نَفى الله تعالى كُلاً من الضلالة والغواية عن نَبيِّه محمد ﷺ حيث قال: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾﴾ [النجم]، وعكس الضلال هو الهدى، كما أن عكس الغواية هو الفلاح، فمن اهتدى يُفلِحُ ويَسْعَد، كما أنَّ من ضلَّ، يغوي ويَشْقى ويَتْعَسُ.

٨ ـ إسْكانُ الله تعالى آدَم وزَوْجَه حواء عليهما السلام الجنّة وإباحته لهما إيّاها، سوى شجرةٍ واحدة، وتحذيره لهما من الإنجرار وراء وسوسة إبليس عدوهما اللَّدود:

كما قال الله تبارك وتعالى:

١) ﴿وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [البقرة].

٢) ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾ [طه].

وتُتْحِفُنا هذه الآيات الحقائق الثلاث الآتية، فيما نحن بصدد بحثه:

الأولى: بعد أن خَلَقَ الله الكريم (آدم) عليه السلام وأكرمه بإسْجادِ الملائكة له، ولعنهِ إبليس وطَردِهِ من السماء، من جرّاء عدم سجوده له (سجدة تَحِيَّةٍ وتكريم)، أسكن آدَمَ وزوجَه حوّاء الجَنَّةَ، وأباحها لهما بِكُلِّ ما فيها ما عدا شجرة واحدة.

(١) غَوى يَغوي غيّاً: هلك، المنجد، ص٥٦٣، و(غوى يغوي غيّاً: أمعن في الضلال)، المعجم الوسيط، ٦٦٧.

وهـهنا تستوقفنا مَسْألتان:

١) متى وكيف خلق الله تعالى زوجة آدم عليه السلام (أُمَّنا حواء)؟!

٢) ما هي تلك الشجرة التي حظرها الله على آدم وزوجه؟!

١) أما بالنسبة للمسألة الأولى، فنقول:

لم يبين الله تعالى لنا مَتى وكيف خلق أُمَّنا حواء (عليها السلام)، ولكن ألقى شيئاً من الضَّوْءِ على تلك المسألة بقوله الحكيم:

١ ـ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ ﴿١﴾﴾ [النساء].

٢ ـ ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴿١٨٩﴾﴾ [الأعراف].

ومن الواضح أن المقصود في الآيتيْن بـ(نفس واحدة) هو نفس آدم عليه السلام والمقصود بـ(زوجها) هو حوّاء (عليها السلام)، وبناءً عليه:

فأُمُّنا الكريمة (حوّاء) (عليها السلام) قد خلقها الله الحكيم جلَّ وعلا من نفسِ النفس التي خُلِقَ منها أبونا الكريم (آدم) عليه السلام، أي هما من الناحية النفسية والروحية من جنس واحدٍ، ولا فرق بينهما البتة.

ولكن هل أُمُّنا (حواء) بالإضافة إلى اشتراكها لآدم في نوعية النفس (والتي هي النفس البشرية)، تشترك في بدنه كذلك، أي هل انفَصَلَتْ حواء من جسد آدم، كما هو مشهور؟! وأُلَخِّصُ الرأي الذي ارتَأَيتُهُ في هذه المسألة التي كثر حولها الجدَلُ، في البنود الآتية:

أ ـ أن كلام الله المبارك لم يُصرِّحْ بهذه المسألة، إذْ قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ و﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ ليس نصاً صريحاً في الموضوع، وذلك لأن الله تعالى ذكر في آية أخرى، أن كل الزوجات قد خُلِقْنَ من أنفس أزواجهن: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الروم]،

ومن الواضح أنه ليس المقصود بالآية الكريمة، انفصالَ كلّ الزوجات من أنفس أزواجهن!

ب ـ ثم أن ضمير (ها) في قوله تعالى: (مِنها) يعود إلى النفس التي هي مؤنث مجازيٌّ، وليس إلى البدن الذي هو مذكر مجازيٌّ!

ج ـ هذا بالنسبة للآيات المباركات، وأما بالنسبة للأحاديث الشريفة، فهي أيضاً لم تُحَدِّدْ ذلك المعنى الذي راج في الناس، بل كل الأحاديث الصحيحة التي فيها ذكر (الضِّلَع) وتشبيه المرأة به، انما جاء ذكر الضِّلَع فيها في معرض الحديث عن اعوجاج المرأة ـ بسبب فرط عاطفتها التي اقتضتها وظيفتها الفطرية ـ ووجوب الحيطة والحذر على الرجل في كيفية تعامله مع زوجته، وكيفية معالجة اعوجاجها وأخطائها الناشئة من طبيعتها العاطفية، وذلك كي لا يؤدي تقويمه لأخطاء زوجته واعوجاجاتها، إلى الطلاق وانفصام عروة الزوجية بينهما، كما أن تقويم الضلع أكثر من حَدّه، يؤدّي إلى كَسْره، كما قال رسول الله ﷺ:

● «**الْمَرْأَةُ كَالضِّلَعِ، إِنْ أَقَمْتَهَا كَسَرْتَهَا، وَإِنْ اسْتَمْتَعْتَ بِهَا، اسْتَمْتَعْتَ بِهَا وَفِيهَا عِوَجٌ**» (أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ برقم: (٥١٨٤)، وَمُسْلِمٌ برقم: (٣٦٢٩) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه).

● «**مَنْ كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذي جارَهُ، واستوصوا بالنساءِ خيراً، فإنهنَّ خُلِقْنَ من ضلع، وانَّ أعوج شيء في الضِّلَع أعلاه، فإنْ ذهَبَتَ تَقْيمُهُ كَسَرْتَهُ، وإنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أعْوَجَ**» (أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ برقم: (٥١٨٥)، وَمُسْلِمٌ برقم: (٣٦٣٢) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه.

ولكن القدر الذي يمكننا الجزمُ به بالنسبة لخلق أمِّنا الكريمة (عليها السلام)، في ضَوْءِ كتاب الله الحكيم، هو:

أن الله تعالى خلق زوجة آدم عليه السلام من نفس (جنس) طينة آدم من حيث الجسد والروح، أي إنَّ جسمها مِثْلُ جِسْمِه: تُرابيٌّ طينيٌّ، وروحها مِثْلُ روحه: ربّاني خاصٌ، هذا بالنسبة لكيفيَّة خلق أُمِّنا (حواء)، وأما بالنسبة

لزمنِ خلقها، فلم يُصَرَّحْ به في الآيات أيْضاً، هل كان خلقها متزامناً مع خلقِ آدم، أم تالياً له؟! ومن المعلوم أن القضايا الغيبية لا يجوز الخوض فيها إلَّا في ضَوْءِ أنوار الوحي، إذْ لَا دَخْلَ للعقل في مجال الغيب إلَّا بناءً على الظن والتكهّن، وهذا مما لا يجوز، لأن الظن لا يغني عن الحق شيئاً.

٢) وأما بالنسبة للمسألة الثانية، فنقول:

بما أن كتاب الله الحكيم لم يبين نوعية تلك الشجرة، وكذلك الأحاديث النبوية، فهي مجهولة لنا ولا يُضِيرنا[١] جهلُنا بها، ولو أن معرفتنا بها كانت تُفيدُنا، لذكرها كتابُ الله الذي هو تبيان لكل شيءٍ يتوقف عليه النجاح في حياتنا الأرضية، والإبتلاءِ المفروض علينا فيها: ﴿...وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [النحل]، وأما الأقوال التي قيلت فيها، والتي أخذت من التوارة المحرَّفة[٢]، فلا يجوز الإلتفات إليها، بعد أن أعلمنا الله الخبير البصير جلَّ وعلا أن أهل الكتاب (اليهود والنصارى) قد حرَّفوا كتبهم: ﴿...يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴿١٣﴾﴾ [المائدة].

الثانية: وقد حَذَّر الله الحكيمُ آدمَ وزوجَهُ من إبليس والتأثر به، وأعلمهما أنه عدو لهما شديد العداوة، وأنبأهما أن انجرارَهُما وراء تزييناته وتسويلاته، يؤدي بهما إلى الخروج من الجنّة، ثم شقائهما بسبب مقاساة محن الحياة الدنيوية وغُصَصِها، بالقياس إلى حياة الجنّة الرغيدة الهنيَّة

(١) ضاررَهُ كذا يُضيرُهُ ضَيْراً، وضارَّهُ يضرُّهُ: أَضَرَّ به، المعجم الوسيط، ص٥٤٧.

(٢) أُنظر: التفسير التطبيقي للكتاب المقدس، العهد القديم، سِفْر التكوين، الإصحاح: ٢، خلق المرأة، إذ قال: (ثم قال الرب الإله: ليس مُسْتَحْسَناً أن يبقى آدمُ وحيداً، سَأصْنَعُ له مُعيناً نَظيرَهُ...فأوقعَ الربُّ الإله آدمَ في نوم عميقٍ ثم تناول ضِلْعاً من أضلاعِهِ وَسَدَّ مكانَها باللَّحْمِ وعَمِلَ من هذه الضِّلَعِ امرأةً أحْضَرها إلى آدم...) ص١١، ط٢٠٠٢م.

السعيدة: ﴿فَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾﴾ [طه].

الثالثة: وكان أبوانا عليهما السلام في الجنّة لا يَنْقصُهُما شيء، ولا يحتاجان معها إلى شيء، اذْ كانتْ كل مستلزمات الحياة السعيدة الهنية متوفرة فيها بأفضل وجه، وكان لا حَرَّ فيها ولا قرَّ، ولا جوع ولا ظمأ، ولا عُري: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾ [طه]، ويفهم من هذه الآية أمران:

أولهما: أن الرجل هو المسؤول عن توفير وتضمين مستلزمات الحياة الزوجية، بدليل أن الله تعالى خاطب آدم وحده، بأنه قد وفَّر له كلَّ مستلزمات الحياة، ولكن عند الإذن بالتمتع بما في الجنّة، قَرَنَ بينه وبَيْن زوجه: ﴿...وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا ﴿٣٥﴾﴾ البقرة، وكذلك عند تحذيره لهما من الشجرة المحظورة: ﴿...وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [البقرة]، وعند تحذيره لهما من كيد إبليس: ﴿...فَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾﴾ [طه]، وكلمة (تشقى) التي خوطِبَ بها آدم وحده، كذلك دليل على ما قلنا، لأن الخروج من الجنّة يشملهما، ولكنَّ آدم هو وحده الذي يشقى ويتعب ويكدح، تحصيلاً للرزق ومُسْتلزمات الحياة له ولزوجه ولأولَاده فيما بعد.

ثانيهما: أن الجنّة التي أسْكن الله تعالى فيها آدمَ وزَوْجَهُ، كانت جنة المأوى التي هي في السماء وعند سدرة المُنْتَهى، والتي أعدَّها الله لأهل الإيمان من الإنس والجنّ، وليست ـ كما قال بعض أهل العلم ـ جنةً وبستاناً من جِنان الأرض وبساتينها، والدليل على هذا هو:

١) تلك الأَوصاف التي وصف الله تعالى بها تلك الجنّة، لا توجد في غيرها أبداً، وهي:

أ ـ عدم الجوع ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا﴾.

ب ـ عدم العري ﴿وَلَا تَعْرَىٰ﴾.

ج ـ عدم الظمأ ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا﴾.

د ـ عدم الإحساس بالحرارة ﴿وَلَا تَضْحَىٰ﴾.

٢) إن الله تعالى لم يذكر ولم يصف لنا جنَّةً أخرى أسكن فيها آدَمَ وزوجَه، ولو لم تكن تلك الجنَّة، الجنّة المعهودة المعروفة، لذكرها الله تعالى تمييزاً لها من الجنَّة المعهودة.

٣) ثم إن الله تعالى ـ كما سيأتي فيما بعد ـ عندما أخرج أبوينا من الجنَّة المذكورة خاطبهما بقوله: ﴿. . . ٱهْبِطَا مِنْهَا. . .﴾ [طه]، والضمير (ها) سواء رجع إلى الجنَّة أو إلى السماء التي فيها الجنَّة، ففي الحالين، آدم وحواء أنزلا من علوٍ إلى سفلٍ، ومن مكان مرتفع إلى مكانٍ هابطٍ.

٤) ودليل آخر هو انكشاف عورات أبوينا بعد أكلهما من الشجرة المحظورة ـ كما سنذكره فيما بعد ـ ومن الجليِّ أن هذه الحالة لم تحدث ولا تحدث بسبب الأكل من أشجار الدنيا.

٩ ـ وسوسة إبليس لآدم وزوجه، وتزيينه لهما الأكْلَ من الشجرة المحظورة، وإقناعِهِ ايّاهُما بعد لجوئه إلى الكذب والخداع واليمين الكاذبة:

قال تبارك وتعالى:

١ ـ ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾﴾ [طه].

٢ ـ ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ. . .﴾ [الأعراف].

ونأخذ هذه الحقائق الست من الآيات المباركات المدرجة أعلاه:

الأولى: إنّما أَثَّرَ إبليسُ في أبوينا عليهما السلام عن طريق الوسوسة، وهي إلقاءُ الخواطر السيئة في القلب، عكس الإلهام الملائكي الذي هو عبارة عن إلقاءُ الخواطر الحسنة والخَيِّرة في القلب، كما قال تعالى عن وسوسة

الـشـيـاطـيـن: ﴿...شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًاۚ ﴿١١٢﴾﴾ [الأنعام]، وقال: ﴿...وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ ﴿١٢١﴾﴾ [الأنعام].

وانّما سَمَّى سبحانه وسوسة الشياطين وحياً، لأن كلمة (الوحي) في أصل اللغة تعني صوت الحُلِيِّ والكلام الخَفيِّ[1]، والوسوسة كأنها كلام خفي سرِّي، إذْ يُلْقيها الشيطان، في قلب الإنسان خفيةً وعلى حين غفلة وغرة.

وقال تعالى عن إلهام الملائكة لأهل الإيمان: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْءَاخِرَةِۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [فصلت].

هذا وظاهر في الآيات المباركات أن تمكن الشياطين من إلقاءِ الوساوس في قلوب الناس، يرجعُ إلى استعدادهم لذلك، كما صرَّح به جلَّ وعلا في قوله: ﴿...وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ...﴾ [الأنعام].

إذن: الشياطين لا يظفرون إلَّا بمن يواليهم ويؤاخيهم! وكذلك صرح بذلك سُبحانه في قوله:

﴿...يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأعراف].

وكذلك بالنسبة لقرب أهل الإيمان من الملائكة الكرام، ونيل إلهاماتهم الخيرة، كلما ازداد أهلُ الإيمان إيماناً واستقامةً وتقوى، كلما ازدادوا أهلية القرب والمصاحبة مع أولئك الطاهرين الخيِّرين الأكارم.

(١) الوحي: الإشارة والرسالة والكتابة، وكلّ ما ألقَيتَهُ إلى غيرك لِيَعْلَمَهُ (وحي) كيف كان، المصباح المنير، ص٣٣٦.

الثانية: في سورة (طه) جُعلتْ وسوسة إبليس خاصَّةً بآدم عليه السلام: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ...﴾، ولكن في سورة (الأعراف) جعلت شاملة لكليهما: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾، والحكمة في ذلك الإختلاف التنويعي، هي:

أ ـ تقرير مسؤولية الرجل عن أهله في الحفاظ عليهم من الشر والضرِّ، كما قال تعالى مخاطباً الرجال المؤمنين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ...﴾ [التحريم]، وهذا ما تكفَّلت بتوضيحه الآية (١٢٠) من (طه).

ب ـ تقرير المسؤولية الشخصية لكل من الرجل والمرأة، وهذا ما بَيَّنَتْهُ الآية (٢٠) من (الأعراف).

الثالثة: كان هدف الشيطان من إغراء أبوينا بالأكل من الشجرة المحظورة، انكشافَ عوراتهما لهما: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا...﴾ [الأعراف]، وهذا ما نبحثه في النقطة العاشرة، بإذن الله تعالى.

الرابعة: وتمثلت وسوسة الشيطان وإغراؤه لآدم وزوجه بغية إقناعه وخداعه لهما، بأنهما إذا ما أكلا من تلك الشجرة المحظورة، فسيصبحان مَلَكَيْن، ويُحَصِّلان الحياةَ الخالدةَ والمُلْكَ الأبَديَّ: ﴿...فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأعراف]، ﴿...فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾﴾ [طه].

ولكن كانت النتيجة على العكس مما وسوس به اللَّعين الكذّاب تماماً:

أولاً: لَطَّخا نَفْسَيْهما بالمعصية، بعد أن كانا طاهِرَيْن كالملائكة!

ثانياً: أضاعا المُلْكَ العريض الذي كانا فيه، وأُخْرِجا منه.

ثالثاً: جَرّا إلى أنفسهما المَوْتَ بخروجهما من الجنّة، واستقرارهما في الأرض! ويستنتج من هذا، أن وساوس الشيطان وتزييناته الباطلة، كُلَّها على

عكس ما يَأمُله المغترُّون بها، لا تُؤَدِّي بهم إلَّا إلى خلاف تَوَقُّعاتِهم ونقيض آمالهم!

الخامسة: ويدلُّ إقسامُ الشيطان لأبوينا عليهما السلام مؤكِّداً لهما أنه ناصح لهما:

﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾﴾ [الأعراف]، على أن إبليس بالإضافة إلى إلقاء الوسوسة في قلبيهما، كذلك حَدَّثَهُما كِفاحاً ومواجهةً، بل ربما المقصود بالوسوسة أيضاً، هو ذلك الكلام المعسول الذي كَلَّمهُما به، وحَلَف لهما على كونه صادقاً فيه، وبناءً على هذا: فما جاء في التوراة المحرَّفَة والذي تَلَقَّفَهُ بعض أهل العلم من اليهود، من أن الشيطان تنكَّر في شكل حَيَّةٍ وخَدَع حَوّاء وجعلها تأكل من تلك الشَّجرة الملعونة! كَذِبٌ ولا أصل له كغيره من الخُرافات الكثيرة التي حُشِيَتْ بها التوراة[١] التي أَثْنى عليها رب العالمين «أي: على التوراة الأصلية التي لم تُحرَّفْ» في أكثر من آية في كتابه المبين، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ...﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [الأنبياء].

السادسة: ويدل قوله تعالى: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ...﴾ [الأعراف]، والذي عَبَّر به سبحانه عن نجاح إبليس في التغرير بآدم وزوجه، بالأكل من الشجرة المحظورة، على أن المعصية سبب لهبوط الإنسان وتَسَفُّلِهِ وتَنَزُّلِهِ، وذلك لأن كلمة ﴿فَدَلَّىٰهُمَا﴾ تُصَوِّرُ عَمَليةَ خِداع الشيطان لأبوينا الكريمين عليهما السلام وكأن إبليس عَلَّقهما في حَبْلٍ وأنزلهما في بئرٍ، كما يُنْزَلُ الدَلْو في بئر

(١) أُنظر: التفسير التطبيقي للكتاب المقدس، العهد القديم، سفر التكوين، الإصحاح: ٣، ص١٢ و١٣، سقوط الإنسان، (وكانت الحية أمكر وحوش البريَّة التي صنعها الربُّ الإله، فسألت المرأة: أحقاً أمركما الله ألَّا تأكلا من جميع شجر الجنة؟ فأجابت المرأة: يمكننا أن نأكل من ثمر الجنة كلّها ما عدا ثمر الشجرة التي في وسطها...
وعندما شاهدت المرأة أن الشجرة لذيذة للأكل وشهيَّة للعيون ومثيرة للنظر قطفَتْ من ثمرها وأكلت، ثم أعطتْ زوجها أيضاً فأكل معها فانفتحت للحال أعينُهما وأدركا أنهما عُريانان...).

الماء، اذْ (دَلَّاهُمَا) من (التَدْلية) والتدلية هي إدلاءُ الدَلْو وإنزالهُ في البئر لإخراج الماء[1]! و(الغَرُور) بفتح الغين إسمٌ للذي يَخْدَعُ ويُغرُّ الغَيْرَ، وبضم الغين (الغُرور) مصدرٌ، ويعني الخداع[2]، والمعنى ـ أي معنى (فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ) ـ هنا، هو:

أن الشيطان قد خدعهما وجرّهما إلى حفرة المعصية، بمعسول القول والتمويه الذي لا أساس له من الصِّحَّة، ولا حقيقة له في الواقع.

١٠ ـ إنخداع آدم وزوجه عليهما السلام بوسوسة إبليس، وأكلهما من الشجرة المَحْظورة، وانكشاف سَوْءاتهما (عوراتهما) لهما:

كما قال جل شأنه بهذا الصدد:

١ ـ ﴿فَدَلَّنهُمَا بِغُرُورٍۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ. . .﴾ [الأعراف].

٢ ـ ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأعراف].

وتُبَيِّن لنا هاتان الآيتان المباركتان أن (آدم وحوّاء عليهما السلام)، بعد أن خُدِعا بكلام إبليس ووَسْوَسَتِهِ، نُزِعَ عنهما لباسُهما الذي كان يَسْتُر عوراتِهما، فَظَهرت لهما عوراتهما ـ وإنما سُمِّيَتِ العورة سَوْءَةً لأنَّه يَسُؤُ الإنسانَ انكشافُها[3]، وعورة الرجل هي ما بين سُرَّتِهِ ورُكْبَتَيْه، وأما المرأة فَعَوْرَتُها كلُّ بَدَنِها سوى وجْهِها وكَفَّيْها ـ، هذا ولَمْ يُبَيِّنْ لنا رَبُّنا الحكيم نوعية اللباس الذي كان يستر جِسْمَ أبَوَيْنا، ولو كانت هناك حكمةٌ أو ضرورة تقتضيه لبيَّنه لنا، وما لم يُبَيِّنْهُ الله تعالى في كتابه، أو النبيُّ ﷺ في سُنَّتِهِ، من الأمور

(١) مختار الصّحاح، ص١٩٥، لفظ: د ل ا.
(٢) المصدر السابق، ص٤١٢ و٤١٣، لفظ: غ ر ر.
(٣) قيل للسَّوءة: عورة لقُبْح النظر اليها، وكل شيء يَسْتُرُه الإنسان أَنَفَةً وحياءً، فهو عورة. المصباح المنير، ص٢٢٦، والمعجم الوسيط، ص٦٣٦.

الغيبية التي لا دَخْلَ للعقل فيها، فَمِنَ العَبَث إضاعة الوقت في السَّعْي لمعرفته، إذ السعي في هذا المجال، لا يَتَمَخَّضُ إلَّا عن التَّعَب مِنْ غير طائلٍ.

ويدل قوله تعالى: ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ...﴾ [الأعراف: ٢٢]. و[طه: ١٢١]، ـ ومعناه: شَرَعا يُلْزِقان أوراق الأشجار بِبَدَنِهما لِسَتْرِ عوراتهما ـ على أن سَتْرَ العورة نَزْعَةٌ فطرية في البشر، وعلى أن التَّعَرِّي الذي ينادي به الغربُ والشرقُ في هذا العصر، ويُرَوِّجُ له المفسدون تحت شتّى العناوين، خلافٌ للفطرة البشرية السَّوية، بل هو خِطَّة إبليسية قديمة: ﴿...يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ...﴾ [الأعراف]، الهَدَفُ منها تسهيل المعاصي وتَجْريءُ الناس عليها، بعد ذهاب الحياء والحشمة من النساء، والغيرة والشهامة من الرجال.

كما يدلُّ قوله تعالى: ﴿...فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا...﴾ [الأعراف]، على أن لباسَ أَبوينا عليهما السلام قد سقط وزال عن جسدهما، بمجرد ذوقهما لثمرة تلك الشجرة، وفي هذا إشارة إلى أنَّ المُحرَّمات التي حرَّمها الله تعالى، يجب أنْ تُجْتَنَب مطلقاً، ولا يُنالَ منها كثيرٌ أو قليلٌ.

١١ ـ توجيه الله تعالى العتاب إلى آدم وزوجه، وتذكيره إياهما بتحذيره لهما:

كما قال الله العزيز الحكيم: ﴿... وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾﴾ [الأعراف]، وهذا النداء الرباني مع تلك المخالفة، من ذينك المخلوقين اللَّذيْنِ خلقهما الله تعالى بعناية خاصة، وأكرمهما غاية الإكرام، وفي ذلك المكان الطاهر! يبدو ـ حسبما أفهم ـ عِتاباً في غاية الرقة، ومحاسبة ممزوجة بلطف عظيم:

١ ـ ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ﴾ والنداء الربانيُّ نَفْسُه، تكريم وتشريف عظيم!

٢ ـ ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾ أي: أَوَ نَفْسَ الشجرة التي حَدَّدْتُها لكما أَلَّا تأكُلا منها، أكلتما منها!؟

٣ ـ ﴿وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾، أي: أولم أُحذِّركُم من عداوة الشيطان، عدوكم الذي لم تكن تخفى عليكم عداوته لكما؟!

والله تعالى وحده يعلم، كيف تَحَمَّل أبوانا الكريمان ذلك العتاب الربّاني بالرغم من رقَّتِه ولطافته!

١٢ ـ إعتراف آدم وزَوْجِه عليهما السلام بخطئهما، وقبول الله الكريم توبتهما:

كما قال الله تبارك وتعالى:

١) ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ٣٧﴾ [البقرة].

٢) ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٢٣﴾ [الأعراف].

٣) ﴿... فَأَكَلَا مِنۡهَا فَبَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ١٢١ ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ ١٢٢﴾ [طه].

ونُدْرِجُ ما تدلُّ عليه هذه الآيات المباركات، من حقائق في البنود الخمسة الآتية:

الأول: بعد أن انخدع آدم وزوجه بوسوسة إبليس، ووقعا في فَخِّه وسقطا، وزال عَنْهما لباسُهما، وانكشفت لهما عوراتُهما، أدركا فوراً فداحة خطأهما ونَدَما عليه، وأبصرا بعد غشاوة طارئة، كما قال تعالى في حق أهل التقوى الذين يستزلهم الشيطان في حين غفلة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ٢٠١﴾ [الأعراف]. أجل إنَّ التقوى مُنَبِّهٌ يُنبِّهُ صاحِبَهُ من الغفلة، ونورٌ يُبصِّره حين الغشاوة، ويَفْتَحُ عَيْنَ بصيرته لِتُبْصِرَ وسوسةَ الشيطانِ ومَكيدَتَهُ.

وبَعْدَ أنْ علم الله العَليمُ الخبيرُ نَدَمَ آدَمَ وزوجِه، أَلْهَم آدمَ كلماتٍ يُناجي بها رَبَّهُ ويُعْلِنُ بها توبته، كما قال تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ٣٧﴾ [البقرة]، إذن: فَلَمْ يتَخلَّ الله تعالى عن

آدم وزوجه حتى بَعْد عصيانهما له، بَلْ عَلَّمهما طريق العودة والإنابة إليه! فما أوسع رحْمةَ ربِّنا، وما أعظمَ كَرَمَهُ وحِلْمَهُ، تبارك اسمه وتعالى جدّه ولا إله غيره!

وأما ما هي تلك الكلمات التي تَلَقّاها آدم من ربِّه الرحمٰن؟ فالظّاهر أنَّها هي التي في سورة (الأعراف ٢٣): ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾.

الثاني: ويَشْمُل دُعاءُ أبويْنا النادِمَيْن التائِبَيْن عليهما السلام ستة أشياء، تُشكّل أساس التوبة النصوح:

١) نِداؤهما لله تعالى، واصفَيْنِ إياه بصفة الربوبية: ﴿رَبَّنَا﴾، وهذا يعني: إنك ربُّنا وسيِّدنا ومدبِّر أمورنا ومتولّي شؤوننا (فإنْ صَدَر مِنّا ما يليق بنا فَلْيَصدُرْ منك ما هو جديرٌ بك).

٢) تسمية معصيتهما ظُلْماً: ﴿ظَلَمْنَآ﴾ والظلم هو التجاوز، ووضع الشيء في غير موضِعِه.

٣) إضافة الظلم إلى نَفْسَيْهما ﴿أَنفُسَنَا﴾ وذلك لأن ضرر المعصية يخصّهما وحدهما، والله تعالى أعلى وأعظم من أنْ يصله ضَرَرُ معاصي عباده، كما أنه أغْنى وأجَلُّ من أنْ ينتفع بطاعتهم، ولهذا قال: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ...﴾ [فصلت].

٤ و٥ و٦) طلبهما مغفرة الله، ورحمته، مؤكِّدَيْن أنه إن لم يُسْعِفهما ربُّهما الكريم ليكونان في سلك الخاسرين: ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

وكلّما تدبَّر الإنسانُ في هذا الدعاء العظيم الذي ألهمه الله الرحيم عَبْدَيْهِ النادِمَيْن، وجد فيه مَزيداً من الأنوار التي تَكْشِفُ له طريقَ التوبةِ النصوح والإنابة الصادقة إلى ربِّ العالمين.

الثالث: وكما أن أبانا آدم عليه السلام قد حكم عليه رَبُّه بالغواية من جرّاء معصيته، كذلك حكم له بالإجتباء والهداية بسبب اعترافه بخَطَئِه، وببركة

نَدَمِهِ واستغفاره وأَوْبَتِهِ، كما قال تعالى: ﴿. . .فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾ [طه]، أي: إذا كانت المعصية تُسَبِّب الغواية، فالتوبة إلى الله تُثْمِرُ الإجتباء والهداية، والغَيُّ نتيجة الضلال، كما أنَّ الفلاح والرشد ثمرة الهداية.

ويقول علماء التزكية:

قد يُوقِعُ عدوُّ الله إبليسُ عبداً في بعض المعاصي، ولكن العَبْدَ ما زال يستغْفِرُ رَبَّهُ ويتوب إليه، ويندم على ما بدر منه، ويتأسَّفُ ويتألَّمُ، ثم ينشط في طاعته تكفيراً لِخَطَئِهِ وتعويضاً عمّا فاته، إلى أن تصير حالُه بعد المعصية أفضل بكثير من حاله قبل المعصية، وعند ذلك يندم الشيطان على ما فعل به وَيَودُّ لو أنه تركه على حالته التي كانَ عليها! وربما تحقَّقَ هذا في شأن أبوْينا أيضاً، إذْ لم يذكر الله تعالى اجتباءه واصطفاءَهُ لآدم، إلَّا بعد توبته وإنابته.

الرابع: وتُبيِّنُ لنا هذه الآيات والتي سَبَقَتْها، في النقاط السابقة بجلاء تام، أن ما أُدْرِجَ في التوراة والأناجيل المُحَرَّفَةِ التي هي بأيدي أهل الكتاب الآن، من أن إبليس قد خدع زوجة آدم أولاً، ثم هي خدعت آدم بدورها وزيَّنَتْ له الأكلَ من الشجرة المحظورة، خرافة كسائر خرافاتهم التي حَشَوْا بها كتب الله المباركة، ولا أصل لها[1]، إذْ يذكر كتابُ الله بهذا الصَّدد الحقائق الآتية:

١) إنَّ آدم وزوجه كليهما أُسْكِنا الجنّة معاً: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [البقرة].

٢) وكلاهما أُبيحَ لَهُ الأكل من الجنَّة، باستثناء الشجرة: ﴿. . .وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [البقرة].

(١) أشرنا اليه قبل قليل في (الكتاب المقدس).

٣) وحُذِّرا معاً من عدوهما إبليس: ﴿فَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾﴾ [طه].

٤) ثم وسوس الشيطان إليهما معاً، وحاورهما وقاسمهما معاً: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَـٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ﴿٢١﴾﴾ [الأعراف].

٥) وبالنتيجة فقد خدعهما الشيطان معاً، وفي آنٍ واحدٍ، وأكلا من الشجرة الممنوعة معاً: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ...﴾ [الأعراف].

٦) ولهذا فقد ناداهما ربُّهما معاً، وعاتبهما معاً، ثم عاقبهما، كما سيأتي بَحْثُهُ: ﴿... وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾﴾ [الأعراف]، ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾﴾ [البقرة].

ومن الواضح أنَّ تبيين هذه الحقيقة بهذا الوضوح، إنصافٌ عظيمٌ من كتاب الله الحكيم وكلامِهِ المبارك، لأمِّنا الكريمة التي طالما ظُلمت باتهامها بأنّها هي التي أكلت من الشجرة أوّلاً، ثم حَرَّضتْ زوجَها على الأكل، وقد سَرَى هذا الظلم والإجحاف لأمِّنا حوّاء (عليها السلام) إلى بنات حوّاء كذلك، وهذا واضح بَيِّن في كثير من الأدبيات الغربية وغير الغربية عموماً، ولهذه الفكرة الخرافية انعكاسات خطيرة في النصرانية المحرَّفة، كما هو معلوم لكل مُطّلع على تاريخ النصرانية، وصراع الكنيسة مع أهل العلم في الغرب، والذي أدّى في النهاية إلى انهزام الكنيسة ورجالها أمام العلم ورُوّاده، ونتيجة لذلك حصل في المجتمعات الغربية، رَدُّ فعل عنيفٍ تجاه الدين ـ بمعناه الربّاني ـ وتَبَنَّوْا اللادينية (العلمانية ـ سيكولاريزم) في الفكر والأخلاق والثقافة والسياسة والإقتصاد... وفي كل نواحي الحياة الأخرى.

الخامس: إنَّ كُلاً من آدم عليه السلام وإبليس لعنه الله، قد عصيا ربَّهما،

ولكن هناك فروق بينهما بَدْءاً وانتهاءً، وهي جديرة بالتأمل والإتعاظ:

١) إنَّ آدم عصى ربَّه بسبب النسيان، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾ [طه]، ولكن إبليس عصاهُ عن كبرٍ وحسدٍ وطغيان، كما قال تعالى: ﴿...وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [البقرة]، وكما قال تعالى: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ...﴾ [الإسراء].

٢) وآدم عصى بسبب غَيْره وانخداعه به: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ...﴾ [الأعراف]، ولكن إبليس لم يكن لأحدٍ أي دورٍ في عصيانه سوى نفسه: ﴿...كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ...﴾ [الكهف].

٣) وآدم ندم وخجل فور إحساسِهِ بوقوعه في الخطأ الذي لم يتعمَّدهُ ولم يقصد به مُخالفة أمر رَبِّه، ولكن إبليس لم يَبْدُرْ منه تحرُّجٌ أو شعور بالذنب، بل بالعكس بدل النّدم والخجل، تبَجَّح بخَطئِه وبَرَّره بذريعة أقبح من ذنبه، حيث ادعَّى الخيرية والإمتياز على آدم: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ وافتخر بأصله الناري وازدرى آدم بسبب بدنه الترابي، ثم بَنى على تلك المقدِّمات الزّائفة نتيجة باطلةً والتي تَمثَّلت في قوله: ﴿...ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾﴾ [الإسراء]، و﴿أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ...﴾ [الإسراء]، وهذا يعني أن إبليس لم يكتف برفض أمر الله تعالى وعدم امتثاله، بل أضاف إلى ذلك تخطئة الله الحكيم في إصدار ذلك الأمر!! ولا شك أن هذا كان أشنعَ وأَسْوَأَ بكثير من ذنبه الأول، فانطبق على اللعين المثل: (العُذْرُ أقبح من الذنب).

٤) ونسب أبوانا عليهما السلام الذَّنْبَ إلى نَفْسَيْهما، وقالا: ﴿...ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا...﴾، ولكن الملعون نسب عصيانه إلى الله العزيز الحكيم: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى...﴾ [الحجر].

٥) ولم يُلْقِ أبوانا باللائمة حتى على إبليس الذي خدعهما، بل لاما نَفْسَيْهما فقط، ولكن اللَّعين جعل تكريم الله لآدم ذريعة لعصيانه، وصوَّر المسألة بحيث تبدو وكأنَّ آدم هو السبب في عصيانه: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى

كَرَّمْتَ عَلَيَّ. . .﴾ [الإسراء]، ومن الواضح وطبقاً لقوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ. . .﴾ [الإسراء]، ووفقاً للمثل القائل: (وكل إناءٍ بالذي فيه يَنْضَحُ)، إنَّ موقف آدم نابع من تواضعه وواقعيّته وزكاء نفسه، كما أنَّ موقف إبليس ناشيء من خُبْثِ طويَّته وكبره وحسده وإعجابه بنفسه، وهل الأعمال الصالحة أو الطالحة، تُثْمِرُها إلَّا الفضائل أو الرذائل النفسية؟

٦) ثم إنّ أبوينا الكريمين المرحومين عليهما السلام إعترفا بخطئهما وسألا المغفرة من ربِّهما الرحيم الكريم جلَّ شأنه: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأعراف]، ولكن إبليس اللَّعين لم يَعْتَرفْ بخطئه ولم يستغفرِ الله، بل وأصرَّ عليه وبرَّره بذريعة أقبح من أصل المعصية، بَلْ وأكثر من هذا، طلب من الله تعالى إمْهالَه وإنظارَه، كي يتسنَّى له إمْعانٌ أكْبرُ وأطْولُ في العصيان: ﴿قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الأعراف].

٧) ولهذا كلِّهِ كان نصيب آدم وزوجه عليهما السلام العفو والتوبة والإجتباء والهداية، ولكن إبليس لم يَحْظَ بغير الغضب والطرد واللعن ومزيد من الغواية!

١٣ ـ عقاب الله تعالى لآدم وزوجه عليهما السلام بإخراجهما من الجنّة، وإهباطهما إلى الأرض:

قال الله سبحانه وتعالى:

١) ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾﴾ [البقرة].

٢) ﴿قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأعراف].

٣) ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ. . .﴾ [طه].

وتَهَبُنا هذه الآيات البيِّنات، الحقائق الخمس الآتية، فيما نحن بصدده:

الأولى: نَسَبَ الله الحكيمُ إبعادَ آدم وزوجه عن الجنّة، إلى الشيطان،

لأنَّه هو الذي أوقعهما بِوسوَستِهِ في فخ المعصية التي ترتَّبتْ عليها عقوبة الله القاضية بإخراجهما من الجنّة: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ. . .﴾ [البقرة].

وعندما يَنْسِبُ الله تعالى إخراجَهما من الجنَّة إلى نفسه، فلأنَّ مشيئة الله الشاملة هي وراء كل حدث ووراء كل شيء، ولكن مشيئة الله إنَّما تعمل وتجري وفق سننه الحكيمة، ومن سننه أنه أعطى كُلاًّ من الجنّ والإنس إرادة حُرَّةً، يفعلون بها ما يشاؤون ويختارون، وكل ذلك ضِمْنَ مشيئة الله الكلِّية المهيمنة على كل شيء، كما قال تعالى: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير]، وإنما رَبَطَ الله مشيئة عبادِهِ بمشيئته، لأنه إنما أعطاهم تلك المشيئة الجزئية بمشيئته الحكيمة، هذا أولاً، وثانياً: لأنَّ مشيئَتَه مهيمنة على الوجود كله.

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ. . .﴾ [البقرة]، وقوله: ﴿قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ. . .﴾ [البقرة]، وقوله: ﴿قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ. . .﴾ [طه]، وقوله: ﴿قَالَ ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ. . .﴾ [الأعراف]، الخطاب فيها كُلِّها موجَّهٌ لكل من آدم وزوجه عليهما السلام من طرف، وإبليس من طرف آخر.

وبناءً عليه: فآدم وزوجه، وإبليس اللَّعين، كطَرَفَيْن اثْنَين، إنّما أُهْبِطا من السماء إلى الأرض في وقتٍ واحدٍ، ولم يَسْبِقْ إسكانُ إبليس وذريته في الأرض، إسكانَ آدم فيْها، وقد قلنا سابقاً بأنَّ هذا دليلٌ قاطعٌ على بطلان الرأي القائل: إنَّ آدم جُعِلَ خليفةً للجنّ في الأرض!

الثالثة: قوله تعالى: ﴿. . . بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ. . .﴾ في الآيات الثلاث، يقصد به العداوة الحاصلة بين إبليس وذريته منْ طرفٍ، وآدم وذرِّيَّتِهِ من طرفٍ آخر، وهذا يفهم منه أَنَّ العِداءَ بين إبليس وآدم وذرِّيَّتِهما، عِداء أصيلٌ ومستحكم عموماً، ولكن المؤمنين من الجنّ ـ ذكوراً وإناثاً ـ الّذين لم يُتَابِعوا أباهم الضّالّ، في سفهه وغَيِّهِ، فهم لَم يُعادُوا أو لا يعادون آدم

والصالحين من ذريَّتِه، كما أنَّ الكفّار من ذرِّية آدم، الّذين لم يتَّبِعوا أبويهم الصالحين، لا يعادون إبليس وذريته الضالّين فَحَسْبُ، بل ويوالونهم ويظاهرونهم.

قال تعالى عن أهل الإيمان من الجنّ الرافضين لمسلك أبيهم السّفيه الضّال:

١) ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُۥ تَعَـٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَـٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾﴾ [الجن].

٢) ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ يَـٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَـٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَـٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الأحقاف].

وقال جلَّ شأنه عن المنحرفين من الإنس عن مسلك أبويهم والداخلين في حزب الشيطان:

١) ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الأنعام].

٢) ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَـٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأعراف].

إذن:

العداوة التي أعلنها إبليسُ من طرفٍ واحد ضِدَّ أبينا آدم، كِبراً وحسداً، إتخذت الآن الطابع الآتي: جبهة إبليس بقيادته، ونيابة شياطين الإنس والجنّ، أو طواغيت الإنس ومردة الجنّ عنه، وهذه الجبهة تضمُّ كل

عناصر الكفر والضلال، ذكوراً وإناثاً من الجنّ والإنس.

وجبهة آدم بقيادة الأنبياء ـ وآدم واحد منهم ـ (عليهم الصلاة والسلام) ونيابة العلماء وَرَثةِ الأنبياء، وهي تضمُّ كل أهل الإيمان والتقوى من فريقي الجنّ والإنس من الجنسين (الذكور والإناث).

وطوبى لإخوتنا الجِنّ المُنْقَلبين على أبيهم الضالّ، والتابعين لأبينا آدم وأبنائه الأنبياء، كما وتَعْساً للمنحرفين من الإنس عن طريق أبيهم والمُسْتَسْلِمين لإبليس وأعْوانه.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿...قَالَ ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ [البقرة]، في كل من الآية (٣٦) من (البقرة) والآية (٢٤) من (الأعراف) يدلُّ على أنَّ الإنس والجنّ سَيقضون فترة حياتهم الدنيوية على هذه الأرض التي نعيش عليها الآن، وأنَّ خيرات الأرض التي عبَّر عنها كتابُ الله بكلمة (مَتَاعٌ) ستظلّ كافية ووافيةً لحاجات معيشة كل من الجنّ والإنس، إلى أنْ يأذن الله تعالى بِطَيِّ صفحة هذه الحياة وفتح صفحة جديدة أخرى في مرحلة القيامة وما بعدها.

وعليه: فكلُّ ما يقالُ ويذاع من أخبار ودعايات من أنَّ ذخائر الأرض وخزائنها ستَنْفَدُ، أو أنَّه إذا ما وصل تكاثر النَّسل البشري إلى الحد الفلاني، لا تكفيهم أرزاق الأرض ولا تفي بحاجاتهم! هذه كلّها تشاؤمات سوداوية وظنون سيِّئة، لا أساس لها من الصحة.

وإنما الذي يُسَبِّبُ الأزمات الإقتصادية في حياة البشرية، هو الجَشَعُ والظلم والإجحاف، الذي تمارسه قِلة من الأثرياء المُترَفين المُمْسكين بِأَزمَّةِ بعض الدول الكبرى، بحق الشعوب والمجتمعات المستضعَفة المنهوبة خيراتُ بلادها أو المأخوذة منها، والمُغْتَصبة منها بلطائف الحيل، وخبث الكيد بِأبْخَس الأثْمان! وإلَّا فالله عليمٌ حكيمٌ وهّاب كريم، ولا يخلق على الأرض من البشر والجنّ والدّواب، إلَّا القَدَر الذي تفي بحاجته الأقواتُ التي خَزنهَا لهم في الأرض، مُنْذُ أنْ خلقها، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا

رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [فصلت].

الخامسة: ويدلّ قوله تعالى في الآية (٢٥) من (الأعراف): ﴿قَالَ فِيهَا تَحۡيَوۡنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنۡهَا تُخۡرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾، على أَنَّ هذه الأرض هي وحدها المستقر لحياة كل من الجنّ والإنس، وأنه لا يَتَسنّى لهم العيشُ والإستقرارُ خارج نطاقها، وأنَّهم جميعاً يموتون ويُدفنون فيها، ويوم القيامة يُخرجون ويبعثون فيها وحدها، وإنَّما وضَّحْتُ هذه المسألة لأنَّ بعض الناس يُصَدِّقون الدِّعايات القائلة بأنَّ بإمكان الإنسان أنْ ينتقل من على الأرض ويسكن غيرها من الكواكب! وكلُّ هذا هُراءٌ لا طائل تحته، نعم قد وصل الإنسان ـ بإذن الله وبما وهبه له من نعم وإمكانيّات عقلية ومادية ـ إلى القمر، وربَّما قد يصلُ إلى غيره من بعض الكواكب الأخرى القريبة مِنّا، ولكن السفر إلى القمر أو غيره، والبقاء فيه لمدة ساعات، ثم الرجوع على عَجَلٍ إلى الأرض خوفاً من نفاد الهواء المحمول، وبالنتيجة الإختناق، شيء، والإستقرار فيه شيءٌ آخر، كما هو واضح.

١٤ ـ وعْدُ الله للجنِّ والإنس بإنزال الوحي والهداية لهم، وبيان العاقبة المحمودة لأهل الطّاعة، والمصير المشؤوم لأهل المعصية والإنحراف:

كما قال تعالى:

١) ﴿قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [البقرة].

٢) ﴿قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَنۡ أَسۡرَفَ وَلَمۡ يُؤۡمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦۚ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبۡقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾﴾ [طه].

ونأخذ من هذه الآيات الحقائق الأربع الآتية:

الأولى: لقد ضَمِنَ الله الكريمُ لكل من تَبِعَ هُداه واتَّبَعَ طريقه المستقيم أموراً أربعة تجمعُ في طيّاتها خَيْرَيْ الدنيا والآخرة، وهي كما تدلّ عليه الآيات (٣٨و٣٩) من (البقرة) و(١٢٣) من (طه):

١) انتفاءُ الخوف ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾.

٢) انتفاءُ الحزن ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

٣) عدم الضّلال ﴿فَلَا يَضِلُّ﴾.

٤) عدم الشقاء ﴿وَلَا يَشْقَىٰ﴾.

والخوف[١] حالة تعتري الإنسانَ تَوَجُّساً وتَوقُّعَاً لما يحدث له من الشر والضرّ في المستقبل.

وأما الحزن[٢] فهو انقباض القلب واغتمامُهُ لما فاته من الخير فيما مضى.

والضّلال[٣] هو عدم معرفة الطريق الموُصِلِ للحق والهدف المنشود.

وأما الشقاءُ[٤] فهو النتيجة المترتبة على الضلال، والتي تتمثَّلُ في الشعور بالتعاسة والقلق والضِّيق في المعيشة من الناحية النفسية، وهو ـ أي الشقاء ـ عكس السعادة والرشد والفلاح.

والواقِع الذي عاشه ويعيشُهُ أهل الإيمان الصادقون، إنْ على مستوى الفَرْدِ أو المجتمع، أصدق شاهدٍ وأفضل مصداق لقول الله الكريم ووعده الذي لا خُلْفَ فيه أبداً، نَعَمْ إنَّ أهْلَ الإيمان والمهتدين بهداية الله العظيم والمستمسكين بكتابه الكريم، والمعتصمين بحَبْلِهِ المتين، سُعداءُ مُطْمَئنّون،

(١) المعجم الوسيط، ٢٦٢.
(٢) المصدر نفسه، ص١٧١، و(المنجد) ص١٣١.
(٣) المصدر نفسه، ص٥٤٢.
(٤) المصدر نفسه، ص٤٩٠.

لا يخافون ممّا يخافه الناس، ولا يحزنون لما يحزنون له، إذْ هم بربِّهم مُستَعْصِمون وبوعده واثقون، وقال جلّ شأنه في تمتع أهل الإيمان بالحياة الطّيبة في الدنيا، بالإضافة إلى حسن الجزاء في الأُخرى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل].

الثانية: كما وأوعد الله العزيز النّاكبين عن صراطه المستقيم والرافضين لنوره المبين، بِرداءَة الحال في الدنيا، وسوءِ المآل في الآخرة، وقد ذكر الله تعالى كلتا العقوبتين في الآيات (١٢٤ إلى ١٢٧) من (طه)، حيث قال بالنّسبة للعقوبة الدنيوية: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [طه]، والإعراض هو التولّي والإدبار عن الشيء، والذكر اسم لكتاب الله ووحيه ودينه، لأنه يُذَكِّرُ الإنسانَ بربِّه وحقوقه، ويُذَكِّرُ الإنسانَ وظيفته في هذه الحياة ومصيره الذي ينتظره بعدها، وغير ذلك ممّا يحتاج الإنسان إلى تذكُّره، لكي ينْجح في امتحانه الدنيوي، ويفوز برضوان الله تبارك وتعالى.

والمقصود بـ﴿مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ هو الحياة التّعيسة الضيِّقة النَّكِدة ـ من الناحية المعنوية والنفسية ـ وواقع حياة أهل الضلال، قديماً وحديثاً مِصْداقٌ حَيٌّ لقول الله الحكيم:

إذْ تراهم يشعرون دوماً بالتعاسة والشقاء، ويعانون من مختلف الأمراض النفسية والإجتماعية، كالقلق والكآبة والسآمة والضَّجر، والإحساس بعبثيَّة الوجود وتفاهة الحياة، وتراهم يلجأون ـ تحت الضنك النفسي الذي يعيشونه ـ إلى الفسق والفجور والخمور والمُخَدِّرات، بل أحياناً الإنتحار، بالرغم من كونهم من الناحية المادية في حالة ثراءٍ فاحشٍ وترفٍ وإسْراف، وكل هذا بل وأضعافه واقعٌ مشاهَدٌ وملموسٌ في كثير من المجتمعات البشرية الرافضة لِهُدى الله والناكبة عن صراطه المستقيم، وخاصة المجتمعات الغربية المتقدِّمة مادياً وتكنولوجياً، والمتخلِّفة بل المتدهورة معنوياً وإنسانياً وقِيَمياً.

هذا بالنسبة للعقوبة الدنيوية، وأما العقوبة الأخروية، فقَد عبَّرَ عنها

سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصۡحَـٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [البقرة]، وبقوله الكريم: ﴿...وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَـٰمَةِ أَعۡمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [طه]، والمقصود بالأعْمى في الآية، هو عَمىَ البَصَرِ، بدليل أنَّ الكافر عندما يحُشر أعمى، يتعجَّب ويسأل ربَّه: ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾﴾ [طه]، فيجيبه ربُّ العزّة قائلاً: ﴿...قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾ [طه].

وعليه:

فَعَمَى البصيرة في الدنيا يُثْمِرُ عَمَىَ البَصَرِ في الآخرة، ونسيانُ آيات الله وإهمالُها، تتمثل عقوبته في إهمال الله تعالى، ومعاملته للكافر وكأنه نساه من شدَّة إهانته لهُ، ومن فَرْطِ عدم عَبْئِهِ به.

الثالثة: هذا وليس المقصود بنسيان آيات الله ـ كما تصوّر البعض ـ هو نسيان كلام الله المبارك بعد حفْظِهِ، بل المقصود به هو إهمال آيات الله المباركات وعدم الإيمان بها، بدليل قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَنۡ أَسۡرَفَ وَلَمۡ يُؤۡمِنۢ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦۚ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبۡقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾﴾ [طه]، إذن: النسيان الذي عوقب به صاحبُهُ بالعَمَى في الآخرة، هو نفس الإسراف، وعدم الإيمان بآيات الله، اللَّذَيْنِ فَسَّرَ الله تعالى بهما النِّسيانَ، وعلَّلَ بهما العقوبة الأخروية المتمثلة في الإعْماءِ والإهمال.

الرابعة: وخلاصة الكلام:

أنَّ الله تبارك وتعالى بعد أن أهبط كلاً من آدم وزوجه، وإبليس من السّماء وأسكنهم في الأرض، أعلمهم بأنَّه سَيُنْزِلُ على ذُرّيَّتهم دِينَهُ وهِدايَتَهُ، ووعد القابلين لهدايته من الجنّ والإنس، والملتزمين بدينه، أنْ يُسْعِدَهم في الدنيا ويُفْلِحَهُم في الآخرة، كما وأوعد المعرضين عن ذكره ودينه، بالحياة الشقيَّة التعيسة البائسة في الدنيا، وبالخِزْي والعَمَى والهوان والعذاب في الآخرة، وقد تَحقَّق كُلٌّ من وعد الله لأهل الإيمان، ووعيده لأهل الكفر، في واقع حياة كل منهما بجلاءٍ ووضوح، إنْ على مستوى الأفراد، أو على مستوى المُجْتَمعات من الطَّرفين.

أجل والله إنَّ الإيمان الحق يجعل حياةَ المؤمن وحياةَ المؤمنين كمجتمع، حياة هنيَّةً رَضِيَّةً، مطمئنة طيِّبةً، نظيفة لذيذة، شبيهة بحياة الجنَّة، كما أنَّ الكفر يجعل حياةَ أهل الكفر والضَّلال، أفراداً وأسراً ومجتمعات، حياة ضيِّقة تعيسة شقية بغيضة قلقة خبيثةً، شبيهة بحياة أهل الجحيم، وصدق الله الحكيم حيث قال: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨﴾﴾ [التين]، بلى وعِزَّتك، ونحن على ذلك من الشاهدين الحامدين.

١٥ ـ إرسالُ الله تعالى الرُّسلَ والأنبياء، وإنزالُ الوحي والكتب عليهم تحقيقاً لِوَعْدِهِ:

وقد حقَّقَ الله الكريم وعدَه للإنس والجنِّ الساكنين في الأرض بإيتائهم الهداية والذكر، فأرسل الرسل والأنبياء الذين اصطفاهم من بينهم واختارهم (عليهم الصلاة والسلام) وأنزل عليهم وَحْيَهُ وكُتُبَه، كي يدلّوا البَشَرَ والجِنَّ على الحياة الإنسانية المستقيمة الطاهرة اللائقة بالإنسان، والمَرْضِيَّة لله تبارك وتعالى، كما قال تعالى:

١) ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾ [النساء].

٢) ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾ [الحديد].

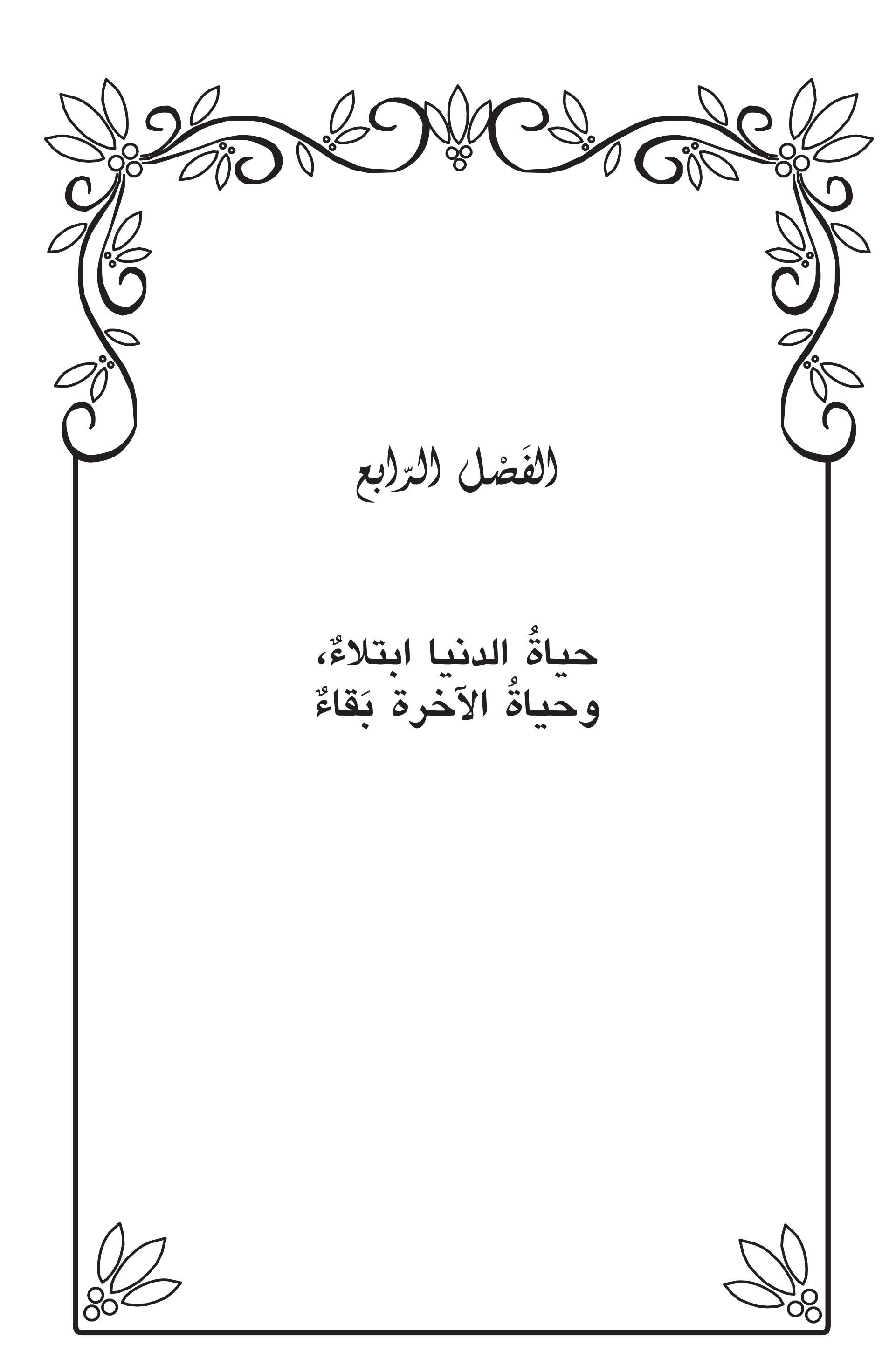
٣) ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾﴾ [إبراهيم].

٤) ﴿. . . إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [فاطر].

وبما أنّنا سنتحدَّث في الفصل الخامس من الباب الثاني عن الأنبياء والرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام ـ بإذن الله ـ نُرْجِيءُ الحديث عن هذه الآيات وأمثالها وما تدلّ عليه من حقائق إلى هناك.

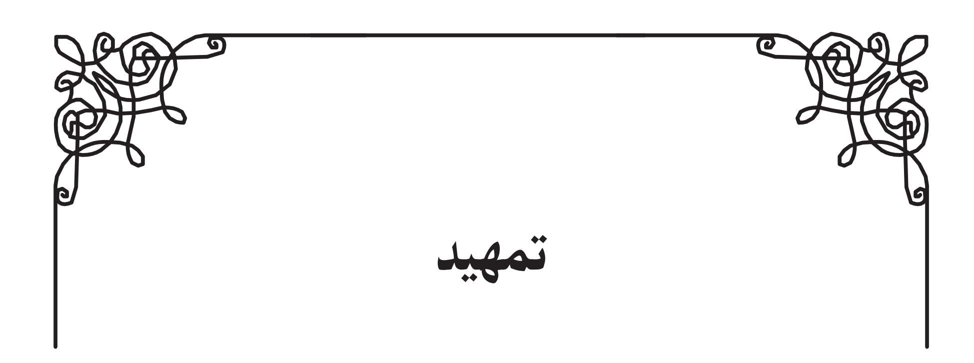
وبِهذا نختم هذا الفصْل الثالث من الباب الأول، ونَنْتَقِل بتوفيق الله الوهّاب جلَّ وعلا، إلى الفصل الرابع والأخير مِنْهُ.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑



الفَصْل الرّابع

حياةُ الدنيا ابتلاءٌ،
وحياةُ الآخرة بَقاءٌ



تمهيد

لا يعرف الحياة الدنيا على حقيقتها وما لها وما عليها، ولا يَقْدرُ الدّار الآخرة والحياة الأبدية فيها حَقَّ قَدْرها، إلَّا مَنْ نظر إليهما بمنظار الوحي الذي هو العلم الوحيد الذي لا تَشُوبُه شائبةُ الجهل والخطأ، بل يعرِّف الأشياء كما هي من غير زيادة أو نقص.

وكيف لا! وهلْ هناك من هو أعلم بالدنيا والآخرة والحياة فيهما، من خالقهما ومالكهما جلَّ وعلا؟ كما قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك].

لِذا سَنَتَشَرَّفُ بُرهةً بحضور كلام الله الحق، وذكره المبارك، والتأمل في بعْض آياته البَيِّنات، بُغْيَة الحصول على المعرفة الحقيقيَّة بالحياة الدنيوية المؤقتة، والحياة الأخروية الأبدية، وذلك في المباحث السبعة الآتية:

١ ـ الحياة الدنيا مرحلة ابتلاء للإنس والجنّ.

٢ ـ الحياة الدنيا من حيث متاعُها ولذّاتُها وقِلَّةُ بقائها، وبالقياس إلى الآخرة، ليست سوى شيء تافهٍ، شبيهٍ بلعب الأطفال ولهوهم.

٣ ـ الحياة الدنيا من حيث كونُها محلاً للإبتلاء، والخلافة عن الله، وَحَمْل أمانَتِهِ، والقيام بعبادته، لها شأن عظيم وخطبٌ جسيم.

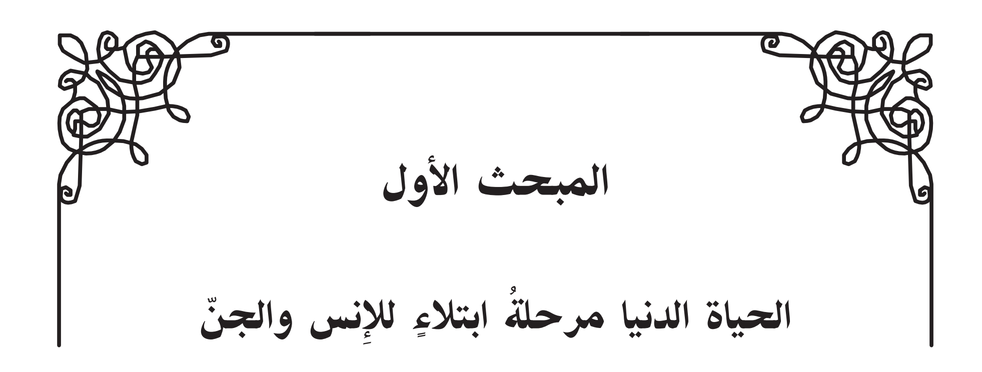
٤ ـ الإستمتاع بطيِّبات الحياة الدنيا من غير إسراف، لم يُحرِّمْهُ الله تعالى، بل وأوْجَبَهُ بِقَدَر الضَّرورة.

٥ ـ الله تعالى حذَّر البشر من الإنجرار وراء الشَّهوات، والإنشغال بها على حساب الآخرة، وأكثر ما يُقلِّلُ الله من شأن الدنيا، ويُزَهِّدُ فيها، فهو من هذا المنطلق.

٦ ـ حياة الدار الآخرة هي وحدها الحياة الحقيقية.

٧ ـ نهاية مطاف حياة الدنيا وتحذيرات الله المتنوعة للبشر.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑



المبحث الأول

الحياة الدنيا مرحلةُ ابتلاءٍ للإنس والجنّ

قال الله الحكيم جلَّ شأنه في هذا المجال:

١ ـ ﴿قَالَ ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأعراف].

٢ ـ ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾ [الملك].

٣ ـ ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾﴾ [الكهف].

٤ ـ ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ...﴾ [الأنعام: ١٢٨].

٥ ـ ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا...﴾ [الأنعام: ١٣٠].

ويَتَجلَّى لنا في هذه الآيات بوضوح، أن الحياة الأرضية لكلا فريقي الجنّ والإنس، إنما هي مرحلة ابتلاء واختبار ربّاني لهم، ومن الواضح أن

الإبتلاء يَسْتلزِمُ الحساب والجزاء، ثم يتمخَّضُ عن ذلك سقوطٌ وخسرانٌ، أو نجاحٌ وفلاحٌ.

وبما أنّنا تحدّثنا في السابق ـ في الفصل الثالث ـ عن هذا الموضوع، لذا نكتفي هنا بتعليقات مختصرة على الآيات المُدْرَجَةِ أعلاه:

١ ـ أمّا الآيتان (٢٤ ـ ٢٥) من (الأعراف) فَتُبيِّنان أنَّ أَرْضَنا الَّتي نعيش عليها، ويشاركُنا فيها إخوتنا الجنّ، هي مستقرُّنا الوحيد ومكان تمتُّعِنا، وهي التي تَضُمُّ أجسادَنا جميعاً إنساً وجِناً بعد الموت، وكذلك منها نُبْعَثُ ونُخْرَجُ جميعاً يوم البعث والنشور، كما قال تعالى في مكان آخر: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾﴾ [المرسلات]، و(كِفاتاً) مصدر من (كَفَتَ) أي: (ضامَّةً) وجاذِبةً[1]، وهذا فيه إعجاز علمي، لأن كون الأرض ضامَّة وجاذِبة، لم يُكتشف إلَّا بعد قرون كثيرة على يد (نيوتن)[2].

٢ ـ وآية (الملك) تُبَيِّنُ أن الله الحكيم إنّما خلق الموت والحياة (في الدنيا) لابتلائنا، وأنَّ مادة الإمتحان المفروض علينا، هي إحسان العمل: ﴿. . . لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا . . .﴾ [الملك]، ومفهوم (العمل) في كتاب الله لا ينحصر في نوع مُعَيَّن، بل شاملٌ لعَمَلِ القلبِ والعقل واللّسان والجوارح، والعمل لا يكونُ حسناً، دَع الأحسنَ، حتى يكون صواباً باتبِّاع الشرع، وخالصاً بتجريد النية، وجعله خالصاً لله تعالى لا شائبة للشّرك والرياء فيه.

٣ ـ وآيتا (الكهف) تُبيّنان ان الله تعالى إنّما زيَّنَ الأرض وهيَّأها لتكون محلاً لابتلاء الإنسان، ثم بعد انقضاءِ فترة الإبتلاء، يجعلها الله أرضاً جَرْداءَ لا شيء عليها سوى التراب، كحقل زَرْعٍ محصود!

٤ ـ وفي الآية (١٢٨) من (الأنعام) وبعد توبيخ الله الجنّ على إضلالهم الإنس بكثرةٍ، يعترف الضالّون من الإنس بأنَّ كلا الفريقين، أي

(١) المعجم الوسيط، ص٧٩١.

(٢) عاش اسحاق نيوتن بين عامي ١٦٤٢ ـ ١٧٢٧ الميلاديين.

المُنْحرفين منهما، قد استمتع بالآخر ـ أي تأثَّر بعضهم ببعض سَلْبياً ـ، ثم يقرّون بأنهم الآن قد وصلوا وبلغوا الموعد المقرَّر لهم، الذي حدَّده الله لِمُجازاتهم.

٥ ـ وفي الآية (١٣٠) من (الأنعام) يخاطب الله تعالى ـ يوم القيامة ـ الجنّ والإنس مُوَبِّخاً (والمقصود هنا الكفّار منهم فقط)، قائلاً لهم: ﴿...أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَاۚ...﴾ [الأنعام] ـ أي طالما أنَّني أرسلتُ إليكم منكم رسلاً، وقد تَلَوْا عليكم آياتي وحَذَّروكم من مَغَبَّةِ الكفر والعصيان، وأنْذروكم من لقاء جزاء ربكم في يومٍ كهذا، فلماذا إذاً هذا المصير المشؤوم الذي كان بإمكانكم تجنُّبُه؟!

وفي تلك الحالة لا يَسَعُ أولئك المُغترّين بالحياة الدنيا ومتاعها القليل، إلا الإقرار بالحق والشهادة على أنفسهم بالكفر، ويعلن سبحانه وتعالى أنّ الحياة الدنْيا هي التي غرَّتهم وَأَوْدَتْ بهم: ﴿...يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَاۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [الأنعام].

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑



المبحث الثاني

الحياة الدنيا من حيث متاعُها ولذّاتُها وقلَّةُ بقائِها، وبالقياس إلى الآخرة، لَيسَتْ سوى شيء تافهٍ، شبيهٍ بِلُعَبِ الأَطفال

كما قال تعالى:

١ ـ ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ. . .﴾ [الحديد: ٢٠].

٢ ـ ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾ [الكهف].

٣ ـ ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتُهَاۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [القصص].

٤ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾﴾ [التوبة].

٥ ـ ﴿. . .أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗاۗ وَرَحۡمَتُ رَبِّكَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوۡلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ لَّجَعَلۡنَا لِمَن يَكۡفُرُ

بِٱلرَّحۡمَٰنِ لِبُيُوتِهِمۡ سُقُفٗا مِّن فِضَّةٖ وَمَعَارِجَ عَلَيۡهَا يَظۡهَرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الزخرف].

كما نرى: يُبَيِّنُ لنا ربُّنا تبارك وتعالى في هذه الآيات الْبَيِّنات، أنَّ الحياة الدنيا ـ من حيث متاعُها وجانِبُها المادّي ـ شيء قليلٌ وعَرَضٌ زائلٌ، تُشْبِهُ النَّبات الذي يَنبُتُ إثْرَ مطر السماء، ولكن ما يَلْبَثُ أن يَيْبَس وتَذرُوه الرياح بعد أن يُصْبِحُ هَشيماً متكسِّراً!

وهذه تعليقات وتوضيحات مختصرة على الآيات:

١ ـ **مراحل الحياة الدنيا** (أي: مراحل حياة الإنسان في الدنيا):

يبيِّن الله تبارك وتعالى في الآية (٢٠) من (الحديد) مراحل عمر الإنسان في حياته الدنيوية القصيرة السريعة، في خمس كلمات ويحصر الحياة الدنيا فيها، ويقول ليست الحياة الدنيا إلا تلك الأشياء وهي: اللّعب، اللهو، الزينة، التفاخر، التكاثر بالأموال والأولَاد، وهذا تصوير دقيق وَمُنْطَبِقٌ على واقع الحياة تماماً، وذلك لأنَّ:

١) المرحلة الأولى من عمر الإنسان هي مرحلة الطفولة، وفي هذه المرحلة يَبْرُزُ اللَّعِبَ[١].

٢) والمرحلة الثانية هي مرحلة الصِّبا، واللهو[٢] هو الذي يَنشَغِل به الصَّبِيُّ.

٣) والمرحلة الثالثة هي مرحلة الشباب الأولى، والتزيُّن هو الجانب المادي البارِزُ في هذه المرحلة للذكور والإناث، كل حسب فطرته، وبداية هذه المرحلة منذ المراهقة.

٤) والمرحلة الرابعة هي مرحلة الشباب الثانية، والنضوج العقلي والجسمي والنفسي، وفي هذه المرحلة يبدأ الإنسان بتكوين العائلة، ويفكِّر

(١) كلُّ ما يُلْعَبُ به فهو (لُعْبَة) مثل الشِّطرنج والنَّردِ، وهو حَسَنُ (اللّعْبَةِ) بالكَسْر للحال والهيئة التي يكون الإنسان عليها، المصباح المنير، ص٢٨٥.

(٢) أصل (اللَّهو) الترويحُ عن النفس بما لا تقتضيه الحكمة، وألهاني الشيءُ بالألِفِ: شغلني، المصباح المنير، ص٢٨٨.

في جمع المال والتفاخر به على الآخرين: ﴿وَتَفَاخُرٌۢ بَيۡنَكُمۡ﴾، وكذلك التفاخر بالعقل والعلم والجمال والقوة... إلخ.

٥) المرحلة الخامسة هي مرحلة نهاية الشباب والدخول في مرحلة الكهولة، ثم الشيخوخة، وفي هذه المرحلة وبعد أن يَكْثُرَ نَسْلُ الإنسان أولاداً وأحفاداً ويجمع الثروة، يدخل في حالة المنافسة مع الآخرين في الأموال والأولَاد ﴿وَتَكَاثُرٌ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ﴾، وفِعْلاً هذا هو الطّابعُ العام لحياة الناس، أياً كانوا وحيثما كانوا.

٢ ـ مثال الحياة الدنيا:

وفي الآية (٤٥) يُمثِّلُ الله الحكيم الحياة الدنيوية بماءٍ نازلٍ من السَّحاب فَأَنبَتَ زرعاً، وبعد أنْ ينَعَ الزرعُ ونَضُجَ، وأكمل دورته الحياتية التي حدّدها الله تعالى له، يَبُسَ ثُمَّ تهشَّم وتكسَّر وذَرَتْه الرياحُ وذهبتْ به فأصبح (شَذرَ مَذر)، وصار أَثراً بَعد عَيْنٍ!

وكذلك الحياة الإنسانيةُ، إنْ على مستوى كل فَرْدٍ بعينه، أو على مستوى النوع البشري بمجموعه، فبعد أن يَمُرَّ الفَرْدُ بمراحله الحياتية التي حدّدها الله له، تُطْوى صَفْحَةُ حياته لِيُخْلِيَ مكانه لمن يأتي بعده، وينتقل هو إلى مرحلة الحياة البرزخية، وكذلك بعد تكملة البشرية المدة التي حدّدها الله لحياتها على الأرض، تُخْلي ظَهْرَ الأرض إلى بطنها من حيث أجسادُها، وتنتقل أرواحُها إلى مرحلة البرزخ، وبعدها إلى مرحلة القيامة واليوم الآخر، كما قال تعالى مشيراً إلى أجل كل فردٍ بعينهِ، وأجل النوع البشري برُمَّتِهِ: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٖ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلٗاۖ وَأَجَلٞ مُّسَمًّى عِندَهُۥۖ ثُمَّ أَنتُمۡ تَمۡتَرُونَ ﴿٢﴾﴾ [الأنعام].

٣ ـ كل ما في الدنيا من زينةٍ ومتاعٍ، يُعَدُّ شيئاً قليلاً بل تافِهاً بالقياس إلى نعيم الجنّة:

وهذا ما بيّنه رب العالمين في الآية (٦٠) من (القصص)، والآية (٣٨) من (التوبة)، حيث يُبَيِّنُ في الآية (٦٠) من (القصص) ـ مخاطباً الناس كلَّهم ـ بأنه أي شيء أوتيتموُه، ومهما كان في أعينكم، وحسب مقاييسكم، فهو

على أية حال لا يخرجُ عن كونه متاع الحياة الدنيا ـ والمتاعُ هو كل شيءٍ يُتَمَتَّعُ به بصورةٍ مؤقَّتة ثم يُتْرَكُ[1] ـ وزِينَتَها (التي ما تَلْبثُ أن تزول، لأن الزينة عبارة عن جمالٍ مُكتسب مؤقت).

ثم يبيّن سبحانه وتعالى أن ما عنده من ثوابه المتمثِّل في الجنّة ليس هكذا، بل هو ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ أي خيرٌ وأرقى نوعية وأبقى دواماً ومُدَّةً، بما لا يُعْلَم من الأضعاف والدرجات.

وعقَّب سبحانه على هذا بقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ لأن من عنده عَقْل، يعرف الفرق الكبير والبون الشاسع بين الحياة الدنيوية الفانية القصيرة المشوبة بالمُنغِّصات الكثيرة، والحياة الخالدة الأبدية الطيّبة الهَنيَّة في الجنّة.

وأما آية التوبة فيبيّن فيها ربُّ العزّة جلّ وعلا، وفي مَعْرِضِ الحديث عن الجهاد في سبيل الله، وتأنيب المتقاعسين المتباطئين، أن الحياة الدنيا بالقياس إلى حياة الآخرة، ليست سوى شيء قليل.

٤ ـ ست حقائق عن الحياة الدنيا:

وفي الآيات (٣٢ إلى ٣٥) من (الزخرف) يبيّن لنا ربُّنا الحكيم تبارك وتعالى الحقائق الآتية عن الحياة الدنيا، وذلك في معرض الردِّ على الذين قالوا تَملُّصاً عن الإيمان برسول الله ﷺ: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الزخرف]، وإنما قالوا ذلك، لأنهم كانوا حسب مقاييسهم المعوجة وموازينهم المختَلَّة، لا يرونَ رسول الله ﷺ الرجل العَظيم الذي يَسْتأهلُ أن يَنْزِلُ عليه الوحيُ، لأنه لا يملك الثراء الواسع والجاه العريض، والرجال العظام الذين يستحقون ـ حسب معاييرهم ـ ذلك المقام الرَّفيع، هم فقط ذَوُوا الجاه العريض والثراء الفاحش، في مكة والطائف!

فقال تعالى تفنيداً لفكرتهم تلك: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾؟! الزخرف أي: إن مقام النبوّة والرسالة، إنّما هو هبة من الله تعالى يهبها لمن

(١) المتاع في اللغة: كل ما يُنْتَفَعُ به كالطّعام والبَزّ وأثاث البَيت، وأصل المَتاع ما يُتَبلَّغُ به من الزّاد، المصباح المنير، ص٢٩٠.

يشاء، ورحمته يرحم بِها من يشاء، وهم ليس لهم أي دَخْلٍ في تقسيم وتوزيع رحمة الله تعالى، وهِباتِهِ التي يُتْحِفُ بها الناس، حسبما تقتضيه مشيئته الحكيمة، ثم بعد ذلك يذكر ست حقائق:

الأولى: ﴿...نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا...﴾ [الزخرف]، أي: أنَّ البشَرَ لا يملكون أيَّ شيءٍ من رحمة الله كي يتصرفوا فيها حسب أهوائهم فَحَسْبُ، بل حتى لا يملكون أمْرَ معايشهم المادية أيضاً، بل نحن الذي نَقسِم الأرزاق ونُفاضِلُ بين درجات معايشهم ـ حسب سننٍ حكيمة والتي تُنَفَّذُ من خلال إرادات البشر وجهودهم التي يبذلونها ـ.

الثانية: ﴿...وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا...﴾ [الزخرف]، أي: إنّما فاوتنا بين مستويات معيشة الناس وفاضلْنا بينهم، وقسمنا الناس في ذلك الجانب إلى درجات ومستويات مختلفة ومتعدّدة، كي يستعمل الناس بعضُهُم بَعْضاً، فتتنوّع المِهَنُ، وتَتعدّد المكاسب ومن ثمّ ينتفع بعضهم بجهود بعض، فتكون المُحَصِّلَة النهائية: أن الكُلَّ مُسخَّرٌ لِلكُلِّ! وهذا هو المعنى الصحيح لقوله تعالى: ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾.

الثالثة: ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٣٢)﴾ [الزخرف]، أي: إنَّ رحمة الله المتمثّلة في الدنيا في طاعته، وفي الآخرة في رضوانه وثوابه وجنَّته، خيرٌ من كل ما يجمعونه ويكدِّسونه من أموال وممتلكات، والتي إمّا هي تارِكَتُهُم إلى غيرهم أو هم تاركوها!! ولا مَفَرَّ من إحدى الحالتين أو كلتيهما معاً.

الرابعة: ﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣) وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ (٣٤) وَزُخْرُفًا...﴾ [الزخرف]، وهنا يوضّح سبحانه وتعالى مدى تفاهة شأن الدنيا ـ أي من ناحيتها المادية ـ عنده، فيقول:

لولا أن يُصْبِحَ الناسُ كُلُّهم جماعةً واحدةً مُجْتَمِعةً على الكفر

والضّلال، لأَعْطَيتُ الذين يكفرون بالله الرحمٰن جلّ شأنه مايلي:

أ ـ جعل سُقُوفِ بيوتهم من الفضّة.

ب ـ وكذلك جعلُ مَعَارِجِهم (وهي جمع معراج وهو الدَّرَجُ) التي يصعدون عليها إلى ظهر بيوتهم مصنوعة من الفضّة.

ج ـ وجَعلُ أبواب بيوتهم من الذهب.

د ـ وجَعلُ سُرَرِهم التي يتكئون عليها، كذلك من الذهب.

الخامسة: ﴿. . .وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۚ. . .﴾ [الزخرف]، أي: ولَيْسَتْ هذه الأشياء كلّها سوى متاع الحياة الدنيا (أي الوسائل التي يُتَمَتَّعُ بها بصورة مؤقتة)، ولهذا فلا يبالي بها الله تبارك وتعالى في يد من وقعت، وإلى مَنْ توجَّهتْ!

السادسة: ﴿. . .وَٱلْأَخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [الزخرف]، أي: ولكن الحياة الآخرة الأبدية (في الجنّة) عند الله الرب الرحيم جلّ شأنه، مُخْتصَّةٌ بالمتقين، ولا حَظَّ فيها لغيرهم مُطْلقاً.

ونَخْلُصُ من كل ما مرَّ ذِكرُهُ، إلى أن الحياة الدنيا من ناحيتها المادية، ومن حيث كونُها متاعاً، لَحياةٌ قصيرةُ الأمد، يُبْتلى فيها الإنسان، وبالقياس إلى الآخرة وبالمقارنة معها (ونقصد بالآخرة رضوان الله وثوابه في الجنّة الخالدة)، فهي قليلة الشأن جداً.

ولهذا شَبَّهها الله الحكيم سبحانه وتعالى بِالنَّبات ذي الحياة القصيرة والسريعة الزوال والفناء، ومن هذا المنطلق وعلى هذا الأساس اعتبرها الله تعالى لعباً ولهواً في أكثر من آية، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ. . .﴾ [محمد].

وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌۖ وَلَلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنعام].

وكذلك قال: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [العنكبوت].

ولكن هذا كله من الناحية المادية، ومن حيث كونُها متاعاً، وأما من الجوانب الأخرى، فإن للحياة الدنيا شأناً وأيَّ شأنٍ، وهذا ما سنتحدَّث عنه في المبحث الآتي بإذن الله تعالى وتوفيقه.

ونختم هذا الموضوع بمجموعة من الأحاديث النبوية الشريفة:

قال رسول الله ﷺ مُقَلِّلاً شأن الحياة الدنيا من الحيثية التي نتحدَّثُ عنها:

١) «**لَوْ كَانَت الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ الله جَنَاحَ بَعُوضَةٍ، مَا سَقَى كَافِراً مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ**» (رَوَاهُ التِّرمِذِيُّ برقم: (٢٣٢) وَقَالَ: حَسَنٌ صَحِيحٌ ـ وَصَحَّحَهُ الألباني).

٢) «**وَالله مَا الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلَّا مِثْلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ فِي الْيَمِّ، فَلْيَنْظُرْ بِمَ يَرْجِعُ!**» (رَوَاهُ مُسْلِمٌ برقم: (٢٨٥٨)).

٣) «**مَا لِي وَلِلدُّنْيَا؟ مَا أَنَا في الدُّنْيَا إِلَّا كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا**» (رَوَاهُ أَحْمَد برقم: (٣٧٠٩)، وَالتِّرمِذِيُّ برقم: (٢٣٧٧) وَقَالَ: حَسَنٌ صَحِيحٌ، وَابْنُ مَاجَه برقم: (٤١٠٩)، وَصَحَّحَهُ الألباني).





المبحث الثالث

الحياة الدنيا من حيث كونُها مَحَلاّ للإبتلاء والخلافة عن الله تعالى، وحمل أمانته والقيام بعبادته، لها شأن عظيم وخَطبٌ جسيمٌ

كما قال الله تبارك وتعالى بهذا الصَّدد:

١ ـ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾﴾ [الأنعام].

٢ ـ ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [يونس].

٣ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾ [فاطر].

٤ ـ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾﴾ [غافر].

٥ ـ ﴿... فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ

أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾﴾ [البقرة].

٦ ـ ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾ [الحديد].

٧ ـ ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [الحج].

٨ ـ ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النور].

وتُنَوِّر هذه الآيات المباركات الحقيقة الّتي عَنْونّا بها هذا المبحث بأضواء شتّى، هذه بعضها:

أولاً: أما في الآية (١٦٥) من (الأنعام) فيُخاطِبُ الله عبادَه بأنه قد جعلهم خلفاءه في الأرض ورفع بعضهم فوق بعضٍ درجات، وفاوت بينهم في الرزق والجاه والعقل والعلم... إلخ، وكل ذلك بقصد الإبتلاء والإختبار فيما مَتَّعَهُم به من النِّعَم، ثم يُعَقِّبُ جلّ شأنه على هذا بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾﴾، وذلك تنبيهاً لنا على أن كلاً من عقابه السريع ومغفرته ورحمته، إنّما سيترتّبان على نتيجة الإبتلاء التي تَتَمَخَّضُ عنها حياتنا الدنيوية، وبحسب ما نقوم به من عمل صالح أو سيء، وما نَتَّصِفُ به من إيمانٍ وتقوى، أو كفر وفجور.

ثانياً: وفي الآيتيْن (١٣ و١٤) من (يونس)، بعد أنْ يُبيّن لنا ربُّنا الحكيم جلّ وعلا سُنَّتَهُ في حياة البشرية، وعلى مَرِّ أجيالها المتعاقبة، وهي إهلاكهُ إياهم نتيجة ظلمهم، بعد أنْ أقام عليهم الحُجَّةَ، الرُّسُلُ المُرْسَلون

بالبيّنات، وقطعوا أعذارَهم، بعد ذلك يخاطبُنا ويُعْلِمُنا أنه جعلنا خلفاءَ في الأرض (أي خلفاءه) بعد الأُمم الغابرة، كي يرانا كيف نعملُ، وماذا نعمل!

وعليه: فكلُّ تصرّفاتِنا ونِشاطاتِنا، بل كل حركاتنا وسكناتنا في هذه الحياة الدنيا مرصودة من الله تعالى ومنظورة، ونحن تحت مُراقبته المستمرة!

وقد قال رسول الله ﷺ بهذا الصّدد: «**أَلَا إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ الله تَعَالَى مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا، فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَفْعَلُونَ**» (رَوَاهُ أَحْمَد برقم: (١١١٨٥)، وَمُسْلِمٌ برقم: (٢٧٤٢).

ثالثاً: وفي الآيتيْن (٣٦و٣٧) من (فاطر) وبعد أن يُطْلِعنا ربُّ العزّة على الوضع المُزْري والصّعب، الذي يُعاني فيه أهل النار الأمَرَّيْن، حيث يَصرخون ويستغيثون بالله تعالى أنْ يُخْرجَهُمْ من النار، ويَعِدُونهُ أن يعملوا الصالحات بدل الذي عمِلوهُ سابقاً، يقول سبحانه وتعالى في جوابهم: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾، وهذا يعني أن ذلك المقدار من العُمُر الذي خصَّصه الله لنا في هذه الحياة الأرضية، يكفي للتذكُّر لِمَنْ أراده، والتذكُّر المقصود هنا هو تذكُّر حقيقة مخلوقيتنا لله تعالى ومربوبيَّتنا له، وأنَّه إنّما خلقنا لعبادته أداءً لحق ربوبيّته وشكراً لِنِعَمِه، وبناءً عليه: فمن أهمل التذكّر في هذه الحياة الإبتلائية ثم مضى لسبيله لاهياً وغافلاً، عمّا خُلِقَ من أجله، وعاصياً لربّه وكفوراً لنعمه، فهو قد ضَيَّع فُرْصَة عمره التي لنْ تُعَوَّض أبداً، وشَقِيَ شقاءً لا سعادة بعده أبداً.

رابعاً: وفي الآيتين (٤٩ و٥٠) من (غافر) هناك حوارٌ مُختصَرٌ بين أهل النار الكفّار والملائكة المدبِّرين لشؤون جهنّم (الخزنة)، إذْ يلتمس الكفّارُ الجهنَّميُّون من الخزنة أنْ يدعوا لهم ربهم، كي يُخَفِّفَ عنهم ولو يوماً واحِداً من العذاب، ولكن يُجيبهم الخزنة بقولهم: ﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ﴾؟! فيقولون: بلى، وعند ذلك يقول لهم الخزنة مُويْئسين لهم: ﴿فَٱدْعُواْ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ وهذا يعني: نحن لا ندعو الله لكم، لأننا لا نطلب من الله الحكيم شيئاً ليس في محلّه، ولكن

ادعوا أنتم بأنفسكم، إذ الدعاء الذي لا يُجاب له، إنّما يليق بكم أنْتُمْ، واستيقنوا أنَّ دعاء الكافرين الذي ليس له أساسٌ صحيحٌ، ليست نتيجته سوى الضياع، ولن يُجْنى منه غَيْرُ التَعَب.

وهذا يعني:

أَنَّ مَنْ لم يُجبْ دعوة الله تعالى ونِداءَهُ المُتَمَثِّل في كتبه ورُسُلِه (عليهم الصلاة والسلام) في هذه الحياة الدنْيا، لا يجيب الله العزيز الحكيم دعاءَه ونداءَه، ولَنْ يغيثه يوم القيامة وفي الآخرة، مهْما استغاث به وتضرَّع إليه.

خامساً: وفي الآيات (٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٢) من (البقرة)، بعد أنْ يذكر الله تعالى صنفاً من الناس الذين لا يلتمسون من الله الكريم غير الدنيا وصارت الدنيا أكبر همّهم ومبلغ علمهم، ويبيِّن محروميَّتهم في الآخرة التي لم يَسْعَوا لها سَعْيَها، لأنهم ما كانوا يؤمنون بها، يُرْدِفُ ذلك بذكر عباده المؤمنين ـ في مقام المدح ـ الذين يطلبون من ربّهم الكريم خَيْرَي الدنيا والآخرة: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾، وإنّما قدَّموا حسنة الدنيا على حسنة الآخرة، لأن الدنيا قبل الآخرة زمناً، بل هي مقدِّمتها والآخرة نتيجتها، ومَن لم يسع هنا لاكتساب الحسنة، فهو هناك صِفْرُ اليدين، لأن من لم يزرع شيئاً كيف يَحْصُدُ؟!

وكلمة ﴿حَسَنَةٌ﴾ تشمل كلَّ ما هو حَسَنٌ ومفيدٌ وصالِحٌ ونافِعٌ معنوياً ومادياً للفرد والأسرة والمجتمع، وقد فسَّرها بعض العلماء ـ أي حسنة الدنيا وإلّا فحسنة الآخرة هي الجنّة، وقبلها رضوان الله الذي هو أكبر ـ بالرزق الحلال، أو الصحة والعافية، أو الزوجة الصالحة (أو الزوج الصالح بالنسبة للمرأة)، أو الأولاد الصالحين، أو الطاعة... إلخ، والحق أن كلمة الحسنة، كما قلنا: مفهومُها شاملٌ لكل هذه الأشياء مجتمعة، ولغيرها مِما يُعَدُّ حسناً وصالحاً ونافعاً، نقلاً وعقلاً.

فالمطلوب من المسلم إذن أن يدعو ربَّهُ الكريم الوهّاب لِخَيْر دنياه، كما يدعوه لخير أُخْراهُ، سواءً بسواء.

سادساً: وفي الآية (٢٥) من (الحديد) يُبَيِّن لنا ربُّنا الحكيم أنه أرسل

جميعَ رُسُلِه الكرام (عليهم الصلاة والسلام) بالبيّنات (المعجزات) وأعطاهم الكتاب (الشريعة) والميزان (أي السنة التي تطبق على ضوئها الشريعة، أو الوسائل التي يتحقق بها القسط) وكل ذلك من أجل قيام الناس بالقسط، والقيام بالقسط (أي العدل) يشمل نواحي الحياة كافة، لأن الله تعالى أطلق فيه القول، وَلَمْ يقيِّدْه بشيء، أو مجال دون مجال، ثمَّ يشير سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ إلى الوسيلة التي لا بدَّ منها إذا ما أريد إقامة العدل والقسط في حياة الناس، وهي تتمَثَّل في شيئين وكلاهما مصدَرهُ الأساس هو الحديد، وهما:

أ ـ القوة العسكرية، أي الأسلحة بأنواعها، أو التكنولوجيا العسكرية باصطلاح العصر.

ب ـ الصناعة المدنية، أو التكنولوجيا المدنية باصطلاح العصر.

والدالّ على الأول، هو قوله تعالى: ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾، كما أن الدال على الثاني، هو قوله تعالى: ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾.

ومن الواضح أن المجتمع الذي لا يمتلك القوة العسكرية التي يُدافع بها عن وجوده ودينه، ويقف بها أمام مطامع الأعداء، أو لا يمتلك من الصناعات ما يُحقِّقُ بها الإكتفاء الذاتي ولو نسبياً، لا يتسنّى له القيام بالقسط، لأنّ من يكون من جرّاءِ ضَعفه خاضعاً للأعداء، أو بسبب تَخَلُّفه عالة عليهم في وسائله المعيشية، فهو يُعتبر مغلوباً على أمره أو شبه أسير، ولا يَتَمَكَّنُ من تثبيت العدل، سوى الأحرار الأقوياء الأعزة!

ثم يبيّن سبحانه وتعالى حكمة ذلك كله بقوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾، أي: وكل ذلك ابتلاء من الله تعالى لعباده ليظهر له في ميدان الواقع، الذين ينصرون دينه ويؤيِّدون رسله (عليهم الصلاة والسلام) مع أنهم لا يرون الله تعالى، ولا يرون جنَّته وثوابه الذي وُعِدوا به! ثُمَّ يُعَقِّبُ على كل ذلك بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ وذلك كَي لا يَظنَّ ظانٌّ بأن الله تعالى بحاجة إلى نصرة غيره! كلاّ بل هو القوي العزيز، بل القوة كلّها والعزّة جميعها له سبحانه، كما قال: ﴿. . .وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ

ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا...﴾ [البقرة]، وقال: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا...﴾ [فاطر]، وإنّما هو ابتلاء الله العزيز الحكيم لعباده.

نعم، فهذه الحياة الدنيا هي الساحة التي عَمِلَ فيها كلُّ رسل الله الكرام (عليهم الصلاة والسلام) وأتباعهم من أهل الإيمان، لإقامة القسط، ومن الواضح البيّن أن العدل لا يتحقق إلّا في أرضٍ نظيفة، قد أُزيلَ عنها الظلم وآثاره، وكذلك هي الميدان الذي هيأه الله الحكيم ليختبر فيه عباده، هل ينصرونه ورسله بالغيب، فَيَتَّبِعون دِينَهُ ويقتدون برسله وأنبيائه ويطبّقون شرائعه في حياتهم، أم لا؟!

سابعاً: وفي الآية (٤١) من (الحج) ـ وذلك في سياق يتحدَّث عن المؤمنين المضطَهَدين، من قبل أهل الكفر والطواغيت الذين يُخْرِجونَهم من ديارهم من غير ما جريرة ارتكبوها سوى الإيمان ـ، يُبَيِّن سبحانه وتعالى مُعَرِّفاً بعباده المؤمنين المرضيِّين عنده، أنَّهم هم الذين إذا ما أعطاهم الله العزيز الهيمنة والسلطة في الأرض، قاموا بهذه الأعمال الأربعة:

١ ـ إقامة الصلاة.

٢ ـ إيتاء الزكاة.

٣ ـ الأمر بالمعروف.

٤ ـ النهي عن المنكر.

فأما إقامة الصلاة، فهي أداء حق الله تعالى بالعبودية والطاعة والتعظيم، إذ الصلاة أَهمُّ أنواع العبادات الفردية التي تتجلّي فيها عبودية الإنسان لربّه بأجْلى صورها، وأعظمها.

وإيتاء الزكاة ـ الذي هو نوع خاص من الإنفاق في سبيل الله ـ عبارة عن تأدية حق الناس بالإحسان إليهم، ومساعدتهم وإيصال النفع إليهم، وكثيراً ما قَرَنَ كتابُ الله الحكيم بين التقوى والإحسان، أو بين عبادة الله، والإحسان إلى الناس، أو بين إخلاص الوجه لله تعالى، والإحسان إلى الناس.

والأمر بالمعروف يُقْصَدُ به السَّعْيُ لتحلية المجتمع، في كل نواحي حياته العقائدية والفكرية والخلقية والإجتماعية والإقتصادية والسياسية، بالفضائل وبترسيخ كل ما حبَّذها الشّرْع، من أحكام وقيم وتعاليم.

والنهي عن المنكر هو السَّعي لتنظيف المجتمع وتنقيته من المنكرات الفكرية والخلقية والسياسية والإجتماعية والإقتصادية... إلخ.

إذن:

قد كلَّف الله أهلَ الإيمان المُضْطَهَدين، الذين ينصرهم الله تعالى، وَيَمُنُّ عليهم بالتمكين لهم في الأرض، بأعمالٍ عظيمة وتكاليفَ جسيمة جداً.

ثامناً: وفي الآية (٥٥) من (النور) وَعَدَ الله الكريمُ الحكيمُ أهلَ الإيمان والعمل الصالح، بتمكينهم واستخلافهم في الأرض، كاستخلافه الذين من قبلهم من أهل الإيمان والعمل الصالح في الأمم الماضية، وكذلك وعدهم تثبيت دينهم لهم في واقع الحياة، الدين الذي ارتضاه منهجاً وحيداً لحياتهم، ووعدهم تبديل خوفهم وقلقهم على مصير دينهم، أَمْناً وسلاماً واطمئناناً، ثم قال: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

ويحتملُ أن يكون قوله تعالى: ﴿يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ﴾ في مقام الشرط لكل ما سبق ذكرها من الوعود الربّانية، أي أن الله تعالى يحقق لكم هذه الأمور والوعود الثلاثة:

١ ـ الإستخلاف في الأرض.

٢ ـ التمكين للدين الحق في الأرض.

٣ ـ تبديل الخوف أمنا.

مقابل شرطٍ واحد وهو: (عبادة الله تعالى من غير شريك) ولا شك

أن المسلمين عندما يُحَقِّقون التوحيد الحق في أنفسهم، ويُجَرِّدون العبودية لله تعالى، ويتبرَّؤون من كل أنواع الشرك، ويُصْبحون مؤمنين موحِّدين، يستأهلون كلَّ وعود الله الكريم العليم الحكيم جلَّ شأنه.

كما ويحتمل أن يكون ذلك الكلام المبارك في مقام الثمرة والنتيجة لما سَبَقَ، أي: إن الله تعالى ـ إذا ما آمنتم وعملتم الصالحات ـ سيُنْجِزُ لكم هذه الوُعُودَ كُلَّها، كي تكونوا عابدين لله تعالى حقاً، وغير متلبِّسين بشيء من الشرك.

ونستنتج من كل ما سبق، أن الحياة الدنيا بقدر ما هي تافِهة وحقيرة من حيث ماهيَّتُها المادية، وبالنظر إلى لَذّاتُها وبالقياس إلى الآخرة، هي عظيمة الشأن وجليلة الخطب، من حيث كونُها محلاًّ للإبتلاء، وأداء العبادة لله تعالى، وإقامة دينه وتطبيق شريعته، وكفى بالحياة الدنيا أهميةً وخطورةً، أن الله تعالى أنزل كلَّ كتبه المملوءة بنور الهداية، وأرسل كلَّ أنْبيائِهِ ورُسُلِهِ المصطفين الأخيار (عليهم الصلاة والسلام)، لترتيب أمور أهل الأرض وتنظيم شؤونهم الدنيوية، وفقاً لمرضاة الله تعالى، وقد تمثّل جوهر رسالات الله الحكيمة التي كلّف أنْبياءَه ورسله (عليهم الصلاة والسلام) بتبليغها، في شيئين:

أولاً: بالنسبة لما بين الناس وبين الله: (توحيد الله) أي إفراده وحده بالعبادة بالمفهوم الشامل لكلمة العبادة، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء].

ثانياً: بالنسبة لما بين الناس بعضهم مع بعض: (القيام بالقسط)، أي: تعاملهم فيما بينهم بالعدل الذي بيّن مفهومَهُ دينُ الله الحكيم، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ...﴾ [الحديد]، ومن القيام بالقسط أن تزول كل الفروق والإمتيازات المصطنعة التي أفرزتها الأوضاع السياسية والإقتصادية والإجتماعية المبْنيَّةُ على الظلم والجور، والناشئة من اضطهاد واستغلال واستضعاف الطواغيت والظلمة المتكبِّرين المسرفين، للمجتمعات البشرية.



المبحث الرابع

الإستمتاع بطيّبات الحياة الدنيا من غير إِسرافٍ، لمْ يُحرِّمْهُ الله تعالى، بل وأوجبه بقدر الضرورة

وهذه بعض الآيات البيِّنات بهذا الصدد:

١ - ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الأعراف].

٢ - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [البقرة].

٣ - ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ...﴾ [الأعراف: ١٥٧].

٤ - ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ...﴾ [الأعراف: ٣٢].

٥ - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾ [البقرة].

٦ - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [المائدة].

٧ ـ ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [القصص].

ونقتبس من أنوار هذه الآيات المباركات، الأضواء الآتية، فيما نحن بصدد البحث فيه:

١) في الآية (٣١) من (الأعراف) يخاطب الله العظيم جلَّ في علاه، ذرِّيَة آدم كُلَّها، ويأمرهم بثلاثة أشياء:

أولاً: أخذ الزينة عند كل مسجد: أي لُبْس اللباس الذي يستر عوراتهم ويتجمَّلون به، وقوله: ﴿عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ يقصد به مكان الصلاة والعبادات، وقد استدلّ به العلماء على وجوب ستر العورة في الصلاة.

ثانياً وثالثاً: الأكل والشرب من غير إسراف: والإسراف هو مجاوزة الحدِّ في تناول المباح[1]، ولكن التبذير هو صرف المال في غير محلِّه[2]، وبغير وجهه الشرعي، وقد فسَّر العلماءُ هذه الأوامر الثلاثة، بأنها للإباحة وليست للوجوب، ولكن إذا كان المقصود بأخذ الزينة هو ستر العورة في الصلاة فلا يمكن القول بكون الأمر للإباحة، وكذلك من بديهيات الشرع أنه يجب على الإنسان أن يتناول من الغذاء والماء أو الطعام والشراب ما يقيم أَوْدَهُ، ومن امتنع عَن الأكل والشرب من غير عذر ومبرِّر شرعي، ثم مات، يعتبر قاتِلَ نفْسِه، وجالِبَ حَتْفِه بيده، وهذا حرام أشدّ الحرمة، كما قال تعالى: ﴿. . .يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ [النساء]، وقد أوْعَد الله العزيز منْ يُقْدِمُ على إهلاك نفسه، بقوله:

(١) أَسرفَ إسرافاً: جاز القَصدَ، المصباح المنير، ص١٤٤.

(٢) بَذَرْتُ الكلام: فَرَّقْتُهُ، وبذَّرْتُهُ بالتثقيل: مبالغة وتكثير، ومنه اشتُقَّ التبذير في المال لأنه تفريقٌ في غير القَصْد، المصدر نفسه، ص٢٧.

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾﴾ [النساء].

٢) وفي الآيتيْن (١٦٨ و١٦٩) من (البقرة) يخاطِبُ ربُّ العالمين الناسَ كافَّة آمراً إياهم بأكل الحلال الطيب الذي خلقه لهم في الأرض، وينهاهم عن خطوات الشيطان، مؤكِّداً أنه عدوُّهم الواضح الجليِّ، الذي لَمْ يُخْفِ عنهم عداوته لهم يوماً، ثمَّ يبيّن لهم أَن الشيطان لا يأمرهم إلَّا بالسوء (من الأقوال والأفكار) والفحشاء (من الأفعال والتصرفات)، والقول على الله بغير علم وخصوصاً في مجال الحلال والحرام، كما يدلّ عليه السياق.

٣) وفي الآية (١٥٧) من (الأعراف) وفي سياق التعريف بالنبي الخاتم عليه أفضل صلوات الله وأعظم بركاته وأتم تسليمه، يبين سبحانه وتعالى أن النبي الأُمي يُحِلُّ الطيّبات كُلَّها للناس، ويُحَرِّم عليهم الخبائث جميعَها، والطيّبات جمع (طيِّب) وهو كل لذيذ وطيّب ونافع[١]، كما أن الخبائث جمع (خبيث) والخبيث هو كل ما كان مُسْتَقْذراً وسيئاً وضاراً[٢]، من الأطعمة والأشربة وغيرهما.

وبناءً عليه:

فلا يوجد طعامٌ وشرابٌ طيّبٌ نافعٌ، لم يُحِلَّه لنا النبيُّ الأُمِّيُّ ﷺ كما أنه ما من طعام وشرابٍ خبيثٍ ضارّ، إلَّا وحرّمه علينا، ذلكم المبعوث رحمة للعالمين، صلواتُ الله وسلامه عليه أبد الآبدين.

٤) وفي الآية (٣٢) من (الأعراف) يخاطب الله العظيم نبيَّه الكريم، آمراً إيّاه أنْ يُوَجِّه سؤالاً إنكارياً للمشركين والكفار، الذين كانوا يُحرِّمون الأشياء بأهوائهم، على أساس ما توارثوها من المعتقدات الباطلة والعادات الجاهلية، والسؤال هو:

---

(١) الطيّب: كلّ ما تَسْتَلِذُّهُ الحواس أو النفس، وكل ما خلا من الأذى والخبث، المعجم الوسيط، ٥٧٣.

(٢) الخبيث: خَبُث الشيء يَخْبُثُ خُبْثاً وخباثة وخباثية: صار فاسداً، رديئاً مكروهاً. المصدر نفسه ص ٢١٤.

﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ﴾؟! أي: إن (الزّينة) وهي كل ما يُتَزَيَّنُ[١] به، و﴿وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ﴾ وهي كل ما لَذَّ وطابَ من المآكل والمشارب، حلالٌ وليس بمُحرَّم، بدليل أن الله لم يُحرِّمْها على عباده، بل إنما أخرجها لهم، وبما أن غيرَ الله ليس له حق التحليل والتحريم، فكل ما حَرّمَهُ غيرُ الله تعالى، من سَدَنَةٍ وكَهَنَةٍ وطواغيت، فهو باقٍ على حِلِّيَتِهِ ولا يضُّره تحريم غير الله له، وكذلك الحرام الذي حرّمه الله تعالى، لا يجعله تحليل غيره إيّاه حلالاً، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزۡقٖ فَجَعَلۡتُم مِّنۡهُ حَرَامٗا وَحَلَٰلٗا قُلۡ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمۡۖ أَمۡ عَلَى ٱللَّهِ تَفۡتَرُونَ ۝٥٩﴾ [يونس].

٥) وفي الآية (٨٧) من (المائدة) يخاطب الله تبارك وتعالى أهلَ الإيمان، ناهياً إيّاهم من تحريم الطيّبات، التي أحلّها الله لهم وأنعم بها عليهم، ويَعْتبِرُ مِثلَ ذلك العمل اعتداءً وتجاوزاً، حيث يقول في ختام الآية: ﴿وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾، هذا وقد ورد بعدة طرق أنَّ بعض الصّحابة رضوان الله عليهم مبالغة في الزُّهد، واجتهاداً في الطّاعة، وتفرّغاً للعبادة، أرادوا أن يمتنعوا عن بعض المَلَذّات كإتيانِ النّساء، وأكل اللحم، والنوم على الفراش، بل هَمَّ بَعْضُهُمْ بإخصاءِ أنفسهم، تَخلُّصاً من الشهوة الجنّسية نهائياً! فأنزل الله تعالى هذه الآية، ومنعهم عن تلك التصوّرات والتصرّفات بشدّة[٢].

٦) وفي الآيتيْن (١٧٢ و١٧٣) من (البقرة) يأمر الله تعالى المؤمنين

---

(١) الزِّيان والزّينة: كلُّ ما يُتَزَيَّنُ به، وزانَهُ زَيْناً، حسَّنه وجمَّلَهُ، المعجم الوسيط، ص، ٤١٠.

(٢) أُنظر على سبيل المثال: (لُباب النقول في أسباب النزول) لجلال الدين السيوطي (رحمه الله تعالى) ص١٠٢، ١٠٣ رقم: ٤٣٢ و٤٣٣ و٤٣٤ و٤٣٥ و٤٣٦، وانظر: أسباب النزول، للنيسابوري، ص١١٣، ١١٤.

وانظر: صحيح البخاري: ٥٠٧٣و ٥٠٧٤، وصحيح مسلم: ١٤٠٢، وسنن الترمذي: ١٠٨٣، وسنن النسائي: (٥٨/٦) وسنن ابن ماجه: ١٨٤٨.

بالأكل من الطيّبات التي رزقهم إيّاها، وبأن يشكروه على ما أنعم بها عليهم، إن كانوا فعلاً يريدون أن يعبدوا الله حقاً، ثمّ يُخْبِرُهُمْ بالأشياء التي حرّمها عليهم ـ أي من المأكولات ـ وهي هذه الأربعة حصراً:

١ ـ المَيْتَةُ، أي الحيوان الذي لا تُدْرِكُه الذَّكاة، بأي سبب من الأسباب.

٢ ـ الدَّم، ويقصد به الدم المسفوح (المسفوك) المنفصل عن جسم الحيوان، ولهذا قُيِّدَ بصيغة المسفوح ﴿أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾، كما في الآية (١٤٥) من (الأنعام).

٣ ـ لَحْمُ الخِنزير، وقد سمّاه الله تعالى رِجْساً، كما في الآية (١٤٥) من (الأنعام)، وتُفيدُ كلمة الرِّجس معنى العذاب والحرام والخُبْث والقَذَر[١].

٤ ـ المذبوح لغير الله، أي الذي يُذبَح على غير اسم الله تعالى، ويُرفعُ عليه اسم غيره أثناء ذَبْحِه، وقد سمّاه الله تعالى فِسْقاً، كما في الآية (١٢١) من (الأنعام): ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ. . .﴾ .

ثم يعود ـ وهو الرَّؤوف الرَّحيم الجواد الكريم ـ ويُبيحُ لهم التناول من هذه المُحَرَّمات الأربع أيضاً، في حالة الإضطرار: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾ [الأنعام]، والمقصود بقوله تعالى: ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ هو أن يكون الآكل من هذه الأشياء، فعلاً مضطراً ولا يجد سواها، لا أن يكون طالباً (باغياً) للتلذّذ بها، وأيضاً ألَّا يتجاوز في أكله المِقدارَ الذي يُقيمُ صُلبَهُ، وينجو به من الموت والهَلاك، نعم، إنَّ كلمة ﴿بَاغٍ﴾ تعني: طالِبَ اللذة، وكلمة ﴿عَادَ﴾ تعني: مُتجَاوِزَ الحدِّ، ولا علاقة لهما بمسألة البغي

(١) المعجم الوسيط، ص٣٣٠.

والعدوان، كما فسّرهما بهما بعضُ المفسِّرين، وحرَّموا التناول من هذه الأربعة بِمُوجَبِ تفسيرهم، على المسلمين الخارجين على السلطة الشرعية، وكذلك كل شَخصٍ عاصٍ بسفره، كَقُطّاع الطرق وغيرهم!

٧) وفي الآية (٧٧) من (القصص) يبين الله العليم سبحانه على لسان قوم قارون الذين نصحوه في مجال كيفية تصرّفه حِيالَ ثروته الهائلة التي أعطاها الله إيّاها، ابتلاءً وامتحاناً له، سِتَّ حقائق فيما يتعلق بالدنيا ومتاعها، والنظرة الصحيحة إليها، والتعامل الصحيح معها، وهي:

١ و٢ ـ إعتبارُ المال والمتاع الدنيوي هِبَةً ربانيةً، لأنهُ هو المالك الحقيقي لكل الوجود، وكذلك هو المعطي للملك والنازع له، حسبما تقتضي حكمته، ثمَّ استخدامُهُ في نيل ثواب الله ورضوانه في الآخرة: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ﴾.

٣ ـ عدم إهمال حظّ النفس الذي لا بُدّ مِنهُ، لاستمرار الحياة في دائرة الحلال والمباح: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾.

٤ ـ القيام بالاحسان إلى الناس بالإنفاق عليهم (وخصوصاً الذين لهم الأولوية بسبب القرابة أو الضعف والحاجة الشديدة) شكراً لله تعالى على إحسانه وإنعامه وإفضاله: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾.

٥ ـ عدم اتِّخاذ المال وسيلة للإفساد في الأرض، (والمال أمضى سلاح في مجالي الإفساد والإصلاح): ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

٦ ـ الإعلان عن سنة الله القاضية بعدم محبّته للمفسدين، ومن لم يكن محبوباً لله فهو مبغوضٌ منه لا محالة، إذ لا بدَّ من أحدهما للإنسان، فيما يتعلق بما بينه وبين ربه تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

وخلاصة القول في هذا المبحث:

أن الله تعالى أباح للناس التناول من الطيّبات والزينة التي خلقها لعباده في الأرض تمتيعاً منه لهم بها، بل وأمرهم بذلك، أمر الناس عموماً، وأمر أهل الإيمان خصوصاً، ونهاهم بشدّة عن تحريم طيّباته، أو تجنّب التمتع بها

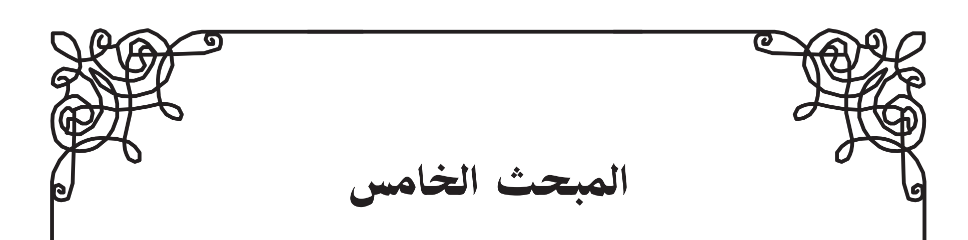
ـ في حدود المباح ـ تزهُّداً وتعبُّداً وتَقَشُّفاً، واعتبر ذلك تجاوزاً للحدود التي حدّدها لهم، بل واعتبر سبحانه التناول من الطّيبات بأنواعها ـ أي المآكل والمشارب والملابس والمناكح، حسبما تفيده أسباب النزول التي وردت بسببها الآيات ـ شرطاً لاعتبار الإنسان عابداً لله تعالى ومتَّقياً، كما قال تعالى في الآية (١٧٢) من (البقرة): ﴿...إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾، وقال في الآية (٨٨) من (المائدة): ﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾!!

ومن الواضح أنه لا تُوجَدُ أساليب وصيَغٌ أقوى وأوضح من هذه الَّتي نراها في الآيات المباركات التي استشهدنا بها، على أن شريعة الله الحكيمة، لم تمنع من التمتُّع بالطيبات، بل وحبّذه وأمر به أيضاً، وبهذا ندرك أن كلَّ الذين يظنّون بأنَّ الإسلام يُحبِّذُ لأَتْباعه الجوعَ والفَقْرَ والمَسْكَنَة، واهمون جِداً، سواء كانوا من المسلمين أو من غيرهم.

وسنفصِّل القول في مسألة كيفية نظرة الإسلام إلى الغنى والفقر، في المطلب الأول من المبحث الأول، من الفصل الثاني من الباب الثالث (أي الكتاب العاشر) بإذن الله تعالى.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑





المبحث الخامس

الله تعالى حَذَّرَ البشر من الإنجرار وراء الشهوات والإنشغال بها على حساب الآخرة، وأكثر ما يُقَلِّلُ الله من شأن الدنيا ويُزَهِّدُ فيها، فهو من هذا المنطلق

كما قال الله الحكيم بهذا الصَّدد:

١ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ۝٥﴾ [فاطر].

٢ ـ ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ۝٢٠﴾ [الحديد].

٣ ـ ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝٣٧ وَءَاثَرَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ۝٣٨ فَإِنَّ ٱلۡجَحِيمَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ۝٣٩ وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ۝٤١﴾ [النازعات].

والآن لنتأمل هذه الآيات التي ليست سوى أمثلةٍ لغيرها، في مجال تحذير الله الحكيم الرحيم الناس من الإنغماس في متاع الدنيا وشهواتها، والذي لا يكون إلاّ على حساب الحياة الأبدية الأخروية، ثم يعود بالضرر الجسيم عليهم روحاً وعقلاً وجسماً، وفرداً وأسرةً ومجتمعاً:

١ ـ أما الآية (٥) من (الفاطر) فيُنادي فيها ربُّ العالمين وأحكم الحاكمين وأرحم الراحمين تبارك وتعالى، جَميعَ عبادِهِ ويُحَذِّرُهم مؤكِّدا أنّ وعده حق ـ أي مجيء القيامة والحشر والحساب والجزاء ـ إذن:

فَلْيَحَذرُوا أن تَخْدَعهم الحياةُ الدنيا بمباهجها العابرة، أو يخدعهم الشيطان ويُنْفِذَ في قلوبهم وساوسَه الخبيثة، كخناجر مسمومة غادرة!

وإنما سمَّى الله تعالى الشيطان الرجيم (غَرُورا) لإن دَيْدَنَهُ الخِداعُ والإغْراء إذ (الغَرور) بفتح الغين صيغة مبالغة من (الغارّ)، مثل (الأكول) من (الآكل)، ولكن (الغُرور) بضم الغين مصدر من: (غَرَّه يَغُرُّه غُروراً)[١].

ويفهم من هذه الآية المباركة أن متاعَ الدنيا وشهواتِها، والشيطانَ اللعين، سببان رئيسيان من أسباب انحراف الإنسان وضلاله ونسيانه رَبَّه والحِكمَة التي خلقه من أجلها، والوظيفة التي كلِّف بها.

٢ ـ وأما الآية (٢٠) من (الحديد) والتي تكلَّمنا عن نصفها الأول في المبحث الثاني، فهي ـ في نصفها الثاني ـ تشبِّه الحياةَ الدنيا بمطر نازلٍ أنْبَتَ الله به زَرْعاً أُعْجِبَ به الزُرَّاع (وسُمِّي الزرّاع كفّاراً لأن الكفر في أصل اللغة هو السَّتْرُ، والزّارع يقوم بإخفاء الحَبِّ في التراب)، وسُرْعان ما ينضج ذلك الزرع ثم يصْفرُّ، ثم ـ بعد يُبْسِهِ وتهشُّمه ـ يُصْبحُ حطاماً وفُتاتاً!

ثم يقول تعالى مبيِّناً عاقِبَةَ الحياة الدنيا والنتيجتين المختلفتين المترتبتين على نوعي السعي المتعاكسين: ﴿وَفِي ٱلْأَخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌۚ﴾ ومعنى هذا:

أن الحياة الدنيا من حيث مَتاعُها، هي حياة قصيرة الأجل وقليلة الخَطَرِ، ثم هي كلها شيء واحد، لا فرق بين حياة هذا وذاك، لأنَّها لِقِصَرِ مدّتها لا يكاد يتبين رَغَدُ حياة الغنيِّ من بُؤْسِ حياة الفقير، ولكن نتيجتها جِدُّ مختلفة، وهي عموماً نوعان، ولكن شتان ما بينهما، فهما من حيث

(١) المصباح المنير، ص٢٣٠.

البعد والفرق كالثَّرى والثُّريّا، أجل والله الذي لا ربَّ سواه، بل هما أكثر فرقاً وأشدُّ تباعُداً، إذ أين الذي علاوة على حِرْمانِه من ثواب الله وجنّته، وقبلهما من رحمته، يُدْخَلُ في عذاب شديد، وكفى بعذابٍ شدّةً يُسمِّيه ربُّ العزّة شديداً، وفي آيات أُخْرى: عظيماً وأليماً ومُهيناً وغليظاً وغراماً... إلخ!! من الذي ينالُ مغفرة الله الغفور ورضوانه الذي هو أكبر من كل نعيم الجنّة؟! كما قال تعالى: ﴿...وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ [التوبة].

ثم يقول تعالى في ختام الآية المباركة: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ أي: أن الحياة الدنيا من حيث متاعُها المادي، ليست سوى لَذَّةٍ عابرةٍ خدَّاعة ماكرة، فاحذروها ولا تخدعنَّكم وتوردَنَّكم موارد الهَلاك كسائر هَلْكاها.

٣ ـ وفي الآيات (٣٧ إلى ٤١) من (النازعات) يُقسِّم الله تعالى الناس حيال الحياة الدنيا ونوعية النتيجة التي تترتب على موقفهم من الدنيا، إلى قسمين:

القسم الأول:

يُعَرِّفهم الله الحكيم بقوله: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ [النازعات].

فيُعرِّف الله تعالى هؤلاء، وهم الأشرار المغرورون المخدوعون بالحياة الدنيا، بتعريف مُكَوَّنٍ من مقدِّمتين ونتيجة، كمعادلة رياضية، وهو:

الطغيان + إيثارُ الحياة الدنيا (على الآخرة) = الإستقرار في الجحيم

والآن لنتأملْ كلاً من المقدِّمتين، ثم النتيجةَ المُتَرَتِّبة عليهما:

المقدّمة الأولى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾﴾:

كلمة ﴿طَغَىٰ﴾ والتي اشتُقَّتْ منها كلمة (الطاغوت)، تعْني في أصل

اللغة: مجاوزة الحد[1]، كما قال تعالى متحدّثاً عن طوفان (نوح) عليه السلام الذي جاوز كلَّ الحدود، وحطَّم جميعَ المقاييس: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾ [الحاقة].

وبما أن تَجاوز الحدود تجاه الله تعالى، هو التجاوز العظيم الذي لا يوجد تجاوز أعظم وأبشع وأشنع منه، لِذا كثيراً ما استعمل كتاب الله هذه الكلمة في وصف مواقف الذين يتجاوزون الحدود المرسومة عقلاً ونقلاً وفطرةً، مع الله تبارك وتعالى بالكفر به والشرك والعصيان، وهذه أمثلة من تلك الآيات التي وردت فيها الكلمة المذكورة، وقصد بها تجاوز الحدود مع الله تعالى:

١ ـ ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾﴾ [العلق].

٢ ـ ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾﴾ [الفجر].

٣ ـ ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾﴾ [النبأ].

٤ ـ ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام].

٥ ـ ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾﴾ [البقرة].

٦ ـ ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾﴾ [الشمس].

المقدِّمة الثانية: ﴿وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾﴾:

(الإيثار) هو التفضيل والترجيح[2]، والمقصود بإيثار الحياة الدنيا هو

(١) المصباح المنير، ص١٩٤.

(٢) المعجم الوسيط، ص٥.

تفضيلها وترجيحها على الحياة الأبدية في الآخرة، وهذه المقدِّمة الثانية نتيجة لسابقتها، لأن مَنْ لم يستسلم لله تعالى بالعبودية والطاعة، بَل طَغى وعصى، فهو بالأحْرى لا يُبالي بالآخرة ويُهْمِلها وينساها، لأن الآخرة هي دار لقاء الله العظيم، ومن لم يؤمن بالله ولم يستسلم له، لا يحب لقاءَهُ، وإن أذعن بمجيء اللِّقاء، ثم مَنْ خلا قَلْبهُ مِنْ رجاء اليوم الآخر، والتعلُّق بوعد الله فيه، وحُبّ لقائه، تجد الدنيا ولذّاتُها فيه قلباً فارغاً خالياً فَتَسْكُنُهُ وتَسْتقِرُّ فيه، ولذلك لا تجدُ كافراً بلقاء الله واليوم الآخر، إلا وهو متشبِّثٌ أشدَّ التشبّث بالحياة، بأي ثمن كان! كما قال تعالى عن اليهود المغضوب عليهم: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟...﴾ [البقرة].

وقد وصف الله تعالى أهل الكفر في أكثر من آية بأنهم يُفَضِّلون الحياة الدنيا على الآخرة، ويرضون بها ويَطْمَئِنُّونَ وَيقنَعون، كما قال تعالى:

١) ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٣﴾﴾ [إبراهيم].

٢) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾﴾ [يونس].

٣) ﴿...مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [النحل].

النتيجة: ﴿فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾﴾:

أجل إن النتيجة المتوقعة الوحيدة لهاتين المقدمتين هي: الإستقرار في الجحيم، وفي الحقيقة الطغيان على الله، واحتضانُ الحياة الدنيا وتفضيلُها على الآخرة، ومن ثَمَّ بَتُّ الصلة والإرتباط بالله تعالى، وعدم التفكُّر في لقائه، يَجْعَل الحياةَ الدنيا نَفْسَها قبل جحيم الآخرة، جحيماً برأسه! ووالله

الذي لا ربَّ غيره، أنا أتعجَّب كثيراً كيف يقدِرُ الكفّارُ مقطوعوا الصلة بالله خالِقِهم وربِّهم، أن يعيشوا ويستمروا في حياتهم الشقيّة التعيسة! ولكن الغفلة والإنغماس في الشهوات وتزيينات الشيطان! ثم رغماً عن كل ذلك، منهم مَنْ يلجأون إلى الإنتحار وإزهاق أرواحهم بأنفسهم، ليتخلَّصوا من حياتهم الغريبة التعيسة!

القسم الثاني:

وهؤلاء يُعَرِّفهم الله تعالى بقوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات].

كما نرى تعريف الله العليم لهذا القسم من الناس، وهم الأَخيار المَحْظوظون، أيضاً يتكون من مقدّمتين ونتيجة تسْتلْزمانها، وهو:

الخوف من الله ومقامه العظيم + نهي النفس عن هواها = الإستقرار في الجنة

المقدمة الأولى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ...﴾.

أما الخوف والخشية من الله ومقامِهِ، فنتيجة حتمية للمعرفة الصحيحة بالله تعالى والإيمان به، وكيف لا يخافُ الله ولا يَرْهَبُه مَنْ يَعرفُ الله العلي العظيم من خلال أسمائه الحسنى وصفاته العُلى، وشؤونه المُثْلى، ومن خلال آياته الخَلْقيَّةِ المتجلّية على صفحات مظاهر مخلوقاته، وآياته الأَمْرية المتلئلئة على صفحات كتابه المبارك!!

وقد مَدَحَ الله عبادَه المؤمنين المتقين، وأَثْنَى عليهم في أكثر من آية، لكونهم يَخْشَوْن ربهم العظيم ويخافونه ويرهبونه، وهذه أمثلة من تلك الآيات:

١) ﴿... إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟...﴾ [فاطر].

٢) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون].

٣) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ۝٨﴾ [البينة].

٤) ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢٨﴾ [المائدة].

المقدمة الثانية: ﴿وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ. . .﴾.

وأما مَنعُ النفس عن أهوائها ورعوناتها ـ وهي المقدمة الثانية ـ فهي نتيجة لسابقتها، وذلك لأنَّ مَن آمَنَ بالله تعالى، عَظَّمه وأحبّه وخَشِيهُ، ومن أحَبَّ الله وخَشِيَهُ، أحبَّ لقاءَه وأحبَّ دار لقائِهِ، وبالنتيجة هانتْ عليه الدُّنيا وشَهواتُها، وكل مَن هانَ عليه شيءٌ وصَغُرَ في عينيه، أمكنه إمساكُ نفسِهِ عنه وإهمالُهُ! وإمساك النفس وضبط الغرائز والشهوات، شِيمَةٌ أساسية من شِيَم[1] أهل الإيمان والتقوى، وبخلافه: التسليم للنفس وأهوائها والخنوع والخضوع لِمُتطلَّباتها، خَصْلة أساسية في أهل الكفر والفجور، كما قال تعالى:

١) ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ۝٥﴾ [المؤمنون].

٢) ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ۝١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝١٣٤﴾ [آل عمران].

٣) ﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ. . .﴾ [الجاثية].

٤) ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ. . .﴾ [الروم].

النتيجة: ﴿فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ۝٤١﴾.

ثم النتيجة الوحيدة التي تنتظرُ كلَّ مَنْ خشيَ الله تعالى وضَبَط نَفْسَهُ

(١) الشّيمة: الخُلُق جمعها: شِيَم، المعجم الوسيط، ص٥٠٤.

عن الهوى، هي الإستقرار في جنة الله ونيل رضاه.

والمُلاحَظ أن الله تعالى جعل (إيثار الحياة الدنيا) ﴿وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝٣٨﴾ وصفاً لازِماً للكفار، ولكن بالنسبة لأهل الإيمان لم يَقُل: (ونهى النفس عن الدنيا)! بل قال: ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ والحكمة في ذلك:

أن الدنيا ليستْ مرفوضة بإطلاق، بل إيثارها وتفضيلها على الآخرة، هو الخطأ وهو المرفوض، لذا فالمشروط هو: (عدم اتبِّاع الهوى) فقط، وليس رفض الدنيا بالكلية.

هذا ويمكننا تعريف الهوى بالقول:

(الهوى هي المُشتَهيَاتُ النَفْسيَّة، ومطالبها التعسُّفية، التي حرّمها الشرع وتقتضي تَلْبِيَتُها تجاوزَ حدودِ الشَّرع)[1].

وعندما نقارن بين التعريفين المذكورين لِقسْمَي الناس: الأشرار والأخيار نصل إلى نتائج أخرى:

وذلك لأنَّ كُلاًّ من ﴿طَغَىٰ﴾ و﴿خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ من جانب، و﴿وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝٣٨﴾ و﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ من جانب آخر، وكذلك كل من: ﴿فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٣٩﴾ و﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٤١﴾ تتقابل بعضها مع بعضٍ، وهذا يعني:

أولاً: أنَّ (الطاغي) هو الذي لا يخاف مقام ربِّه، لِذا فمن خاف مقام ربه لا يطغى أبداً، ولهذا قال تعالى في (العلق): ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾ [العلق]، أي: عندما يرى الإنسان نفسَهُ مستغنياً عن الله (فرداً أو مجتمعاً) وتحت تأثير أي وهم من الأوهام التي يُفْرِخُهَا إبليسُ في أذهان الكفار بسبب المال والغِنى، أو القدرة العسكرية، أو العلم الظّاهري الجزئي الذي يكشف لهم بعض سنن الله في خلقه، أو غير ذلك من

(١) الهوى: مَيْلُ النفسِ وانحرافها نحو الشيء، ثم استعمل في مَيْلٍ مذموم، فيقال: اتَّبع هواه، وهو من أهل الأهواء، المصباح المنير، ص٣٣١.

الأسباب، فهو يطغى حِيال ربِّه العظيم وينسى نفسه! وهذا هو الواقع المشاهد في المجتمعات الكفرية الضالّة شرقاً وغرباً.

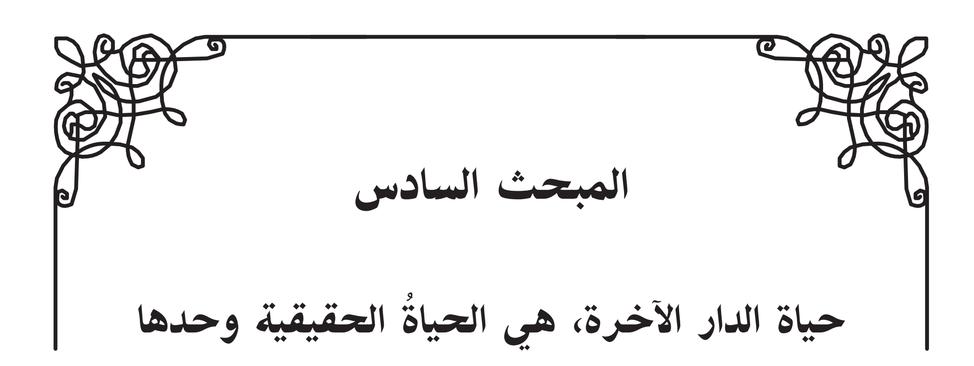
ثانياً: وَأنَّ (المُؤْثِرَ للحياة الدنيا) هو الذي (لا يَنْهَى نَفسَه عن الهوى) بلْ يُبيح لها ما تهواه، وقد قيل:

ومن أباح النفس ما تهواه   فإنَّما إلهُهُ هواه

ولكن على العكس منه (مَن نَهى نفسه عن الهوى) فإنه (لا يؤثر الحياة الدنيا) بل يتعامل معها كما أمر الله تعالى به، وهو اعتبارُها مدة ابتلاء ومرحَلَةً أولى من حياة أبدية، ووسيلةً يكتسب بها مرضاة الله تبارك وتعالى، ولهذا سماها الرسول الحكيم ﷺ (مَطِيَّةً) أي مركوباً ووسيلة سفر حيث قال: «**لا تسبُّوا الدنيا فإنها نعم مطيَّة المُؤمِن**»، رواه الديلمي عن ابن مسعود رضي الله عنه.

ثالثاً: وأن الجحيم هي مكان ومستقر كل (طاغ على الله) و(مُؤثِرٍ للحياة الدنيا) كما أن الجنّة هي مستقرُّ وَمَأوى كُلِّ (خائفٍ من مقام ربّه) و(ناهٍ نَفسَه عن الهوى) التي حَرَّمها شرعُ الله الحكيم جلَّ وعلا.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑



المبحث السادس

حياة الدار الآخرة، هي الحياةُ الحقيقية وحدها

قال الله تبارك وتعالى بهذا الصّدد:

١ ـ ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [العنكبوت].

٢ ـ ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْـَٔاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾﴾ [غافر].

٣ ـ ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌۖ وَلَلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنعام].

٤ ـ ﴿... يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾﴾ [التوبة].

٥ ـ ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾ [الأعلى].

٦ ـ ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾﴾ [آل عمران].

٧ ـ ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ [التوبة].

والآن لنتدبّر هذه الآيات المباركات التي ليست سِوَى أمْثِلةٍ في بابها، في كيفية دِلالَتها على كون الحياة الأخروية ـ أي الحياة الخالدة الهنيَّة في الجنّة ـ هي وحدها الحياة الحقيقية، في ميزان الله الحق العليم الخبير جلَّ وعلا:

١ ـ الآية (٦٤) من (العنكبوت):

يُبيِّن لنا ربُّ العالمين في هذه الآية أن الحياة الدنيا ـ من حيث متاعها وبالقياس إلى الآخرة ـ ليست سوى (لهو) و(لعب).

وهاتان الكلمتان وان كانتا متقاربتي المعنى، ولكن ـ كما يبدو لي ـ بينهما فرقان اثنان وهما:

أولاً: اللَّهو مُتَوَقِّفٌ على وسيلة يُتَلهَّى بها، ولكن اللَّعِبَ لا يتوقف على وسيلة ولُعْبةٍ غالِباً، فالركض والقفز مثلاً نوعان من اللعب، واللَّعِبُ بالكُرَةِ بأنواعها، نوعٌ من اللهو.

ثانياً: اللَّهو يُمارَسُ في مرحلة أكثر تَقدُماً في العمر من اللعب.

وإنما بيَّنت هذه الحقيقة كي ندرك سِرَّ وحكمة التقديم والتأخير لهاتين الكلمتين في كتاب الله الحكيم.

حيث يقدِّم الكتاب الحكيم كلمة اللَّعب على اللهو في المواضع الَّتي يراعي فيها الترتيب الزمني، مثل الآية (٢٠) من (الحديد) ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ...﴾ [الحديد]، والآية (٣٢) من (الأنعام) ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ...﴾ [الأنعام].

ولكن يُقَدَّم (اللهو) على (اللّعب) في المواضع التي يُراعى فيها الترتيب الرُّتْبيُّ، لمشاغل الدنيا التافهة على حساب الآخرة، ومن المعلوم أن (اللهو) من هذا الجانب مقَدَّم على اللَّعِب، لأنه أكثر إغراقاً في الإنشغال بالدنيا

والغفلة عن الآخرة، ومن يتأمل حال المُلْتَهين بأنواع اللهو، كاللّعب بالكرة والشّطْرَنج(١) وغيرها، يجدهم منغمسين في لهوهم وناسين لما حولهم!

ومن الآيات التي قدِّمت فيها كلمة اللهو على اللّعب، بالإضافة إلى الآية (٦٤) من (العنكبوت) والتي نحن بصدد شرحها، هي الآية (٥١) من (الأعراف) وهي في معْرِض الحوار بين أصناف الناس في الآخرة، من أهل الجنّة، وأهل الأعراف، وأهل النار، إذْ يقول تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٥٠ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ۝٥١﴾ [الأعراف]، ولا شكَّ أن اللهو أشد تأثيراً من اللَّعِب في تحصيل حَالةِ النِّسيان ثم الجحود! ثم يُعْلنُ الله تبارك وتعالى مؤكداً أن حياة دار الآخرة (الجنّة) هي وحدها الحياة الحقيقية التي تستحق إطلاق اسم الحياة عليها: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ﴾، والحياة الدنيا وان كانت نوعاً من الحياة والعيش، ولكنها بالقياس إلى الحياة السعيدة الرغيدة الهنيَّة الأبدية في الجنّة، كأنها ليست حياةً، ولا تستحق إطلاق اسم الحياة عليها إلّا تجوّزاً.

والملاحظ أن الله تعالى ربَطَ إدراك تلك الحقيقة ـ أي كون الحياة الأخروية في الجنّة هي الحياة الحقيقية فحسب ـ بالعلم، حيث قال في ختام الآية ﴿لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾، والظّاهر أن جواب (لو) ليس مَحذوفاً، كما قال بعض المفسرين، بل جوابُها متَضمِّن في الآية نفسها، ويكون معنى الجملة القرآنية هكذا:

وإن الحياة في الجنّة (الدار الآخرة) هي الحياة الحقيقية، ولو كان هؤلاء يملكون العلم، لأدركوا هذه الحقيقية وَلأَيْقَنوا بها.

وهذا يعني أن العلم الصحيح الذي لا تَشُوبُهُ شائِبَة الجهلِ، والظَّنِّ

(١) الشّطرنج: ج: شِطْرنجات: لُعبة مشهورة مُعَرَّب (شترنك) بالفارسية أي: ستة ألوان، وذلك لأن له ستة أصنافٍ من القِطَع التي يلعب بها فيه.. المنجد، ص٣٨٧.

والشك والتردُّد، يُثمِرُ اليَقِينَ والقَناعَةَ بالحق، ومن ثم اتخاذ الموقف الصحيح حِيالَه، وهذا هو السِّر في استعمال كلام الله المبارك، كلمات:

(الجهل، الشك، الظن، التردّد، عدم العلم، عدم الفقه) لأهل الكفر والشرك والنفاق، كثيراً، عندما يتحدث عن التعريف بهم، أو عن تعليل مواقفهم، وهذه أمثلة من تلك الآيات التي وردت فيها الكلمات المذكورة:

١) ﴿۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ [الأنعام].

٢) ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ﴿٥٤﴾﴾ [سبأ].

٣) ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [الأنعام].

٤) ﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [التوبة].

٥) ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [غافر].

٦) ﴿... يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ [المنافقون].

٧) ﴿... يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الأنفال].

٢ ـ الآية (٣٩) من (غافر):

وفي هذه الآية الكريمة يبين الله العليم على لسان الرجل المؤمن الكاتِم إيمَانَهُ من آل فرعون، وفي سياق ردِّه على تهديدات فرعون وَمَلَئِهِ وسَفسَطِتِهم وَتمْويهَاتِهم، مخاطباً قومَهُ (وهم قوم فرعون) بجرأة وصراحة ووضوح، أن هذه الحياة الدنيا ليست سوى تمتع مؤقت قصير الأجل، وان

الدار الآخرة هي محلّ الإستقرار (أي الحياة الخالدة السعيدة).

وإنما ركز الرجل المؤمن ﷺ، في ختام حواره مع قومه ـ والذي سنشرحه كلّه في الفصل الخامس من الباب الثاني بإذن الله ـ على مسألة كون الحياة الدنيا متاعاً مؤقتاً قصير الأمد، والآخرة محلّ استقرار وتأبيد، لأن الطواغيت إنما يستذلّون الشعوب ويَسْتعْبدونَهُمْ، بعد تَمكُّنهم من تفريغ قلوبهم من الإيمان بالله والتوكل عليه، ومن الإيمان باليوم الآخر والجنّة والحياة الهَنيّة السعيدة فيها، والتي هي عِوَضٌ ونِعْمَ العوض، عن كل ما يفوت الإنسان من تمتع وتلذُّذٍ في هذه الحياة الزهيدة القصيرة.

أجل، كلَّما تمكن الطواغيت أكثر من إفراغ قلوب الناس من الإيمان بالله واليوم الاخر أو تشكيكهم فيه، كلّما سَهُلَ عليهم أكثرَ فأكثر استعبادُهم وإِذلالُهم وإرضاخهم لأنيارهم (جمع نير) وتحميلهم إياهم أثْقالَهُم! وذلك لأن من يظن أن الحياة، أو الفرصة الوحيدة للحياة أمامه، هي هذه الحياة الدنيا، ثم لا يجدُ طريقاً لنيلها إلَّا بِبَيْعِ نفسه للطاغوت، مقابل تمتيعه إياه فيها، فقد يهون عليه دفع ذلك الثمن الباهظ، بعد أن هانت عليه نَفْسُهُ ورَخُصَ عنده وجودُهُ من جرّاءِ الكفر، ويحْضُرني بهذه المناسبة هذا البيت من الشعر الفارسي، لأحد الشعراء، إذْ يقول:

آدم أز بي بصرى بردگي آدم كَرْد
گوهري داشت ولى نذر قبادوجم كَرْد،
يعني زخوى غلامي أز سگان پست تر أست
مَنْ نَديدَمْ كه سگى پيش سگي سَرْخَمْ كَرْد

ومعناه:

إن عدم امتلاك البصيرة هو الذي يؤدِّي بالإنسان إلى أنْ يُصْبحَ عَبْداً لإنسان مثله، كان يملك لؤلؤة ثمينة، ولكن وهَبَها لِـ(قُباد) و(جَمْ)[1]، أي

(١) (قباد) و(جم) اسمان من اسماء ملوك ايران القدماء.

انه تَسَفَلَّ إلى أن جاوز حتى الكلاب في الخنوع، لأنني لم أرَ كلْبا أَنْزَلَ رأسه أمام كلبٍ آخر!

وعليه:

فقد قصد الرجل المؤمن بتذكير قومه حقيقة الحياة الدنيا المتمثِّلة في كلمة (متاع)، وحقيقة حياة الآخرة المتمثلة في كونها محل مقام أَبَديٍّ واستقرار سَرْمَدي، إنتشال قومه من هوَّةِ العبودية والذل لفرعون ومَلَئه، بسبب تشبُّثهم بالحياة الدنيا، أياً كان نوعها وبأي ثمن كان، وذلك لأن من عَرَف الله بحق وآمن به صِدقاً، صَغُرَ في عينيه سواه، ومن أيقَنَ بلقاء الله وجزائه في مستقر رحمته، هان عليه بذْلُ دنياه، في سبيل دينه ونيل رضوان ربِّه والحَظوة بجنَّته.

وما أحكم الصحابي (رِبْعي بنُ عامِر) ﷺ في قولته المشهورة جواباً على قومٌ (رستم) قائد الجيش الفارسي: (ما الذي جاءَ بكم؟!) حيث قال: (نحن قومٌ ابتعثنا الله لِنُخْرِجَ من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن جور الأديان إلى عدْل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سَعَةِ الدنيا والآخرة)[1]، لأنه حقاً لا يستعبِدُهُ ضِيقُ الدنيا ولا يَستذِلُّهُ، مَن آمن بِسَعةِ الآخرة.

٣ ـ الآية (٣٢) من (الأنعام):

وفي هذه الآية وبعد أن يَحْصُرَ الله الحياة الدنيا في اللّعب واللهو ـ والمقصود هو ناحيتها المادية كما قلنا مِراراً ـ يؤكدِّ سبحانه أن الدار الآخرة (أي الجنّة) خيرٌ من الدنيا الزائلة الغانية، لأهل التقوى، وأفضل وأحسن بدرجاتٍ لا يعلمها الا الله تعالى: ﴿وَلَدَارُ ٱلْأَخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؟! ويَخُصُّ الله تعالى الدار الآخرة بالمتقين، لأنَّها هي لهم وحدهم، ولا حظَّ فيها لِسواهم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ

(١) كما جاء في (تاريخ الأمم والملوك) للطبري ج٢ ص١٠٦، ١٠٧، و(البداية والنهاية) لابن كثير ج٧ ص٤٩، ٥٠، و(الكامل في التاريخ) لابن الأثير، ج٢ ص٤٦٣، ٤٦٤.

لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأعراف].

نعم إن الله تعالى إنما أشْرَك في متاع الحياة الدنيا كلَّ الناس، سواءً كانوا أولياءَ متَّقين، أو أعداءً مجرمين، لأن الدنيا دار ابتلاء، فكان لا بُدَّ من إشراك الكل، ولكن الآخرة دار جزاءٍ، والكُلُّ يستقر في المحلِّ الذي يستحقه ويليق به.

ويقول تعالى في ختام الآية ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؟! وهذا يعني أنَّ مَن عنده مُسْكةٌ من عقل وشعور، يعلم الفرق الكبير، والبون البعيد، بين الحياة الدنيا الشبيهة بلعب الأطفال ولهوهم، وبين الحياة السعيدة الأبدية في الجنّة، إذِ الحياة الدنيا مع قِصَرها وَسُرعة ذهابها، مملوءةٌ بالمنغِّصات والمِحَن، ولكن الجنّة خالية من أي شائبة تنغيص، بل حتى من لغو القول، كما قال تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾﴾ [الواقعة].

٤ ـ الآية (٣٨) من (التوبة):

وفي هذه الآية يُوَبِّخ الله العزيز الحكيمُ بَعْضَ أهل الإيمان ـ أو أهل الإسلام ـ المتثاقلين في القيام بالجهاد في سبيل الله، ويقول لهم موبِّخاً ومستنكِراً: ﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِۚ﴾؟! أي: أَقَنعتُم بهذه الحياة مفضِّلا إياها على الآخرة، أَو أَرَضِيتُمْ بهذه الحياة الدنيوية بديلاً عن الآخرة؟!

ثم يبيِّن لهم أن التمتع الدنيوي مقارنةً بالنعيم المقيم في الآخرة، ليس سوى شيء يسير.

والآية المباركة تفيدُنا حقيقتين عظيمتين جديرتين بالتأمّل الطويل العميق:

الأولى: هي أن القعود عن الجهاد واللُّصُوقَ بالأرض في الوقت الذي يُفْرَضُ الجهاد والقتال في سبيل الله على المسلمين ـ أي تستلزمُهُ أسبابه وموجِباتُهُ الشرعية ـ، يعتبر جريمةً كبرى، تؤدِّي بصاحبها إلى غضب الله

وعذابه وعقابه في الدنيا والآخرة، حيث يقول تعالى: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا. . .﴾ [التوبة].

وكذلك يعتبر ـ القعود عن الجهاد في حينه ـ دليلاً على الرضا بالحياة الدنيا واختيارها بديلاً عن الآخرة.

الثانية: هي أن القيام بالجهاد في سبيل الله عندما يَجِدُّ الجِدُّ، ولا يكون لأهل الإسلام بديلٌ عنه، هو الطريق الموصلُ إلى حياة الآخرة، والوسيلة التي تَتَحقَّقُ بها تلك الغاية العظمى، وقوله تعالى: ﴿. . .مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [التوبة]؟! يدلّ بوضوح على ما قلنا، إذْ يقول تعالى للمتثاقلين عن القيام بالجهاد، بأن موقفكم هذا برهان على عدم رغبتكم في الآخرة والجنّة الموعودة، بدليل عدم سعيكم لنيلها من خلال القيام بالقتال في سبيل الله تعالى.

ولهذا وصف الله الحكيم نَبيَّه الخاتم ﷺ وأصحابه ـ في سياق آياتٍ، كُلُّها تتحدَّث عن المنافقين والأعراب وضعاف الإيمان المتخلِّفين عن الجهاد، بقوله: ﴿لَـٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾﴾ [التوبة].

هذا وهناك حقيقة (ثالثة) أخرى، تصَرِّحُ بها الآية (٣٩) من (التوبة) إذ يقول تعالى: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [التوبة].

وتلك الحقيقة هي: أن المسلمين متى فُرِضَ عليهم القتالُ في سبيل الله بسبب توفُّرِ موجباتِهِ ـ والتي سَنُبيِّنُها في المطلب العاشر المخَصَّص للبحث عن الجهاد في سبيل الله، في المبحث الثاني في الفصل الثالث من الباب الثالث ـ ثم تكاسلوا وتثاقلوا عن القيام به، يستحقون التقاعُدَ عن الحياة، وتنطبق عليهم سنة الله القاضية، بإزالة وإزاحة الضعفاء الجبناء المنتمين إلى دين الله الحق، كي لا يُشَوِّهوه أمام أنظار الناس، وإبدالِ غيرهم بهم، مِمَّن

ليسوا على شاكلتهم، بل يستحقون الإنتساب إلى دين الله عن جدارة!

وقد ذكر المولى جَلَّ شأنه هذه الحقيقة في آخر سورة (محمد) حيث قال، مُخاطِباً وَمُوعِداً أهل الإسلام الممسكين عن الإنفاق في سبيل الله، والمتباطئين عن القيام بالجهاد: ﴿. . . هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تُدۡعَوۡنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبۡخَلُۖ وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦۚ وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُۚ وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾.

والمتأمِّل في تاريخ المسلمين والأمة الأسلامية يَجِدُ مِصْداقَ تلك السّنَّة الربانية الحكيمة بوضوح، سواء على مستوى الأمة كلها، يوم أن كان للأمة وجود حقيقي، أو على مستوى كل شعْب من الشعوب التي تتكوَّن منها الأمة، كالشعب العربي ـ في مقدمة الشعوب الإسلامية كلها ـ والشعب التركي والشعب الكردي والشعب الفارسي والهندي والأفغاني. . . إلخ.

إذْ نرى أن كلاً من هذه الشعوب حين يكون جادّاً في إيمانه وإسلامهِ، والقيام بالدفاع عن دين الله الحق ومُقَدَّساته وشعائره، والدفاع عن حرمات المسلمين، ثم السعي لإيصال دعوة دين الله إلى الشعوب والأمُم الأُخرى، يُبَوِّؤُهُ الله منزلة قيادة الأمة الإسلامية وريادتها، ويستمر على هذا المنوال إلى أن يُغيِّر ما بنفسه سلبياً، من الإيمان والتقوى والإلتزام والطاعة، والإفتخار والإعتزاز فقط وفقط بالإسلام، والجهاد في سبيل الله، إلى الإنحراف والفسق والعصيان والميوعة والإنغماس في الشهوات، وتهميش الولاء للإسلام، والتفاخر بالأحسابِ وَالأنساب والتعصّب القومي والقبلي، وترك الجهاد في سبيل الله. . . ومن جَراءِ ذلك يُعَرّضُ نفسه لسنة الله الحكيمة الآنف الذكر، فُيزاحُ عن مكانه الذي لم يَعُدْ يَسْتَحِقُّهُ، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنفال].

أجل ان الله تعالى عليمٌ حكيمٌ وخبيرٌ بصيرٌ، فلا يَهَبُ نعمة القيام بخدمة دينهِ والجهاد في سبيله إلَّا لمن يستحقها ويَصْلُح لها، ومتى فَقَد الذي أُعْطِيَها، الجدارةَ والصلاحيةَ لها، سُلِبَتْ منه، وأُعطيت لغيره، مِمَّن يَسْتحِقُّها ويعرف قدْرَهَا!

وهاهنا أودُّ التذكير بمسألة مُهمَّة، والتأكيد عليها، وهي:

أنّ بين الإيمان بلقاءِ الله وابتغاء فضله ورضوانه، واعتبار الحياة الدنيا مرحلة ابتلاء، وبين القيام بالجهاد في سبيل الله تعالى وبَذلِ النفس والنفيس لرفع راية دينه، صِلَةً وثيقةً جداً، وكذلك بين ضُعفِ الإيمان واليقين بالآخرة، ومن ثمَّ احْتضان الحياة الدنيا وجعلها أكبر الهموم، وبين النكوص عن الجهاد والقعود عنه بشتى الذرائع، علاقَةً وطيدةً.

وهذا هو السبب في كون جيل الصحابة الكرام رضوان الله عليهم أكثر أجيال الأمة الإسلامية جهاداً في سبيل الله، وأكثرهم جوداً بالمال والنفس واستهانة بالموت في سبيل الله، وأشدِّها جرأة على الأعداء، ونتيجة لذلك أكثرها هيبة ورهبة في قلوبهم، وكيف لا يُهابُ من لا يَهابُ الموت والقَتْلَ في سبيل الله، بل يعتبره شهادة وإحدى الحسنيين، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ...﴾ [التوبة]؟! والحُسْنى مؤنث (الأحسن) وهي صفة لموصوف محذوف، يدل عليه السياق، والمقصود بالحُسْنَيين هو: النصر والشهادة.

وكذلك هذا هو السَّبب في تعليل رسول الله ﷺ سيطرة الأمم الكافرة وغَلَبَتِهَا في بعض مراحل التاريخ، على الأمة الإسلامية، بالـ(وَهْن) الذي فسَّره بـ(حب الدنيا وكراهية القتال) أو (كراهية الموت)، كما جاء في هذا الحديث: عَنْ ثَوْبَانَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**يُوشِكُ الأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا**»، فَقَالَ قَائِلٌ: وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟َ! قَالَ: «**بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ وَلَيَنْزِعَنَّ الله مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ، وَلَيَقْذِفَنَّ الله فِى قُلُوبِكُمُ الْوَهَنَ**»، فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ الله! وَمَا الْوَهَنُ؟ قَالَ: «**حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ**» (رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ برقم: (٤٢٩٧)، وَحَسَّنَهُ ابْن بَاز في مجموع فتاوى ابن باز: (١٠٦/٥)، وَصَحَّحَهُ الأَلْباني في (صحيح الجامع): (٨١٨٣))، ولهذا: فإذا ما أُريد إصلاح الأمة الإسلامية ككل، وإصلاح أي مجتمع من مجتمعاتها خصوصاً، لا بُدَّ من أن تكون الخطوةُ الأولى في طريق الإصلاح والتغيير، هي تجديدَ

وترسيخَ الإيمانِ والصِّلةِ بالله تبارك وتعالى وتَجريدَ العبودية والطاعة له، من خلال الفهم الصحيح لكتابه الحكيم وسنة نبيه الكريم ﷺ والإتِّباع الجِدِّي السَّليم لهما، كما ربَّى رسولُ الله ﷺ الجيلَ الأول الأساس والمبارك جيل الصحابة (رضوان الله عليهم)، الجيل الممتاز الفريد الذي سَيَظَلُّ نِبْراسَ الأمة الإسلامية في كل عصورها، كلّما أرادت أن تَتَمَثَّل الإسلام إيماناً وعبادةً وخُلُقاً وآداباً وسياسة وحكماً. . . كما أراده الله تبارك وتعالى، ولقد أحسن من قال: (لن يصلح آخر هذه الأمة إلَّا بما صَلَح به أولها).

٥ ـ الآيتان (١٦، ١٧) من (الأعلى):

وفي هاتين الآيتيْن يخاطب الله سبحانه وتعالى الكفار ـ بدلالة السياق وظاهر الآيات ـ مُوَبِّخاً إياهم على تَفضيلهم الحياة الدنيا على الآخرة، مع أن الآخرة (أي الجنّة) خيرٌ في ذاتها من الحياة الدنيا وأدوم! ومن الواضح أن (خيْريَّة) الجنّة و(أدوَمِيَّتها) بالنسبة للحياة الدنيا ومتاعه، لا يعلم مقدارَهُما ومداهُما إلا الله تعالى، وكيف يا تُرى تكون خيرية جنةٍ خلقها الكريم خِصّيصاً لأوليائه وعباده الذين يحبهم ويكرمهم، والتي وصفها الله تعالى بقوله: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾﴾ [الزخرف].

ووصفها رَسولُهُ ﷺ بقوله: «**فيها مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ**» (رَوَاهُ أَحْمَد برقم: (٨١٢٨)، وَالبُخَارِيُّ برقم: (٣٠٧٢)، وَمُسْلِمٌ برقم: (٢٨٢٥)، وَالتِّرمِذِيُّ برقم: (٣١٩٧) عَن أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ)، وكذلك كيف تكون يا ترى أَدومية جنة لا نِهاية لها ولا أجل تنتهي إليه، بل هي كالأعداد التي تبدأ بعدد واحد (١) ثم تتسلسل إلى ما لا نهاية له!.

٦ ـ الآيتان (١٤ ـ ١٥) من آل عمران:

وفي هاتين الآيتيْن المباركتين يعلن الله الحكيم أولاً أن حب الشهوات

المادية الجسمانية والتعلق بها قد زُيِّن للناس، ثم يُعدِّد الله تعالى تلك المشتهيات المزينة للناس في ستة أشياء، لا تدع شيئاً من ملذات الدنيا ومتاعها إلَّا واشتملت عليها، وهي:

١ ـ النساء.

٢ ـ البنون.

٣ ـ القناطير المقنطرة من الذهب والفضة.

٤ ـ الخيل المسومة.

٥ ـ الأنعام (المواشي)، وهي الإِبل والبقر والغَنَمُ والمَعِزْ.

٦ ـ الحرث (الزَّرع).

وقد رتب الله العليم الخبير هذه الأشياء الستة ـ كما أرى ـ حسب درجة تأثيرها في قلوب الناس ومشاعرهم، وحسب انجذابهم إليها وتَعَلُّقِهم بها، وهذا واضح، إذ النساء للرجال ـ وكذلك الرجال للنساء ـ هن أكبر المشتهيات تَبَعاً لقوة الغريزة الجِنْسية في الجِنْسين، والتي جعلها الله أقوى الغرائز، كي يستمرَّ النسل البشري بحكم قوة دفع هذه الغريزة، الناس ذكوراً وإناثاً، للتزاوج والتناسل.

ثم يأْتي الأولَاد بالدرجة الثانية، وأُفِرْدَ البنون هنا بالذكر دون البنات، لأن الله تعالى هنا إنما يتحدث عن مشاعر الناس ويُبَيِّن مكنونات قلوبهم، وليس الكلام مُنْصَبّاً على تقرير الأحكام حتى يَقْرِنَ ـ كما هو في المواضع الأخرى ـ بين الذكور والإناث، أو يستعمل لفظاً يشملهما مثل (الأولَاد)، وواقع الناس ـ أو على الأقل أغلبيتهم المطلقة ـ هو أَنهم يعتبرون الأبناء نعمة وقوة وسنداً لهم وامتداداً لنسلهم، دون البنات!.

وفي الدرجة الثالثة تأتي الأموال النقدية، والتي أحلَّت في هذا العصر محل الذهب والفضة (أو الدينار والدرهم)، وإنْ كانا أيضاً باقيين كمعدنين نفيسين.

ثم تأتي نوبة الخيل المسومة، أي الخيل التي يُحْتفَظُ بها للركوب والزينة وشتى الأغراض الأخرى، وفي هذا العصر وإن حلت السيارات بِمُخْتَلفِ أنواعها عند أكثر الشعوب محل الخيول، ولكن بقيت الخيول أيضاً ثمينة ومرغوباً فيها، وتَلْعَبُ أدواراً ليس بوسع السيارات أن تلعبها.

ثم في الدرجة الخامسة تأتي الأنعام، وهي الحيوانات الأليفة الأربعة: الإبل والبقر والغنم والمعز، وهي لها دور ثابت في حياة البشر قديماً وحديثاً، بل تصعب حياةُ البشر جداً بدونها، أن لم تكن مُستحيلة.

وفي الدرجة السادسة والأخيرة يأتي الزرع الذي يعتبر بُنْيَةً أساسية لحياة البشر، ويُعَقِّب الله تعالى على ذكر هذه الأشياء التي تجمع نعيم الحياة الدنيا بحذافيرها بقوله: (ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب) أي: أن كل هذه الأشياء ليست سوى ملذات قليلة ومؤقتة، ولكن الله تعالى عنده أحسن عاقبة ومصير لمن أطاعه، وهذا ما سَيُبِّينُه في الآية التالية ـ الآية (١٥) ـ والتي يستهِلُّها رب العالمين بهذه الجملة: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ﴾؟! والخطاب موجه للنبيّ الخاتم (عليه صلوات الله وسلامه وبركاته)، والقصد من هذا الخطاب ـ والله هو العليم الحكيم ـ هو كَبْحُ جماح الناس في التوجه نحو الدنيا ومشتهياتها، وعدم الإسراف في تناولهم إياها، والذي يكون قطعاً على حساب آخرتهم بل ودنياهم أيضاً، من حيث أرواحُهم وأجسادُهم، فَيُلْفِتُ ربُّ العالمين أنظارَهم إلى نعيم الآخرة، وما أعده لهم في مستقر رحمته، كي يكون لهم عوناً على عدم الإنغماس في الدنيا وشهواتها، والإكتفاء منها بقدر الحاجة والضرورة التي لا بد منها للعيش الكريم النظيف المستقيم، والمنسجم مع الوظيفة التي كلفَّهم الله بها في هذه الحياة، وهي الإمتحان والإختبار، ونيل الفوز فيه بتحقيق العبودية لله، وأداءِ حُسْن العمل.

ثم يوضح سبحانه ما أعدَّه لعباده المؤمنين المتقين في دار العقبى، بقوله: ﴿۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾﴾ [آل عمران].

ونتناول التعليق على هذا القول المبارك، في البنود السَّبعة الآتية:

أولاً: ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ﴾، إذن: ثوابُ الله الأخروي المتمثل في الدار الآخرة ليس كمتاع الحياة الدنيا القليل الذي جعله الله الحكيم مُشاعاً بين الجميع، بل هو مُخْتَصٌّ بأهل التقوى، واختيرت كلمة التقوى هنا للتعريف بالمحظوظين بثواب الله الأخروي، لأنه من لم يضبط نفسه بضوابط الشرع ولم يُشمّر عن ساعِدِ الجِدِّ لامتثال أوامر الله واجتناب نواهيه اللَّذَيْن يشكلان ركني التقوى، لا يتمكن من الإكتفاء من متاع الدنيا وشهواتها المزيَّنة، بالبُلْغَة وتجنُّب الإسراف، والخوض فيما تهواه النَّفْسُ، وتُلِحُّ عليه باستمرار!

ثانياً: ﴿عِندَ رَبِّهِمۡ﴾، أي: بالقرب منه وبجواره، كما يليق به سبحانه وتعالى، وهذا كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَهَرٖ ﴿٥٤﴾ فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۭ ﴿٥٥﴾﴾ [القمر]، وكذلك كما قال تعالى على لسان امرأةَ فرعون المؤمنة الصالحة رضي الله عنها: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ إِذۡ قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾﴾ [التحريم]، فهي قدَّمت ذكر جوار ربّها، والقرب منه، على ذكر المسكن والبيت، لأن لذة الجنّة والسكون فيها تكمن في كونها في جوار رب العالمين، كما يليق بوجهه الكريم جلّ وعلاّ.

ثالثاً: ﴿جَنَّٰتٖ﴾ أي لكل واحد منهم جنّة تخصه دون غيره، أو أكثر كما قال تعالى: ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرحمٰن].

رابعاً: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ وهذه هي الصفة الثابتة اللازمة لجنات الخُلْد، كما ذكرنا من قبل.

خامساً: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ وحب الخلود والبقاء مُتَأَصِّل ومُتَجذِّر في الفطرة البشرية بشكل عجيب، ولهذا قلَّما ذكر الله دخول أهل الجنَّةِ الجَنَّةَ، إلَّا وأَرْدَفَهُ بذكر الخلود أو الخلود الأبدي، وقد ذكرنا من قبل أنَّ عدوَّنا اللدود (إبليس) إنما ظفر بأبوينا الكريمين (آدم وزوجه عليهما السلام) وأدخل الوسوسة في قلوبهما، من خلال نافِذَةِ هذه النزعة الفطرية العميقة الجذور، كما قال تعالى: ﴿فَوَسۡوَسَ إِلَيۡهِ ٱلشَّيۡطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا

يَبۡلَىٰ ﴿١٢٠﴾﴾ [طه]، والله سبحانه وتعالى حكيم لم يخلق شيئاً إلا لحكمة، ومن ذلك النَّزعات الفطرية التي أودعها البشر، فلم يُودِعْ جل شأنه الفطرة البشرية نزعةً وغريزةً، إلا وهيَّأ لها أسباب إشباعها والإستجابة لها، فمثلاً:

البشر يظمؤون ويميلون إلى شرب الماء، وخلق الله الماء لإروائهم. ويجوعون ويشتهون الأكل والغذاء، وخلق الله أنواع الأغذية لإشباعهم.

وتتحرك فيهم الغريزة الجنسيّة روحياً وجسدياً، وجعل الله كلاّ من الذكر والأنثى سكناً وسِتْراً للآخر... وهكذا سائر النوازع والغرائز التي يطول ذكرها، ولكن الله تعالى أودع نزعة حب البقاء وعدم الفَناء في الفطرة البشرية، بدون أن يتمكَّن الإنسانُ من تحقيق هذه الرغبة العميقة والإستجابة لندائها في هذه الحياة، وذلك لأن هذه الحياة ليست سوى مرحلة اختبار، ولا تَتَسعُ لِتَحقْيق رغبات الإنسان الفطرية كلها، ولكن هناك حياة أخرى تبدأ بعد اجتياز الإنسان هذه المرحلة الإبتلائية بنجاح، وهناك تتحقق رغبات الإنسان وأُمنياته كلها، وبوسعها أن تُشْبعَ كل النوازع الفطرية، ومن ضمنها نزعة الخلود الجامحة.

سادساً: ﴿وَأَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ﴾ والمقصود بالأزواج هنا هو (الزوجات) فقط، وان كان كتاب الله يستعمل كلمة (الزوج) أو (الأزواج) للرجال والنساء، ولا يستعمل كلمة (زوجة) أو (زوجات) كما هو متداول الآن، وجعلت كلمة الزوج مختصة بالرجل دون المرأة، وهذا من عمل العرف اللّغوي ولا علاقة له بأصل اللغة، ولكن السياق وكلمة (مطهرة) التي جعلت وصفاً للأزواج، يُحدِّدان المقصود بكلمة الأزواج، وأنه هو النساء لا غير.

والمقصود بالأزواج المطهرة أي النساء اللاتي طهرهن الله من كل ما يُشينُ النساء في الدنيا، سواء كان حِسِّياً وخَلْقِياً كالحيض وغيره، أو معنوياً وخُلُقياً كسوءِ عِشْرَةٍ، وعبُوسُ وجهٍ، وسَلاَطةِ لسان، وتبرُّمٍ، وغير ذلك من منغصات الحياة الزوجية من طرف المرأة.

والحكمة من الإكتفاء بوصف الزوجات للرجال دون وصف الأزواج للنساء ههنا، وفي مواضع أخرى، هي ـ والله هو العليم الحكيم ـ أن من

فطرة الرجل من الناحية الجنسية أن يكون طالِباً وراغباً ومُقْدِماً ولا يَعِيبُه هذا، كما هو معهود في كل المجتمعات البشرية، اذْ الرجال هم الذين يَخْطِبون النساء ويَطْلبُون أيدِيَهُنَّ مِنْ أهلِهنَّ[١].

ولا شك أن حالة استثنائية كحالة (خديجة) أم المؤمنين رضي الله عنها إذْ طَلَبَتْ يَدَ رسولِ الله (محمد بن عبد الله) قبل النبوة، لا يقاس عليها والقاعدة لا تنتقض بالإستثناءات، ثم ليست كل النساء مثلُ خديجة في متانة خُلقُها ورَزانَتِها ورجاحَةِ عَقْلِها، التي يَدُلُّ عليها حُسْنُ اختيارِها، إذ اختارت أفضل البَشَر! وكذلك ليس كل الرجال ـ بل ولا أحَدَ منهم ـ مثل (محمد بن عبد الله) النبيِّ الخاتم ﷺ في أن يستحق منافسة النساء الشريفات فيه، وحرصهن على الزواج منه، وإنْ كان بمبادرةٍ منهن!

وأمّا ما هو رائج الآن في المجتمعات الغربية ـ أو بعضها ـ مِنْ بَحْثِ النساء عن الرجال، عكس ما هو مفطور في الفطرة البشرية السويَّة، فهي حالة مَرَضيَّةٌ وشاذة، مثلها مثل باقي أمراضهم وشذوذاتهم التي تزداد باستمرار، وجلي أن تلك الظّاهرة الغريبة المخالفة للفطرة تُحْسَبُ على النساء ولا تحسب لهن، والدليل عليه هو مدى شقاء النساء الغَرْبِيّات الباحثات عن الرجال وتعاسَتِهِنَّ!

سابعاً: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾، ورضوان الله تبارك وتعالى قِمَّة اُلنِّعَم، وقد رتَّب الله تعالى ـ كما يبدو لي ـ نِعَمَ الجنّة في هذه الآية، ترتيباً متُدَرِّجاً من الأدْنى إلى الأعلى، ومعلوم أن أعلى النِّعم وأعظَمَها وأجَلَها هي رضوان الله العظيم، لذا جعله الله في أعلى سُلَّم نعيم الجنّة.

وختم الله تعالى الآية الكريمة بقوله: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾، ومِنْ بَصَره

---

(١) ومن الواضح أن عرض الرجل المؤمن العدل بنته أو أخته على الرجل الصالح الذي يَثِقُ بدينه وخُلُقه، موضوع آخر خارج نطاق هذا البحث، كما عرض عمر بن الخطاب رضي الله عنه بنته (حفصة) رضي الله عنها، على كل من (أبي بكر الصديق) و(عثمان بن عفان) رضي الله عنهما قبل أن يخطبها منه سيد الخلق ﷺ، اذْ أصبحت فيما بعد إحدى زوجات النبي، أمهات المؤمنين (رضي الله عنهن)، كما جاءَ في صحيح البخاري: ٥١٢٢، باب عرض الإنسان ابنته أو أخته على أهل الخير.

سبحانه بعباده وفطرتهم التي فطرهم عليها، ونوازعهم وأشواقهم وتطلُّعاتهم، أنه خلق لهم كل ما يحتاجونه في حياتهم الدنيوية من المستلزمات، ثم أباح لهم التناولَ منها، وحَذَّرهم من الإسراف وتخطيِّ الحدود، وكذلك خلق لهم وأعدَّ لهم كلَّ ما تتطلّبهُ فِطرَهُم، وتُشْبِعُ نوازِعَهم وأشْواقَهُمْ وتطلعاتهم الجَسَدية والروحية، من جنّة النعيم.

وأختم التعليق على هاتين الآيتيْن بالإشارة إلى مسألتين:

الأولى: إستعمل كتاب الله الحكيم صيغة الفعل المجهول فاعلُهُ، في فعل ﴿زُيِّنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾، ومن الواضح أنَّ المُزَيِّن هو الله الحكيم الذي جَبَل عبادَهُ على حُبّ الأشياء المذكورة والتعلّق بها، كي تستمرّ الحياة أولاً، وثانياً ابتلاءً منه للناس بها، ولعلّ حكمة استعمال صيغة فعل مجهول الفاعل، هي: أنّ المقام مقام التقليل من شأن الحياة الدنيا والتزهيد فيها من جانبها المادي، لِذا لَمْ يَكُنْ من المناسِب أنْ يذكر فاعِلُ التزيين جلّ شأنه.

الثانية: يُعْلِنُ سبحانه وتعالى بِصَراحةٍ ووُضوحٍ، أن الناس بدون استثناء فُطِروا على حُبِّ تلك الشهوات والملذات الست، وهذا دليل على أن شريعة الله تُقِرُّ بكلٍّ وضوح بِكُلِّ متطلَّبات الفطرة ومُشْبِعات غَرائِزهم، ولا تَأمُرُهُم، كما يظن بعض الجهلة المقلدين للكفرة الحاقدين على الإسلام، بِكَبْتِ غرائزهم، بل لا تَسْمَحُ بذلك أصلاً، كما بينّاه في المبحث الرابع، لكن الشريعة الربانية الخاتمة الحكيمة، مِثْلُها مِثْلُ سائر شرائع الله تعالى، تأمر بضَبْط الغرائز وإشباعها بدون إسراف، وفي الحدود التي رسَمَتْها، والتي حَسَبَت حساب كلّ من الروح والجسد، والحاضر والمستقبل، والفرد والأسرة والمجتمع، والدنيا والآخرة، حسب موازنات دقيقة حكيمة، لا يمكن أن توجد في غير دين الله الحق وشريعته الحكيمة العادلة.

١ ـ الآية (٧٢) من (التوبة):

وفي هذه الآية المباركة يصف الله تعالى ثوابَه المُتَمثِّل في الجنّة، والذي وعد به المؤمنين والمؤمنات، بالأوصاف الخمسة الآتية:

أولاً: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ﴾، أي: إنَّ ثواب الله وحُسن جزائه لأهل الإيمان، وعدٌ قد قَطَعَهُ الله الكريم على نفسه!

وكلمة ﴿جَنَّٰتٍ﴾ هنا يقصد بها جنّة الله الخالدة عموماً، والتي هي خاصة بأهل الإيمان وحدهم، ولا حَظَّ فيها لغيرهم أبداً.

ثانياً: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ وهذا أيضاً وصفٌ للجنة عامة، وقلَّما ذكر الله تعالى الجنّة إلّا وذكر معها الأنهار الجارية، لأن الماء هو أصل النبات ومادته الأساسية، بل هي مادة الحياة عامة، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنبياء].

ثالثاً: ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً﴾ وهي قصور الجنّة العوالي المُزَيَّنةِ المُطيَّبة، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾﴾ [الزمر].

إذْ (المساكِن) جمع (مسكن) وهو البيت أو القصر الذي يُتَّخذ للسُّكنى[1]، و(طيِّبة) جمع طيِّب، وصف للمساكن، وكلمة (الطيّب) تفيد معنى الحسن والجيد واللذيذ والنافع، وقد وصف الله بالطيّب كل جيد من الأشياء والأماكن وكل نافع ومفيد من الأقوال والأفعال، وكل مَرْضيّ مقبولٍ عنده من العباد، وهذه آيات كأمثلة لكل ذلك:

١) ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ...﴾ [الأعراف: ١٥٧].

٢) ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ...﴾ [المائدة: ٤].

٣) ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأعراف].

٤) ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ [إبراهيم: ٢٤].

٥) ﴿... إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ...﴾ [فاطر: ١٠].

(١) المعجم الوسيط، ص٤٤٠.

٦) ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ. . .﴾ [الحج: ٢٤].

٧) ﴿. . . وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ. . .﴾ [النور: ٢٦].

٨) ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الزمر].

٩) ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ ﴿٢٩﴾﴾ [الرعد].

رابعاً: ﴿فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ﴾ أي: أن القصور (المساكن الطيِّبة) تتوسَّط جناتٍ دائمة الخضرة والثمار، لأن كلمة (عَدْن) تفيد معنى الإقامة والبقاء في مكان، يقال: (عَدَن في مكان)، إذا لازَمهُ ولم يَبْرَحْهُ[1].

وكلمة (جنات) هنا كما يدل عليه السياق، يُقصد بها الجنّات والبساتين التي يُملِّكها الله كلَّ مؤمنٍ على حِدَة.

خامساً: ﴿وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ﴾ أي: ولهم فوق كل ما مَّر ذكره (رضوان الله تعالى) ووصف الله تعالى رضوانَه بأنه: ﴿أَكۡبَرُ﴾ أي هو أكبر وأجلّ وأعظم وأهَمُّ من كل ما في الجنّة، من صنوف النَّعيم، ولا شك أنه لا شيءَ ألَذَّ وأطيب على قلب العبد المؤمن من شعوره، بأن الله تعالى يعفو عنه ويغفر له ويرحمه، ولهذا جَعَلَ الله تعالى طلب هذه الأشياء، دعاءَ عباده في ختام سورة البقرة: ﴿. . . لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾ [البقرة]، فكيف عندما يشعر المرءُ بأن الله تعالى راضٍ عنه!، ثم كيف إذا دخل في محلِّ رضوان الله ولمسه وعايَنَهُ في جنة النعيم!!

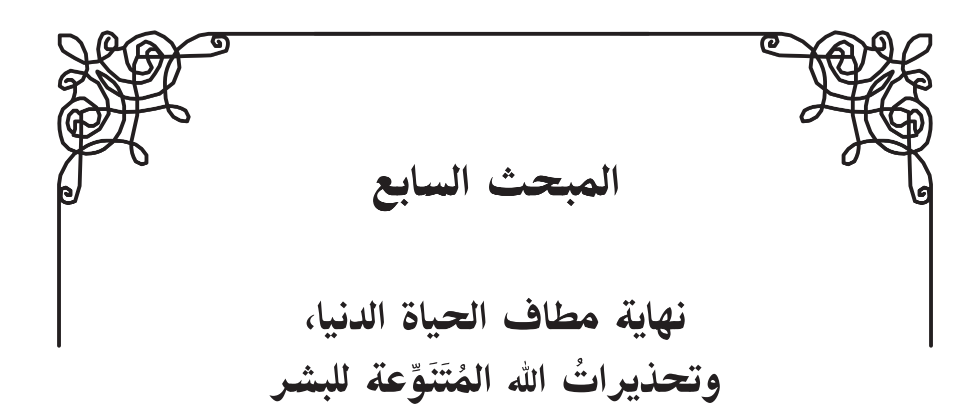
ولهذا يختم الله الرحيم هذه الآية، بقوله:

(١) المصباح المنير، ص٢٠٦.

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ أي: إذا كان هناك فوزٌ عظيم يناله الإنسانُ، فهو هذا الذي بيَّنه الله سبحانه في هذه الآية المباركة، أَجَلْ إنّ نَيْلَ جنة النعيم ورضوان الله العظيم جلّ شأنه، هو الفوز العظيم الذي لا فوز أعظم منه، ولهذا مدح الله تعالى صحابة رسول الله رضوان الله عليهم، والّذين هم عموماً خير البشرية بعد الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام)، أنَّ غايتهم في الحياة هو: طَلَبُ رضوان الله وفضله، كما قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ . . .﴾ الفتح.

وفضل الله تبارك وتعالى يَتَجسَّد في الآخرة في جَنَّتِه، وجَنَّتُهُ هي محل رضوانه التي يُحِلُّ فيها رضوانَهُ على أهل الإيمان والتقوى، جعلنا الله منهم وأَدْخَلَنا في سلكهم بتوفيقه ولطفه، وبِهذا نُنْهي الحديثَ عن هذا المبحث السادس، ونَنْتِقُل منه إلى المبحث السابع والأخير من هذا الفصل بإذن الله الوهّاب.





المبحث السابع

نهاية مطاف الحياة الدنيا، وتحذيراتُ الله المُتَنَوِّعة للبشر

سنتحدَّث في هذا المبحث في ضَوْءِ بعض آيات الله البَيِّنات، عن موضوعين:

الموضوع الأول: نهاية مطاف الحَياة الدنيا، ومن المعلوم أن الحياة الدنيا لها نهايتان باعتبارين مختلفين: نهاية حياة كل إنسان على حدة، والتي هي عبارة عن مفارقة الروح لِلبدَن، ونهاية حياة البشرية ككل ـ وكذلك الجنّة ـ والتي هي عبارة عن القيامة، وطَيٍّ صفحة هذه الحياة الأرضية بِرُمَّتها.

الموضوع الثاني: تحذيرات الله المتنوِّعة للبشر، وهذه التحذيرات نوعان:

نوعٌ وجَّهها الله العزيز الحكيم لكلِّ إنسانٍ على حدة، ونوعٌ وجَّهها للبشرية عموماً، وبناءً عليه: فسنتحدَّث عن موضوع هذا المبحث في مطلبين، ونُقَسِّمُ كل مطلب إلى فقرتين، ونبدأ بالمطلب الأول:

❊ ❊ ❊

المطلب الأول
نهاية مطاف الحياة الدُّنيا

ويتكون هذا المطلب من فقرتين، ونبدأ بالأولى منهما بإذن الله تعالى:

(١) نهاية وأجل كُلِّ انسانٍ حَتميٌّ لا يُقَدَّمُ ولا يؤَخَّر:

كما قال الله تبارك وتعالى:

١ ـ ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ۝٥٧﴾ [العنكبوت].

٢ ـ ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝١١﴾ [المنافقون].

٣ ـ ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْۖ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ۝١٨٥﴾ [الأعراف].

٤ ـ ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًاۗ ۝١٤٥﴾ [آل عمران].

٥ ـ ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٨﴾ [الجمعة].

٦ ـ ﴿أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٖ مُّشَيَّدَةٖۗ ۝٧٨﴾ [النساء].

٧ ـ ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٖ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ۝٣٤﴾ [الأنبياء].

وكيفية دلالة هذه الآيات على المطلب المذكور، هي كالآتي:

١) أما الآية (٥٧) من (العنكبوت):

فيُعْلن فيها رَبُّ العالمين ﷻ أن كلَّ نَفسٍ لا بُدَّ وأن تذوق الموت، ويَجبُ أن يَرجعَ الكل اليه ـ ليُجازيهم ـ وقد ذكرَ الله تعالى قوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ﴾ في كل من الآية (٣٥) من (الأنبياء) والآية (١٨٥) من (آل عمران).

وإنما أُضيف ذوق مرارة الموت والشعور به إلى النفس (أي الروح) لأنَّها هي التي تُحِسُّ به، بل هي المصدر لكل الأحاسيس والمشاعر وفي كل الأحوال، وسواء كانت داخل البدن أو خارجه، وليس البدن للروح ـ كما يبدو لنا ـ سوى ثوبٍ ترتديه في مدة حياتها الأرضية، فإذا قضاها نُزِعَ منها، وانتقلت إلى طور آخر وحياة أخرى.

٢) وأما الآية (١١) من (المنافقون):

فيعلن الله العزيز الحكيم فيها أنه لا يؤخِّر وفاة أي نفس إذا جاء أجلُها، أي الموعد المقررَّ والمحدَّد لِمَوتها، بل يجب أن يموت كل ذو نفسٍ في الوقت الذي حُدِّد له بالضّبط.

ثم يقول تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ وذلك تحفيزٌ للناس على الإستعداد بالأعمال الصّالحة، لأنهم لا يدرون موعد رحيلهم الإجباري من هذه الحياة الإبتلائية، والذي لا يمكن لأحد تأخيره أو تقديمهُ، حتى ولو ساعة (أي مدة قصيرة) من الزمان.

٣) وفي الآية (١٨٥) من (الأعراف):

بعد أن يُوبِّخ الله تبارك وتعالى الكفار ـ بدلالة ظاهر الآية والسياق ـ على عدم تأمُّلِهم في ملكوت[1] السمٰوات والأرض، وأيِّ مخلوق ـ مهما صغر في حَجمه وحَقُرَ في أعينهم ـ من مخلوقاته، التي لا يُحصيها سوى بارئها، كي يستدلوّا بمظاهر ربوبيَّته على وَحْدانيته في ربوبيته وألوهيته، فيوحِّدوه ربّاً وإلهاً، ومن ثم يَحْظَوْا بثوابه ورضوانه، وينجوا من غضبه وعقابه، يُحَذرِّهم من احتمال اقتراب أجلهم وموعد ارتحالهم: ﴿وَأَنۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقۡتَرَبَ أَجَلُهُمۡۖ﴾، لذا:

فليبادروا إلى الإيمان بالله، على أساس التأمّل في ملكوت الله الواسع ومخلوقاته المُتَقَنةِ الصُّنْع، بالإضافة إلى آياته البينات التي تَنَزَّلَتْ على خاتم

(١) الملكوت: عالم الغيب المختصّ بالأرواح والنفوس والعجائب، العزّ والسلطان، وملكوت الله: سُلطانُهُ وعَظَمَتُهُ، وملك الله خاصة، المعجم الوسيط، ص٨٨٦.

أنبيائه ﷺ، قبل فَوات الأوان وانقضاء مدة الإمتحان!

ولهذا يقول تعالى في ختام الآية المباركة: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾؟! أي: إذا لم يؤمنوا بهذا القرآن العظيم والكتاب الحكيم، الذي هو كلام رب العالمين وحَديْثهِ المبارك المبين، فمتى وبأي حديث آخر يؤمنون؟!

ولا شك أن كل هذا لطف ورحمة من الله تعالى بعباده، إذْ يَحُثُّهُمْ على النظر والتأمُّل في مخلوقاته الكبيرة والصغيرة ﴿مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ كي يتعرَّفوا على ربهم، من خلال آياته الخَلْقيَّة، ثم يحذرهم من احتمال قرب أجلهم، ثم يحضُّهم على الإيمان بحديثه المبارك - أي آياته الأمرية - الذي لا حديث أعظم وأعلىٰ وأجلَّ وأكثر بركة ونوراً منه، وكل هذا كي لا يُباغِتَهُمُ الموتُ ولا يأخذهم مَلَكُ الموتِ، من دار فيها عمل ولا حساب، إلى حيث حِسابٌ ولا عَمَلَ!

٤) الآية (١٤٥) من (آل عمران):

وفي هذه الآية يُبيِّن الله سبحانه وتعالى حقيقة أخرى فيما يتعلَّق بالحياة والموت، وهي: أن أي نفس من نفوس الخلق، لا يمكن لها أن تموت وتفارق بدنها الَّذي تسْكنُهُ، إلَّا إذا أذِن الله تعالى لها وحسب الأجل المضروب المحدَّد لها: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا...﴾، وهذا يعني أن أيَّ شخص يريد بعضُ الناس إماتَتَهَ، بل حتى لو أراد هو إماتَةَ نَفْسِه وإزْهاقَ روحه، فلا يمكن أن يَحْدُث هذا إلَّا عندما يريده الله تعالى، وبالكيفية التي حدّدها، وفي الحين الذي أجَّلَهُ له!

٥) الآية (٨) من (الجمعة):

وفي هذه الآية يُعلن رب العزّة سبحانه عن حقيقة أخرى، وهي:

أن الهروب من الموت مُستَحيل، لأن الموت المقدَّر على كل إنسان سَيَتبَعُهُ وَسيَلْقاه في الموعد المضروب له لا مُحالة، ولهذا قال الجنّ المؤمنون من ضمن ما قالوا، مّما قصَّه الله تعالى علينا عنهم، في سورة (الجنّ): ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾﴾، والظن

هنا بمعنى العلم واليقين[1]، لأن كلمة ظن كما هو واضح في كتاب الله، يختلف معناها حسب السياقات الواردة فيها.

ثم يحذِّرنا الله تبارك وتعالى من ارتكاب المعاصي السرية والعلنية، لأنه سَيُخْبِرنا بها يوم القيامة: ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ [الجمعة].

٦) الآية (٧٨) من (النساء):

وفي هذه الآية يؤكد العزيز الجبّار جلّ في علاه، أنه لا يمكن الفرار والإختفاء من الموت في أيِّ مكان حتى البروج ـ أي الحصون ـ الحصينة المرتفعة، لأن الموت سيدرك كلَّ امرئ، أيّاً كان وأينما كان: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَـٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَـٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾﴾ ووردت هذه الآية في سياق آيات تُنَدِّدُ بمواقف المتخلِّفين عن الجهاد أو المتكاسلين فيه، خوفاً من الموت! غافلين عن حقيقة أن الموت مقدَّر الأجل، فلا يُبْعِدُه الجبن والهروب والإختفاء كما لا يقرِّبُهُ الإقدامُ والشجاعة، بل هو ثابت في كلتا الحالتين، لا يتقدم بسبب الشجاعة، ولا يتأخر من جرّاءِ الجبن.

٧) الآية (٣٤) من (الأنبياء):

وفي هذه الآية ينفي الله الحكيم في خطابه مع نبيّه الخاتم ورسوله الأعظم (عليه الصلاة والسلام) أن يكون قد أبقى على قيد الحياة وخلَّد أحداً من البشر قَبْلَهُ، ثم يقول مُعَرِّضاً بالكفار الحاقدين الذين كانوا يتربَّصون برسول الله ﷺ الموت، كي يتخلَّصوا منه ومن دينه ودعوته: ﴿أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَـٰلِدُونَ﴾؟! ومعنى هذه الجملة: أنَّ تربُّص الكفار بِمَوتك، فكرة تافهة، لأن الموت مكتوبٌ على الكل، ولا ينجو منه أحدٌ، لا أنت ولا

(١) المعجم الوسيط، ص٥٧٨.

هم، ولكن المهم هو ما بعد الموت وكيفية القدوم على الله تعالى! كما قال تعالى في مكان آخر: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾﴾ [الزمر].

هذا وآية (الأنبياء) السابقة دليلٌ قاطع على أن كل ما يقال عن حياة (خضر) عليه السلام وغيره، بأنهم أحياء، خرافة لا أصل لها، وأما الذين رآهم بَعْضُ الناس في البراري، أو ساعدوهم في ضِيق لم يجدوا أحداً يُنْجِدُهم، فهم إمّا ملائكة تمثلوا لهم بصورة البشر، أو جن مؤمنون تَشَكَّلُوا لهم على هيئة البشر، وقد صّرح كتاب الله الحكيم بأن كلاًّ من الملائكة الكرام والجنّ، قد أعطاهم الله القدرة على التشكُّل.

ومن العجيب حقاً أن تَنْتَشِر تلك الأفكار الخُرافية التي هي بالإضافة إلى عدم وجود أيِّ أساس نقلي أو عقلي تستند إليه[١]، تصطدم بنصّ كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفهِ تنزيلٌ من حكيم حميد، في المجتمعات الإسلامية التي قد أَلْزَمَها إيمانُها وإسلامُها، ألَّا يستقي تَصَوُّراتِها ومَعْرِفَتَها من غير مَعِيْن وِحي الله المتمثل في كتابه وسنة نبيه ﷺ! ومن الواجب أن يراجع المسلمون دَوْما أفكارهم وتصوّراتِهم في ضوء الوحي المعصوم، كي لا تَتَعَشْعَشَ الأوهامُ والتصوّراتُ الخرافية في أذهانهم، فتوُدِي بهم، كما أوْدَتْ الخرافات والبدع المستحدثة المخالفة للوحي، بأهل الكتب السماوية عموماً واليهود والنصارى خصوصاً.

(٢) نهاية حياة البشرية (على الأرض) قطعية كبدايتها:

قال الله تبارك وتعالى:

١ ـ ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ السَّمَآءِ فَاخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ الْأَرْضِ

(١) وذلك لأن كل المسائل ـ أو الإدعاءات ـ التي لا يمكن معرفتها أو التأكّد من صحَّتها إلَّا عن طريق الوحي، يَجبُ أن تَسْتندَ إلى بُرهان قاطع واضح من الوحي، وإلَّا لا يُلْتَفَت اليها أصلاً، ونحنُ في غِنىً عن الإستدلال على دحضها وإبْطالها، لأنّها داحضة وباطلة في ذاتها، بسبب عدم استنادها إلى الوحي المعصوم، الذي لا سبيل لنا لمعرفة الغيب سواه.

مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [يونس].

٢ ـ ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ [الأنبياء].

٣ ـ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾﴾ [سبأ].

وهذه الآيات التي ليست سوى أمثلة لغيرها واضحة الدلالة على أن حياة البشرية على الأرض حياة مؤقتة، وستنتهي لا محالة في الوقت المحدَّد الذي حدّده الله تعالى، ولم يُطْلِعْ عليه أحداً من خَلْقه، وقد ذكر الله تبارك وتعالى كلاً من آجال الأفراد ـ أي أجل كلِّ إنسان على حدة ـ وأجل البشرية وحياتها الأرضية وَقَرَنَ بينهما في آية واحدة، حيث قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾﴾ [الأنعام].

وهذا لإفهامِنا بأنَّه كما أن لكلِّ شَخْصٍ أَجَلاً جُزئياً تنتهي عنده حياته، كذلك للبشر عموماً أجلٌ عامٌ تنتهي عنده حياتهم، لتبدأ مرحلة أخرى من وجودهم فيها، وحياةٌ أخرى على نمط آخر، غير النمط الذي نراه الآن.

وهذه إيضاحات وتعليقات مختصرة على الآيات الثلاث التي استشهدنا بها:

١) الآية (٢٤) من (يونس):

يُشبِّه الله تعالى في هذه الآية حياة البشرية على الأرض، بزَرْعٍ نَبَتَ في الأرض إثْرَ نزول مَطَرٍ من السماء، وتفاعله مع بذور الزَّرع، سواء منه ما يأكله الناس أو ما تأكله الأنعام، ثم يقول تعالى مُبيّناً الحالة التي إذا بلغتها

حياة البشر، تكون قد اقتربت نهايتها المحتومة، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ...﴾.

أي: وتستمرُّ حياةُ الناس على الأرض وتزدهر ـ من الناحية المادية ـ في تصاعد مستمر، إلى أن تصير الأرض بسبب التطور الحضاري والتقدّم العمراني وكأنها عروس مُزيَّنة مَجلوَّة، تكلَّفت في التجمُّل وتفنَّنتْ، إلى أن يبلغ الناس حَدّاً يتصوّرون بسبب تمكُّنهم من الأرض واستخراج خيراتها وكنوزها، أنهم قادرون على تحديد مصير الحياة الأرضية ومسارها، فعند ذاك يأتي أمرُ الله تعالى بإنهاء الحياة الأرضية، ويُصْبِحُ وَجْهُ الأرض خراباً يباباً، وكأنه حقلُ زرعٍ محصودٍ.

وفي هذا المقطع من الآية المباركة يمكننا فهم الحقائق الثلاث الآتية:

١ ـ تقومُ الساعة على أهل الأرض، عندما تكون حياتهم المادِّية في أوج التطور والتقدُّم:

ويدل على هذه الحقيقة قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا...﴾، إذْ من المعلوم أن كلمة (حتّى) تفيد بلوغ الغاية، وعليه: فحياة البشرية تستمر على الأرض، إلى أن تبلغ تلك الغاية التي عبَّرت عنها الآية الكريمة بـ﴿أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ﴾ وفي هذه الجملة شُبِّهت الأرض بالعروس أو المرأة التي تتزيَّن وتَتَحلَّى بأنواع الحُليِّ، وتبالغ في ذلك وتَتَفنَّنُ.

٢ ـ وتقوم السّاعة على أهل الأرض عندما يبلُغ التطور المادّي من جانب والتطرُّف في الكفر بالناس عموماً من جانب آخر، إلى حالة يشعرون ويتخيلون بأنهم مُمْسِكون بزمام الحياة ومصير الدنيا:

ويدل على هذه الحقيقة بوضوح تام، قوله تعالى: ﴿...وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا...﴾.

وهذا يفهم منه أن الساعة إنَّما تقوم على أهل الأرض، عندما يَعُمُّ

الكُفْرُ الدنيا، ويُصبحُ أهل الأرض كلُّهم أو أغلبيتُهم الساحقة كفّاراً مغرورين، بما يمكِّنهم الله تعالى منه من مَتاع ونِعَم.

٣ ـ وعندما تقوم الساعة يكون الوقت عند أهل الأرض ليلاً ونهاراً معاً:

ويدل عليها قوله تعالى: ﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾، وهذه الجملة فيها إعجازٌ عِلميٌّ، وذلك لأن الأرض كما هو واضِحٌ لنا الآن، كروية الشكل ويتوزّع عليها الليل والنَّهار باستمرار، لأنهما يَلْقَانِها تباعاً، وَيتْبَعُ أحدُهما الآخر دَوْماً، كما قال تعالى: ﴿. . .وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ. . .﴾ [يس].

نعم، فعندما تقوم الساعة يكون الوقت ليلاً، بالنسبة لِساكني نصف الكرة الأرضية، ونهاراً بالنسبة لساكني نصفها الآخر، ولهذا قال تعالى: ﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾ ومعنى هذا:

أن أمر الله تعالى عندما يَصْدُر بقيام الساعة يكوُن الوقتُ ـ بالنسبة لأهل الأرض ـ ليلاً ونهاراً معاً، ولهذا يَصِحّ أن يقال: بأن القيامة قامتْ ليلاً أو نهاراً، كما قالت الآية الكريمة، وذلك تَبَعاً لاختلاف حالة الوقت بالنسبة لساكني وجهي الأرض عمومَاً، وبناءً عليه: فاستعمال كلمة (أو) ليس للتشكيك بل للحكمة التي ذكرناها.

وأمّا قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِۚ﴾، فيُقْصَدُ به أنَّ وجْهَ الأرض المسكون المُزَخْرَف المُزَيَّن بالتقدّم العمراني، والتطور الصناعي الهائل، يصير بعد قيام الساعة وكأنَّهُ حقلُ زرع محصودٍ جُرِّد تماماً من آثار الزرع، حتى يبدو وكأنه لم يكن بالأمس القريب حقلاً فيه زرع وثمارٌ! وهذا كما قال تعالى في سورة الكهف: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾﴾.

ويُعَقِّبُ جلَّ شأنه على كل ما مرَّ ذكره، بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، وممّا لا شك فيه أنَّ التفكير السَّليم في مسيرة الحياة البشرية ومصيرها المحتوم، سيؤدِّي بصاحبه إلى اتخاذ الموقف الصّحيح المتُمَثِّل في الإيمان بالله تعالى والشكر له، وتقديم العبادة الخالصة له

سبحانه، ولذلك خصَّ الله الحكيم تفصيله لآياته بهم، لأنهم وحدهم الذين ينتفعون.

٢) الآية (١٠٤) من (الأنبياء):

وفي هذه الآية يُبيِّنُ الله العظيم أنه سيأتي يوم (وهو يوم تقوم فيه الساعة) يَجْمَع فيه السمٰواتِ ويَطْويها، كما يُطْوى ويُلَفُّ السجِّلُّ الذي يكتب فيه، ثم يقول:

﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾، أي: نُعيد هذا الخلق إلى حالته التي بدأنا فيها خَلْقَه أوَّل الأمر.

وقد تحدَّثْنا سابِقاً (في الفصل الثاني) عن بداية خلق السَّموات والأرض في ضوء قوله تعالى في سورة (فصلت): ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾، وفي ضوء قوله في سورة (الأنبياء): ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا...﴾ [الأنبياء]، ويُفهم من قوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾، بأن هذا الخلق سيُعيدُهُ الله الحكيم عند قيام الساعة إلى حالته الأولية التي خلقه عليها، وقد تحدَّثت نظريات فلكية وفيزيائية عن حدوث انقلاب كوني، سيعود فيه الخَلْقُ إلى حالته الغازية الأولى، ولكن نحن لا نُعوِّل على النظريات التي قد تثبت وتتحقق، أو تَبْطُل وتَضْمَحِلّ، وقول الله الحق فوق كل حقيقة، ويوم يصل العلم في هذه المسألة إلى الحقيقة الراسخة ويتجاوز عتبة النظريات، فستكون نهاية مطافه بداية كلام الله الحكيم.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾ [إبراهيم]، لا يتصادم مع ما جاء في الآية التي نحن بِصَدَدِها، وذلك لأن الله تعالى يتحدث في آية (الأنبياء) عن حالة إنهاء هذا الخلق بصورتِهِ الحالية، وإعادة مادَّته إلى حالتها الأولى، ولكن آية (ابراهيم) تتحدَّث عن إعادة تشكيل الخلق بالصورة التي تنسجم مع متطلبات وأحوال مرحلة اليوم الآخر وشؤونه، بدليل أن الله تعالى ذَيَّل آيةَ (ابراهيم) بقوله:

﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾، والمقصود به جَمْعُ الناس وحشرهم للحساب والجزاء.

وقال تعالى في ختام الآية المباركة، أي: آية (الأنبياء): ﴿وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ أي: إنَّ طَيَّ صَفْحَةِ هذا الوجود الحالي، وهذه الحياة الحالية للبشر على الأرض، وعدٌ قد قطعه الله تعالى على نفسه وسيُنْجِزهُ لا محالة في موعده المقرَّر الذي لا يعلمه سواه.

٣) الآية (٣) من (سبأ):

وفي هذه الآية المباركة وبَعْدَ أن يحكي سبحانه وتعالى قولَ الكفّار المُتَضمِّن لإنكار مجيء الساعة: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ﴾! يأمر نبيّه الكريم ﷺ أن يرُدَّ عليهم بشدَّةٍ وحَزم، قائلاً: ﴿بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ ثم يقول واصفاً ربَّه العظيم وتدليلاً على قدرته على البعث والإحياء: ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾﴾.

فكيف إذن يَعْجِزُ رَبُّ العالمين عن الإتيان بالساعة، ثم البعث والنشور، وهو الذي يعلم الغيب عِلمَهُ بالشهادة، ولا يغيبُ عنه أدنى شيءٍ من خَلْقهِ، سواء كان في السمٰوات أو في الأرض، ذرةً فما دونَها؟!

وفي الآيتيْن التاليتين ـ أي (٤ و٥) ـ يقول سبحانه وتعالى مُسْتَدِلاً على ضرورة مجيء الساعة ويوم الجزاء: ﴿لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾﴾ [سبأ].

إذْ حسب حكمة الله البالغة وعَدله التام، لا بُدَّ من أن يَنال كلٌّ من المؤمنين الصالحين، والكافرين السّاعين ضِدَّ دينه وأوليائه، جزاءَهم العادل المتمثل في المغفرة والرزق الكريم لأهل الإيمان، والعذاب السيِّء الخبيث المُؤْلِم لأهل الكفر والعصيان.

المطلب الثاني
إنذارات الله تعالى وتحذيراته للبشر من إهمالهم الإستعدادَ للعاقبة التي تنتظرهم

ويتكون هذا المطلب من فقرتين، ونبدأ بالفقرة الأولى:

(١) تحذيراتُ الله تعالى لكلّ إنسان كَفَردٍ في ذاته:

قال الله تبارك وتعالى مُنذِراً كل إنسان، ومُحَذِّراً ايّاه بصفته الشَّخصية، من الإهمال وعدم الحِيطَة والحذر، بصدد ما ينتظرهُ من الجزاء في يوم الجزاء:

١ ـ ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ [القيامة].

٢ ـ ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿٦﴾ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾﴾ [القيامة].

٣ ـ ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾ [ق].

٤ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾ [الانفطار].

٥ ـ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [المؤمنون].

٦ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾﴾ [الانشقاق].

وكيفية دلالة هذه الآيات البيِّنات على عنوان الموضوع، هي بالصورة الآتية:

١) الآية (٣٦) من (القيامة):

ففي هذه الآية يُوَجِّه الله تبارك وتعالى سؤالاً إنكاريّاً غيابياً إلى الإنسان، ويقول:

أَوَ يتصوَّرُ الإنسانُ أن يُتْرك مُهْمَلاً، فلا يسألُه خالِقُه وربُّه ومالكهُ، ولا يُحاسِبهُ ولا يُجازيهِ؟! وهذا يعني أنَّ تصوّر إهمالِ الله الحكيم للإنسان وعدم بَعثِهِ إيّاه بعد موته للحساب والجزاء، تصوّر مُغرِقٌ في البطلان، وتأباه بالإضافة إلى عَدل الله وحكمته، فطرةُ الإنسان وبديهةُ عقله السَّليم، إذْ هذا هو المقصود بالإستفهام الإنكاري.

ونُنَبِّه ـ مؤكِّدين لما قلناه سابقاً في الفصل الثالث ـ على أنَّ المقصود بكلمة (الإنسان) في هذه الآية وكذلك في الآيات الأُخَرِ التي أدرجناها في هذه الفقرة، هو الإنسان الكافر، أو الإنسان الّذي يخاطبُه الشرع لأول مرة، ولم تَصِلْهُ بعد يَدُ الهداية الربانية، فهو على مُفتَرَقِ طريقَي الهُدى والضَّلال.

٢) الآيات (٥ إلى ١٥) من (القيامة):

وفي هذه الآيات المباركات يُبيِّن الله مَوْقِفَ الإنسان الكافِر الفاجِر

المُنْكِر ليوم القيامة، بأسلوبٍ يَهُزُّ كلَّ عاقلٍ من الأعماق، مُحَذِّراً إيّاه من أن يسلُكَ ذَلك المَسْلك التعيس، وذلك في حلقات متدرِّجة متسلسلة وصولاً إلى النتيجة النهائية التي هي عِبَرةٌ لكل معتبر:

يُعْرِّفُ الله تعالى الإنسان الكافر، بأنَّه يريد أن يُقَضِّيَ حياتَه بالفجور: ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ۝٥﴾ هذه الآية متصلة بالآيات السابقة لها، ومفادُها أنَّ الدافع الأساسي للإنسان الكافر نحو إنكاره البعث والنشور والجزاء في يوم القيامة، هو إرادته الفجور والفسق واتِّباع الشهوات، فهو بما أنَّه مُصَمِّمٌ على حياة الفجور والمُضيِّ في الإنحراف، يحتاج أن يجد ذريعة يُبرِّر بها فُجورَه وانغماسه في الهوى، لِذا تُخَيِّلُ إليه نَفْسُه الأمّارة، بأن قصة حياة الإنسان ووجوده على الأرض، تتَلَخَّصُ في جملة واحدة ـ قالها بعضهم ـ وهي! (أرحامٌ تدفع وقبورٌ تَبْلَعُ!).

ثم يُبرِزُ الله تعالى موقفَ الإنسان الكافر الموطِّد عَزْمَه على الفجور، في سؤاله الإنكاري عن وقت مجيء يوم القيامة: ﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝٦﴾؟!

ومِصْداقُ ما يقوله الله العليم الخبير في هاتين الآيتيْن، مُتَجلٍّ في واقع جميع الكفرة الفجرة الغابرين والمعاصرين، إذْ تراهم يحاولون بشتّى الوسائل إقناعَ أنفسهم وغيرهم، بأن القيامة لن تقوم، أو على الأقل يَسْعَوْنَ لإقناع أنفسهم بنسيان يوم القيامة وإهمال التفكير فيه، مقلِّدين للنَّعامة التي تُخْفي رَأسَها في الرَّمْلِ عند رؤية الصياد، مُوهِمَةً نَفْسَها بأنَّ الصّياد لا يراها، كما أنها لا تراه!

وقد حكى الله تبارك وتعالى هذا الموقف للكفار الفجار المُتْرَفين المُسْرِفين، في أكثر من موضع في كتابه المبين، نكتفي بمثال واحد:

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ۝٣١ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝٣٢ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ۝٣٣ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ۝٣٤ أَيَعِدُكُمْ

﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [المؤمنون].

وجَواباً على تساؤل الإنسان الكافر الإنكاري عن يوم القيامة، يُشيرُ الله الحكيم إلى ثلاث ظواهر تَحْدُثُ في مقدمة ذلك اليوم الرَّهيب: ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴿٩﴾﴾.

و﴿بَرِقَ﴾ يعني دَهِشَ وتَحيَّر[1]، ويُقْصَد به شُخوصُ العَين وانفتاحُها لرؤية ذلك الأمر المهول المَهيب، أي انقلاب يوم القيامة العظيم الذي يعتبر أكبر حَدَثٍ على الإطلاق.

وخسوف القمر هو ذَهابُ نوره وانطماسه.

وجمع الشمس والقمر، هو اجتماعهما، وقد يحدث نتيجة جذب الشمس له ولغيره من كواكب وأقمار مجموعتها التي تدور حولها الآن، بعد أن يغيِّر الله تعالى الوضع والنظام الحالي الموجود في الخلق، ثم يشكِّلُهُ في صورةٍ أخرى، وبترتيب آخر يعلمه هو سبحانه.

يُبَيِّنُ الله تبارك وتعالى للإنسان الكافر بأن يوم القيامة لَيس أمراً سهلاً، بل سَتَشْخَص فيه الأبصارُ، وَتَنْدهِشُ وتَتَحَيّر لِهَوْلِه العقولُ، وسَتَتَغيَّر الأحوال والأوضاع الموجودة الآن كلُّها، لِذا فليفكرِّوا في كيفية مواجهة أهوال ذلك اليوم العظيم، بدل الإنكار والجدال العقيم حوله، فالأمر جِدٌّ لا يحتمل الهزل.

ثم يصِّور الله تعالى حالَ الإنسان الكافر المُنْكِر لمجيء يوم القيامة، بقوله: ﴿يَقُولُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ ﴿١٠﴾﴾؟! إذْ لا يملك الكافرُ أمامَ أهوال ذلك اليوم الرهيب، وشَدائِدهِ غير محاولة الهروب، لِذا يتساءَلُ مَذْهولاً مذعوراً: إلى أين أهرب؟! أجل فالكافِرُ الفاجر المتبَجِّح الذي ينتفش اليوم غروراً ويتبختر خُيَلاءَ، ويتساءل: متى يوم القيامة؟! فهو في ذلك اليوم العظيم لا يفكر في شيء، سوى الهروب والإختفاء! ولكن أنّى له ذلك!

(١) بَرِق يَبْرَق بَرَقاً: فَزِعَ وَدَهِشَ فلم يُبْصِر، المعجم الوسيط، ص٥٠.

ويجيب العزيزُ الجّبارُ جلّ وعلا، على تساؤل ذلك الكافر الفاجر الساعي لِلفرار، بجواب مختصر يناسب جلال ذلك الموقف وهَيْبَتَهُ في ذلك اليوم الرهيب، حيث يقول: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾﴾ وكلمة ﴿كَلَّا﴾ تستعمل للرد مع الردع والزجر، والوَزَرُ هو الملجأُ الذي يختفي فيه الهارب ويَتَحصَّنُ[1].

ثم يُبَيِّن جبارُ السماوات والأرض جلَّ شأنه، أن محلَّ حَشْر جميع الناس في ذلك اليوم وحَشْدِهم، هو المكان الذي حدّده هو لِجَمْعهم، ثم الحساب والجزاء: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾﴾.

أي: أنَّ الكلَّ ينتهي بهم المطافُ، ويستقرّون حيث حدّده رب العالمين.

ثم يُعْلِنُ العليمُ الخبيرُ سبحانه أن الإنسان سَيُنَبَّأُ يوم القيامة بكل ما قدّمه وأخَّرَه من شرٍ وخير، لأن الكافر يقدّم الشر ويؤخر الخير، أو المقصود أعماله القديمة والجديدة، فكل تصرفاته مُسَجَّلَةٌ بدقّة، كما قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء].

وأخيراً يبيّن الله الحكيم أن الإنسان الكافر في ذلك اليوم، سيشهد على نفسه بما ارتكبه في دنياه، وأنه لا تنفعه تبريراته الواهية الكاذبة: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾﴾ [القيامة].

نعم لا تَنْفَعُ الإنسانَ في ذلك اليوم، أمامَ ميزان الله الدقيق العَدْل الحسّاس، الذي يَحْسِبُ حتى الذرات من الخير والشر، المبرِّراتُ والأعْذارُ التي يَسْعى عَبَثاً أن يُنْقِذ بْها نَفْسَهُ طبقاً لقاعدة: (الغريق يتشبَّث بكل حشيش) كيف! وفي ذلك اليوم لا تنكشفُ الأعمالُ والتصرفات كلُّها فَحَسْبُ، بل وتنكشف حتى نيات القلوب وخواطرها، كما قال تعالى: ﴿۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ﴿١١﴾﴾ [العاديات].

(١) المصباح المنير، ص٣٣٩.

وشهادة الإنسان على نفْسهِ، تَتَمثَّلُ في شهادة أعضائه عليه، بما ارتكب بها من ذنوب ومعاصي، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ۝١٩ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٢٠ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٢١﴾ [فصلت].

٣) الآيات (١٦ إلى٢٢) من (ق):

وفي هذه الآيات السّبع، أنوارٌ كاشِفَةٌ لحقائق كبيرة في مجال الحياة والموت، وأحداث ما بعد الموت، وسنُرتِّبها حسب ورودها في الآيات تِباعاً:

١ و٢ و٣ ـ خَلْقُ الله تعالى للإنسان، وعِلْمُه بما يَجُول في قلبه من خَواطِر وأفكار، وقُرْبُه منه أكثر من قرب وريده:

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ۝١٦﴾ وهذه الحقائق الثلاث مترتبة بَعْضُها على بعض لأن الله تعالى طالما أنه خالق الإنسان، فلا يمكن أن لا يعلم ما يجول في قلبه وذهنه، إذْ حتّى الإنسان الصانع ـ وهو مخلوق ـ خبير بمصنوعه ومُطَّلِعٌ على خفاياهُ، فكيف الخالق العظيم العليم بكل شيء!

٤ ـ ويُسجِّل أعمالَ الإنسان ملكان قاعدان عن يمينه وشماله:

كما قال تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝١٧﴾، وبما أننا لا نرى الملائكة الكرام، فلا نعلم كيفية جلوسهم عن أيْماننا وشمائلنا، وقد يكون المقصود بقعودهم هو حضورهم الدائمي، وتمكُّنهم التام من القيام بتسجيل أعمالنا وتصرّفاتنا، ومراقبتهم المستمرّة لنا، وذلك لأن القعود لعملٍ ما، يُمَكِّن الإنسان من الجِدِّ في تنفيذه، ولهذا قال (إبليس) مهدّداً أن يبذل جهده في إغواء آدم وذرِّيَّتَهُ: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝١٦﴾ [الأعراف].

وقد وَرَدَ عن رسول الله ﷺ حول كتابة الملائكة للحسنات والسيئات أحاديث كثيرة، هذا أحدها:

«فمَنْ هَمَّ بِحَسَنةٍ فلم يَعْمَلها كُتِبَتْ لَهُ حَسَنةٌ، وَمَنْ هَمَّ بِحَسَنةٍ فَعَمِلَها كُتِبَتْ لَهُ عَشْراً الى سَبْعَمِائَة ضِعْفٍ، وَمَنْ هَمَّ بِسِّيئةٍ فلم يَعْمَلها لَمْ تكْتَبْ، وإنْ عَمِلَها كُتِبَتْ» (مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ: البُخَارِيُّ برقم: (٦٤٩١)، وَمُسْلِمٌ برقم: (١٣١)، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﵄، وَهَذَا لَفْظ مُسْلِم).

وفي هذه الآية الكريمة: ﴿إِذۡ يَتَلَقَّى ٱلۡمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٞ ۝١٧﴾، دفعٌ لتوهّم قد ينشأ من الآية السابقة، بسبب السطحية في فهمها، وهو كون الله تعالى قريباً من الإنسان قُرباً ذاتياً! فَبيَّنت هذه الآية أنَّ قربَ الله تبارك وتعالى المقصودَ في الآية السابقة ـ بالإضافة إلى هيمنة صِفاتِهِ من علم وقدرةٍ وغيرهما ـ يتمثَّل في تَمَكُّن المَلَكَيْن التام من تسجيل كل الأعمالَ والتصرّفات، العلنيّة والخفيّة، والسيئة والحسنةِ للإنسان.

٥ ـ وكذلك يُسجِّلان كلَّ كلمة ولفظة يَتَلفَّظُ بها:

كما قال الله تعالى: ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ ۝١٨﴾، ويلفظ القول أي: يتكلم وينطق به من (لَفَظَ يَلْفِظُ)[1]، و﴿رَقِيبٌ عَتِيدٞ﴾ وصفان لِكِلا الملكين، أي إنَّ كُلاًّ منهما: (حافِظٌ حاضِرٌ) دَوْماً لتسجيل الأقوال، بلِ الأَلفاظ التي تصدر عن الإنسان، فَهُما حافِظان لكل لفظةٍ وحاضِران في كلِّ لحظة، فلا تفوتهما لفظة ولا يغفلان لحظة.

٦ ـ تعريف موجز بحالة الموت والإحتضار، بذكر سكرة الموت:

كما قال تعالى: ﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ ۝١٩﴾ وهذا ذكر للقيامة الصُّغرى (الموت)، وسكرة الموت جمعها (سكرات) وقد جاء في صحيح البخاري عن أم المؤمنين عائشة ﵂ أن رسول الله ﷺ كان يقول في مرض موته وقبيل قبض روحه: «**لَا إِلَهَ إِلَّا الله، إِنَّ لِلْمَوْتِ سَكَرَاتٍ**» (رَوَاهُ البُخَارِيُّ برقم: (٦١٤٥)) وفي رواية: «**اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى سَكَرَاتِ الْمَوْتِ**» (رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهْ برقم: (١٦٢٣)، وَضَعَّفَهُ كل من الشيخين الألباني وشعيب الأناؤوط)[2].

---

(١) المعجم الوسيط، ص٨٣٢.

(٢) وفي سنن الترمذي: ٩٧٨، «**اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى غَمَرَاتِ المَوْتِ أَوْ سَكَرَاتِ المَوْتِ**» (وَضَعَّفَهُ الشيخ الألباني).

وسُمّيت الآلام الشديدة التي يعاني منها الإنسان المُحْتَضَرُ سكراتٍ، لأنّها تجعل الإنسان يغيب عن وعيه كأنه سكران!

والموتُ يتَجَسَّد في تلك الآلام الشديدة، ولهذا قَرَن الله تعالى ذكرها بذكر الموت، وبما أنّها مقدمته، فقد قدّم ذكرها عليه، وإنّما قال تعالى: ﴿. . .بِٱلْحَقِّ﴾ لأن الموت لا يَنْزِلُ بأحدٍ إلّا بإذن الله الحق، وحسب سنّته الحكيمة، ووفقاً لأجله المضروب له، وإحقاقاً للحق الذي خلق الله تعالى الخَلْقَ من أجْلِه، وهو ابتلاء البشر، ثمّ مجازاتهم حسب أعمالهم.

ويُوَبِّخ الله العزيزُ الإنسان الكافر المُحْتَضَر، بقوله: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ أي: إن هذا الموت واللقاء، هو الذي كنت تكرهه وكنت تَميلُ عنه وتَنْحِرف، لأن (حادَ يَحِيدُ) أي: انحرف ينحرف، ومالَ يَميلُ[1].

٧ ـ ذكر القيامة الكبرى (أي البعث والنشور) بعد النَّفْخ في الصور:

كما قال جلّ شأنه: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾﴾ والظّاهر أن المقصود بالنفخ في الصور هنا هو: النفخة الثانية التي تَحْصُل عَقِبَها القيامةُ (أي قيام الأموات وإحياءُ الله اياهم)، وليس النفخة الأولى التي تعقبها الساعةُ وفناءُ العالَم، بدليل أن الله تعالى يصف ذلك اليوم بقوله: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ﴾ وإنّما يتحقق وَعيدُ الله في حق الكفار المنحرفين يوم القيامة، بعد أن يُجْزَوْن حسب أعمالهم، ثم إن الله تعالى قال بعد هذه الآية مباشرة: ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾﴾، ومن الواضح أن هذا لا يكون إلّا يوم القيامة، و(الصُّور) هو القَرْن الذي يَنْفُخ فيه (إسرافيل)، مرتين: مرّة لإحداث الساعة وإفناء هذا العالم، والمرة الثانية لبدء يوم القيامة والبعث ثم الجزاء، كما قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزمر]، وقد جاء في حديث رسول الله ﷺ: «**كَيْفَ أَنْعَمُ ! وَصَاحِبُ القَرْنِ قَدِ التَقَمَ القَرْنَ، وَاسْتَمَعَ الإِذْنَ مَتَى يُؤمَرُ بالنَّفْخِ فَيَنْفُخُ**» (رَوَاهُ التِّرمِذِيُّ برقم: (٢٤٣١)، وَقَالَ: حَدِيثٌ حَسَنٌ، وَصَحَّحَهُ الألباني في (السلسلة الصحيحة) رقم: (٢٠٧٩)).

---

(١) المعجم الوسيط، ص٢٠٥.

٨ ـ مجيء كل إنسان بيد ملكين يسوقانه ويشهدان عليه:

كما قال تعالى: ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ۝٢١﴾ والسياق يدلّ على أن المقصود بـ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ هو كل نفس كافرة، وكذلك لَفْظا: ﴿سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ يدلان على هذا، لأنَّ الكافر هو الذي يُساق ويُشْهَدُ عليه بما ارتكبه، وكذلك الآية التالية دليل آخر، كما ستأتي.

٩ و١٠ و١١ ـ توبيخُ الله الإنسانَ الكافِرَ على غفلته عن لقائه، وإخباره ايّاه بأنّه قد كشف ورفع عنه غطاءَهُ، لذا فهو في ذلك اليوم يرى كلَّ شيء بوضوح:

كما قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ۝٢٢﴾ [ق].

وهذه الحقائق الثلاث التي يُواجَهُ بها الإنسان الكافِرُ المَسُوقُ المشهودُ عليه، والذي قد سُجِّلَتْ كلُّ أعماله الظّاهرة والباطنة، وأقوالُه العلنية والخفية، بل ونياتهُ وخواطِرهُ القلبية، كلُّها حقائِقُ مُرَّةٌ بالنسبة له، ولكنه لا مفرَّ له منها!

أجل:

يُوَجِّه الله العزيزُ جلّ وعلا، الحقائِقَ الثَلاثَ المذكورة إلى الإنسان الكافر موبِّخاً إياه وقائلاً له:

لقد كُنْتَ ـ أيها الكافر! ـ ساهياً لاهياً عن مصيرك هذا، ولم تَحْسِبْ لَهُ أيَّ حساب، ولكنه الآن واقع مُعايَنٌ مِلْءَ السمع والبصر! وكنت قد حَجَبْتَ عن نفسك رؤية هذهِ الحقائق، من جَرّاءِ كُفْرك الذي غَلَّفْتَ به عَقْلَك وقَلْبَك، وَسَتْرَت به فِطْرَتَك، ولكنّنا الآن، رَفَعنا عنك ذلك الحِجابَ والغِلافَ!

لِذا فَبصرك الذي لم تَسْتَخْدِمْهُ في الدنيا لرؤية الحق، ترى به كلَّ شيءٍ الآن بوضوح وجلاء، ولكن بعد فوات الأوان، والسقوط في الإمتحان والبَوْءِ بالخُسْران!

ومن الواضح أن نقل تصويرَ كلام الله المبارك هذه المشاهد من أحوال الكفار في يوم القيامة والجزاء، تحذير وأيُّ تحذير للناس جميعاً، أن يُجَنِّبُوا أنفُسَهم ذلك المصير المشؤوم، والذي هو نتيجة حتمية للكفر والإنحراف عن صراط الله المستقيم.

٤) الآيات (٦ إلى١٤) من (الإنفطار):

وفي هذه الآيات يخاطب الله العظيم جلَّ في علاه، ولا إله سواه، الإنسان الكافر المغرور تجاه ربّه، ويذكّره مُوبِّخاً إيّاه بحقائق جليّة يَجِدُها في قرارة نفسه ولا يمكنه إنكارها، حيث يقول تبارك وتعالى:

١ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾﴾؟! أي: أيها الإنسان ما الذي جعلك مغروراً تجاه ربِّك الذي خلقك وربّاك، وهو الكريم الذي أعطاك ما أعطاك، والمُكْرِم الذي أكرمك بما أكرمك به؟! والمغرور هو الطاغي الذي يتجاوز الحدود، من جرّاء انخداعه بحيل إبليس وحيل النفس الأَمّارة بالسوء، والغرُور كله قبيح، ولكن غرُور الإنسان المخلوق الضعيف المحتاج الظلوم الجهول، تجاه ربِّه الخالق القوي الغني الحكيم العلي، أَقْبَحُ وأشْنَعُ !

٢ ـ ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾﴾!! وهذا تعريف من الله العظيم بربوبيّته وكَرَمِه الذي ليس له مثيل للإنسان المغرور، من خلال تعداد نعمه له والتي هي مُتَجسِّدة في ذات نفسه، وكل ذلك: لعله يُفيقُ من نوْمَةِ غفلته عن ربِّه، وسكرة غروره تجاهه، وتلك النعم هي هذه الأربع:

أ ـ الخلق: وهو الإيجاد من العدم، بعد أن لم يكن له ذكرٌ ولا إسمٌ.

ب ـ التسوية: وهو الترتيب والتنظيم، والمقصود به هناك خَلْقُ الأعضاءِ وَوَضْعُها مواضِعَها.

ج ـ التعديل: وهو جَعْلُ أعضاءِ البَدن مُتَعادِلةً ومُتَوازِنَةً ومُتَوافِقَةً بَعْضُها مع بعض.

د ـ التصوير: وهو جَعْلُ البَدن كُلَّه، لَهُ شَكْلٌ وقِوامٌ مُحَدَّدٌ.

وفي قوله تعالى: ﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ٨﴾ إلْفاتُ نظرٍ للإنسان المغرور، بأن ربّه الحكيم هو الذي حدَّد له شكله وقِوامَهُ العام وصورة وجهه الخاصة، حسب إرادته الحكيمة، إذاً: فَلِمَ الغرورُ والطغيان يا مَنْ لَيْسَتْ لك يد في أي شيء من وجودك، بل كل شيء فيك مُحدَّدٌ لك من ربّك، حتى شكل قوامِك، وصورةُ وجهك، ونَبْرَةُ صوتك؟!

٣ ـ ﴿كَلَّا بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ٩﴾ وهذا بيان من ربّ العالمين لِعلّة غرور الكافرين فيقول جلّ شأنه: كلاّ ليس هناك سبب لغروركم وطغيانكم تجاه ربكم الكريمْ، الّذي أغرقَكُمْ في بحر نِعَمِه، سواء في أنفسكم أو حواليكم، أيها الكفار! سوى تكذيبكم بالجزاء ويوم الجزاء.

وهذا دليلٌ على أنَّ كُفْرَ الإنسان بلقاءِ الله تعالى وحسابه وجزائه، يوَلِّدُ فيه الكُفْرَ بالله والغروَر تِجاهَهُ، وإنْ كان معتقداً بخالِقيته وربوبيته، وهذا هو السبب في كل هذه التأكيدات في كتاب الله الحكيم على قضية الإيمان بِلقاءِ الله تعالى واليوم الآخر، حيث حَظِيَتْ قضية الإيمان باليوم الآخر، بعد الإيمان بالله في القرآن الحكيم، بالإهتمام الأعظم.

٤ ـ ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ١١ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ ١٢﴾، وهذا تذكير من الله تعالى للكفار المغرورين، بأنه لم يتركهم سُدىً ولم يَدَعْهُم وشَأْنَهم، بل عيَّن لهم ـ لكل منهم على حدة ـ ملائكة كراماً يراقبونهم ويَضْبِطون ويُسَجِّلون كلَّ حركاتهم وسكناتهم، وقد وصف الله تعالى أولئك الملائكة المراقبين لأعْمال الكفّار ـ وكذلك غيرهم من البشر ـ بأربعة أوصاف، هي:

أ ـ حافظين: يحفظون كل أعمال الإنسان الظّاهرة والباطنة، فلا يَفُوتهم شيءٌ، حتى خَطْرَةُ قَلْبٍ أو لَفْظَةُ لِسانٍ.

ب ـ كراماً: وكرام جمع كريم، وهو الْمتَّصِفُ بالصِّفات الحميدة والآتي بالأعمال الرشَيدة، ويتحَّدد معنى (كريم) في كل مقام حسب موصوفه الذي مُدِحَ ووصف به[1]، لأن الله تعالى وصَفَ نَفْسَه به: ﴿... بِرَبِّكَ

---

(١) المصباح المنير، ص٢٧٤.

﴿ٱلْكَرِيمِ﴾ وَوَصَف به جبريل خاصّةً: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝٤٠﴾ التكوير، ووصف به الملائكة عامّةً: ﴿كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١﴾ [الانفطار]، ووصف به النّبات: ﴿...خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝١٠﴾ [لقمان]، ولا شك أن كرم الله تبارك وتعالى كسائر صفاته ليس كمثله كَرَمٌ، بل الله تعالى هو الكريم الذي له الكرم المطلق، كما هو اللائق به سبحانه، وكذلك كرم الملائكة له مفهوم غير الذي لِكَرَمِ النّبات.

ج ـ كاتبين: أي: يكتبون ويُسَجِّلون أعمالكم وتَصَرُّفاتكم، ونحن لا نعرف كيفية كتابة وتسجيل الملائكة لإعمال البشر، ولكن بعد التطور التكنولوجي في مجال الإعلام ونقل المعلومات وضبطها بشتى الأشكال والصور، التي لم تكن قبل عصرنا لِتَخْطُرَ على البال، اتَّسَعَ مفهومُ الكتابة والتسجيل، وَسَيتَّسِعُ أكثر فأكثر، كلّما استحدثت وسائلُ الضبط والتسجيل.

ولا بدّ أن تكون كيفيةُ كتَابةِ الملائكة وضَبْطِهم لأعمال البشر، بأرقى وأدق وأتقن ما يكون، لأن الله تبارك وتعالى قد جهَّز كلَّ مخلوق وهَيَّأه لأداء وظيفته التي عيّنها له، أتمَّ تجهيز وتهيئة، كما هو الواقع ويَدلّ عليه قوله تعالى عن لسان موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿...قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾ [طه]، فما بالك بملائكة كرام وظَّفهم الله على رَصْدِ وَضْبطِ، أعمالِ البَشَر وتصرّفاتهم، والذي ستترتب على تسجيلهم وضبطهم محاسبة الله تعالى ومحاكمته للناس!!

د ـ يعلمون ما تفعلون: أي: وهم يعلمون بدقة ـ بتمكين الله العليم القدير إياهم ـ كُلَّ ما يَصْدُر من الإنسان من أقوال وأعمال بادية وخافية، بل يعلمون حتى خوالج الصدر وخواطر القلب، كما جاء في حديث رسول الله ﷺ أن الملائكة تكتب همَّ الإنسان بالحسنة وإنْ لَمْ يَعْمَلْها ـ لِعَجْزِه عَنْها ـ ولكن لا تكتبُ هَمَّهُ بالسيئة حتى يَعْمَلَها[١].

---

(١) كما جاء في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما، البخاري برقم: ٦٤٩١، ومسلم برقم: ٢٢٧.

٥ ـ وفي الختام يقول سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾، ومن الواضح أن رأس البر هو الوفاء بعهد العبودية مع الله تعالى، وبخلافه أساس الفجور، هو الغرور تجاه الله الكريم.

٥) الآيتان (٩٩ و١٠٠) من (المؤمنون):

وفي هاتين الآيَتيْن يُبيِّن الله الحكيم حالةَ الكافر المُحْتَضَر عندما يَقَعُ ذليلاً في قبضة الملائكة، وينتزعون روحَهُ الخبيثة، كيف يستغيث بالله وَيَستَنْجِد بالملائكة مُلْتَمِساً إرْجاعَه إلى الدنيا ـ أي تأخير قبض روحه وإمهاله مدة أخرى ـ مبرِّراً طلبه ذلك بأنه يعمل الصالحات التي سيتركها بعد لحظات!: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُۚ. . .﴾ [المؤمنون]. ولكن هيهات أن يُجاب إلى طلبه الباطل، وهل يُغيّرُ الله الحكيم سُنَنَهُ لِطَلبِ كافرٍ فاجرٍ لَمْ يَسْتَجِبْ يوماً لأَوامر الله العظيم؟! ﴿. . . كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [المؤمنون].

وعليه:

فلْيَرْتَدِعْ عَنْ مثل تلك المطالب والإلتماسات التي لا يُلْتَفَتُ إليها أصلاً ولا تُعْتَبَرُ سوى كلماتٍ تافهة يَتفَوَّه بها شَخْصٌ تافِهٌ!

ثم يقول تعالى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ أي: سيحول بينهم وبين الرجوع إلى الدنيا حاجِزٌ ويدخلون في عالم آخر ومرحلة أخرى، وهو عالم البرزخ إلى أن تقوم القيامة، ويبعثون ثم يحاسبون ويحاكمون.

وإنما سُمِّيت مرحلة ما بعد الموت، ومفارقة الروح للبدن (بَرْزَخاً)، لأنَّها تَفْصِلُ بين الحياة الدنيا وحياة الآخرة وتَتَوسَّطُهُما، ولِهذا سُمِّيَ القبرُ بـ(أول منزل من منازل الآخرة، وآخر منزل من منازل الدنيا).

٦) الآيات (٦ إلى ١٩) من (الإنشقاق):

وفي هذه الآيات يخاطب الله تبارك وتعالى الإنسان ويناديه ـ والمقصود

بالإنسان هنا عام فيشمل الخطاب جنس الإنسان مؤمناً أو كافراً أو فَتْرياً[1] ـ فيبيّن له:

أنه لا بد له من الكَدِّ والكَدْح في حياته الدنيا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ۝٦﴾، وهذا هو واقع حياة الإنسان عموماً، فما من إنسان إلّا وهو يتعب وَيَنْصَبُ ويكدح، سواء كان في حق وخير، أو في باطل وشرّ.

وقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي: إن الكدح يستمر ويدوم إلى أن يلقى الإنسان الأجَل الذي حدّده له ربُّه، لإنْهاء جولة حياته الدنيا والشروع في جولة أخرى من الحياة، والضمير في ﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾ يحتمل أن يكون راجعاً إلى ﴿رَبِّكَ﴾ أو إلى ﴿كَدْحًا﴾، ومن الواضح أن الإنسان سيلقى في نهاية مطاف حياته الدنيا، كُلاًّ من ربّه العظيم جلّ شأنه، وثمَرَةِ كدحه وجزائه.

ثم يبين الله تعالى له نتيجة كدحه وعاقبته، كي يحتاط لأمر نفسه وينظر فِيمَ يكدح ويُتْعِبُ نَفْسَه؟! ويُقَسِّم سبحانه الإنسان إلى قسمين، من حيث عاقبته الأُخروية:

١ ـ مَنْ يؤتى كتابَهُ بيمينه: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝٩﴾.

ومن يُعْطى كتابَ أعماله بيده اليُمنى، فهذا علامَةُ نجاحِه في اختبار الله له في الحياة الدنيا، لذا فهو يحاسَبُ حساباً يسيراً، سَهْلا، وقد فسّر رسول الله ﷺ الحساب اليسير بأنه عبارة عن عَرْض عمل الإنسان عليه فحسب، وقال: «**مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عُذِّبَ**» (رَوَاهُ أَحْمَد برقم: (٢٥٠٠٢)، وَالبُخَارِيُّ برقم: (١٠٣)، وَمُسْلِمٌ برقم: (٢٨٧٦)).

وحُقّ لإنسان حوسب حساباً سهلاً، ونجح في الإمتحان، وأعطي شهادة الفوز والنجاح، أن يفرح ويرجِعَ إلى أهله الذين ينتظرونه في الموقف بفارغ الصبر مستبشراً مسروراً.

---

(١) أي: من أهل الفترة، وهي المدة التي لم يُبْعَثْ فيها نبيٌّ قبل بعثة النبيّ الخاتم محمد ﷺ، وكذلك كل من لم يَبْلُغْهُ البلاغُ المبين إلى قيام الساعة يُعتَبر فَتْرياً كما أرىٰ.

٢ ـ من يؤتى كتابَ أعماله وراءَ ظهره: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾﴾.

وإعطاءُ كتاب الأعمال من وراء الظّهر ـ أو بالشمال كما في آيات أُخْرى ـ فهو علامة الرسوب والسقوط في الإمتحان الدنيوي، ومن سقط في اختبار ربِّه له، ولم يستطع أن يثبت طيلة حياته الدنيا أنه كان عبداً وفياً وشاكراً لربِّه الكريم، فَحَقٌّ له أن يَغْتَمَّ، بل أن يموت غَمّاً وكَمَداً ـ ولكن لا موت ثمة ـ، ولهذا يتمنّى الكافر الخاسر لنفسه الهَلاكَ والموتَ، ولكن أنَّى له ذلك، كما قال تعالى: ﴿. . . إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾﴾ [النبأ]، وقال: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾﴾ [النساء].

ثم يبيِّن الله تعالى عِلَّةَ فَشَلِه وسُقُوطِه، بقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾﴾ [الإنشقاق]، أي: انه كان في حياته الدنيا بَطِراً فرِحاً بكفره وفجوره، في أهله الذين كانوا على شاكلته وساند بعضهم بعضاً على الكفر والفجور، كما قال تعالى في أهل النفاق: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [التوبة].

ثم إنَّه كان يظن ويتصوّر أنه لَنْ يرجع إلى الله تعالى، ولَن يَلقى حساباً وجزاءً! ويَرُدُّ عليه سبحانه بقوله: ﴿بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾﴾ ومعنى هذا، أن الربَّ البصير الذي كان يراه في الدنيا وهو يرتكب الموبقات والآثام، لا يمكن أن يتركه يُفْلِتُ(١) من غير عقاب وعذاب، طبقاً لعدله وحكمته ووعيده.

ثم يُقْسِمُ سبحانه بثلاثة من مخلوقاته، على أنه لا بُدَّ من هذه الحالة الدنيوية الإبتلائية للبشر، مِنْ أن تَتْبَعْها حالةٌ أو حالات أُخْرى، تتحقق فيها

(١) أَفْلَتَ يُفْلِتُ، وفَلَتَ يَفْلِتُ فَلْتاً: نَجا وتخلَّص، المعجم الوسيط، ص٦٩٩.

حكمة الله تعالى التي خلق من أجلها البشر:

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ١٦ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ١٧ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ١٨ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ ١٩﴾ [الانشقاق]، والشَّفَق هو الحمرة التي تُرى في الأفق بعد غروب الشمس.

و﴿وَسَقَ ١٧﴾ أي: جَمَعَ[1]، فَيُقْسِمُ الله تعالى باللَّيل وما يَجْمَعُه تحت جَناح ظَلامِه.

و﴿ٱتَّسَقَ﴾ أي: اكْتَمَلَ[2]، فَيُقْسِمُ سبحانه بالقمر إذا اكتمل بَدْراً في الأيام البيض، والمُقْسَمُ عليه أو جواب القسم هو قوله تعالى: ﴿لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ ١٩﴾ أي: لتنقلن من مرحلة إلى أخرى، ومن حالة إلى غيرها، فلا يتوقف سيركم وسفر وجودكم إلى أنْ تَسْتقِرّون في دارَ القرار، ولهذا سميت الآخرة دار القرار، كما قال تعالى: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ ٣٩﴾ [غافر].

وجديرٌ بالذكر أنَّ كلمة (فلا) ليست نافية لِلْقَسَم، لا هنا ولا في أيِّ موضع آخر والتي تَسْبِقُ فيها الأقسام، مثل قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ٤٠﴾ [المعارج]. وقوله: ﴿۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ٧٥﴾ [الواقعة]. بَلْ هي نافية لكلام سابق أو تَصوُّرٍ يَدُلُّ عليه السّياق، وأرى أنه لا بُدَّ من أن يراعي الإنسان القارِئُ للقرآن، هذا عند قراءته لتلك الآيات التي فيها مثل هذه الأقسام، فلا يتلفظ (لا) وكأنَّها تَنْفي القَسَمَ.

(٢) تحذيراتُ الله وإنذاراتُه للبشر عموماً، بصَدَد عَدَمِ نِسْيانهم الآخرة، ومصيرهم المحتوم الذي لا مفر لهم منه:

قال الله العزيز الرحيم جلّ وعلا:

١ ـ ﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ١١٥ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ

(١) المصباح المنير، ص٣٤٠.

(٢) المعجم الوسيط، ص١٠٣٢.

ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ [المؤمنون].

٢ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾﴾ [لقمان].

٣ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾﴾ [الحج].

وهذه إيضاحاتٌ موُجَزَةٌ لهذه الآيات المباركات، وكيفية دِلالَتِها على العنوان الذي أُدْرِجَتْ تحته:

١) الآيتان (١١٥، ١١٦) من (المؤمنون):

يخاطب الله تبارك وتعالى الكفّارَ بأسلوبِ إستفهاميٍّ إنكاريٍّ قائلاً: أَوَ تتصوّرون أننا خلقناكم بالباطل لا لحكمة: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾؟!

وكما قلنا مراراً في السابق، فإن السؤال بأسلوب الإستفهام الإنكاري يَحْمِلُ جوابَه في طيّاتِهِ، إذْ معنى الآية يكون هكذا: إنِّي أُنكرُ أن أكون قد خلقتكم بالباطل والعبث، ومن غير حكمة وهدف، وألَّا ترجِعوا اليَّ للحساب والجزاء، والعَبَثْ وهو كل فعلٍ ليست وراءه حكمة وغاية، لذا يسمّى لعب الأطفال عبثاً، والذي يُحرِّكُ مِسْبَحَتَهُ من غير قصد وبدون ذكر يقال عنه: (إنَّ فلاناً يَعْبَثُ بِمِسْبَحَتِهِ)، وفي الحديث: «**اذا سجد أحدكم فلا يَعبَثْ بالحَصى**»[1]. وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾؟! بعد قوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا﴾ دليل على أن حكمة الله البالغة التي خلق بها

(١) هذا الحديث جاء بهذا اللفظ: «**إذا قام أحدكم في الصلاة فلا يمسح الحصى فإن الرحمة تواجهه**» رواه أحمد والترمذي وأبو داود والنسائي وابن ماجه وصححه ابن خزيمة وحسن ابن حبان، صحيح ابن حبان ج٦، ص(٤٩ ـ ٥٠) رقم: ٢٢٧٣.

الخلق والتي يُسمِّيها الله (حقاً) في أكثر من آية، مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الدخان]، وقوله: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الجاثية].

أجَلْ إن تلك الحكمة الربّانية المُعَبَّر عنها بـ(الحق)، والتي ينفي الله تعالى أن يكون قد خلق الخَلْقَ إلَّا على أساسها، ولتحقيقها، إنما تَتَحقق في اليوم الآخر، وذلك بعد أن تُجْزى كل نفس بما كسبت، خيراً كان أو شراً، إذْ في ذلك اليوم، وفي الوقت الذي يَنال الأَبرارُ ثوابَهُمْ المتمثل في رضوان الله والنعيم المقيم، والفجّار عِقابَهم المتمثلٍ في سَخَطِ الله ونارِ الجحيم، كذلك تظهر فيه حكمة الله البالغة، ويَتَجلَّى فَضْلُهُ العظيم لأوليائه وعَدْلُهُ الحكيم لأعدائه، فيعامِلُ أهْلَ الإيمان حسب اسمه الرحيم، ويُنِيلُهُمْ من فَضْله وكَرَمِه ولُطْفِه، ويعامِلُ أهْلَ الكفر حسب اسمه العزيز، ويُريهم مِنْ عَدْلِه وعِقابِه وسُخْطه، ولهذا كَرَّر سُبْحانه اسميهِ المباركين الأحسنين: (العزيز، الرحيم) في التعقيب على قصص رسله الكرام:

(موسى وأخيه هارون، ابراهيم، نوح، هود، صالح، لوط، شعيب عليهم الصلاة والسلام) مع أقوامهم سبع مرات في الآيات: (٦٨، ١٠٤، ١٢٢، ١٤٠، ١٥٩، ١٧٥، ١٩١) من (الشعراء) بصيغة: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾﴾، والله تبارك وتعالى هو وحده العزيز عزةً مطلقة، والرحيم رحمةً شاملة في الدنيا والآخرة، ولكن أكثر ما تتجلَّي عِزَّتُهُ في حق أعدائه ورحمته في حق أوليائه، إنَّما هو في الآخرة.

ثم يقول تعالى دَحضاً لتلك الظنون والأوهام التي يَخْدَعُ بها ابليس أولياءَه، من الجنّ والإنس المغترين المخدوعين: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ [المؤمنون].

وتتضمَّن هذه الجملة المباركة خمسة أدلّة على تزييف ظنون الكافرين المنكرين للبعث والنشور، وكيفية فهمها هي:

أ ـ ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ﴾ أي: أن الله تعالى عليٌّ علوّاً مطلقاً، وبعيدٌ بُعْداً

شاسعاً عن أن يخلق الخلق عَبَثاً وباطِلاً، فالله جلّ شأنه الذي له كل الأسماء الحسنى والصفات العُلى والشؤون المُثْلى، وهو مُنَزَّهٌ عن كل عَيبٍ وشَين، لا يمكن أن يخلق شيئاً لغير حكمة وغاية.

ب ـ ﴿ٱلْمَلِكُ﴾: وكذلك كون الله تبارك وتعالى (مَلِكا) على الخلق و(مالِكا) له كلّه، يجعله بِمَنْأىً عن العَبَث واللّعب واللهو.

ج ـ ﴿ٱلْحَقُّ﴾: وكذلك كون الله تعالى (حقاً) في كل ما يرتبط به من اسم وصفة وشأنٍ وفعل وحكمٍ وخَلقٍ وأمر... إلخ، يجعله بعيداً عمَّا لا يليق به.

د ـ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾: ووحدانية الله في ألوهيَّته كذلك تَسْتَلْزِمُ تنزيهه عن العبث والباطل، إذْ ألوهيته الحقة جلّ شأنه ووحدانيته فيها، مُبْتَنية عَلى خالقيته وربوبيته ومالكيته لكل شيء، وكونه متُسَمِّياً بكلِّ الأسماء الحُسْنى، ومُتَّصِفاً بجميع الصفات العلى.

هـ ـ ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾: وكون الله العظيم مالكاً وسيِّداً لِعَرْشه الكريم، كذلك مانعٌ من أن يُتصوّر عنه، ويُظنَّ به صدورُ العَبَث والباطل عنه، إذْ ربوبية الله للعرش الكريم، الذي يُدبِّر مِنْ فَوقِهِ أمورَ خَلْقه، مُتَجّليةٌ كالشمس في الظهيرة في مجموع خَلْقِه وفي كلّ شيء فيه، والذي لا يُرى فيه نقصٌ ولا خللٌ بمقدار ذرة أو أقلّ، والربّ الحكيم الذي لم يتطرَّقْ النقص والخلل إلى أدنى شيء من مخلوقاته، من حيث خَلْقُهُ وتكوينُهُ ونِظامُهُ، فهو بطريق أَوْلى وأَحْرى ألَّا يتطرَّقَ الخَلَلُ والعَبَثُ إلى الأساس الذي بَنى عليه الخَلْق، وذلك لأنَّ منَ لمْ يَلِقْ به القليلُ من العبث والباطل، فكيف يليق به الكثير؟!

٢) الآية (٣٣) من (لقمان):

وفي هذه الآية الكريمة، يخاطب الله الرحيم جلَّ في عُلاه، البشريَة كلَّها ويوجِّه اليها الأوامر والتحذيرات الآتية:

١ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ﴾ والتقوى هو جعل النفس في وقاية،

والتقوى من الله تعالى هو أن يعيش الإنسان ويتصرَّف بحيث يُجَنِّبُ نَفْسَهُ سَخَط الله وعذابَه، وإنما يسخط الله على مَنْ يعصيه، ومعصيته نوعان: ترك أوامرِهِ، وفعل نواهيه، ولهذا يمكننا تعريف التقوى بالقول، كما قال بعض العلماء:

(التقوى هو ألَّا يفتقدك الله حيث أمرك، وألَّا يَجِدَك حَيْثُ نَهاك) ومعنى هذا هو: ألَّا تُضيِّع أمراً من أوامر الله وجوباً أو نَدْباً، وألَّا ترتكبَ شيئاً من نواهيه تحريماً أو كراهة.

ثم بعد الأمر بالتقوى الذي هو أساس كل خير، يأمرهم بالحذر والخوف من يوم القيامة.

٢ ـ ﴿وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾، ويصف الله تعالى يوم القيامة ههنا ـ لاقتضاء المقام ذلك ـ بأنه يوم لا يقدر فيه أحدٌ على إفادة أحدٍ شيئاً، ولو كان والداً تجاه ولده، بالرغم من وفور شفقته عليه، أو ولداً تجاه والِدِهِ، مع شدّة إكرامِهِ له، وحِرْصِهِ على توقيره وإرضائه.

واذا لم يستطع الوالد فِعْلَ شيء لِوَلَدِه وفِلْذَةِ كَبِدِهِ، وكذلك لم يَقْدِرِ الولَدُ على شيء لأبيه، وسبب وجوده، وأكرم الناس لديهِ، فغيرهما لغيرهما أولى ألَّا يتأتَّى منه له شيء! ثم يؤكد لهم سبحانه حتمية مجيء يوم القيامة.

٣ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾﴾ والمقصود بوعد الله حسب دلالة السياق هو وعده بمجيء يوم الجزاء فيؤكد سبحانه حتمية مجيء ذلك وأنه آتٍ لا محالة، تحقيقاً لوعد الله وتثبيتاً لحكمته وغايته من خلقه.

وبما أن كلاً من زينة الحياة الدنيا وخِداع إبليس، هما أكثرُ شيْئَيْنِ تأثيراً في إهمال الناس الإستعداد ليوم القيامة، وذلك بعبادة ربِّهم، وتحقيق الغاية التي خلقهم من أجْلها، وأداءِ الوظيفة التي كلَّفهم بها، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات]، لِذا يُحَذِّرهم الله

الكريم الحكيم عن أنْ تخدعهم الدنيا بزينتها، أو يَغُرَّهُمْ إبليسُ بدسائسها ووساوسها.

ويُسَمِّي ابليس اللَّعين بـ(الغرور) وهو صيغة المبالغة مِن (الغارّ) الذي هو الخادِع، تنبيهاً لنا على أن إبليس انما مهنته هي الخِداع، وأنه غَرّ كثيرين لذا يجب الحذر الشديدُ تِجاهَهُ.

٣) الآيتان (١، ٢) من (الحج):

وفي هاتين الآيتيْن كذلك يخاطب ربّ العالمين الناس جميعاً، آمراً اياهم بِاتّقاءِ ربِّهم ومنبِّهاً إياهم، أن زلزلة الساعة شيء عظيم ومهولٌ جداً:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ۝١﴾، والمقصود بزلزلة الساعة، قد يكون زلزال الأرض الرهيب الذي وصفه الله تعالى في سورة (الزلزلة): ﴿إِذَا زُلۡزِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ زِلۡزَالَهَا ۝١ وَأَخۡرَجَتِ ٱلۡأَرۡضُ أَثۡقَالَهَا ۝٢﴾، وقد يكون المقصود بها أوسعَ مفهوماً وأشمل دائرةً، بحيث يشمل كلَّ الإنقلاب العظيم الذي يُحْدِثهُ الله تعالى من خلال النفخة الأولى في السمٰوات والأرض كلّها، وأرى أن الثاني هو الرّاجح.

ثم يصوِّر لهم سبحانه ثلاثة مشاهد من مشاهد ذلك اليوم الرَّهيب: ﴿يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ۝٢﴾.

والمشاهد الثلاثة هي:

أوّلاً: ذهول الأُمهات عن أطفالهنَّ الرُّضَّع:

وذهول الأُمهات اللَّاتي هنَّ مثال الشفقة والرحمة على أطفالِهنَّ الصغار الذين يرتضعون من أثدائهن، حَدَثٌ غريبٌ عجيب، ولكن ذلك اليوم الرهيب يَحْدُث فيه كلُّ حادِثٍ غريبٍ وعجيبٍ.

وكلمة الذُّهول تعني الإنشغال عن شيء بسبب شيء آخر[١].

(١) المصباح المنير، ص١١١.

وقال تعالى: ﴿كُلُّ مُرْضِعَةٍ﴾ كي تكون كلُّ الأُمهات مشمولات ولا تَشُذُّ منهنَّ أحدٌ، وكلمة (المرضعة) غير (المُرضِعْ) لأنَّ المُرضِعَ هي المرأة التي تُرْضِعُ ولَدَ غيرها بأجرة أو هِبَةٍ، ولكن المرضعة هي الأُم التي تُرْضِعُ رضيعها الذي حَملَتْهُ في بطنها[١]! ولا شك أن ذهول الأُم أبلغ من ذهول المرأة التي تُرْضِعُ ولَدَ غيرها، وقديماً قيل: (ليست النائحة كالثكلى)[٢] وكلمة ﴿عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾ تحتها سِرٌّ آخر، وهو إيضاح حقيقة أن الأُمهات الذاهلات عن أطفالهن الرُّضَّع في ذلك اليوم، إنّما يَنْذَهِلْنَ عَن أفلاذ أكبادهن في حالة الإرضاع!

ثانياً: وضع كل ذوات الأَحمال حَملَهُنَّ:

وكلمة ﴿كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ﴾ شاملة للنساء الحُبالى من الإنس والجنّ ولإناثِ الحيوانات كذلك، ومن الجليِّ أن الأنثى الحامل من الناس، والجنّ والحيوان لا تضع حَملَها في غير موعده المحدَّد، إلا لِصَدمةٍ حِسِّية أو معنوية لا تتحمَّلُها، وأي صَدمة أعظم وأدهى من صدمة حدوث ذلك الحدث الرهيب العظيم!!

ثالثاً: صيرورة الناس من فَرْط الحيرة والدهشة وفقدان التوازن، كالسُّكارى:

وقد عَلَّلَ سبحانه ذلك التغيُّرَ في الناس من اختلال توازنهم العقلي والنفسي والجسميّ في ذلك اليوم، بِكَوْنِ عذابِ الله العزيز شديداً: ﴿...وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾﴾.

(١) ولكن كلاً من: (المصباح المنير) ص١٢٠، و(المعجم الوسيط) ص٣٥٠، و(المنجد) ص٢٥٢، سوَّى بين اللَّفظين في المعنى.

(٢) أي ليست المرأة المستأجرة الَّتي تنوح وتبكي على الميت مقابل أجرةٍ، كالمرأة التي فُجِعَتْ بالميت، سواء كان الميت ولداً أو زوجاً أو أباً أو أماً... إلخ.

ويُفْهَمُ من هذه الجملة أن تلك الدّواهي التي تَحْدُث في ذلك اليوم تكون عذاباً وعقاباً لمن تقوم عليهم الساعة، من شِرار الناس الذين لا تقوم الساعة إلَّا عليهم، كما جاء في حديث رسول الله ﷺ(١).

ومن نافلة القول أن تلك الحوادث الجِسام، انما تَحْدُث في نهاية هذه الحياة الدنيا وعلى هذه الأرض التي نعيش عليها الآن، وليس يوم القيامة الذي يتغيَّر فيه الوجود بأسره، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾ [إبراهيم].

ويوم القيامة لا يكون ثَمَّةَ إرضاعٌ وحَملٌ وإجهاضٌ... إلخ.

وبناءً عليه:

فَآيتا بداية (الحج) إنَّما تتحدَّثان عن بداية ذلك الإنقلاب الهائل الشامل الذي يُحْدِثُهُ الله تعالى في الخلق، ويُنهي به المرحَلَة الأخيرة من حياة البشرية على الأرض لطيِّ طومار (سِجِلّ) هذه الحياة الأرضية الإبتلائية نهائياً، ولبدء مرحلة أخرى، وهي مرحلة الآخرة، والتي يُرَتِّبُها الله الحكيم على نتيجة هذه الحياة، كترتيب النتيجة المنطقية على مقدِّماتها.

وبهذا نختم هذا المطلب الثاني من المبحث السابع من الفصل الرابع، وبه نَخْتِمُ الباب الأول كله، والذي خَصَّصناه لتناول موضوع المعرفة الصَّحيحة الوحيدة التي جاد بها كتابُ الله الحكيم عن الله تبارك وتعالى خالق الخلق وربِّه ومالكه، وعن الخلق عموماً، وعن الإنسان خليفة الله وحامل أمانته خصوصاً، وعن حياته الدنيوية والأُخروية.

والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنّا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

(١) كما جاء في صحيح مسلم: «...**فَيَبْقى شرارُ الناس في خِفَّةِ الطَّير وأحلام السِّباع فتقوم عليهم الساعة...**» برقم: ٢٩٤٠.

وصلَّى الله تعالى على النَّبيّ الخاتم، ونور الله الأتم، ورسوله الأعظم، محمد وآله وسلَّم.

٣٠ شوال ١٤٢٥

٢٠٠٤/١٢/١٢

سجن كروپر / مطار بغداد



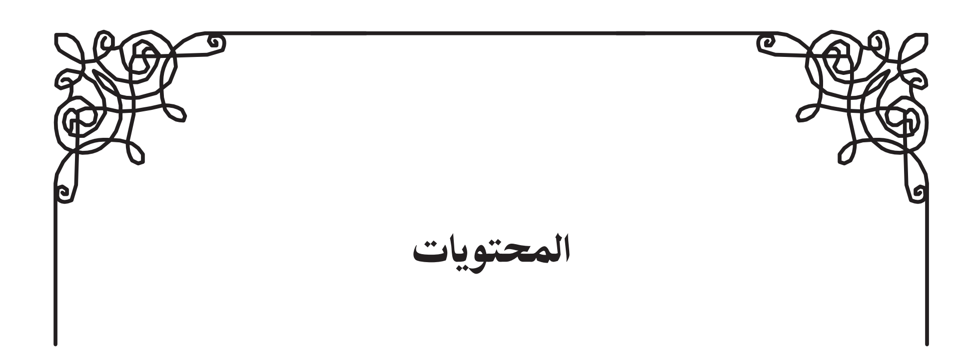
ameer.maktab@yahoo.com







www.alibapir.net



المحتويات

الموضوع	الصفحة
الفقرة الثانية: بدهية الإعتقاد بخالقية الله وربوبيته في عقول الناس ..	٩١
النقطة الأولى: طبقاً لقانون السببية البديهي	٩١
النقطة الثانية: طبقاً لقانون النظام البديهي	٩٢
الفقرة الثالثة: أدلة خالقية الله تعالى وربوبيته لا حصر لها	١٠٤
المطلب الخامس: برهان آخر من براهين خالقية الله تعالى وربوبيته	١١١
المبحث الثاني: الله تبارك وتعالى مُنَزّه عن كل نقص، وله الكمال المطلق، وكل المخلوقات قاطبة تسبح بحمده	١٢٠
المبحث الثالث: الله سبحانه وتعالى له كل الأسماء الحسنى وجميع الصفات العلى .	١٢٨
المبحث الرابع: الله تبارك اسمه وتعالى جده ولا إلٰه غيره، لا يشبه شيئاً من خلقه .	١٣٢
المبحث الخامس: ليس لشيء ولا لأحد أي نسبة مع الله تعالى الّا نِسبة المخلوقية والإنتساب اليه بالعبودية	١٤٠
المطلب الأول: الإغترار بمجرد الإنتساب للإسلام	١٤٧
المطلب الثاني: الإغترار بالإنتساب إلى الشعب العربي	١٥٧
المطلب الثالث: الإغترار بالإنتساب إلى شجرة بيت النبوة	١٦٧
المطلب الرابع: الإغترار بالإنتساب إلى اهل العلم، أو أهل التصوف، أو الجماعات العاملة للإسلام	١٧٠
المبحث السادس: الله جل وعلا مهيمن على خلقه كله، فهو على كل شيء قدير وفعال لما يريد، وهو بكل شيء عليم وخبير	١٧٩
المبحث السابع: الله سبحانه وتعالى حي قيوم يدبر أمر مخلوقاته، ولا يغفل عن شيء منها ولو لحظة، ولا يعرف التعب والإعياء اليه سبيلاً	١٨٢
المبحث الثامن: كل المخلوقات خاضعة لإرادة الله تعالى ولسننه، ولا يحيد مخلوق عما رسم له قيد أُنملة	١٨٦
المبحث التاسع: جعل الله لخلقه سنناً صارمة محددة، ولكن مشيئته مطلقة لا يقيدها شيء إلّا حكمته وعدله المطلق	١٩٢
المبحث العاشر: الله تعالى فوق خلقه، مستو على عرشه على الوجه الذي يليق به	١٩٨
المبحث الحادي عشر: الله تبارك وتعالى هو الأول والآخر والظّاهر والباطن	٢٠٥

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة